

DATE LABEL

Call No.....

Date.....

Account No.....

J. & K. UNIVERSITY LIBRARY

This book should be returned on or before the last stamped above.
An overdue charges of 6 nP. will be levied for each day. The book is
kept beyond that day.

cat

192

192
192



8A82

حجّ الله بالغبلة

ST 01
Ro

للامام العلامة المحقق المدقق ولي عصره
وقطب دهره الفاضل الانجسد مولانا
الشيخ أحمد المعروف بشاه ولي الله بن
عبدالرحيم المحدث الدهلوي المخلص
في مقصده الاخرى



الجزء الاول

قام بطبعه ونشره للمرة الاولى سنة ١٣٥٢ هـ

جامعة من عبي العلم والاصلاح



راجع اصوله ومصححها وقيد حواشها بعض فضلاء علماء الهند



ادارة الطباعة المنيرية

لصاحبها ومديرها محمد منير الدمشقي

اداره الطباعة المنيرية بشارع الازهر بدرب الاتراك رقم ١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي فطر الانام على ملة الاسلام والاهتداء. وجلبهم على الملة الحنيفية السمحة السهلة البيضاء
ثم أنهم غشيهم الجهل ووقعوا أسفل السافلين وأدركهم الشقاء. فرحمهم ولطف بهم وبعث اليهم الانبياء. ليخرج
بهم من الظلمات الى النور ومن المضيق الى الفضاء. وجعل طاعته منوطة بطاعتهم في الفخر والعلاء. ثم وفق
من أتباعهم لتحمل علومهم وفهم أسرار شرائعهم من شاء. فأصبحوا بنعمة الله حائزين لأسرارهم فائزين
بأنوارهم وناهيك به من علياء. وفضل الرجل منهم على ألف عابد وسموا في الملكوت عظماء. وصاروا بحيث
يدعو لهم خلق الله حتى الحيتان في جوف الماء. فصل اللهم وسلم عليهم وعلى ورثتهم مادامت الأرض والسماء.
وخص من بينهم سيدنا محمد المؤيد بالآيات الواضحة الغراء. بأفضل الصلوات وأكرم التحيات وأصفى
الاصطفاء. وأمطر على آله وأصحابه شآبيب (١) رضوانك وجازهم أحسن الجزاء.*

((أما بعد)) فيقول العبد الفقير الى رحمة الله الكريم أحمد المدعو بولي الله بن عبد الرحيم عاملهما الله
تعالى بفضله العظيم وجعل مآلها النعيم المقيم: ان عمدة العلوم اليقينية ورأسها ومبنى الفنون الدينية وأساسها
هو علم الحديث الذي يذكر فيه ماصدر من أفضل المرسلين صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين من قول
أو فعل أو تقرير فهي مصابيح الدجى ومعالم الهدى وبمنزلة البدر المنير. من انقادها ووعى (٢) فقد رشد
واهتدى وأوتى الخير الكثير. ومن أعرض وتولى فقد غوى (٣) وهوى (٤) وما زاد نفسه الا التخسير. فانه
صلى الله عليه وسلم نهى وأمر وأنذر وبشر وضرب الأمثال وذكر وأنها لمثل القرآن أو أكثر وان هذا العلم له
طبقات ولأصحابه فيما بينهم درجات وله قشور داخلها لب وأصداف وسطها در* وقد صنف العلماء رحمهم الله
في أكثر الأبواب ما تقتضيه (٥) به الا وابد (٦) وتذلل به الصعاب وان أقرب القشور الى الظاهر فن معرفة
الاحاديث صحة وضعفا واستفاضة وغرابة وتصدى له جهابذة (٧) المحدثين والحفاظ من المتقدمين ثم يتلوه
فن معاني غريبها وضبط مشكلها وتصدى له أئمة الفنون الأدبية والمتقنون من علماء العربية ثم يتلوه فن معانيه
الشرعية واستنباط الأحكام الفرعية والقياس على الحكم المنصوص في العبارة والاستدلال بالإيماء والاشارة

(١) جمع شؤبوب وهو الدفعة من المطر اه (٢) اى حفظ (٣) أى ضل (٤) اى سقط (٥) اى تصطاد (٦) اى التى لا يعرف معناها

(٧) جمع جهابذة بالكسر وهو النقاد الخبير اه

ومعرفة المنسوخ والمحكم والمرجوح والمبرم وهذا بمنزلة اللب والدر عند عامة العلماء ، وتصدى له المحققون من الفقهاء (هذا) وان ادق الفنون الحديثية بأسرها عندي وأعمقها محتدى (١) وارفعها منارا واولى العلوم الشرعية عن آخرها فيما أرى وأعلاها منزلة وأعظمها مقدارا هو علم اسرار الدين الباحث عن حكم الاحكام وملياتها وأسرار خواص الاعمال ونكاتها فهو والله أحق العلوم بأن يصرف فيه من اطاقه نفائس الاوقات ويتخذة عدة لمعاده بعد ما فرض عليه من الطاعات اذ به يصير الانسان على بصيرة فيما جاء به الشرع وتكون نسبته بتلك الاخبار كنسبة صاحب العروض بدواوين الاشعار أو صاحب المنطق ببراكين الحكماء أو صاحب النحو بكلام العرب العرباء أو صاحب أصول الفقه بتفاريع الفقهاء، وبه يأمن من أن يكون كحاطب ليل أو كغائص سيل أو يخبط خبط عشواء (٢) أو يركب متن عمياء كمثل رجل سمع الطبيب يأمر بأكل التفاح فقام الحنظلة عليه لمشاكلة الاشباح (٣) وبه يصير مؤمنا على بينة من ربه بمنزلة رجل اخبره صادق ان السم قاتل فصدقه فيما أخبره وبين ثم عرف بالقرائن ان حرارته ويوسته مفرطتان وانهما تباينان مزاج الانسان فازداد يقينا الى ما ايقن وهو (٤) وان اثبت أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم فروعها واصولها وبين آثار الصحابة والتابعين اجماله وتفصيله وانتهى امعان المجتهدين الى تبين المصالح المرعية في كل باب من الابواب الشرعية وابرز المحققون من أتباعهم نكتا جلية واطهر المدققون من أشياعهم جملا جزيلة وخرج بحمد الله من أن يكون التكلم فيه خرقا لاجماع الامة أو اقتحاما في عمه (٥) وغمة (٦) لكن قل من صنف فيه أو خاض في تأسيس مبانيه أو رتب منه الاصول والفروع أو أتى بما يسمن أو يغنى من جوع وحق له ذلك، ومن المثل الثائر في الوري ومن الرديف وقد ركب غصنفراء كيف ولا تتبين اسرارها الا لمن تمكن في العلوم الشرعية بأسرها واستبد (٧) في الفنون الالهية عن آخرها ولا يصفو مشربه الا لمن شرح الله صدره لعلم لدنى وملا قلبه بسر وهبي وكان مع ذلك وقاد الطبيعة سـيال القريحة حاذقافي التقرير والتحرير بارعا في التوجيه والتجسير (٨) قد عرف كيف يؤصل الاصول ويبني عليها الفروع وكيف يمهّد القواعد ويأتي لها بشواهد المعقول والمسموع، وان من أعظم نعم الله على ان آتاني منه حظا وجعل لي منه نصيبا وما انفك أعترف بتقصيري وأبوء (٩) وما ابرىء نفسي ان النفس لامارة بالسوء، وبيننا أنا جالس ذات يوم بعد صلاة العصر متوجها الى الله اذ ظهرت روح النبي صلى الله عليه وسلم وغشيتني من فوق بشيء خيل الى انه ثوب ألقى على ونفث (١٠) في روعي (١١) في تلك الحالة انه اشارة الى نوع بيان للدين ووجدت عند ذلك في صدري نورا لم يزل يفسح كل حين، ثم ألهمني ربي بعد زمان ان مما كتبه على بالقلم العلي أن أنتهض يوما لهذا الامر الجلي وانه أشرقت الأرض بنور ربها وانعكست الاضواء عند مغربها وان الشريعة المصطفوية أشرقت في هذا الزمان على ان تبرز في قصص سابعة من البرهان، ثم رأيت الامامين الحسن والحسين في منام رضى الله عنهما وأنا يومئذ بمكة كأنهما أعطيانى قلما وقالاهذا قلما جدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ولطالما أحدث نفسي أن ادون فيه رسالة تكون تبصرة للمبتدى وتذكرة للمنتهى يستوى فيه الحاضر

(١) اي اصلا (٢) الناقة التي لا تبصر امامها والمعنى ركبها على غير بصيرة اهـ (٣) أى الاشخاص (٤) أى علم الحديث (٥) اي تحير

(٦) أى ايهام (٧) أى تنبؤ (٨) أى التزيين (٩) أى أقر (١٠) أى نفخ (١١) الروح بالضم القلب

والباد ويتعاوره المجلس والناد ، ثم يعوقني اني لأجد عندى ولدى ولا ارى من خلفى وبين يدي من
 اراجعه في المشتبهات من العلماء المنصفين الثقات ويثبطني (١) قصور باعى في العلوم المنقولة مما كان عليه
 القرون المقبولة ، ويفشلني (٢) اني في زمان الجهل والعصية واتباع الهوى واعجاب كل امرئ بآرائه الردية
 وان المعاصرة أصل المنافرة وان من صنف قد استهدف فينا أنا في ذلك أقدم رجلا وأوخر أخرى واجرى
 شوطا (٣) ثم ارجع قهقري اذ تظن أجل أخواني لدى وأكرم خلاني على محمد المعروف بالعاشق لا زال
 محفوظا من كل طارق وغاسق بمنزلة هذا العلم وفضائله وألهم أن السعادة لا تتم الا بتبع دقائقه وجلالته وعرف
 انه لا يتيسر له الوصول اليه الا بعد مجاهدة الشكوك والشبهات ومكابدة (٤) الاختلاف والمناقضات . ولا
 يستتب (٥) له الخوض الا بسعي رجل يكون أول من قرع الباب وكلمه عالما بالابواب الصعاب . فطاف ما قدر
 عليه من البلاد وبحث من توسم فيه الخير من العباد وتفحص سينهم وشينهم وسبر (٦) غتهم وسمينهم فلم يجد
 من يتكلم منه بنافعة أو يأتي منه بجذوة ساطعة فلما رأى ذلك الح علي * ورزاني * (٧) ولبنى (٨) وأمسكني وصار
 كلما اعتذرت ذكري حديث الاجام (٩) فاحمى (١٠) اشدا لافحام حتى أعيت (١١) في المذاهب وسالت
 بمعاذيري المشاعب (١٢) وأيقنت انها احدى الكبر وأنها لما كنت ألهمت صورة من الصور وانه قد
 سبق على الكتاب وانه أمر قد توجه من كل باب فتوجهت الى الله واستخرته ورغبت اليه واستعنته
 وخرجت من الحول والقوة بالكيفية وصرت كالبيت في يد الغسال في حر كاته القصرية ، وشرعت فيما
 ندبني (١٣) اليه وعطفني عليه وتضرعت الى الله ان يصرف قاي من الملاهى وان يريني حقائق الأشياء
 كما هي ويسدد جناني ويفصح لساني ويعصمني فيما أقترحه من المقال ويوفقني لصديق اللهجة في
 كل حال ويعينني في ابراز ما يختلج في صدري ويعالجه فكري انه قريب مجيب ، وقدمت اليه انى سكيت (١٤)
 نادى البيان ضالع (١٥) حلبة الرهان (١٦) وانى متعرق (١٧) مرماة وانه لا يتأتى منى الامعان
 في تصفح الاوراق لشغل قلبي بما ليس له فواق ولا يتيسر لي التناهي في حفظ المسموعات لا تشدق (١٨)
 بها عند كل جاء وآت وانما انا المتفرد بنفسه المتجمع لرسمه الذى هو ابن وقته وتليذ بخته واسير وارده
 ومغتتم بارده فمن سره ان يقنع بهذا فليقنع ومن احب غير ذلك فامر به بيده ماشاء فليصنع ، ولما كان وقعت
 الاشارة الى سر التكليف والمجازاة واسرار الشرائع المنزلة الى الرحمة المهداة بقوله تعالى (والله الحجة البالغة)
 وهذه الرسالة شعبة منها نابغة وبدور من أفقها بازغة حسن أن تسمى ﴿ حجة الله البالغة ﴾ حسبى الله
 ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ﴿ مقدمة ﴾ قد يظن ان الاحكام الشرعية غير متضمنة
 لشيء من المصالح وانه ليس بين الاعمال وبين ما جعل الله جزاء لها مناسبة وان مثل التكليف بالشرائع

(١) أى يعوقني (٢) أى يجعلني جباناً (٣) الجرى مرة الى غاية (٤) أى مقاساة (٥) أى يتم (٦) أى امتحن مهزولهم اه
 (٧) أى بالغنى (٨) أى لزمى (٩) وهو من سئل عن علم فكتمه الجمه الله يوم القيامة بلجام من نار اه رواه ابو داود والترمذى من حديث
 ابى هريرة اه (١٠) منعنى الحجة اه (١١) أى كات اه (١٢) أى مسایل الماء اه (١٣) أى دعانى اه (١٤) أى مبالغ فى السكوت اه (١٥) أى
 معوج خلقه (١٦) أى دفعة من الخيل والرهان المسابقة اه (١٧) التعرق اكل لحم العظم بالاسنان والمرماة الظل اه (١٨) أى ألوى شدقى للتفصح
 * ورزاني * كذا بالاصل وفسر فيه بالغنى ولعله تصحيف عن رزنى بمعنى طعننى بيده فى صدري والله اعلم اه مصححه

كمثل سيد أراد أن يختبر طاعة عبده فامر به برفع حجر أو لمس شجرة مما لا فائدة فيه غير الاختبار فلما اطاع أو عصى جوزى بعمله وهذا ظن فاسد تكذبه السنة واجماع القرون المشهود لها بالخير، ومن (١) عجز أن يعرف أن الاعمال معتبرة بالنيات والهيآت النفسانية التي صدرت منها كما قال النبي ﷺ إنما الاعمال بالنيات وقال الله تعالى إن ينال الله لحوماًها ولا دماًؤها ولكن يناله التقوى منكم وإن الصلاة شرعت لذكر الله ومناجاته كما قال الله تعالى أقم الصلاة لذكري ولتكون معدة لرؤية الله تعالى ومشاهدته في الآخرة كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون» (٢) في رؤيته فإن استطعتم أن لا تغلبوا (٣) على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها فافعلوا» وإن الزكاة شرعت دفعاً للذيلة البخل وكفاية لحاجة الفقراء كما (٤) قال الله تعالى في مانعي الزكاة (ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة) وكما قال (٥) النبي ﷺ فاخبرهم أن الله تعالى قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم وإن الصوم شرع لقهر النفس كما قال الله تعالى (اعلمكم تتقون) وكما قال النبي ﷺ فإن الصوم له وجاء (٦)، وإن الحج شرع لتعظيم شعائر الله كما قال الله تعالى (إن أول بيت وضع للناس للذي) الآية وقال (إن الصفا والمروة من شعائر الله) وإن القصاص شرع زاجراً عن القتل كما قال الله تعالى (ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب) وإن الحدود والكفارات شرعت زواجر عن المعاصي كما قال الله تعالى ليدوق وبال أمره وإن الجهاد شرع لأعلاء كلمة الله وإزالة الفتنة كما قال الله تعالى وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله، وإن أحكام المعاملات والمناكحات شرعت لأقامة العدل فيهم إلى غير ذلك مما دلت الآيات والأحاديث عليه ولهج (٧) به غير واحد من العلماء في كل قرن فانه لم يمسه من العلم إلا كما يمس الأبرة من الماء حين تغمس في البحر وتخرج وهو بان يبكي على نفسه أحق من أن يعتد بقوله ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم بين أسرار تعيين الاوقات في بعض المواضع كما قال في أربع قبل الظهر إنها ساعة تفتح فيها أبواب السماء فاحبان يصعد لي فيها عمل صالح، وروى عنه صلى الله عليه وسلم في صوم يوم عاشوراء إن سبب مشروعيته نجات موسى وقومه من فرعون في هذا اليوم وأن سبب مشروعيته فينا اتباع سنة موسى عليه السلام وبين أسباب بعض الأحكام فقال في المستيقظ فانه لا يدرى أين باتت يده وفي الاستئذان من أكل البصر وفي الهرة أنها ليست بنجس إنما هي من الأقامة ذكر الله وقال إنما جعل الاستئذان من أجل البصر وفي الهرة أنها ليست بنجس إنما هي من الطوافين عليكم أو الطوافات، وبين في مواضع أن الحكمة فيها دفع مفسدة كالنهي عن الغيلة (٨) إنما هو مخافة ضرر الولد أو مخالفة فرقة من الكفار كقوله ﷺ فانها تطلع بين قرني الشيطان (٩) وحينئذ يسجد لها الكفار أو سد باب التحريف كقول عمر رضي الله عنه لمن أراد أن يصل النافلة بالفريضة بهذا هلك

(١) مبتدأ خبره فانه لم يمسه من العلم إلا بعداه (٢) يروى من المفاعلة والتفاعل من الضم وبخفيف الميم من الضم وحاصل معنى جميع الروايات أي لا تشكون اهـ (٣) أي لا تصيروا مغلوبين بالاشتغال عن صلاة الصبح والعصر اهـ (٤) مثال لدفع عيب البخل (٥) أي لما ذنب جبل ومقوله وهو فاخبرهم الخ مثال لكفاية حاجة الفقراء اهـ (٦) الوجاء بالكسر والمدى ان ترضائها الفحل رضا شديداً يذهب شهوة الجماع اهـ (٧) أي نطق (٨) الغيلة بالكسر الجماع زمن الرضاع اهـ (٩) أي ناحيتي رأسه

من قبلكم فقال النبي ﷺ أصاب الله بك (١) يا ابن الخطاب، أو وجود حرج كقوله ﷺ أو لكلكم ثوبان. وكقوله تعالى علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم. وبين في بعض المواضع أسرار التهيب والترغيب وراجع الصحابة في المواضع المشتبهة فكشف شبهتهم ورد الأمر إلى أصله قال صلاة الرجل في جماعة تزيد على صلاته في بيته وصلاته في سوقه خمساً وعشرين درجة وذلك أن أحدكم إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم أتى المسجد لا يريد إلا الصلاة الحديث وقال (٢) في بضع (٣) أحدكم صدقة قالوا يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال أرأيتم لو وضعها في حرام لكان عليه فيه وزر فكذلك إذا وضعها في حلال كان له أجر وقال إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول كلاهما في النار قالوا هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: إنه كان حريصاً على قتل صاحبه إلى غير ذلك من المواضع التي يعسر احصاؤها وبين ابن عباس رضي الله عنهما سر مشروع غسيل الجمعة. وزيد بن ثابت سبب النهي عن بيع الثمار قبل أن يبدو صلاحها. وبين ابن عمر سر الاختصار على استلام ركنتين من أركان البيت ثم لم يزل التابعون ثم من بعدهم العلماء المجتهدون يعللون الأحكام بالمصالح ويفهمون معانيها ويخرجون للحكم المنصوص مناصباً لدفع ضرر أو جاب نفع كما هو مبسوط في كتبهم ومذاهبهم، ثم أتى الغزالي والخطابي (٤) وابن عبد السلام (٥) وأمثالهم - شكر الله مساعيهم - بنكت لطيفة وتحقيقات شريفة نعم كما أوجبت السنة هـ - وانهقد عليها الإجماع فقد أوجبت أيضاً أن نزول القضاء بالإيجاب والتحريم سبب عظيم في نفسه مع قطع النظر عن تلك المصالح لا ثابة المطيع وعقاب العاصي وانه ليس الأمر على ما ظن من أن حسن الأعمال وقبحها بمعنى استحقاق العامل الثواب والعذاب عقلياً من كل وجه وأن الشرع وظيفته الأخبار عن خواص الأعمال على ما هي عليه دون انشاء الإيجاب والتحريم بمنزلة طبيب يصف خواص الأدوية وأنواع المرض فانه ظن فاسد تمجه (٦) السنة بادی الرأي كيف وقد قال النبي ﷺ في قيام رمضان حتى خشيت أن يكتب عليكم، وقال: إن أعظم المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يحرم على الناس فحرم من أجل مسئلته إلى غير ذلك من الأحاديث كيف ولو كان ذلك (٧) كذلك لجاز افطار المقيم الذي يتعاني كتعاني (٨) المسافر لمكان الحرج المبني عليه الرخص ولم يحز افطار المسافر المترفه وكذلك سائر الحدود التي حدها الشارع وأوجبت (٩) أيضاً أنه لا يحل أن يتوقف في امتثال أحكام الشرع إذا صححت بها الرواية على معرفة تلك المصالح لعدم استقلال عقول كثير من الناس في معرفة كثير من المصالح والكون النبي ﷺ أوثق عندنا من عقولنا ولذلك لم يزل هذا العلم مضموناً به (١٠) على غير أهله ويشترط له ما يشترط في تفسير كتاب الله ويحرم الخوض فيه بالرأي الخالص غير المستند إلى السنن والآثار وظهر مما ذكرنا أن الحق في التكليف بالشرائع أن مثله كمثل سيد مرض عبيده فسلط عليهم رجلاً من خاصته ليسقيهم دواءً فإن أطاعوا له أطاعوا السيد ورضي عنهم سيدهم وأثابهم خيراً ونجوا من المرض وإن عصوه عصوا السيد وأحاط بهم غضبه وجازاهم أسوأ الجزاء وهلكوا من المرض وإلى ذلك أشار النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال راوياً عن الملائكة أن مثله كمثل رجل بنى داراً وجعل

(١) أي جعلك صائباً في رأيك اهـ (٢) مثال لمراجعة الصحابة في المشتبهات اهـ (٣) أي فرج (٤) هو أبو سليمان حمد بن محمد البستي صاحب معالم السنن اهـ (٥) هو عز الدين (٦) أي ترميه (٧) أي حسن الأعمال الخ (٨) أي يقاسي كمقاساة (٩) أي السنة (١٠) من الضنان بالكسر وهو البخل اهـ

واختيار ما لا يشق عليهم وهو يكفي من المقصود، ومع ذلك ففيه حكم ومصالح يعلمها الراسخون في العلم وهي ترجع إلى أصول ثلاثة: أحدها أن الله تعالى وإن كان متعالياً عن الزمان لكن قد تظاهرت الآيات والأحاديث على أنه في بعض الأوقات يتقرب إلى عباده، وفي بعضها تعرض عليه الأعمال، وفي بعضها يقدر الحوادث إلى غير ذلك من الأحوال المتجددة وإن كان لا يعلم كنه حقيقتها إلا الله تعالى قال رسول الله ﷺ: «ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر» وقال: «إن أعمال العباد تعرض يوم الاثنين ويوم الخميس» وقال في ليلة النصف من شعبان: «إن الله ليطلع فيها» وفي رواية «ينزل فيها إلى السماء الدنيا» (١) والأحاديث في هذا الباب كثيرة معلومة، وبالجملة فمن ضرورات الدين أن هنالك أوقاتاً يحدث فيها شيء من انتشار الروحانية في الأرض وسريان قوة مثالية فيها وليس وقت أقرب لقبول الطاعات واستجابة الدعوات من تلك الأوقات، ففي أدنى سعي حينئذ يفتح باب عظيم من انقياد البهيمية للملكية والملائكة الأعلى لا يعرفون انتشار تلك الروحانية وسريان تلك القوة بحساب الدورات الفلكية بل بالذوق والوجدان بأن ينطبع شيء في قلوبهم فيعلموا أن هنالك قضاء نازلاً وانتشاراً للروحانية ونحو ذلك، وهذا هو المعبر عنه في الحديث «بمنزلة سلسلة على صفوان» (٢) * والأنباء عليهم السلام تنطبع تلك العلوم في قلوبهم من الملائكة الأعلى فيدر كونها بالوجدان دون حساب الدورات الفلكية ثم يجتهدون في نصب مظنة لتلك الساعة فيأمرون القوم بالمحافظة عليها فمن تلك الساعات ما يدور بدوران السنين وذلك قوله تبارك وتعالى (إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين فيها يفرق كل أمر حكيم أمراً من عندنا) (٣) إنا كنا مرسلين) وفيها تعيينت روحانية القرآن في السماء الدنيا واتفق أنها كانت في رمضان، ومنها ما يدور بدوران الأسبوع وهي ساعة خفيفة ترجى فيها استجابة الدعاء وقبول الطاعات وإذا انتقل الناس إلى المعاد كانت تلك هي ساعة تجلى الله عليهم وتقربه منهم. وقد بين النبي ﷺ أن مظنتها يوم الجمعة واستدل على ذلك بأن الحوادث العظيمة وقعت فيه كخلق آدم عليه السلام (٤) وبأن البهائم ربما تتلقى من الملائكة السافل علماً بعظم تلك الساعة فتصير دهشة مرعوبة كالذي هاله صوت عظيم، وأنه شاهد ذلك في يوم الجمعة ومنها ما يدور بدوران اليوم وتلك روحانية أضعف من الروحانيات الأخرى، وقد أجمعت أذواق من شأنهم التلقى من الملائكة الأعلى أنها أربع ساعات قبيل طلوع الشمس وبعيد استوائها وبعيد غروبها وفي نصف الليل إلى السحر ففي تلك الأوقات وقبلها بقليل وبعدها بقليل تنتشر الروحانية وتظهر البركة وليست في الأرض ملة إلا وهي تعلم أن هذه الأوقات أقرب شيء من قبول الطاعات لكن المجوس كانوا حرفوا الدين فجعلوا يعبدون الشمس من دون الله فسد النبي ﷺ مدخل التحريف فغير تلك الأوقات إلى ما ليس ببعيد منها ولا مفوت لأصل الغرض ولم يفرض عليهم الصلاة في نصف الليل لما في ذلك من الحرج، وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إن في الليل لساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله تعالى فيها خيراً من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه» وذلك كل ليلة، وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «أفضل الصلاة نصف الليل

(١) وتماه « فيغفر لا كثير من عدد شعر غنم ظب » اه

(٢) يعني الصوت من ضرب أجنحة الملائكة كصوت السلسلة الحديدية المضروبة على الحجر الأملس اه

(٣) أي نازلاً، وقوله (مظنتها) أي زمان وقوعها اه (٤) وفيه قبض وفيه النفخة وفيه الصعقة اه

(١) عن تدوين هذا الفن كما أنهم كانوا بسبب قرب عهدهم من القرن الأول واتصال زمانهم
 برجال الحديث وكونهم منهم بمراى ومسمع (٢) وتمكنهم من مراجعة الثقات وقلة وقوع الاختلاف
 والوضع مستغنين عن تدوين سائر الفنون الحديثية كشرح غريب الحديث وأسماء الرجال ومراتب عدالتهم
 ومشكل الحديث وأصول الحديث ومختلف الحديث وفقه الحديث. وتميز الضعيف من الصحيح والموضوع
 من الثابت وكل فن من هذه لم يفرد بالتدوين ولم ترتب أصوله وفروعه الا بعد قرون كثيرة ومدد متطاولة لما
 عنت (٣) الحاجة اليه وتوقف نصح المسلمين عليه، ثم انه كثر اختلاف الفقهاء بناءً على اختلافهم في علل
 الأحكام وأفضى ذلك الى أن يتباحثوا عن تلك العلل من جهة افضائها الى المصالح المعتبرة في الشرع ونشأ التمسك
 بالمعقول في كثير من المباحث الدينية وظهرت تشكيكات في الأصول الاعتقادية والعملية فآل الأمر الى أن
 صار الانتهاض لاقامة الدلائل العقائية حسب النصوص النقلية وتطبيق المنقول بالمعقول والمسموع بالمفهوم
 نصراً مؤزراً (٤) للدين وسعيًا جميلاً في جميع شمل المسلمين ومعدوداً من أعظم القربات ورأساً لرؤس
 الطاعات (قوله ليس في تدوينه فائدة) قلنا: ليس الأمر كما زعم بل في ذلك فوائد جليلة منها ايضاح معجزة من
 معجزات نبينا صلى الله عليه وآله وسلم فانه صلى الله عليه وآله وسلم كما أتى بالقرآن العظيم فاعجز بلغاء زمانه ولم يستطع
 أحد منهم أن يأتي بسورة من مثله، ثم لما انقضى زمان القرن الاول وخفي على الناس وجوه الاعجاز قام علماء
 الامة فاوضحوها ليدركه من لم يبلغ مبلغهم كذلك أتى من الله تعالى بشريعة هي أكمل الشرائع متضمنة لمصالح
 يعجز عن مراعاة مثلها البشر وعرف أهل زمانه شرف ما جاء به بنحو من انحاء المعرفة حتى نطقت به السنتهم
 وتبين في خطبهم ومحاوراتهم، فلما انقضى عصرهم وجب أن يكون في الامة من يوضح وجوه هذا النوع من
 الاعجاز والآثار الدالة على أن شريعته صلى الله عليه وآله وسلم اكمل الشرائع وان اتيان مثله بمثلها معجزة عظيمة
 كثيرة مشهورة لا حاجة الى ذكرها، ومنها أنه يحصل به الاطمئنان الزائد على الايمان كما قال إبراهيم الخليل عليه
 الصلاة والسلام بلى ولكن ليطمئن قلبي، وذلك ان تظاهر الدلائل وكثرة طرق العلم يثلجان (٥) الصدر ويزيلان
 اضطراب القلب. ومنها ان طالب الاحسان إذا اجتهد في الطاعات وهو يعرف وجه مشروعتها ويقيد نفسه
 بالمحافظة على أرواحها وأنوارها نفعه قليلها وكان أبعد من أن يخبط خبط عشواء (٦)، ولهذا المعنى اعتنى
 الإمام الغزالي في كتيب السلوك بتعريف أسرار العبادات؛ ومنها انه اختلف الفقهاء في كثير من الفروع
 الفقهية بناءً على اختلافهم في العلل المخرجة المناسبة وتحقيق ما هو الحق هناك لا يتم الا بكلام مستقل في المصالح،
 ومنها أن المبتدعين شككوا في كثير من المسائل الاسلامية بانها مخالفة للعقل وكل ما هو مخالف له يجب رده أو
 تأويله كقولهم في عذاب القبر انه يكذب به الحس والعقل وقالوا في الحساب والصراط والميزان نحو من ذلك فطفقوا
 يؤولون بتأويلات بعيدة واثارت طائفة (٧) فتنة الشك فقالوا: لم كان صوم آخر يوم من رمضان واجبا وصوم
 أول يوم من الشوال ممنوعا عنه؟ ونحو ذلك من الكلام واستهزأت طائفة بالترغيبات والترهيبات ظانين انها
 لمجرد الحث والتعريض لا ترجع إلى أصل أصيل حتى قام أشقى القوم (٨) فوضع حديث باذنبان لما اكل له

(١) خبر كان (٢) أي بحيث يروونهم ويسمعونهم اهـ (٣) أي ظهرت (٤) أي مؤيدا (٥) أي يرددان ويريجان اهـ (٦) أي يعمل امرا على غير بصيرة اهـ

(٧) أي الاسماعيلية (٨) هو ابن الراوندي

يعرض (١) بأن أضر الأشياء لا يتميز عند المسلمين من النافع ولا سبيل الى دفع هذه المفسدة الا بأن تبين المصالح وتؤسس لها القواعد كما فعل نحو من ذلك في مخاصمات اليهود والنصارى والدهرية وأمثالهم، ومنها أن جماعة من الفقهاء زعموا أنه يجوز رد حديث يخالف القياس من كل وجه فتطرق الخلل إلى كثير من الاحاديث الصحيحة كحديث المصرة (٢) وحديث القلتين (٣) فلم يجد أهل الحديث سبيلا في الزامهم الحجة الا أن يبينوا انها توافق المصالح المعتمدة في الشرع إلى غير ذلك من الفوائد التي لا يفي باحصائها الكلام ويستجدني إذا غلب على شقشقة (٤) البيان وامعنت في تمهيد القواعد غاية الامعان ربما اوجب المقام أن أقول بمالم يقل به جمهور المناظرين من أهل الكلام كتجلى الله تعالى في مواطن المعاد بالصور والاشكال وكاثبات عالم ليس عنصريا يكون فيه تجسد المعاني والاعمال باشباح مناسبة لها في الصفة وتخلق فيه الحوادث قبل أن تخلق في الارض وارتباط الاعمال بهيات (٥) نفسانية وكون تلك الهيات في الحقيقة سببا للمجازاة في الحيات الدنيا وبعدالمات والقول بالقدر الملزم ونحو ذلك فاعلم أني لم أجترأ عليه الا بعد أن رأيت الآيات والاحاديث وآثار الصحابة والتابعين متظاهرة فيه ورأيت جماعات من خواص أهل السنة المتميزين منهم بالعلم اللدني يقولون به ويبنون قواعدهم عليه وليست السنة اسما في الحقيقة لمذهب خاص من الكلام ولكن المسائل التي اختلف فيها أهل القبلة وصاروا لاجلها فرقا متفرقة واحزابا متحزبة بعد انقيادهم لضروريات الدين على قسمين، قسم نطقت به الآيات وصحت به السنة وجرى عليه السلف من الصحابة والتابعين فلما ظهر اعجاب كل ذي رأى برأيه وتشعبت بهم السبل اختار قوم ظاهر الكتاب والسنة وعضوا بنواجذهم على عقائد السلف ولم يبالوا بموافقتها للاصول العقلية ولا مخالفتها لها فان تكلموا بمعقول فلا لزام الخصوم والرد عليهم أو لزيادة الطمأنينة للاستفادة من عقائد منها وهم أهل السنة، وذهب قوم الى التأويل والصرف عن الظاهر حيث خالفت الاصول العقلية بزعمهم فتكلموا بالمعقول لتحقيق الامر وتبينه على ما هو عليه، فمن هذا القسم سؤال القبر ووزن الاعمال والمرور على الصراط والرؤية وكرامات الاولياء فهذا كله ظهر به الكتاب والسنة وجرى عليه السلف ولكن ضاق نطاق المعقول عنها بزعم قوم فانكروها أو أولوها، وقال قوم منهم آمنوا بذلك وإن لم ندر حقيقة ولم يشهد له المعقول عندنا ونحن نقول آمنوا بذلك كاه على بيضة من ربنا وشهد له المعقول عندنا. وقسم لم ينطق به الكتاب ولم تستفيض به السنة ولم يتكلم فيه الصحابة فهو مطوى (٦) على غره فجاء ناس من أهل العلم فتكلموا فيه واختلفوا وكان خوضهم فيه إما استنباطا من الدلائل النقلية كفضل الانبياء على الملائكة وفضل عائشة على فاطمة رضي الله عنهم وإما لتوقف الاصول الموافقة للسنة عليه وتعلقها به بزعمهم كمسائل الامور العامة وشيء من مباحث الجواهر

(١) اي يشير (٢) المصرة من الابل والغنم التي حبس لبنها في ضرعها لتباع كذلك يغتر به المشتري وفيه حديث مسلم من اشترى شاة مصراة فهو بالخيار ثلاثة أيام فان ردها ردها صاعا من طعام لاسمراء اه (٣) القلة بالضم جرة عظيمة تسع خمسمائة رطل وفيه اذا بلغ الماء قلتين لم يحمل نجسا اه (٤) بالكسر رئة البعير الخارجة من فيه وقت الهدر اه (٥) كالشرق والخرف والرجاء وأمثالها اه (٦) هو من طويت الثرب وعلى غره أي على كسره الاول اه

ولا عراض فان القول بحدوث العالم يتوقف على ابطال الهيولى واثبتت الجزء الذي لا يتجزأ والقول بخلق الله تعالى العالم بلا واسطة يتوقف على ابطال القضية القائلة بان الواحد لا يصدر عنه الا الواحد والقول بالمعجزات يرتفع على انكار اللزوم العقلي بين الاسباب ومسبباتها والقول بالمعاد الجسماني يتوقف على إمكان إعادة المعدوم الى غير ذلك مما شحنوا به كتبهم، وإما تفصيلا وتفسيرا لما تلقوه من الكتاب والسنة فاختلفوا في التفصيل والتفسير بيد الاتفاق على الاصل كما اتفقوا على اثبات صفتي السمع والبصر ثم اختلفوا فقال قوم هما صفتان راجعتان الى العلم بالمسموعات والمبصرات، وقال آخرون هما صفتان على حدتهما وكما اتفقوا على أن الله تعالى حي عليهم مر يد قدر متكلم ثم اختلفوا فقال قوم انما المقصود اثبات غايات هذه المعاني من الآثار والأفعال وأن لا فرق بين هذه السبع وبين الرحمة والغضب والجود في هذا وأن الفرق لم تثبته السنة، وقال قوم هي أمور موجودة قائمة بذات الواجب واتفقوا على اثبات الاستواء على العرش والوجه والضحك على الجملة ثم اختلفوا فقال قوم انما المراد معان مناسبة فلا استواء هو الاستيلاء والوجه الذات وطواها قوم (١) على غيرها وقالوا لا ندري ماذا اريد بهذه الكلمات وهذا القسم لست استصح ترفع إحدى الفرقتين على صاحبتهما بانها على السنة كيف وإن اريد قح (٢) السنة فهو ترك الخوض في هذه المسائل رأسا كما لم يخض فيها السلف ولما أن مست الحاجة الى زيادة البيان فليس كل ما استنبطوه من الكتاب والسنة صحيحا أو راجحا ولا كل ما حسبه هؤلاء متوقفا على شيء مسلم التوقف ولا كل ما أوجبوا رده مسلم الرد ولا كل ما امتنعوا من الخوض فيه استصعابا له صعبا في الحقيقة ولا كل ما جاؤا به من التفصيل والتفسير أحق مما جاء به غيرهم، ولما ذكرنا من أن كون الانسان سنيا معتبر بالقسم الاول دون الثاني ترى علماء السنة يختلفون فيما بينهم في كثير من الثاني كالاشاعرة والماتريدية (٣) وترى الخذاق من العلماء في كل قرن لا يحتجزون من كل دقيقة لا تخالفها السنة وإن لم يقل بها المقتدمون وستجدني اذا تشعبت بهم السبل في الفروع والمذاهب وتفرقت بهم الموارد فيها والمشارب لججت (٤) بالجادة الجليلة وحققت (٥) القارعة القوية وصرت لألوى (٦) على الاطراف والحقافات (٧) وكنت في صمم من التفاريح والتخريجات فاعلم أن لكل فن خاصة ولكل موطن مقتضى فكما أنه ليس لصاحب غريب الحديث أن يبحث عن صحة الحديث وضعفه ولا لحافظ الحديث أن يتكلم في الفروع الفقهية واشار بعضها على بعض فكذلك ليس للباحث عن اسرار الحديث أن يتكلم بشيء من ذلك انما غاية همته ومطمح بصره هو كشف السر الذي قصده النبي صلى الله عليه وسلم فيما قال سواء بقى هذا الحكم محكما أو صار منسوخا أو عارضه دليل آخر فوجب في نظر الفقيه كونه مرجوحا نعم لا يحيص لكل خائض في فن أن يعتصم بأحق ما هنالك بالنسبة الى ذلك الفن وإنما الاقرب من الحق باعتبار فن الحديث ما خلاص بعد تدوين أحاديث البلاد وآثار فقهاءها ومعرفة المتابع عليه من المتفرد به والاكثر رواة والاقوى رواية مما هو دون ذلك على أنه إن كان شيء من هذا النوع استطرادا فليس البحث عن المسائل الاجتهادية وتحقيق الاقرب منها للحق بدعا من أهل العلم ولا طعنا في أحد منهم (إن أريد إلا الاصلاح ما استطعت وماتو فيقى إلا بالله عليه توكلت واليه أنيب) وها أنا برىء من كل مقالة صدرت مخالفة لآية من كتاب الله أو سنة قائمة عن رسول الله صلى الله

(١) أي تر كوما كادانت (٢) أي خالص (٣) الاشاعرة هم اتباع ابي الحسن الاشعري المتوفى سنة ٣٢٤ هـ، والماتريدية اتباع ابي منصور الماتريدي المتوفى سنة ٣٣٣ هـ، وماتريدية (٤) أي لزمت (٥) أي اثبتت ووسطت (٦) أي لا اميل (٧) أي الاوساط

عليه وسلم أو إجماع القرون المشهود لها بالخير أو ما اختاره جمهور المجتهدين ومعظم سواد المسلمين فإن وقع شيء من ذلك فإنه خطأ رحم الله تعالى من أيقظنا من سنتنا أو نبهنا من غفلتنا، أما هؤلاء الباحثون بالتحريج والاستنباط من كلام الأوائل المنتحلون مذهب المناظرة والمجادلة فلا يجب علينا أن نوافقهم في كل ما يتفوهون به ونحن رجال وهم رجال والامر بيننا وبينهم سجال. ثم اني جعلت الكتاب على قسمين، أحدهما قسم القواعد الكلية التي تنتظم بها المصالح المرعية في الشرائع وأكثرها كانت مسجلة بين الملل الموجودة في عهد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ولم يكن فيها اختلاف بينهم وكان الحاضرون مستغنين عن سؤالها فنبه النبي ﷺ عليها كما ينبه على الأصول المفروعة عنها عند افادة الفروع فتمكن السامعون من ارجاع الفروع اليها لما مارسوا من نظائرها في العرب المنتسبين الى الملة الاسماعيلية واليهود والنصارى والمجوس ورأيت أن تفاصيل اسرار الشرائع ترجع الى أصليين مبحث البر والاثم، ومبحث السياسات المالية ثم رأيت البر والاثم لا تكفيه حقيقة بل لا بان يعرف قبلهما مباحث المجازاة والارتفاقات (١) والسعادة النوعية ثم رأيت هذه المباحث تتوقف على مسائل تسلم في هذا العلم ولا يبحث عن لميتها (٢) فاما أن تصدق بها لا تفاق الملل عليها حتى صارت من المشهودات أو لحسن الظن بالمعلم أو لدلائل تذكر في علم أعلى من هذا العلم وأعرضت عن الاطالة في اثبات النفس وبقائها وتنعمها وتألمها بعد مفارقة الجسد لأنه مبحث مفروغ عنه في كتب القوم وما ذكرت من هذه المباحث الا ما رأيت الكتب التي وقعت الى خالية عن الكلام فيه أصلاً أو عن التفريع والترتيب اللذين وفقت لاستخراجهما ولا من المسلمات الا ما رأيت القوم لم يتعرضوا له ولا ليراد الدلائل السمعية عليه كثير تعرض فلا جرم اني أذكر في هذا القسم مسائل يجب أن تصدق بها في هذا الفن من غير تعرض للميتها ثم كيفية المجازاة في الحياة وبعد الممات، ثم الارتفاقات التي جبل عليها بنو آدم ولم يحملها قط عربهم ولا عجمهم من جهة ما أوجبته عقولهم، ثم بيان سعادة الانسان وشقاوته بحسب النوع وبحسب ما يظهر في الآخرة ثم أصول البر والاثم التي توارد عليها أهل الملل ثم ما يجب عند سياسة الأمة من ضرب الحدود والشرائع ثم كيفية استنباط الشرائع من كلام النبي ﷺ وتلقيها عنه، والقسم الثاني في شرح أسرار الاحاديث من أبواب الايمان ثم من أبواب العلم ثم من أبواب الطهارة ثم من أبواب الصلاة ثم من أبواب الزكاة ثم من أبواب الصوم ثم من أبواب الحج ثم من أبواب الاحسان ثم من أبواب المعاملات ثم من أبواب تدبير المنازل ثم من أبواب سياسة المدن ثم من آداب المعيشة ثم من أبواب شتى. وهذا أوان الشروع في المقصود والحمد لله أولاً وآخراً *

﴿ القسم الأول في القواعد الكلية التي تستنبط منها المصالح المرعية ﴾

﴿ في الاحكام الشرعية سبعة مباحث في سبعين باباً ﴾

﴿ المبحث الاول في أسباب التكليف والمجازاة ﴾

﴿ باب الابداع والخلق والتدبير ﴾ اعلم ان الله تعالى بالنسبة الى ايجاد العالم ثلاث صفات مترتبة، احدها الابداع وهو ايجاد شيء لا من شيء فيخرج الشيء من كتم العدم بغير مادة، وسئل رسول الله ﷺ عن

أول هذا الأمر فقال كان الله ولم يكن شيء قبله (١) والثانية الخالق وهو ايجاد الشيء من شيء كما خلق آدم من التراب (وخلق الجن من مارح من نار) (٢) وقد دل العقل والنقل على ان الله تعالى خالق العالم انواعا واجناسا وجعل لكل نوع وجنس خواص، فنوع الانسان مثلا خاصته النطق وظهور البشرة واستواء القامة وفهم الخطاب، ونوع الفرس خاصته الصهيل وكون بشرته شعراء وقامته عوجاء وأن لا يفهم الخطاب، وخاصة السم اهلاك ونوع الفرس خاصته الصهيل وكون بشرته شعراء وقامته عوجاء وأن لا يفهم الخطاب، وخاصة السم اهلاك الانسان الذي يتناوله، وخاصة الزنجبيل الحرارة واليبوسة، وخاصة الكافور البرودة وعلى هذا القياس جميع الانواع من المعدن والنبات والحيوان وجرت عادة الله تعالى أن لا تنفك الخواص عما جعلت خواص لها وان تكون مشخصات الافراد خصوصا في تلك الخواص وتعيينا لبعض احتمالاتها فكذلك مميزات الانواع خصوصا في خواص أجناسها وأن تكون معاني هذه الأسماء المترتبة في العموم والخصوص كالجسم والنامى والحيوان والانسان وهذا الشخص متمازة متشابهة في الظاهر ثم يدرك العقل الفرق بينها ويضيف كل خاصة الى ما هي خاصة له وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم خواص كثير من الأشياء وأضاف الآثار اليها كقوله صلى الله عليه وسلم التلبينة (٣) بحمة لفؤاد المريض وقوله في الحبة السوداء شفاء من كل داء الا السام (٤) وقوله في أبوال ابل والبانها شفاء للذرة بطونهم (٥) وقوله في الشبرم (٦) حار جار. والثالثة تدبير عالم المواليد ورجعه الى تصيير حوادثها موافقة للنظام الذي ترتضيه حكمته مفضية الى المصلحة التي اقتضاها جوده كما أنزل من السحاب مطرا وأخرج به نبات الأرض لياكل منه الناس والأنعام فيكون سببا لحياتهم الى أجل معلوم وكما ان ابراهيم صلوات الله عليه ألقى في النار فجعلها الله بردا وسلاما لبقى حيا وكما أن ايوب عليه السلام كان اجتمع في بدنه مادة المرض فانشأ الله تعالى عينا فيها شفاء مرضه وكما أن الله تعالى نظر الى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم فاوحى الى نبيه صلى الله عليه وسلم أن ينذرهم ويجاهدهم ليخرج من شاء من الظلمات الى النور، وتفصيل ذلك أن القوى المودعة في المواليد التي لا تنفك عنها لما تراحت وتصادمت أوجبت حكمة الله حدوث اطوار مختلفة بعضها جواهر وبعضها أعراض والأعراض إما أفعال أو إرادات من ذوات الانفس أو غيرها وتلك الاطوار لا شر فيها بمعنى عدم صدور ما يقتضيه سببه أو صدور ضد ما يقتضيه والشيء اذا اعتبر بسببه المقتضى لوجوده كان حسنا لا محالة كالقطع حسن من حيث أنه يقتضيه جوهر الحديد وإن كان قبيحا من حيث فوت بنية انسان اكن فيها شر بمعنى حدوث شيء غيره أوفق بالمصلحة منه باعتبار الآثار أو عدم حدوث شيء آثاره محموده واذا تهيأت أسباب هذا الشر اقتضت رحمة الله بعباده ولطفه بهم وعموم قدرته على الكل وشمول علمه بالكل أن يتصرف في تلك القوى والامور الحاملة لها بالقبض والبسط والاحالة والالهام حتى تفضى تلك الجملة الى الامر المطلوب أما القبض فمثاله ماورد في الحديث ان الدجال يريد أن يقتل العبد المؤمن في المرة

(١) هذه رواية الصحيحين وهي لا تدل على الحدوث الزماني للعالم لكن قد ثبت عند بعض أصحاب السنة ولم يكن معه شيء وهذا يدل على الحدوث اياه منه (٢) أى نار بلا دخان (٣) التلبينة حساء يعمل من دقيق أو نخالة وربما جعل فيها عسل ويشبه اللبن في البياض والرققة، وجمعة بضم الميم وكسر الجيم أى مريحة اه (٤) أى المرات (٥) الذرة صفة من الذرب بالحركة وهو داء للمعدة لا تهضم الطعام ولا تمسكه اه (٦) الشبرم بضم الشين والراء حب يشبه الحمص يطبخ ويشرب مأؤه للتداوي وحار من الحرارة وجار تابع له كحسن بسن اه

الثانية فلا يقدره الله تعالى عليه مع صحة داعية القتل وسلامة أدواته وأما البسط فمثاله أن الله تعالى أنبع عينا لا يوب صلوات الله عليه برضه الأرض وليس في العادة أن تفضى الرخصة إلى نبوع الماء وأقدر بعض (١) المخلصين من عباده في الجهاد على ما لا يتصوره العقل من مثل تلك الأبدان ولا من اضعافها، وأما الحالة فمثالها جعل النار هواء طيبة لأبراهيم عليه السلام، وأما الإلهام فمثاله قصة خرق السفينة وإقامة الجدار وقتل الغلام وإنزال الكتب والشرائع على الأنبياء عليهم السلام والإلهام تارة يكون للمبتلى وتارة يكون لغيره لاجله والقرآن العظيم بين أنواع التدبير بما لا مزيد عليه *

(باب ذكر عالم المثال)

اعلم أنه دلت أحاديث كثيرة على أن في الوجود عالما غير عنصرى تتمثل فيه المعاني بأجسام مناسبة لها في الصفة وتحقق هنالك الأشياء قبل وجودها في الأرض نحو ما من التحقق، فإذا وجدت كانت هي هي بمعنى من معاني هو هو، وأن كثيراً من الأشياء مما لا جسم لها عند العامة تنتقل وتنزل ولا يراها جميع الناس، قال النبي ﷺ «لما خلق الله الرحمن قامت فقالت هذا مقام العائذ بك من القطيعة» وقال «إن البقرة وآل عمران تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان (٢) أو فرقان من طير صواف تحاجان عن أهلها» وقال «تجىء الأعمال يوم القيامة فتجىء الصلاة ثم تجىء الصدقة ثم يجىء الصيام» الحديث، وقال «إن المعروف والمنكر لخليقتان تنصبان للناس يوم القيامة فاما المعروف فيبشر أهله وأما المنكر فيقول اليك اليكم ولا يستطيعون له إلا لزوما» وقال «إن الله تعالى يبعث الأيام يوم القيامة كهيئتها ويبعث الجمعة زهراء منيرة»

وقال: «يؤتى بالدينا يوم القيامة في صورة عجوز شماء (٣) زرقاء أنيابها مشوه خلقها (٤)» وقال «هل ترون ما أرى فاني لا أرى مواقع الفتن خلال بيوتكم كمواقع القطر» وقال في حديث الإسراء «فاذا أربعة أنهار نهران باطنان ونهران ظاهران فقلت ما هذا يا جبريل؟ قال أما الباطنان ففي الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات» وقال في حديث صلاة الكسوف «صورت لي الجنة والنار وفي لفظ يبنى (٥) وبين جدار القبلة، وفيه أنه بسط يده ليتناول عنقودا من الجنة وأنه تكعكع (٦) من النار ونفخ من حرها ورأى فيها سارق (٧) الحجيح والمرأة التي ربطت الهرة حتى ماتت ورأى في الجنة امرأة مومسة (٨) سقت الكلب ومعلوم أن تلك المسافة لا تتسع للجنة والنار بأجسادهما المملوءة عند العامة. وقال حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات ثم امر جبريل أن ينظر إليهما وقال ينزل البلاء فيعالجه (٩) الدعاء، وقال خلق الله العقل فقال له اقبل فاقبل وقال له ادبر فادبر، وقال هذان كتابان من رب العالمين الحديث، وقال يؤتى بالموت كأنه كبش فيذبح بين الجنة والنار وقال تعالى (فارسلنا اليها رجلا مبشرا أسويا) واستفاض في الحديث أن جبريل كان يظهر للنبي ﷺ ويتراءى له فيكلمه ولا يراه سائر الناس وإن القبر يفسح سبعين ذراعا في سبعين أو يضم حتى تختلف أضلاع المقبور وإن الملائكة تنزل على المقبور فتسأله وإن عمله يتمثل له وإن الملائكة تنزل إلى المحتضر بأيديهم الحرير أو المسح (١٠) وإن الملائكة تضرب المقبور بمطرقة (١١) من حديد فيصيح صيحة يسمعها ما بين المشرق والمغرب وقال النبي ﷺ ليسلط

(١) كما وقع لعلي رضي الله عنه من قلعه باب خيبر اه (٢) الغياية كل ما اظفر فوق الرأس كالسحابة، وفرقان بكسر الفاء وسكون الراء قطع من الغنم والمراد جماعتان اه (٣) الشمطاء التي بياض شعرها مختلط بالسواد اه (٤) المشوه الفحيح الواسع الفم اه (٥) متعاق صورته (٦) أي تأخر (٧) أي الذي كان يسرق (٨) أي زانية (٩) أي يصارعه (١٠) أي الكر باس (١١) خابك هنكران

على الكافر في قبره تسعة وتسعون تنبؤا (١) تنهسه وتلدغه حتى تقوم الساعة وقال اذا ادخل الميت القبر مثلث له الشمس عند غروبها فيجلس يمسح عينيه ويقول دعوني اصلي واستفاض في الحديث ان الله تعالى يتجلى بصور كثيرة لاهل الموقف وان النبي صلى الله عليه وسلم يدخل على ربه وهو على راسه وان الله تعالى يكلم ابن آدم شفاهها الى غير ذلك مما لا يحصى كثرة والنظار في هذه الاحاديث بين احدي ثلاث إما أن يقر بظاهرها فيضطر الى إثبات عالم ذكرنا شأنه وهذه هي التي تقتضيها قاعدة أهل الحديث نية على ذلك السيوطي رحمه الله تعالى وبها اقول واليه اذهب أو يقول ان هذه الوقائع تتراءى لحس الرائي وتمثل له في بصره وان لم تكن خارج حسه وقال بنظير ذلك عبد الله بن مسعود في قوله تعالى (يوم تاتي السماء بدخان مبين) انهم أصابهم جذب (٢) فكان أحدهم ينظر إلى السماء فيرى كهيئة الدخان من الجوع ويذكر عن ابن الماجشون (٣) ان كل حديث جاء في التنقل والرؤية في المحشر فمعناه أنه يغير أبصار خلقه فيرونه نازلا متجليا ويناجي خلقه ويخاطبهم وهو غير متغير عن عظمته ولا منتقل ليعلموا أن الله على كل شيء قدير أو يجعلها تمثيلا لتفهم معان أخرى ولست أرى المقتصر على الثالثة من أهل الحق، وقد صور الامام الغزالي في عذاب القبر تلك المقامات الثلاث حيث قال امثال هذه الاخبار لها ظواهر صحيحة وأسرار خفية ولكنها عند أرباب البصائر واضحة فمن لم ينكشف له حقائقها فلا ينبغي أن ينكر ظواهرها بل أقل درجات الايمان التسليم والتصديق ((فان قلت)) فنحن نشاهد الكافر في قبره مدة ونراقبه ولا نشاهد شيئا من ذلك فما وجه التصديق على خلاف المشاهدة ((فاعلم)) أن لك ثلاث مقامات في التصديق بامثال هذا، أحدها وهو الاظهر والاصح والاسلم أن تصدق بانها موجودة وهي تلدغ الميت ولكنك لا تشاهد ذلك فان هذه العين لا تصاح لمشاهدة الامور المملوكية وكل ما يتعلق بالآخرة فهو من عالم المملوكات أما ترى الصحابة رضي الله عنهم كيف كانوا يؤمنون بنزول جبريل عليه السلام وما كانوا يشاهدونه ويؤمنون بانه عليه السلام يشاهده فان كنت لا تؤمن بهذا فتصحح أصل الايمان بالملائكة والوحي أهم عليك وإن كنت آمنت به وجوزت أن يشاهد النبي صلى الله عليه وسلم ما لا تشاهده الامة فكيف لا تجوز هذا في الميت وكما ان الملك لا يشبه الآدميين والحيوانات فالحيات والعقارب التي تلدغ في القبر ليست من جنس حيات عالمنا بل هي جنس آخر وتدرك بحاسة أخرى ((المقام الثاني)) أن تتذكر أمر النائم وانه قد يرى في نومه حية تلدغه وهو يتألم بذلك حتى تراه ربما يصيح ويعرق جبينه وقد ينزعج من مكانه كل ذلك يدركه من نفسه ويتأذى به كما يتأذى اليقظان وهو يشاهده وأنت ترى ظاهره ساكنا ولا ترى حواليه حية ولا عقربا والحية موجودة في حقه والعذاب اليقظان وهو يشاهده وأنت ترى ظاهره ساكنا ولا ترى حواليه حية ولا عقربا والحية موجودة في حقه والعذاب حاصل ولكنه في حقلك غير مشاهد واذا كان العذاب في ألم اللدغ فلا فرق بين حية تتخيل أو تشاهد * ((المقام الثالث)) انك تعلم ان الحية بنفسها لا تؤلم بل الذي يالها منها هو ألم السم ثم السم ليس هو الألم بل عذابك في الاثر الذي يحصل فيك من السم فلو حصل مثل ذلك الاثر من غير سم لكان العذاب قد توفر وكان لا يمكن تعريف ذلك النوع من العذاب الا بان يضاف الى السبب الذي يفضي اليه في العادة فانه لو خلق في الانسان لذة الوقاع (٤) مثلا من غير مباشرة صورة الوقاع لم يمكن تعريفها الا بالاضافة اليه لتكون الاضافة للتعريف بالسبب وتكون ثمرة السبب حاصلة وإن لم تحصل صورة السبب والسبب يراد لثمرته لا لذاته وهذه الصفات المهلكات تنقلب مهلكات مؤذيات ومؤلمات في النفس عند الموت فيكون آلامها كالآلام لدغ الحيات من غير وجودها انتهى (٥)

(١) هو نوع من الحيات كثير السم كبير الجثة والنهس - بالسين المهملة وبالشين المعجمة أيضا - اللدغ اهـ (٢) اي فحط

(٣) هو في الاصل معرب ماء كرون، وهو علم لاحد أئمة المالكية (٤) اي الجماع (٥) اي الغزالي

(باب ذكر الملائكة الأعلى)

قال الله تعالى : (الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صالح من آباءهم وأزواجهم وذرياتهم انك أنت العزيز الحكيم وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم) وقال رسول الله ﷺ : « إذا قضى الله تعالى الأمر في السماء ضربت الملائكة باجنحتها خضعانا (١) لقوله كأنه صلصلة (٢) على صفوان (٣) فاذا فزع (٤) عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير » وفي رواية « إذا قضى أمراً سبج حملة العرش ثم يسبح أهل السماء الذين يلونهم حتى يبلغ التسبيح أهل هذه السماء الدنيا ثم قال الذين يلون حملة العرش لحملة العرش ماذا قال ربكم فيخبرونهم ماذا قال فيستخبر بعض أهل السموات بعضا حتى يبلغ الخبر أهل هذه السماء » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إني قمت من الليل فتوضأت وصليت ما قدر لي فنعست في صلاتي حتى استثقلت فاذا أنا بربي تبارك وتعالى في أحسن صورة فقال يا محمد قلت لبيك رب قال فيم يختصم الملائكة الأعلى قلت لا أدري قالها ثلاثا قال فرأيت وضع كفه بين كتفي حتى وجدت برد أنامله بين ثديي فتجلى (٥) لي كل شيء وعرفت فقال يا محمد قلت لبيك رب قال فيم يختصم الملائكة الأعلى ؟ قلت في الكيفارات قال وما هن قلت مشى الأقدام إلى الجماعات والجلوس في المساجد بعد الصلوات واسباغ الوضوء (٦) حين الكريهات قال ثم فيم قال قلت في الدرجات قال وما هن قلت اطعام الطعام ولين الكلام والصلاة بالليل والناس نيام » وقال رسول الله ﷺ : « ان الله إذا أحب عبداً دعا جبرائيل فقال اني أحب فلانا فأحبه قال فيحبه جبرائيل ثم ينادي في السماء فيقول ان الله يحب فلانا فأحبه فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض وإذا أبغض عبداً دعا جبرائيل فيقول اني أبغض فلانا فأبغضه قال فيبغضه جبرائيل ثم ينادي في أهل السماء ان الله يبغض فلانا فأبغضوه قال فيبغضونه ثم يوضع له البغضاء في الأرض » وقال رسول الله ﷺ : « الملائكة يصلون على أحدكم مادام في مجلسه الذي صلى فيه يقولون اللهم ارحمه اللهم اغفر له اللهم تب عليه ما لم يؤذ فيه ما لم يحدث فيه » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من يوم يصبح العباد فيه الا وملكان ينزلان فيقول أحدهما اللهم اعط منفقا خلفا (٧) ويقول الآخر اللهم اعط ممسكا تلفا » (اعلم) أنه قد استفاض من الشرع ان الله تعالى عبادا هم أفاضل الملائكة ومقربوا الحضرة لايزالون يدعون لمن أصلح نفسه وهذبها وسعى في اصلاح الناس فيكون دعاؤهم ذلك سبب نزول البركات عليهم ويلعنون من عصى الله وسعى في الفساد فيكون لعنهم سببا لوجود حسرة وندامة في نفس العامل وإلهامات في صدور الملائكة السافل أن يبغضوا هذا المسمى ويسئوا اليه إما في الدنيا أو حين يتخفف عنه جليباب بدنه بالموت الطبيعي وانهم يكونون سفراء بين الله وبين عباده وانهم يلهمون في قلوب بني آدم خيرا أي يكونون أسبابا

(١) هو مصدر كالغفران أو الحرمان ويجوز كونه جمعا لخاضع فعلى المصدر مفعول مطلق من ضربت لما فيه من الخضوع وعلى الجمع حال والمعنى أرخت اجنحتها مرعدة اه (٢) هو بفتح الصادين المهملتين الصوت المتدارك الذي يسمع ولا يثبت أول ما يقرع السمع حتى يفهم بعد اه (٣) هو الحجر الاملس (٤) أي كشف الفزع (٥) أي ظهر (٦) أي إتمامه (٧) ينتج الخاء المعجمة واللام أي عوضا عاجلا مالا أو دفع سوء أو آجلا ثرابا اه

لحدوث خواطر الخير فيهم بوجه من وجوه السببية وان لهم اجتماعات كيف شاء الله وحيث شاء الله يعبر عنهم باعتبار ذلك بالرفيق الأعلى والندى (١) الأعلى والملا الأعلى (٢) وأن لارواح أفاضل الآدميين دخولا فيهم ولحوقا بهم كما قال الله تعالى: (يا أيها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «رأيت جعفر بن أبي طالب ملكا يطير في الجنة مع الملائكة يحتاجين» وأن هنالك ينزل القضاء ويتعين الامر المشار اليه بقوله تعالى: (فيها (٣) يفرق كل أمر حكيم) وأن هنالك تتقرر الشرائع بوجه من الوجوه، واعلم أن الملا الأعلى ثلاثة اقسام، قسم علم الحق أن نظام الخير يتوقف عليهم فخلق اجساما نورية بمنزلة نار موسى فنفخ فيها نفوسا كريمة، وقسم اتفق حدوث مزاج في البخارات اللطيفة من العناصر استوجب فيضان نفوس شاهقة (٤) شديدة الرفض (٥) للالوات البهيمية، وقسم هم نفوس انسانية قريبة المأخذ من الملا الأعلى مازالت تعمل أعمالا منجية تفيد للحقوق بهم حتى طرحت عنها جلايب ابدانها فانسلكت في سلكهم وعدت منهم والملا الأعلى شأنها أنها تتوجه إلى بارئها توجهها معنا لا يصددها عن ذلك التفات الى شيء وهو معنى قوله تعالى: (يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به) وتتلقى من ربها استحسان النظام الصالح واستهجان (٦) خلافه فيقرع ذلك بابا من أبواب الجود الالهي وهو معنى قوله تعالى: (ويستغفرون للذين آمنوا وأفاضلهم) تجتمع أنوارهم وتتداخل فيما بينها عند الروح الذي وصفه النبي صلى الله عليه وسلم بكثرة الوجوه والالسة فتصير هنالك كشيء واحد وتسمى حظيرة القدس وربما حصل في حظيرة القدس اجماع على اقامة حيلة لنجاة بني آدم من الدواهي المعاشية والمعادية بتكميل أزي خلق الله يومئذ وتمشية أمره في الناس فيوجب ذلك (٧) إلهامات في قلوب المستعدين من الناس أن يتبعوه ويكونوا أمة أخرجت للناس ويوجب تمثل علوم فيها صلاح القوم وهداهم في قلبه وحيا ورؤيا وهتفا وأن تتراءى (٨) له (٩) فتكلمه شفاهما ويوجب نصر أحبائه وتقريبهم من كل خير ولعن من صد عن سبيل الله وتقريبهم من كل ألم وهذا أصل من اصول النبوة ويسمى اجماعهم المستمر بتأييد روح القدس وتثمر هنالك بركات لم تعهد في العادة فتسمى بالمعجزات ودون هؤلاء نفوس (١٠) استوجب فيضانها حدوث مزاج معتدل في بخارات لطيفة لم تبلغ بهم السعادة مبالغ الاولين (١١) فصار كلهم أن تكون فارغة لا تتظار ما يترشح من فوقها فاذا ترشح شيء بحسب استعداد القابل وتأثير الفاعل انبعثوا الى تلك الامور كما تنبعث الطيور والبهائم بالدواعي الطبيعية وهم في ذلك قانون عما يرجع الى انفسهم باقون بما ألهموا من فوقهم فيؤثرون في قلوب البشر والبهائم فتتقلب اراداتها وأحاديث نفوسها الى ما يناسب الامر المراد ويؤثرون في بعض الاشياء الطبيعية في تضاعيف حركاتها وتحولاتها كما يدحرج حجر فأثر فيه ملك كريم عند ذلك فمشى في الارض أكثر مما يتصور في العادة وربما ألقى الصياد شبكة في النهر فجاءت أفواج من الملائكة تلهم في قلب هذه السمكة أن تقتحم وهذه أن تهرب وتقبض حبلا وتبسط أخرى وهي لا تعلم لم تفعل ذلك ولكن تتبع ما ألهمت وربما تقالت فتتان فجاءت الملائكة تزين في قلوب هذه الشجاعة والثبات بأحاديث وخیالات يقتضيها المقام وتلهم حيل الغلبة وتؤيد في الرمي وأشباهاه، وفي قلوب تلك

(١) أي المجلس (٢) أي أفاضل الملائكة اه (٣) أي في ليلة القدر اه (٤) أي عالية (٥) أي الترك (٦) أي استقباح (٧) أي الاجماع بالتكميل اه (٨) أي تظهر أمل حظيرة القدس (٩) أي المزكى (١٠) هم الملا السافل (١١) هم الملا الأعلى

أضداد هذه الخصال ليقضى الله أمرا كان مفعولا ، وربما كان المترشح ايلام نفس انسانية أو تنعيمها فسعت الملائكة كل سعى وذهبت كل مذهب ممكن ، وبازاء أولئك آخرون أولو خفة وطيش وافكار مضادة للخير أوجب حدوهم تعفن بخارات ظلمانية هم الشياطين لايزالون يسعون في أضداد ماسعت الملائكة فيه والله أعلم *

﴿ باب ذكر سنة الله التي أشير اليها في قوله تعالى: ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾

إعلم أن بعض أفعال الله يترتب على القوى المودعة في العالم بوجه من وجوه الترتب شهد بذلك النقل والعقل قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ان الله خلق آدم من قبضة (١) قبضها من جميع الارض فجاء بنو آدم على قدر الارض منهم الاحمر والابيض والاسود وبين ذلك والسهل والحزن والخبيث والطيب» وسأله عبد الله ابن سلام ما ينزع الولد (٢) الى ابيه أو الى أمه؟ فقال «إذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد (٣) وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزع» ولا يرى أحدا يشك في أن الامانة تستند الى الضرب بالسيف أو أكل السم وأن خلق الولد في الرحم يكون عقيب صب المنى وأن خلق الحبوب والاشجار يكون عقيب البذر والغرس والسقي ، ولاجل هذه الاستطاعة جاء التكليف وأمروا ونهوا وجوزوا بما عملوا فتلك القوى (٤) منها خواص العناصر وطبائعها، ومنها الاحكام التي أودعها الله في كل صورة نوعية ، ومنها أحوال عالم المثال والوجود المقضى به هنالك قبل الوجود الارضى ، ومنها أدعية الملائكة الأعلى بجهد همهم لمن هذب نفسه أو سعى في اصلاح الناس وعلى من خالف ذلك ، ومنها الشرائع المكتوبة على بنى آدم وتحقق الايجاب والتحریم فانها سبب ثواب المطيع وعقاب العاصي ، ومنها أن يقضى الله تعالى بشيء فيجر ذلك الشيء شيئا آخر لانه لازمه في سنة الله وخرم نظام اللزوم غير مرضى ، والاصل فيه قوله صلى الله عليه وسلم: «إذا قضى الله لعبد أن يموت بارض جعل له اليها حاجة» فكل ذلك نطق به الاخبار وأوجبته ضرورة العقل ﴿ واعلم ﴾ أنه إذا تعارضت الاسباب التي يترتب عليها القضاء بحسب جرى العادة ولم يمكن وجود مقتضياتها أجمع كانت الحكمة حينئذ مراعاة أقرب الاشياء الى الخير المطلق وهذا هو المعبر عنه بالميزان في قوله صلى الله عليه وسلم: «بيده الميزان يرفع القسط ويخفضه» (٥) وبالشأن في قوله تعالى: (كل يوم هو في شأن) ثم الترجيح يكون تارة بحال الاسباب أيها أقوى، وتارة بحال الآثار المترتبة أيها أنفع وبتقديم باب الخلق على باب التدبير ونحو ذلك من الوجوه، فنحن وإن قصر علمنا عن إحاطة الاسباب ومعركة الاحق عند تعارضها نعلم قطعاً انه لا يوجد شيء الا وهو أحق بان يوجد ومن أيقن بما ذكرنا استراح عن اشكالات كثيرة، أما هيآت الكواكب فمن تأثيرها ما يكون ضروريا كاختلاف الصيف والشتاء وطول النهار وقصره باختلاف أحوال الشمس واختلاف الجزر والمد باختلاف أحوال القمر، وجاء في الحديث «إذا طلع النجم (٦) ارتفعت العاهة» يعنى بحسب جرى العادة لكن كون الفقر والغنى والجذب والخصب وسائر

(١) بفتح القاف وضمها ملء الكف اه (٢) أى يشبهه ويجذبه اليه اه (٣) أى جذبه وظهر مشابته فيه اه (٤) أى المترتبة عليها افعال الله اه (٥) أى يرفع ميزان أعمال العباد المرتفعة اليه وارضائهم النازلة من عنده ويخفضه وهو تمثيل لما يقدره الله وينزله، وقيل اراد برفع الميزان تكثير الرزق وخفضه تقليله اه من الاصل (٦) أى الثريا والعاهة الآفة اه (م - ٣ - ج ١ حجة الله البالغة)

«مراد بالبشر: سبب حرثات السكواكب فما لم يثبت في الشرع وقد نهى النبي ﷺ عن الخوض في ذلك فقال: «من اقتبس (١) شعبة من النجوم اقتبس شعبة من السحر» وشدد في قول مطرنا بنوء كذا (٢) ولا أقول نصت الشرع على أن الله تعالى لم يجعل في النجوم خواص تتولد منها الحوادث بواسطة تغير الهواء المكتنف (٣) بالناس ونحو ذلك وأنت خير بان النبي ﷺ نهى عن الكهانة وهي الاخبار عن الجن وبريء عمن أتى كاهنا وصدقه، ثم لما سئل عن حال الكهان أخبر أن الملائكة تنزل في العنان (٤) فتذكر الأمر قضي في السماء فتسترق الشياطين السمح فتوحيه إلى الكهان فيكذبون معها مائة كذبة وإن الله تعالى قال (يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزاً لو كانوا عندنا ماتوا وما قتلوا) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن يدخل أحدكم الجنة عمله» وقال: «إنما أنت رفیق (٥) والطبيب الله» وبالجملة فالنهي يدور على مصالح كثيرة والله اعلم *

(باب حقيقة الروح)

قال الله تعالى: (ويستلونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً) وقرأ الأعمش من رواية ابن مسعود (وما أوتوا من العلم إلا قليلاً) ويعلم من هنالك أن الخطاب لليهود والسائلين عن الروح وليست الآية نصافي أنه لا يعلم أحد من الأمة المرحومة حقيقة الروح كما يظن وليس كل ماسكت عنه الشرع لا يمكن معرفته البتة بل كثيراً ما يسكت عنه لاجل أنه معرفة دقيقة لا يصلح لتعاطيها جمهور الأمة وإن أمكن لبعضهم، واعلم أن الروح أول ما يدرك من حقيقتها أنها مبدأ الحياة في الحيوان وأنه يكون حيابنفخ الروح فيه ويكون ميتاً بمفارقة لها منه ثم إذا أمعن في التأمل ينجلي أن في البدن بخاراً لطيفاً متولداً في القلب من خلاصة الأخلط يحمل القوى الحساسة والمحركة والمديرة للغذاء يجري فيه حكم الطب وتكشف التجربة أن لكل من أحوال هذا البخار من رقة وغلظه وصفاه وكدرته أثراً خاصاً في القوى والأفاعيل المنبجسة من تلك القوى (٦) وأن الآفة الطارئة على كل عضو وعلى توليد البخار المناسب له تفسد هذا البخار وتشوش أفاعيله ويستلزم تكونه الحياة وتحلله الموت فهو الروح في أول النظر والطبقة السفلى من الروح في النظر الممغن، ومثله في البدن كمثل ماء الورد في الورد وكمثل النار في الفحم ثم إذا أمعن في النظر أيضاً انجلي أن هذا الروح مطية للروح الحقيقية ومادة لتعلقها وذلك أنا نرى الطفل يشب ويشيب وتبدل أخلط بدنه والروح المتولدة من تلك الأخلط أكثر من ألف مرة ويصغر تارة ويكبر أخرى ويسود تارة ويبيض أخرى ويكون جاهلاً مرة وعالماً أخرى إلى غير ذلك من الأوصاف المتبدلة والشخص هو هـ، وإن نوقش في بعض ذلك فلنا أن نفرض تلك التغيرات والطفل هو أو نقول لا نجزم ببقاء تلك الأوصاف بحالها ونجزم ببقائه فهو غيرها (٧) فالشيء الذي هو به هو ليس هذا الروح ولا هذا البدن ولا هذه الشخصات

(١) أي حصل شعبة أي فرعاً اهـ (٢) هو بفتح النون وسكون الواو وهمزة بمعنى الغروب والطلوع والعرب كانت تزعم أن الكواكب إذا غاب أو طلع يكون المطر فنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه اهـ منه (٣) أي المحيط (٤) أي الجر (٥) أي ترفق بالمريض وتلطف به والله يبريه ويمافيه (٦) أي المتفرعة منها (٧) لان غير المعلوم فيه المعلوم اهـ

التي تعرف وترى ببادىء الرأى بل الروح فى الحقيقة حقيقة فردانية ونقطة نورانية يجعل طورها عن طور هذه الاطوار المتغيرة المتغيرة التي بعضها جواهر وبعضها أعراض وهى مع الصغير كماهى مع الكبير ومع الاسود كماهى مع الابيض إلى غير ذلك من المتقابلات ولها تعلق خاص بالروح الهوائى أولا وبالبدن ثانيا من حيث ان البدن مطية النسمة (١) وهى كوة (٢) من عالم القدس ينزل منها على النسمة كل ما استعدت له فالأمور المتغيرة انما جاء تغيرها من قبل الاستعدادات الارضية بمنزلة حر الشمس يبيض الثوب ويسود القصار (٣) وقد تحقق عندنا بالوجدان الصحيح ان الموت انفكاك النسمة عن البدن لفقد استعداد البدن لتوليدها لا انفكاك الروح القدس عن النسمة واذا تحملت النسمة فى الامراض المدنفه وجب فى حكمة الله ان يبقى الشئ من النسمة بقدر ما يصح ارتباط الروح الالهى بها كما انك اذا مصصت الهواء من القارورة تخلخل الهواء حتى تبلغ الى حد لا تخلخل بعده فلا تستطيع المص أو تنفقه (٤) القارورة وما ذلك الا لسر ناشئ من طبيعة الهواء فكذلك سر فى النسمة وحد لها لا يجاوزهما الامر واذا مات الانسان كان للنسمة نشأة أخرى فينشئ فيض الروح الالهى فيها قوة فيمابقى من الحس المشترك تكفى كفاية السمع والبصر والكلام بمدد من عالم المثال أعنى القوة المتوسطة بين المجرد والمحسوس المنبثثة فى الافلاك كشيء واحد، وربما تستعد النسمة حينئذ للباس نورانى أو ظلمانى بمدد من عالم المثال ومن هنالك تتولد عجائب عالم البرزخ ثم اذا نفخ فى الصور أى جاء فيض عام من بارىء الصور بمنزلة الفيض الذى كان منه فى بدء الخلق حين نفخت الارواح فى الاجساد وأسس عام المواليد وأوجب فيض الروح الالهى ان يكتسى لباسا جسمانيا أو لباسا بين المثال والجسم فيتحقق جميع ما أخبر به الصادق المصدوق عليه أفضل الصلوات وأيمن التحيات، ولما كانت النسمة برزخا متوسطا بين الروح الالهى والبدن الارضى وجب أن يكون لها وجه إلى هذا ووجه الى ذلك والوجه المائل إلى القدس هو الملكية والوجه المائل الى الأرض هو البهيمية، ولنقتصر من حقيقة الروح على هذه المقدمات لتسلم فى هذا العلم وتفرع عليها التفاريع قبل ان ينكشف الحجاب فى علم أعلى من هذا العلم والله اعلم *

﴿ باب سر التكليف ﴾

قال الله تعالى: (انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان إنه كان ظلوما جهولا ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفورا رحما) نبه الغزالي والبيضاوى وغيرهما على أن المراد بالامانة تقلد عهدة التكليف بان تتعرض (٥) لخطر الثواب والعقاب بالطاعة والمعصية، وبعرضها عليهن اعتبارها بالاضافة الى استعدادهن وبابائهن الالباء الطبيعى الذى هو عدم اللياقة والاستعداد وبحمل الانسان قابليته واستعداده لها *

﴿ أقول ﴾ وعلى هذا فقوله تعالى (إنه كان ظلوما جهولا) خرج مخرج التعليل فان الظلوم من لا يكون عادلا ومن شأنه أن يعدل والجهول من لا يكون عالما ومن شأنه أن يعلم وغير الآدمى إما عالم عادل لا يتطرق اليه الظلم والجهل كالملائكة وإما ليس بعادل ولا عالم ولا من شأنه أن يكسبها كالبهائم

(١) النسمة محرقة نفس الروح أى الروح الهوائى اه (٢) أى ثقب اه (٣) أى الفاعل للصنعة (٤) أى تنكسر اه (٥) أى السموات والارض وغيرها اه

وانما يليق بالتكليف ويستعد له من كان له كمال بالقوة لا بالفعل، واللام في قوله تعالى (ليعذب) لام العاقبة (١) فإنه قال عاقبة حمل الامانة التعذيب والتنعيم، وان شئت ان تستجلى (٢) حقيقة الحال فعليك أن تتصور حال الملائكة في تجردها لا يزعمها حالة ناشئة من تفريط القوة البهيمية كالجوع والعطش والخوف والحزن أو إفراطها كالشبق والغضب والتهيه (٣) ولا يهتمها التغذية والتنمية ولو احققهما وانما تبقى فارغة لا انتظار ما يرد عليها من فوقها فاذا ترشح عليها أمر من فوقها من اجماع على اقامة نظام مطلوب أو رضا من شيء أو بغض شيء امتلأت به وانقادت له وانبعثت الى مقتضاه وهي (٤) في ذلك فانية عن مراد نفسها باقية بمراد ما فوقها، ثم تتصور حال البهائم في تلطخها بالهيات الخسيسة لا تزال مشغوفة بمقتضيات الطبيعة فانية فيها لا تنبعث إلى شيء إلا انبعاثا بهيميا يرجع الى نفع جسدى واندفاع الى مانع طيه الطبيعة فقطه ثم تعلم ان الله تعالى قد أودع الانسان بحكمته الباهرة قوتين قوة ملكية تتشعب من فيض الروح المخصوصة بالانسان على الروح الطبيعية السارية في البدن وقبولها ذلك الفيض وانقهارها له، وقوة بهيمية تتشعب من النفس الحيوانية المشترك فيها كل حيوان المتشعبة بالقوى القائمة بالروح الطبيعية واستقلالها بنفسها واذعان الروح الانسانية لها وقبولها الحكم منها، ثم تعلم أن بين القوتين نزاحما وتجاديا فهذه تجذب الى العلو دون تلك الى السفل و اذا برزت البهيمية وغلبت آثارها كمنت الملكية وكذلك العكس وان للبارى جل شأنه عناية بكل نظام وجودا بكل ما يسأله الاستعداد الاصلى والكسبى فان كسب هيات بهيمية أمد فيها ويسر له ما يناسبها وان كسب هيات ملكية أمد فيها ويسر له ما يناسبها كما قال الله عز وجل (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى) وقال (كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا) وان لكل قوة لذة وألم فاللذة ادراك ما يلائمها والالم ادراك ما يخالفها وما أشبه حال الانسان بحال من استعمل مخدرا في بدنه فلم يجد ألم لفح النار حتى اذا ضعف أثره ورجع الى مانع طيه الطبيعة وجد الالم أشد ما يكون أو بحال الورد على ما ذكره الاطباء ان فيه ثلاث قوى قوة أرضية تظهر عند السحق والطلاء، وقوة مائية تظهر عند العصر والشرب، وقوة هوائية تظهر عند الشم، فتبين أن التكليف من مقتضيات النوع وان الانسان يسأل ربه بلسان استعداده أن يوجب عليه ما يناسب القوة الملكية ثم يثيب على ذلك وان يحرم عليه الانهماك في البهيمية ويعاقب على ذلك والله أعلم *

(باب انشقاق التكليف من التقدير)

اعلم أن الله تعالى آيات في خلقه يهتدى الناظر فيها إلى أن الله له الحجة البالغة في تكليفه لعباده بالشرائع فانظر إلى الاشجار وأوراقها وأزهارها وثمراتها وما في كل ذلك من الكيفيات المبصرات والمذوقة وغيرها فانه جعل لكل نوع أوراقا بشكل خاص وأزهارا بلون خاص وثمارا مختصة بطعوم، وبذلك الأمور يعرف أن هذا الفرد

(١) انما حمل اللام على العاقبة لانه ان تعلق بقوله عرضنا فأفعال الله تعالى غير معاملة بالاغراض وان تعلق بقوله حملها الانسان فلا يصح كون تعذيب الله وتنعيمه عرضا للانسان في حمل الامانة لان الغرض ما يكون باعثا للاماعل على الفعل الاختياري والحمل ههنا المراد منه القابلية والاستعداد وهو ليس باختياري فتعين جعل اللام للعاقبة كما في قوله (ليكون لهم عدوا وحزنا) (٢) أى تعلم وتكشف اه (٣) هو العجب اه (٤) أى الملائكة اه

من نوع كذا وكذا وهذه كلها تابعة للصورة النوعية ملتوية معها إنما تجيء من حيث جاءت الصورة النوعية وقضاء الله تعالى بأن تكون هذه المادة نخلة مثلا مشتبك مع قضائه التفصيلي بأن تكون ثمرتها كذا وخواصها (١) كذا ومن خواص النوع ما يدركه كل من له بال ومن خواصه ما لا يدركه إلا الأملعى الفطن كتماثير الياقوت في نفس حامله بالتفريح والتشجيع ومن خواصه ما يعم كل الافراد ومن خواصه ما لا يوجد الا في بعضها حيث تستعد المادة كالأهليلج الذي يسهل بطن من قبض عليه بيده وليس لك أن تقول لم كانت ثمرة النخل على هذه الصفة؟ فإنه سؤال باطل لأن وجود لوازم الماهيات معها لا يطلب (بلم)، ثم انظر الى أصناف الحيوان تجد لكل نوع شكلا وخلقة كما تجد في الأشجار وتجد مع ذلك لها حركات اختيارية والهائمات طبيعية وتديرات جبلية يمتاز كل نوع بها فبهيمة الأنعام ترعى الحشيش وتجتز (٢) والفرس والحمار والبغل ترعى الحشيش ولا تجتز، والسباع تأكل اللحم. والطيور يطير في الهواء والسماك يسبح في الماء. وكل نوع من الحيوان صوت غير صوت الآخر ومسافدة (٣) غير مسافدة الآخر وحضانة للأولاد غير حضانة الآخر وشرح هذا يطول، وما ألهم نوعا من الأنواع الا علوما تناسب مزاجه وإلا ما يصلح به ذلك النوع.

وكل هذه الهائمات تترشح عليه من جانب بارتها من كوة (٤) الصورة النوعية ومثلها مثل تخاطيط (٥) الأزهار وطعوم الثمرات في تشابكها مع الصورة النوعية، ومن احكام النوع ما يعم الافراد ومنها ما لا يوجد الا في البعض حيث تستعد المادة وتتفق الاسباب وان كان أصل الاستعداد يعم الكل كالعسوب (٦) من بين النحل والبيغاء يتعلم محاكاة أصوات الناس بعد تعليم وتمرين ثم انظر الى نوع الانسان تجده ما وجدت في الأشجار وما وجدت في اصناف الحيوان كالسعال والتمطى والجشاء (٧) ودفع الفضلات ومص الثدي في أول نشأته وتجد مع ذلك فيه خواص يمتاز بها من سائر الحيوان منها النطق وفهم الخطاب وتوليد العلوم الكسبية من ترتيب المقدمات البديهية أو من التجربة والاستقراء والحدس (٨) ومن الاهتمام بآور يستحسنها بعقله ولا يجدها بحسه ولا وهمه كتهذيب النفس وتسخير الاقاليم تحت حكمه ولذلك يتوارد على أصول هذه الامور جميع الامم حتى سكان شواحق الجبال وما ذلك الا لسر ناشيء من جذر صورته النوعية وذلك السر أن مزاج الانسان يقتضى أن يكون عقله قاهرا على قلبه وقلبه قاهرا على نفسه، ثم انظر الى تدبير الحق لكل نوع وتربيته إياه ولطفه به فلما كان النبات لا يحس ولا يتحرك جعل له عروقا تمص المادة المجتمعة من الماء والهواء ولطيف التراب ثم يفرقها في الاغصان وغيرها على تقسيم تعطيه الصورة النوعية، ولما كان الحيوان حساسا متحركا بالارادة لم يجعل له عروقا تمص المادة من الارض بل ألهمه طلب الحبوب والحشيش والماء من مظانها والهمه جميع ما يحتاج اليه من الارتفاقات والنوع الذي لا يتكون من الارض تكون الديدان منها دبر الله تعالى له بأن أودع فيه قوى التناسل وخلق في الانثى رطوبة يصرفها الى تربية الجنين ثم حولها لبنا خالصا وألهم المتولد مص الثدي وازدرا (٩) اللبن وجعل في الدجاجة رطوبة يصرفها الى تكوين البيض فاذا باضت أصابها يابس وخلو جوف يحملانها

(١) شكوفه اه (٢) من الجرة بالكسر، تشخوار هندي جكال اه (٣) اي بجامعة والحضانة التربيه (٤) بفتح الكاف وضمها بمعنى النقب اه (٥) اي خطرط اه (٦) هو امير النحل والبيغاء طوطا اه (٧) خميازه والجشاء أردغ اه (٨) بكان سخن كفتي (٩) ابتلاع اه

على جنون يستدعى ترك مخالطة بني نوعها واستحباب حضانة شيء تسد به جوفها وجعل من طبع الحمامة الانس
بين ذكرها وأنثاها وجعل نحر جوفها هو الحامل (١) على حضانة البيض ثم جعل رطوبتها البالية تتوجه الى
التموج (٢) وجعل لها راحة على الفرخ (٣) وجعل رحمتها مع الرطوبة البالية سببا لتهوئها ودفع الحبوب والماء
الى جوف فرخها وجعل الذكر منها بسبب الانس يقلد أنثاها وخاق للفرخ مزاجا رطبا ثم حول رطوبتها ريشا
تطير به ولما كان الانسان مع احساسه وتحركه وقبوله الالهامات الجبلية والعلوم الطبيعية ذا عقل وتوليد للعلوم
الخشبية ألهمه الزرع والغرس والتجارة والمعاملة وجعل منهم السعيد بالطبع والاتفاق والعبد بالطبع والاتفاق وجعل
منهم الملوك والرعية وجعل منهم الحكيم المتكلم بالحكمة الالهية والطبيعية والرياضية والعملية وجعل منهم الغبي الذي
لا يهتدى لذلك (٤) الا بضرب من تقليد، ولذلك ترى أمم الناس من أهل البوادي والحضر متواردين على هذه
وهذا طه شرح الخواص والتدبيرات الظاهرة المتعلقة بقوته البهيمية وارتفاقاته المعاشية ثم انتقل الى قوته الملكية،
واعلم أن الانسان ليس كسائر أنواع الحيوان بل له ادراك أشرف من ادراكاتهم ومن علومه التي يتواردها عليها أكثر
أفرادهم غير من عصت ماداته أحكام نوعه التفتيش عن سبب ايجاده وتربيته والتنبيه باثبات مدبر في العالم هو أوجده ورزقه
والتضرع بين يدي بارئه ومدبره بهيمته وعلمه حسب ما يتضرع اليه هو وجميع أبناء جنسه (٥) دائما سرمدًا بلسان الحال
وهو قوله تعالى: (ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الارض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر
والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب) أليس أن كل جزء من الشجرة من أغصانها وأوراقها
وأزهارها متكفف (٦) يده الى النفس النباتية المدبرة في الشجرة دائما سرمدًا فلو كان لكل جزء منها
عقل لحمد النفس النباتية حمدًا غير حمد الآخر ولو كان له فهم لانطبع (٧) التكفف الحالى في علمه وصار تكففًا بالهمة،
فاعلم من هناك أن الانسان لما كان ذا عقل ذكى انطبع في نفسه التكفف العلمى حسب التكفف الحالى ومن
خواصه أيضا أن يكون في نوع الانسان من له خلوص الى منبع العلوم العقلية يتلقاها منه وحيا او حدسا
أورؤيا وأن يكون آخرون قد تفرسوا من هذا الكامل آثار الرشد والبركة فانقادوا له فيما يأمر وينهى وليس
فرد من أفراد الانسان إلا له قوة للتخلص الى الغيب برؤيا يراها أو برأى يبصره أو هتيف يسمعه او حدس
يتفطن له الا ان منهم الكامل ومنهم الناقص والناقص يحتاج الى الكامل وله صفات يحل طورها عن طور صفات
البهائم كالخشوع والنظافة والعدالة والسماحة وظهور بوارق الجبروت والملايكوت من استجابة الدعاء وسائر
الكرامات والاحوال والمقامات والامور التي يمتاز بها الانسان من سائر أفراد الحيوان كثيرة جدًا لكن جماع
الامر وملاكه خصلتان، احدهما زيادة القوة العقلية ولها شعبتان شعبة غائصة (٨) في الارتفاقات لمصلحة
نظام البشر واستنباط دقائقها وشعبة مستعدة للعلوم الغيبية الفائضة بطريق الوهب، وثانيهما براعة القوة
العملية ولها أيضا شعبتان شعبة هي ابتلاعها للاعمال من طريق بلعوم (٩) اختيارها وارادتها فالبهائم تفعل
أفعالا بالاختيار ولا تدخل أفعالها في جدر (١٠) انفسها ولا تتلون انفسها بارواح تلك الافعال وانما تلتصق
بالقوى القائمة بالروح الهوائي فقط فيسهل عليها صدور أمثالها والانسان يفعل أفعالا فتفى الافعال وتنزع

(١) اي الباعث (٢) النقى (٣) الفرخ الولد (٤) اي الحكمة (٥) اي الجنس البعيد اه (٦) اي سائل طالب ما يديه اليها
(٧) اي اتعش والتكفف السؤال اه (٨) اي نازلة اه (٩) مجرى الطعام من الحلق اه (١٠) اي اصل اه

منها أرواحها فتبلعها النفس فيظهر في النفس إيمانور وإما ظلم، وقول الشرع شرط المؤاخذة على الأفعال أن يفعلها بالاختيار بمنزلة قول الطبيب شرط الضرر بالسهم والانتفاع بالترياق أن يدخل في البلعوم وينزل في الجوف وأما ما قلنا أن النفس الانسانية تطلع من أرواح الأعمال ما اتفق عليه أمم بني آدم من عمل الرياضات والعبادات ومعرفة أنوار كل ذلك وجدانا ومن الكف عن المعاصي والمنهيات ورؤية قسوة كل ذلك وجدانا وشعبة هي أحوال ومقامات سنية كمحبة الله والتوكل عليه مما ليس في البهائم جنسها، واعلم انه لما كان اعتدال مزاج الانسان بحسب ما تعطيه الصورة النوعية لا يتم الا بعلوم يتخلص اليها ازكاهم ثم يقلده الآخرون وبشرية تشتمل على معارف إلهية وتديرات اتفاقية وقواعد تبحث عن الأفعال الاختيارية وتقسّمها الى الأقسام الخمسة من الواجب والمندوب اليه والمباح والمكروه والحرام ومقدمات تبين مقامات للاحسان وجب في حكمة الله تعالى ورحمته ان يهيء في غيب قدسه ١ زق قوته العقلية يخلص اليه أزكاهم فيلقاه من هنالك وينقاد له سائر الناس بمنزلة ما ترى في نوع النحل من يعسوب يدبر لسائر افرادها لولا هذا التلقى بواسطة ولا بواسطة لم يكمل كماله المكتوب له فكما ان المستبصر اذا رأى نوعا من أنواع الحيوان لا يتعشش الا بالحشيش استيقن أن الله دبر له مرعى فيه حشيش كثير فكذلك المستبصر في صنع الله يستيقن ان هنالك طائفة من العلوم يسد بها العقل خلته فيكمل كماله المكتوب له وتلك الطائفة منها علم التوحيد والصفات ويجب ان يكون مشروحا بشرح يناله العقل الانساني بطبيعته لا مغلقا لا يناله الا من يندر وجود مثله فشرح هذا العلم بالمعرفة المشار اليها بقوله سبحانه الله وبحمده فاثبت لنفسه صفات يعرفونها ويستعملونها بينهم من الحياة والسمع والبصر والقدرة والارادة والكلام والغضب والسخط والرحمة والملك والغنى واثبت مع ذلك انه ليس كمثل شيء في هذه الصفات فهو حي لا لحياتنا بصير لا كبصيرنا قدير لا كقدرتنا مريد لا كإرادتنا متكلم لا ككلامنا ونحو ذلك، ثم فسر عدم المماثلة بامور مستبعدة في جنسنا مثل أن يقال يعلم عدد قطر الامطار وعدد رمل الفيافي (١) وعدد أوراق الاشجار وعدد أنفاس الحيوانات ويبصر ديب النمل في الليلة الظلماء ويسمع ما يتوسوس به تحت اللحف في البيوت المغلقة عليها ابوابها ونحو ذلك، ومنها علم العبادات، ومنها علم الارتفاقات (٢) ومنها علم الخاصمة أعنى أن النفوس السفلية اذا تولدت بينها شبهات تدافع بها الحق كيف يحل تلك العقد، ومنها علم التذكير بآلاء الله وبأيام الله (٣) وبوقائع البرزخ والمحشر (٤) فنظر الحق تبارك وتعالى في الازل الى نوع الانسان والى استعداد الذي يتوارثه ابناء النوع ونظر الى قوته الملكية والتدبير الذي يصلحه من العلوم المشروحة حسب استعداده فتمثلت تلك العلوم كلها في غيب الغيب محدودة ومحصورة وهذا التمثل هو الذي يعبر عنه الاشاعرة بالكلام النفسى وهو غير العلم وغير الارادة والقدرة ثم لما جاء وقت خلق الملائكة علم الحق أن مصلحة افراد الانسان لا تتم الا بنفوس كريمة نسبتها الى نوع الانسان كنسبة القوى العقلية في الواحد منا الى نفسه فاوجدتهم بكلمة (كن) بمحض العناية بافراد الانسان فاودع في صدورهم ظلا من تلك العلوم المحدودة المحصورة في غيب غيبه فتصورت (٥) بصورة روحية واليهم الاشارة في قوله تبارك وتعالى: (الذين يحملون العرش ومن حوله) الآية، ثم لما جاء

(١) هي الصحارى اه (٢) طوق الانتفاعات اه (٣) اى انواع عقوباته الغامضة ونعمه الباطنه التى افاضها على الامم السابقة واللاحقة اه (٤) من وقت الموت الى القيامة اه (٥) أى الملائكة

بعض القرانات المقتضية لتخير الدول والملل قضى بوجود روحاني آخر لتلك العلوم فصارت مشروحة مفصلة بحسب ما يليق بتلك القرانات واليهما الإشارة في قوله تعالى: (انا انزلناه في ليلة مباركة انا كنا منذرين فيها يفرق كل أمر حكيم) ثم انتظرت حكمة الله لوجود رجل زكى يستعد للوحى قد قضى بعلو شأنه وارتفاع مكانه حتى اذا وجد اصطنعه لنفسه واتخذ جازحة لاتمام مراده وانزل عليه كتابه وأوجب طاعته على عبادته وهو قوله تعالى لموسى عليه السلام: (واصطنعتك لنفسى) فما أوجب تعيين تلك العلوم في غيب الغيب الا العناية بالنوع ولا سأل الحق فيضان نفوس الملاء الأعلى الاستعداد النوع ولا ألح عند القرانات بسؤال تلك الشريعة الخاصة بالأحوال النوع فلله الحجة البالغة ((فان قيل)) من أين وجب على الانسان أن يصلى ومن أين وجب عليه أن ينقاد للرسول ومن أين حرم عليه الزنا والسرقة؟ ((فالجواب)) وجب عليه هذا وحرم عليه ذلك من حيث وجب على البهائم أن ترعى الحشيش وحرم عليه أكل اللحم ووجب على السباع أن تاكل اللحم ولا ترعى الحشيش ومن حيث وجب على النحل أن يتبع اليعسوب الا ان الحيوان استوجب تلقى علومها الهاماجبليا واستوجب الانسان تلقى علومه كسبا ونظرا أو وحيا أو تقليدا *

((باب اقتضاء التكليف المجازاة))

اعلم أن الناس مجزيون بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر من أربعة وجوه: أحدها مقتضى الصورة النوعية فكما أن البهيمة اذا علفت الحشيش والسبع اذا علف اللحم صح مزاجهما واذا علفت البهيمة اللحم والسبع الحشيش فسد مزاجهما فكذلك الانسان اذا باشر أعمالاً أرواحها الخشوع بجناب الحق والطهارة والسماحة والعدالة صالح مزاجه الملكى واذا باشر أعمالاً أرواحها اضداد هذه الخصال فسد مزاجه الملكى فاذا تخفف عن ثقل البدن أحس بالملاءمة والمنافرة شبه ما يحس احدنا من ألم الاحتراق وثانيها جهة الملاء الأعلى فكما أن الواحد منها له قوى إدراكية مودعة في الدماغ يحس بها ما وقعت عليه قدمه من جمرة أو ثلجة فكذلك بصورة الانسان المتمثلة في الملكوت خدام من الملائكة اوجدها عناية الحق بنوع الانسان لان نوع الانسان لا يصلح إلا بهم كما ان الواحد منا لا يصلح الا بالقوى الادراكية فكما فعل فرد من افراد الانسان فعلا منجيا خرجت من تلك الملائكة اشعة بهجة وسرور وكلما فعل فعلا مهلكا خرجت منها اشعة نفرة وبغض فحلت تلك الاشعة في نفس هذا الفرد فاورثت بهجة أو وحشة أو في نفوس بعض الملائكة أو بعض الناس فانهقد الالهام أن يحبوه ويحسنوا اليه أو يبغضوه ويسئوا اليه شبه ما ترى من أن احدنا اذا وقعت رجله على جمرة احست قواه الادراكية بالاحتراق ثم خرجت منها اشعة تؤثر في القلب فيحزن وفي الطبع فيحجم (١) وتأثير أولئك الملائكة فيناشبيه بتأثير الادراكات في ابداننا فكما أن الواحد منا قد يتوقع المأ أو ذلاً فترتعد فرائصه (٢) ويصفر لونه ويضعف جسده وربما تسقط شهوته ويحمر بوله وربما بال أو خرىء من شدة الخوف فهذا كله تأثير القوى الادراكية في الطبيعة ووحيا اليها وقهرها عليها فكذلك الملائكة الموكلة ببنى آدم يترشح منها عليهم وعلى نفوس الملائكة السفلية إلهامات جبليه وحالات طبيعية وافراد الانسان كلها بمنزلة القوى الطبيعية لهذه الملائكة بمنزلة القوى الادراكية لهم وكما تهبط تلك الاشعة الى السفلى فكذلك يصعد الى حظيرة القدس

(١) أى يذوب (٢) جمع فريضة وهى اللحمة بين الجنب والكف وترتعد أى تضطرب من الخوف

منها لون يعد لفيضان هيئة تسمى بالرحمة والرضاء والغضب واللعن مثل إعداد مجاورة النار الماء لتسخينه وإعداد المقدمات للنتيجة وإعداد الدعاء للاجابة فيتحقق التجدد في الجبروت من هذا الوجه فيكون غضب ثم نوبة ويكون رحمة ثم نقمة قال الله تعالى: (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم في أحاديث كثيرة أن الملائكة ترفع أعمال بني آدم الى الله تعالى وان الله يسألهم كيف تركتم عبادي؟ وان عمل النهار يرفع اليه قبل عمل الليل ينبه صلى الله عليه وسلم على ضرب من توسط الملائكة بين بني آدم وبين نور الله القائم وسط حظيرة القدس * وثالثها مقتضى الشريعة المكتوبة عليهم فكما يعرف المنجم أن الكواكب اذا كان لها نظر من النظرات حصلت روحانية ممتزجة من قواها متمثلة في جزء من الفلك فاذا نقلها إلى الأرض ناقل أحكام الفلكيات - أعنى القمر - انقلبت خواطرهم حسب تلك الروحانية فكذلك يعرف العارف بالله انه اذا جاء وقت من الأوقات تسمى في الشرع بالليلة المباركة التي فيها يفرق كل أمر حكيم حصلت روحانية في الملكوت ممتزجة من أحكام نوع الانسان ومقتضى هذا الوقت يترشح من هنالك إلهامات على أذى خلق الله يومئذ وعلى نفوس تليه في الذكاء بواسطته ثم يلهم سائر الناس قبول تلك الإلهامات واستحسانها ويؤيد ناصرها ويخذل معاندها وتلهم الملائكة السفلية الاحسان لمطيعيها والاساءة الى عاصيها ثم يصعد منها لون الى الملائكة الاعلى وحظيرة القدس فيحصل هنالك رضا وسخط رابعها أن النبي اذا بعث في الناس وأراد الله تعالى يبعثه لطفاً بهم وتقريباً لهم إلى الخير وأوجب طاعته عليهم صار العلم الذي يوحى اليه متشخصاً متمثلاً وامتزج بهمة هذا النبي ودعائه وقضاء الله تعالى بالنصر له فتأكد وتحقق ، أما المجازاة بالوجهين الاولين (١) ففطرة فطر الله الناس عليها ولن تجد لفطرة الله تبديلاً وليس ذلك الا في أصول البر والاثم وكلياتها دون فروعها وحدودها وهذه الفطرة هو الدين الذي لا يختلف باختلاف الأعصار ، والأنبياء كلهم مجمعون عليه كما قال تبارك وتعالى (وان هذه أمتكم أمة واحدة) وقال صلى الله عليه وسلم: «الأنبياء بنوعلات أبوهم واحد وأمهاتهم شتى» والمواخذة على هذا القدر متحققة قبل بعثة الأنبياء وبعدها سواء ، وأما المجازاة بالوجه الثالث (٢) فمختلفة باختلاف الأعصار وهي الحاملة على بعث الأنبياء والرسل واليها الإشارة في قوله صلى الله عليه وسلم: «انما مثلى ومثل ما بعثنى الله به كمثل رجل أتى قوما فقال يا قوم انى رأيت الجيش بعينى وانى أنا النذير العريان فالنجاء النجاء (٣) فطاعه طائفة من قومه فادجلوا (٤) فانطلقوا على مهلهم فنجوا وكذبت طائفة منهم فاصبحوا مكانهم فصبحهم الجيش فاهلكهم واجتاحهم (٥) فكذلك مثل من أطاعنى فاتبع ما جئت به ومثل من عصانى وكذب ما جئت به من الحق (٦) وأما المجازاة بالوجه الرابع فلا تكون الا بعد بعثة الأنبياء وكشف الشبهة وصحة التبليغ (ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة) *

(١) أى بمقتضى الصورة النوعية وجهة الملائكة الاعلى اه (٢) أى مقتضى الشريعة اه (٣) أى اطلبوا الخلاص اه (٤) أى ساروا من اول الليل وقوله: «على مهلهم» أى سكينتهم اه (٥) أى استأصلهم اه (٦) أى بعثة النبي ﷺ اه
(م ٤ - ج ١ حجة الله البالغة)

﴿ باب اختلاف الناس في جبلتهم المستوجب لاختلاف أخلاقهم وأعمالهم ومراتب عالمهم ﴾

والأصل فيه ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إذا سمعتم بجبل زال عن مكانه فصدقوه وإذا سمعتم برجل تغير عن خلقه فلا تصدقوا به فإنه يصير إلى ما جبل عليه - وقال - إلا أن بني آدم خلقوا على طبقات شتى فمنهم من يولد مؤمناً» فذكر الحديث بطوله وذكر طبقاتهم في الغضب وتقاضى الدين وقال «الناس معادن كعادن الذهب والفضة (١)» وقال الله تعالى: (قل كل يعمل على شاكلته) أى طريقته التى جبل عليها، وإن شئت أن تستجلي ما فتح الله على فى هذا الباب وفهمنى من معانى هذه الأحاديث ﴿فاعلم﴾ أن القوة الملكية تخلق فى الناس على وجهين، أحدهما الوجه المناسب بالملاء الأعلى الذين شأنهم الانصباع بعلوم الاسماء والصفات ومعرفة دقائق الجبروت وتلقى نظام على وجه الاحاطة به واجتماع الهمة على طلب وجوده، والثانى الوجه المناسب بالملاء السافل الذين شأنهم انبعاث بداعية تترشح عليهم من فوقهم من غير احاطة ولا اجتماع الهمة ولا المعرفة ونورانية ورفض للالوات البهيمية، وكذلك القوة البهيمية تخلق على وجهين، أحدهما البهيمية الشديدة الصفيقة (٢) كهيئة الفحل الفاره (٣) الذى نشأ فى غذاء غزير وتدير مناسب فكان عظيم الجسم شديده جهورى (٤) الصوت قوى البطش ذا همة نافذة وتيه عظيم وغضب وحسد قوين وشبق وافر منافسا فى الغلبة والظهور شجاع القلب، والثانى البهيمية الضعيفة المهلهلة كهيئة الحيوان الخصى المخدج (٥) الذى نشأ فى جذب وتدير غير مناسب فكان حقير الجسم ضعيفه ر كيك الصوت ضعيف البطش جبان القلب غير ذى همة ولا منافسة فى الغلبة والظهور، والقوتان جميعا لهما جبلة تخصص أحد وجهيهما أو كسب يؤيده ويقويه ويمد فيه واجتماع القوتين فيهم أيضا يكون على وجهين فتارة تجتمعان بالتجاذب (٦) تكون كل واحدة متوفرة فى طلب مقتضياتها طامحة فى أقصى غاياتها مريدة سننها الطبيعى فلا جرم أن يقع بينهما التجاذب فإن غلبت هذه اضمحلت آثار تلك وكذلك العكس، وتارة بالاصطلاح (٧) بان تنزل الملكية عن طلب حكمها الصراح (٨) الى ما يقرب منه من عقل وسخاوة نفس وعفة طبع وايتار النفع العام على انتفاع نفسه خاصة والنظر الى الآجل دون الاقتصار على العاجل وحب النظافة فى جميع ما يتعلق به وتترقى البهيمية من طلب حكمها الصراح الى ما ليس يبعد من رأى الكلى ولا مضاد له فتصطلحان (٩) ويحصل مزاج لا تخالف فيه ولكل من مرتبتي الملكية والبهيمية والاجتماع طرفان ووسط وما يقرب من طرف أو وسط وكذلك تذهب الاقسام الى غير النهاية إلا أن رءوس الاقسام المنفرزة بأحكامها التى يعرف غيرها بمعرفتها ثمانية حاصلة من انقسام الاجتماع بالتجاذب إلى أربعة ملكية عالية تجتمع مع بهيمية شديدة أو ضعيفة أو ملكية سافلة تجتمع مع بهيمية شديدة أو ضعيفة

- (١) أى متفاوتون فى النسب والقبول لفيض الله كتفاوت المعادن فى الذهب والفضة وغيرهما اه
(٢) تفسيره بالفارسية سخت اه (٣) أى القوى وقوله غزير أى كثير اه (٤) أى رفيع وقوله تيه أى تكبر وقوله شبق أى شهوة وقوله المهلهلة أى الرقيقة اه (٥) خدجت الناقة جاءت بولد ناقص فهمى مخدج بالكسر والولد مخدج وقوله جذب أى قحط اه (٦) أى التزاحم، وقوله طامحة أى رافعة لغيرها اه (٧) صلح كردن اه (٨) أى الخالص اه (٩) أى الملكية والبهيمية اه

والاجتماع بالاصطلاح أيضا الى أربعة مثلها ولكل قسم حكم لا يختلف من وفق لمعرفة أحكامها استراح من تشويشات كثيرة، ونحن نذكر ههنا من ذلك ما يحتاج اليه في هذا الكتاب، فأحوج الناس الى الرياضات الشاقة من كانت بهيمته شديدة لاسيما صاحب التجاذب واحظاها (١) بالسكال من كانت ملكيته عالية لكن صاحب الاصطلاح أحسنهم عملا وآدبهم وصاحب التجاذب اذا انفتحت من أسر البهيمية أكثرهم علما ولا يزال بآداب العمل كثير مبالاة وأزهدهم في الامور العظام (٢) أضغفهم بهيمية لكن صاحب العالية يترك الكل تفرغا للتوجه الى الله وصاحب السافلة ان انفتحت بتركه للاخرة وإلا يتركه لسلا ودعة وأشدهم اقتحاما (٣) في الامور العظام أشدهم بهيمية لكن صاحب العالية أقومهم بالرياضات ونحوها بما يناسب الرأي الكلي وصاحب السافلة أشدهم اقتحاما في نحو القتال وحمل الاثقال وصاحب التجاذب إذا اندفع الى الاسفل اشتغل بالامر الديوي فقط وإذا ترقى الى الاعلى اشتغل بالامر الديني وتهذيب النفس وتجريدها فقط، وصاحب الاصطلاح يشتغل بهما جميعا ويقصدهما مرة واحدة ومن كانت عاليته منهم في غاية العلو ينبعث الى رئاسة الدين والدنيا معا ويصير باقيا بمراد الحق وبمنزلة الجارحة (٤) له في تمام نظام كلى كالحلاقة وإمامة الملة وأولئك هم الانبياء وورثتهم وأساطين الناس وسلاطينهم وأولو الامر منهم والذين يجب انقيادهم في دين الله أهل الاصطلاح العالية ملكيتهم وأطوعهم لأولئك أهل الاصطلاح السافلة ملكيتهم فانهم يتلقون النواميس (٥) بأشباحها وهيئاتها وأطرفهم منهم أهل التجاذب لانهم إما منهمكون في ظلمات الطبيعة فلا يقيمون السنة الراشدة أو قاهرون عليها فان كانوا أهل علو عضوا (٦) على أرواح النواميس وكانت لهم مساحة في أشباحها وكان أكثر هممتهم معرفة دقائق الجبروت والانسباغ بصيغها وإن كانوا دون ذلك اهتموا بالرياضات والاوراد وأعجبوا ببوارق الملكية من كشف وإشراف واستجابة الدعاء ونحو ذلك ولم يعضوا من النواميس بحذر قلوبهم الا على جبل قهر الطبيعة وجلب الانوار، فهذه اصول اعطانيها ربي من اتقنها استجلى أحوال أهل الله ومبلغ كمالهم ومطمح اشاراتهم عن انفسهم وخرج مراتب سلوكهم (وذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون) ٥

(باب في اسباب الخواطر الباعثة على الاعمال)

اعلم أن الخواطر التي يحدها الانسان في نفسه وتبعته على العمل به وجبها لاجرم أن لها أسبابا كسنة الله تعالى في سائر الحوادث والنظر والتجربة يظهر أن منها - وهو أعظمها - جيلة الانسان التي خلق عليها كما نبه النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي روينا من قبل (٧) ومنها مزاجه الطبيعي المتغير بسبب التدبير المحيط به من الاكل والشرب ونحو ذلك كالجائع يطلب الطعام والظما أن يطلب الماء والمغتم يطلب النساء ورب انسان يأكل غذاء يقوى الباءة (٨) فيميل الى النساء ويحدث نفسه بأحاديث تتعلق بهن وتصير هذه مهيجة له على

(١) أي أرقهم، وقوله انفتحت أي تخلص اه

(٢) كالجهاد ونحوه، وقوله دعة أي استراحة اه (٣) أي دخولا اه (٤) أي العضو (٥) أي الاسرار الالهية، وقوله

وهيئاتها أي صورها، وقوله أطرفهم أي أبعدهم اه (٦) أي تمسكوا، وقوله مساحة أي اعراض اه (٧) في باب اختلاف

الناس في جبلتهم من قوله إذا سمعتمهم يحبل زال عن مكانه الخ اه (٨) أي الشهوة اه

كثير من الافعال، ورب انسان يغتذى غذاء شديدا فيقسمو قلبه ويجترىء على القتل ويغضب في كثير مما لا يغضب فيه غيره ثم اذا ارتاض هذان أنفسهما بالصيام والقيام أو شابا وكبرا أو مرضا مرضا مدنفا (١) تغير أكثر ما كانا عليه ورقت قلوبهما وعفت نفوسهما ولذلك ترى الاختلاف بين الشيوخ والشباب ورخص النبي صلى الله عليه وسلم للشيخ في القبلة وهو صائم ولم يرخص للشباب، ومنها العادات والمألوفات فان من أكثر ملابسة شيء وتمكن من لوح نفسه ما يناسبه من الهيات والاشكال مال اليه كثير من خواطره، ومنها أن النفس الناطقة في بعض الاوقات تنفلت من أسر البهيمية فتختطف من حيز الملاء الأعلى ما يسر لها من هيئة نورانية فتكون تارة من باب الانس والطمأنينة، وتارة من باب العزم على فعل، ومنها أن بعض النفوس الخسيسة تتأثر من الشياطين وتنصبغ ببعض صبغهم وربما اقتضت تلك الهيئة خواطروا فعلا (واعلم) أن المنامات أمرها كأمرا خواطر غير أنها تتجردها النفس فتشبح (٢) لها صورها، وهيئاتها، قال محمد بن سيرين: الرؤيا ثلاث حديث النفس وتخويف الشياطين وبشرى من الله *

﴿ باب لصوق الاعمال بالنفس واحصائها عليها ﴾

قال الله تعالى: (وكل انسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا اقرأ كتابك كفي بنفسك اليوم عليك حسيبا) وقال النبي صلى الله عليه وسلم راويا عن ربه تبارك وتعالى: «انما هي أعمالكم احصيتها عليكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه» وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «النفس تتمنى وتشتهى والفرج يصدق ذلك ويكذبه» (اعلم) أن الاعمال التي يقصدها الانسان قصدا مؤكدا والاخلاق التي هي راسخة فيه تنبعث من اصل النفس الناطقة ثم تعود اليها ثم تثبت بذيلها وتحصى عليها إما الانبعاث منها فلما عرفت أن للملكية والبهيمية واجتماعهما أقساما ولكل قسم حكما وغلبة المزاج الطبيعي والانصباغ من الملائكة والشياطين ونحو ذلك من الاسباب لا تكون إلا حسب ما تعطيه الجبلة وتحصل فيه المناسبة فلذلك كان المرجع الى أصل النفس بوسط أو بغير وسط ألسنت ترى الخنثى يخلق في أول أمره على مزاج ركيك فيستدل به العارف على أنه انشعب على مزاجه وجب ان يعتاد بعادات النساء ويتزيا (٣) بزيهن وينتحل رسومهن وكذلك يدرك الطبيب ان الطفل انشعب على مزاجه ولم يفجأه عارض كان قويا فارها او ضعيفا ضارعا، وإما العود (٤) اليها فلان الانسان اذا عمل عملا فاكثر منه اعتادته النفس وسهل صدوره منها ولم يحتاج الى روية وتجشم داعية فلا جرم ان النفس تأثرت منه وقبلت لونه ولا جرم أن لكل عمل من تلك الاعمال المتجانسة مدخلا في ذلك التأثير وان دق وخفي مكانه واليه الاشارة في قوله صلى الله عليه وسلم: «تعرض (٥) الفتن على القلوب كالحصير عودا عودا فإي قلب اشربها نكتت فيه نكتة سوداء وأي قلب انكرها نكتت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين ابيض (٦) مثل الصفا فلا تضره فتنة مادامت السموات والارض والآخرة اسود مريدا كالكوز

(١) دنف المريض ثقل وأدنفه المرض أثقله اه (٢) أي تتمثل اه (٣) أي يتلبس بلباسهن، وقوله فارها أي حادا وضارعا أي منكسرا اه (٤) أي عود الاخلاق الى النفس الناطقة، وقوله روية أي فكر اه (٥) أي تحيط، وقوله عودا عودا هو بالضم واحد العيدان يريد ما ينسج به الحصير من طاقاته ويروى بالفتح أي مرة بعد مرة، وقوله اشربها أي اسقيها اه (٦) أي أحدهما وقوله مريدا من الاريداد وهو التغير الى الغيرة والمراد تغيره معنى اه

مجنيا (١) لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا الا ما شرب من هواه» وأما التشبث (٢) بذيلها فلان النفس في اول امرها تخلق هيولانية فارغة عن جميع ما تنصبغ به ثم لا تزال تخرج من القوة الى الفعل يوما فيوما وكل حالة متأخرة لها معد من قبلها والمعدات كلها سلسلة مترتبة لا يتقدم متاخرها على متقدم مستصحب في هيئة النفس الموجودة اليوم حكم كل معد قبلها وإن خفي عليها بسبب اشتغالها بما هو خارج منها اللهم الا أن يفنى حامل القوة المنبعثة تلك الاعمال منها كما ذكرنا في الشيخ والمريض أو تهجم عليها هيئة من فوقها تغير نظامها كالتغير المذكور (٣) كما قال الله تعالى: (إن الحسنات يذهبن السيئات) وقال (لئن اشركت ليحبطن عملك) وأما الاحصاء عليها فسرّه على ما وجدته بالذوق أن في الحيز الشاهق تظهر صورة لكل انسان بما يعطيه النظام الفوقاني والتي ظهرت في قصة الميثاق شعبة منها فاذا وجد هذا الشخص انطبقت الصورة عليه واتحدت معه فاذا عمل عملا انشروحت هذه الصورة بذلك العمل انشراحا طبيعيا بلا اختيار منه فربما تظهر في المعاد أن اعمالها محصاة عليها من فوقها، ومنه قراءة الصحف وربما تظهر ان اعمالها فيها متشعبة باعضائها، ومنه نطق الايدي والارجل ثم كل صورة عمل مفصحة عن ثمرته في الدنيا والآخرة وربما تتوقف الملائكة في تصويره فيقول الله تعالى اكتبوا العمل كما هو، قال الغزالي: كل ما قدره الله تعالى من ابتداء خلق العالم الى آخره مسطور ومثبت في خلق خلقه الله تعالى يعبر عنه تارة باللوح وتارة بالكتاب المبين وتارة بامام مبين كما ورد في القرآن لجميع ما جرى في العالم وما سيجري مكتوب فيه ومنقوش عليه نقشا لا يشاهد بهذه العين ولا تظن أن ذلك اللوح من خشب أو حديد أو عظم وان الكتاب من كاغد أو ورق بل ينبغي ان تفهم قطعا ان لوح الله لا يشبه لوح الخلق وكتاب الله تعالى لا يشبه كتاب الخلق كما ان ذاته وصفاته لا تشبه ذات الخلق وصفاتهم بل ان كنت تطلب له مثالا يقربه الى فهمك فاعلم ان ثبوت المقادير في اللوح المحفوظ يضاهي ثبوت كلمات القرآن وحروفه في دماغ حافظ القرآن وقلبه فانه مسطور فيه حتى كانه حيث يقرأ ينظر اليه ولو فتشت دماغه جزءا جزءا لم تشاهد من ذلك الخط حرفا من هذا النمط ينبغي ان تفهم كون اللوح منقوشا بجميع ما قدره الله تعالى وقضاه انتهى، ثم كثير ما تذكر النفس ما عملته من خير أو شر وتتوقع جزاءه فيكون ذلك وجهها آخر من وجوه استقرار عمله والله اعلم *

﴿ باب ارتباط الأعمال بالهيئات النفسانية (٤) ﴾

اعلم ان الاعمال مظاهر الهيئات النفسانية وشروح لها وشركات لاقتناصها ومتحدة معها في العرف الطبيعي اي يتفق جمهور الناس على التعبير بها عنها بسبب طبيعي تعطيه الصورة النوعية وذلك لأن الداعية اذا انبعثت الى عمل فطاوعت لها نفسه انبسطت وانشروحت وإن امتنعت انقبضت وتقلصت (٥) فاذا باشر العمل استبد منه من ملكية أو بهيمية وقوى وانحرف مقابله وضعف، والى هذا الاشارة في قوله صلى الله عليه وسلم: «النفس تمنى وتشتهى والفرج يصدق ذلك ويكذبه» ولن ترى خلقا الا وله اعمال وهيئات يشار بها اليه ويعبر بها عنه وتتمثل صورتها مكشافا له فلو أن انسانا وصف انسانا آخر بالشجاعة واستفسر فبين لم يبين إلا معالجاته

(١) من التجخية وهو الميل عن الاستقامة اي لما لا يثبت الماء في الكوز المائل كذلك القلب لا يعي غيرا اه (٢) اي للاعمال بذيلها اي النفس اه (٣) أي في الشيخ والمريض، وقوله في الحيز أي في عالم المثال اه (٤) أي الملكات اه (٥) أي انضمت، واستبد أي استقل، وقوله معالجته أي مزاولاته اه

الشديدة او بالسخاوة لم يبين إلا دراهم ودنانير يبذلها ولو ان انسانا اراد ان يستحضر صورة الشجاعة والسخاوة اضطر الى صور تلك الاعمال اللهم إلا أن يكون قد غير فطرة الله التي فطر الناس عليها ولو أن واحدا اراد أن يحصل خلقا ليس فيه فلا سبيل له إلى ذلك الا الوقوع في مظانه وتجشم الاعمال المتعلقة به وتذكر وقائع الاقوياء من أهله ثم الأعمال هي الامور المضبوطة التي تقصد بالتوقيت وترى وتبصر وتحكى وتؤثر وتدخل تحت القدرة والاختيار ويمكن أن يؤخذ بها وعليها ثم النفوس ليست سواء في احصاء الاعمال والملكات عليها، فمنها نفوس قوية تتمثل عندها الملكات أكثر من الأعمال فلا يعد من كمالها بالاصالة الا الاخلاق ولكن تتمثل الاعمال لها لأنها قوالبها وصورها فيحصى عليها الاعمال احصاء أضعف من احصاء الاخلاق بمنزلة ما يتمثل في الرؤيا من أشباح (١) المعنى المراد كالحتم على الافواه والفروج (٢)، ومنها نفوس ضعيفة تحسب أعمالها عين كمالها لعدم استقلال الهيئات النفسانية فلا تتمثل الا مضمحلة في الاعمال فيحصى عليها انفس الأعمال وهم أكثر الناس وهم المحتاجون جدا الى التوقيت البالغ ولهذا المعاني عظم الاعتناء (٣) بالاعمال في النواميس الالهية، ثم ان كثيرا من الاعمال يستقر في الملاء الاعلى ويتوجه اليها استحسانهم او استهجانهم بالاصالة مع قطع النظر عن الهيئات النفسانية التي تصدر عنها فيكون اداء الصالح منها بمنزلة قبول الهام من الملاء الاعلى في التقرب منهم والتشبه بهم واكتساب انوارهم ويكون اقتراف (٤) السيئة منها خلاف ذلك، وهذا الاستقرار يكون بوجوه، منها انهم يتلقون من بارئهم ان نظام البشر لا يصلح الابداء اعمال والكف عن اعمال فتتمثل تلك الاعمال عندهم ثم تنزل في الشرائع من هنالك، ومنها ان نفوس البشر التي مارست ولازمت الاعمال اذا انتقلت الى الملاء الاعلى وتوجه اليها استحسانهم واستهجانهم ومضى على ذلك القرون والدهور استقرت صور الاعمال عندهم، وبالجملة فتؤثر الاعمال حينئذ تأثير العزائم والرقى الماثورة عن السلف بهيئتها وصفتها والله أعلم *

(باب أسباب المجازاة)

اعلم ان أسباب المجازاة وان كثرت ترجع الى أصليين، أحدهما ان تحس النفس من حيث قوتها الملائكية بعمل أو خلاق اكتسبته انه غير ملائم لها فتتشبه فيها ندامة وحسرة وألم ربما أوجب ذلك تمثيل واقعات في المنام أو اليقظة تشتمل على ايلام واهانة وتهديد ورب نفس استعدت لالهام المخالفة فخطبت على السنة الملائكة بأن تتراءى (٥) له كسائر ما تستعد له من العلوم والى هذا الاصل وقعت الاشارة في قوله تعالى: (بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك اصحاب النار هم فيها خالدون) والثاني توجه حظيرة القدس إلى بنى آدم فعند الملاء الاعلى هيئات وأعمال وأخلاق مرضية ومسخرطة فتطلب من ربها طلبا قويا تنعيم أهل هذه وتعذيب أهل تلك فيستجاب دعاؤهم وتحيط ببنى آدم همهمهم وترشح عليهم صورة الرضا واللعة كما تترشح سائر العلوم فتتشبه واقعات ايلامية أو إنعامية وتترأى الملاء الاعلى مهددة لهم أو منبسطة اليهم وربما تأثرت النفس من

(١) أى اشكال اه (٢) اشارة إلى رؤيا رجل رأى كأنه يحتم على افواه الناس وفروجهم فقصها على ابن سيرين فقال لملك مؤذن تؤذن قبل الوقت فتمنع الناس من أكل السحور والوطء اه (٣) أى الاهتمام والى النواميس الشرائع اه (٤) أى ارتكاب اه (٥) أى تظهر اه

سخطها فعرض لها كهية الغشى او كهية المرض وربما ترشح ما عندهم من الهمة المتأكدة على الحوادث الضعيفة كالخواطر ونحوها فاهتم الملائكة او بنو آدم ان يحسنوا أو يسيئوا اليه وربما احيل امر من ملايساته الى صلاح أو فساد وظهرت تقريبات لتنعيمه او تعذيبه بل الحق الصراح أن لله تبارك وتعالى عناية بالناس يوم خلق السموات والارض توجب أن لا يهمل افراد الانسان سدى وأن يؤاخذهم على ما يفعلونه لكن لدقة مدركا جعلنا دعوة الملائكة عنوانا لها والله أعلم، والى هذا الاصل وقعت الاشارة في قوله تعالى: (إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون) ويتركب الاصلان فيحدث من تركبهما بحسب استعداد النفس والعمل صور كثيرة عجيبة لكن الاول أقوى في أعمال وأخلاق تصالح النفس أو تفسدها واكثر النفوس له قبولاً أزكاها وأقواها والثاني أقوى في أعمال وأخلاق مناقضة للمصالح الكلية منافرة لما يرجع الى صلاح نظام بنى آدم وأكثر النفوس له قبولاً أضعفها واسمجها (١) ولكل من السبيين مانع يصد عنه حركته الى حين، فالاول يصد عنه ضعف الملكية وقوة البهيمية حتى تصير كأنها نفس بهيمية فقط لا تتالم من آلام الملكية فاذا تخففت النفس عن الجلباب البهيمى وقل مدده وبرقت بوارق الملكية عذبت أو نعمت شيئاً فشيئاً، والثاني يصد عنه تطابق الاسباب على ما يخالف حكمه حتى اذا جاء أجله الذى قدره الله شج عند ذلك الجزاء ثجا (٢) وهو قوله تبارك وتعالى: (لكل أمة أجل اذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون)»

(المبحث الثانى - مبحث كيفية المجازاة في الحياة وبعد الممات)

(باب الجزاء على الاعمال فى الدنيا)

قال الله تعالى: (وما اصابكم من مصيبة فبما كسبت ايديكم ويعفو عن كثير) وقال: (ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما انزل اليهم من ربهم لاكلوا من فوقهم ومن تحت ارجلهم) وقال الله تعالى في قصة اصحاب الجنة حين منعوا الصدقة ما قال (٣) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: (وان تبدوا ما فى انفسكم او تخفوه يحاسبكم به الله) وقوله تعالى: (من يعمل سوءاً يعجز به) «هذد» (٤) معاقبة الله العبد بما يصيبه من الحى والنكبة (٥) حتى البضاعة يضعها فى يد قميصه فيفقدوها فيفزع لها حتى ان العبد ليخرج من ذنوبه كما يخرج التبر الاحمر من الكير» (٦)» (اعلم) ان للملكية بروزا (٧) بعد كونها فى البهيمية وانفكاكا بعد اشتباكها بها فتارة بالموت الطبيعى فانه حينئذ لا ياتى مددها من الغذاء وتتحلل موادها لا الى بدل ولا تهيج النفس احوال طارئة كجوع وشبع وغضب فيترشح لون عالم القدس عليها وتارة بالموت الاختيارى فلا يزال يكسر بهيميته برياضة واستدامة توجه الى عالم القدس فيبرق عليه بعض بوارق الملكية وان اكل شىء انشراحا وان بساطا بما يلائمه من الاعمال والهيئات وانقباضا وتقلصا بما يخالفه منها وان اكل الم ولذة شبحا يتشبع به، فشبح الخياط اللذاع (٨) النخس، وشبح التأذى من حرارة الصفراء الكرب والضجر (٩) وان يرى فى منامه النيران والشعل وشبح التأذى من البلغم مقاساة

(١) أى اقبحها اه (٢) أى سبلا كثيرا اه (٣) أى فى سورة (ن) اه (٤) مقولة ان حضرته صلى الله عليه وسلم اه

(٥) أى المصيبة، وقوله فيفزع أى يألم اه (٦) كوره آهكران اه (٧) أى ظهورا، وقوله كونها أى خفائها اه (٨) أى

المحرق، وقوله النخس خستن بجوب (٩) أى القلق اه

البرد، وان يرى في المنام المياه والثلج فاذا برزت الملكية ظهر في اليقظة او المنام اشباح الانس والسرور
 إن كان اكتسب النظافة والخشوع وسائر ما يناسب الملكية ويتشبع اضدادها في صورة ككيفيات
 مضادة للاعتدال وواقعات تشتمل على إهانة وتهديد ويظهر الغضب في صورة سبع ينهر (١) والبخل في صورة
 حية تلدغ والضابط في المجازاة الخارجية انها تكون في تضاعيف اسباب فمن احاط بتلك الاسباب وتمثل عنده
 النظام المنبعث منها (٢) علم قطعا ان الحق لا يدع عاصيا الا يجازيه في الدنيا مع رعاية ذلك النظام فيكون
 اذا هدأت الاسباب عن تنعيمه وتعذيبه نعم بسبب الاعمال الصالحة أو عذب بسبب الاعمال الفاجرة ويكون
 اذا أجمعت الاسباب على ايلامه وكان صالحا وكان قبضها لمعارضة صلاحه غير قبيح صرفت اعماله الى رفع البلاء
 او تخفيفه او على انعامه وكان فاسقا صرفت الى ازالة نعمته وكان للمعارض لاسبابها او اجمعت على مناسبة
 اعماله امد في ذلك امدادا بينا وربما كان حكم النظام اوجب (٣) من حكم الاعمال فيستدرج بالفاجر
 ويضيق على الصالح في الظاهر ويصرف التضيق الى كسر بهيميته ويفهم ذلك فيرضى كالذي يشرب الدواء
 المر راغبا فيه وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم: «مثل المؤمن كمثل الخامة (٤) من الزرع تفيئها الرياح تصرعها
 مرة وتعدلها أخرى حتى يأتيه أجله ومثل المنافق كمثل الارزة المجذبة (٥) التي لا يصيبها شيء حتى يكون
 انجعافها مرة واحدة» وقوله صلى الله عليه وسلم: «مامن مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه الا حط الله به سيئاته
 كما تحط الشجرة ورقها» ورب اقليم غلبت عليه طاعة الشيطان وصار أهله كمثل النفوس البهيمية فتتخلص عنه
 بعض المجازاة الى أجل وذلك قوله تعالى: (وما أرسلنا في قرية من نبي الا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم
 يضرعون ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء فآخذناهم بغتة وهم
 لا يشعرون ولو أن اهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض ولكن كذبوا فأخذناهم
 بما كانوا يكسبون)، وبالجملة فالامر ههنا (٦) يشبه بحال سيد لا يتفرغ للجزاء فاذا كان يوم القيامة صار كأنه
 تفرغ واليه الاشارة في قوله تعالى: (سنفرغ لكم آية الثقلان) (٧) ثم المجازاة تارة تكون في نفس العبد بافاضته
 البسط والطمأنينة أو القبض والفرع وتارة في بدنه بمنزلة الامراض الطارئة من هجوم غم أو خوف، ومنه (٨)
 وقوع النبي ﷺ مغشيا عليه قبل نبوته حين كشفت عورته، وتارة في ماله واهله وربما ألهم الناس والملائكة
 والبهايم ان يحسنوا اليه او يسيئوا وربما قرب الى خير أو شر بالهامات او احالات ومن فهم ما ذكرنا
 ووضع كل شيء في موضعه استراح من اشكالات كثيرة كمعارضة الاحاديث الدالة على أن البر سبب زيادة الرزق
 والفجور سبب نقصانه والاحاديث الدالة على ان الفجار يعجل لهم الحسنات في الدنيا وان أكثر الناس بلاء
 الامثل فالامثل ونحو ذلك والله أعلم *

(١) مي كزد (٢) أي من الاسباب اه (٣) أي آكد اه (٤) أي الطاقة اللينة من الزرع، وتفيئها أي تميلها من
 جانب الى جانب أي المؤمن مثل الخامة اذا جاء أمر الله انطاع له وان جاءه مكروه رجا الاجروا اذا سكن البلاء اعتدل
 قائما بالشكر، وقوله تصرعها أي تطرحها على الارض اه (٥) بضم ميم وسكون جيم وكسر ذال معجمة الثابتة المنتصب،
 والانجعاف الانقلاع يعني المنافق قليل الآلام ولا تكون آلامه مكفرة لسيئاته اه (٦) أي في الدنيا اه (٧) الجن
 والانس اه (٨) أي من المجازاة في البدن »

﴿ باب ذكر حقيقة الموت ﴾

اعلم ان لكل صورة من المعدنية والناموية (١) والحيوانية والانسانية مطية (٢) غير مطية الاخرى ولها كالا اوليا غير كمال الاخرى وإن اشتبه الامر في الظاهر فالاركان (٣) اذا تصغرت وامتزجت باوضاع مختلفة كثرة وقلة حدثت ثنائيات كالبخار والغبار والدخان والثرى (٤) والارض المثار والجمرة والسفعة والشعلة وثلاثيات كالطين المخمر (٥) والطحلب ورباعيات نظائر ما ذكرنا وتلك الاشياء لها خواص مركبة من خواص اجزائها ليس فيها شيء غير ذلك وتسمى بكائنات الجو فتأتى المعدنية فتتعدد (٦) غارب ذلك المزاج وتتخذ مطية وتصير ذات خواص نوعية وتحفظ المزاج ثم تأتى الناموية فتتخذ الجسم المحفوظ المزاج مطية وتصير قوة محولة لاجزاء الاركان والكائنات الجوية الى مزاج نفسه لتخرج الى الكمال المتوقع لها بالفعل ثم تأتى الحيوانية فتتخذ الروح الهوائية الحاملة لقوى التغذية والتنمية مطية وتنفذ التصرف في أطرافها بالحس والارادة انبعاثا للمطلوب وانخاسا (٧) عن المهروب ثم تأتى الانسانية فتتخذ النسمة المتصرفة في البدن مطية وتقصد الى الاخلاق التي هي امهات الانبعاثات والانخاسات فتقضيها (٨) وتحسن سياستها وتأخذها منصة (٩) لما تلتقيه من فوقها فالامر وان كان مشتبه باديء الرأي (١٠) لكن النظر المتمعن يلحق كل آثار بمنبعها ويفرز كل صورة بمطيتها وكل صورة لا بد لها من مادة تقوم بها وانما تكون المادة ما يناسبها وانما مثل الصورة كمثال خلقة الانسان القائمة بالشمعة في التمثال ولا يمكن أن توجد الخلقة الا بالشمعة فمن قال بان النفس النطقية المخصوصة بالانسان عند الموت ترفض (١١) المادة مطلقا فقد خرس (١٢) نعم لها مادة بالذات وهي النسمة ومادة بالعرض وهو الجسم الارضى فاذا مات الانسان لم يضر نفسه زوال المادة الارضية وبقيت حالة بمادة النسمة ويكون كالكاتب المجيد (١٣) المشغوف بكتابته اذا قطعت يداه ومملكة الكتابة بحالها والمستثمر (١٤) بالمشي اذا قطعت رجليه والسميع والبصير اذا جعل أصم واعمى ﴿واعلم﴾ ان من الاعمال والهيآت ما يباشرها الانسان بداعية من قلبه فلو خلى ونفسه لانساق الى ذلك ولا تمتنع من مخالفه، ومنها ما يباشره لموافقة الاخوان أو لعارض خارجي من جوع وعطش ونحوهما إذا لم يصر عادة لا يستطيع الاقلاع عنها فاذا انفقاً (١٥) العارض انحلت الداعية فرب مستثمر بعشق إنسان أو بالشعر أو بشيء آخر يضطر إلى موافقة قومه في اللباس والزى فلو خلى ونفسه وتبدل زيه لم يجد في قلبه بأسا ورب انسان يحب الزى بالذات فلو خلى ونفسه لما سمح بتركه وإن من الانسان اليقظان بالطبع يتفطن بالامر الجامع بين الكثرات ويمسك قلبه بالعلة دون المعلولات والملكة دون الافاعيل، ومنه الوسنان (١٦) بالطبع يبقى

(١) أى النباتية (٢) فى أكثر النسخ هذا لكن فى هذا الباب فى بعضها مسطبة على وزن مرتبة وهو الاوفق بالمضمون اللاحق فان المسطبة دكان يقعد عليها فكذا المعنى أن لكل صورة قاعدة تقعد وتستقر عليها (٣) العناصر (٤) أى التراب الندى والمثار المحروثة، والسفعة اللهب اه (٥) خمر كرده شذه وقوله الطحلب سبرى كذا بالاي آب آيد اه (٦) أى تجلس غارب كتف اه (٧) يس مانندن اه (٨) تزيناها اه (٩) جلوه كاه اه (١٠) أى فى أول النظر، وقوله يفرز جدأى كند اه (١١) أى تترك اه (١٢) أى كذب اه (١٣) أى الآتى بالجيد اه (١٤) أى المواع اه (١٥) أى زال واحلت أى زالت اه (١٦) أى الناعس اه (م ٥ - ج ١ حجة الله البالغة)

مشغولا بالكثرة عن الوحدة وبالأفاعيل عن الملكات بالاشباح عن الارواح ، واعلم أن الانسان إذا مات
انفسخ (١) جسده الارضى وبقيت نفسه النطقية متعلقة بالنسمة متفرغة إلى ما عندها وطرحته عنها ما كان لضرورة
الحياة الدنيا من غير داعية قلبية وبقي فيها ما كانت تمسكه في جذر جوهرها وحينئذ تبرز الملكية وتضعف
البهيمية ويترشح عليها من فوقها يقين بحظيرة القدس وبما أحصى عليها هنالك وحينئذ تتألم الملكية أو تنعم ،
واعلم أن الملكية عند غوصها (٢) في البهيمية وامتزاجها بها لا بد أن تدعن لها ادعانا ما وتأثر منها أثرا ما
لكن الضار كل الضرر أن تتشبح فيها هيآت منافرة في الغاية والنافع كل النفع أن تتشبح فيها هيآت مناسبة
في الغاية ، فمن المنافرات أن يكون قوى التعلق بالمال والاهل لا يستيقن أن وراءهما مطلوباً قوى الامساك
للبيئات الدنية في جذر جوهرها ونحو ذلك مما يجمعه أنه على الطرف المقابل للسماحة وأن يكون متلبساً
بالنجاسات متكبراً على الله لم يعرفه ولم يخضع له يوماً ونحو ذلك مما يجمعه أنه على الطرف المقابل للاحسان وأن يكون
ناقض توجه حظيرة القدس في نصر الحق وتنويه (٣) أمره وبعثة الانبياء واقامة النظام المرضى فاصيب
منهم بالبغضاء واللعن ، ومن المناسبات مباشرة أعمال تحاكي الطهارة والخضوع للبارئ وتذكر حال الملائكة
وعقائد تنزعها (٤) من الاطمئنان بالحياة الدنيا وأن يكون سمحاً سهلاً وأن يعطف (٥) عليه أدعية
الملائكة الاعلى وتوجهاتهم للنظام المرضى والله اعلم *

﴿ باب اختلاف احوال الناس في البرزخ ﴾

﴿ اعلم ﴾ أن الناس في هذا العالم على طبقات شتى لا يرجى احصاؤها لكن رؤس الاصناف أربعة ،
صنف هم أهل اليقظة وأولئك يعذبون وينعمون بانفس تلك المنافرات والمناسبات وإلى حال هذا الصنف
وقعت الإشارة في قوله تعالى: (أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله (٦) وإن كنت لمن
الساخرين) (٧) ورأيت طائفة من أهل الله صارت نفوسهم بمنزلة الجوابي (٨) الممثلة ماء راكدا (٩)
لاتهيجه الرياح فضر بها ضوء الشمس في الهاجرة فصارت بمنزلة قطعة من النور وذلك النور إما نور الاعمال
المرضية أو نور الياد داشت أو نور الرحمة ، وصنف قريب المأخذ منهم لكن هم أهل النوم الطبيعي فأولئك تصيبهم
رؤيا والرؤيا فينا حضور علوم مخزونة في الحس المشترك كانت مسكة (١٠) اليقظة تمنع عن الاستغراق فيها
والذهول عن كونها خيالات فلما نام لم يشك أنها عين ما هي صورها وربما يرى الصفراوى أنه في غيضة يابسة
في يوم صائف وسموم فيينا هو كذلك اذ فاجأته النار من كل جانب فجعل يهرب ولا يجد مهرباً ثم أنه لفجته (١١)
فقاسى ألماً شديدا ويرى البلغمى أنه في ليلة شاتية ونهر بارد وريح زهريرية فهاجت بسفينته الامواج
فصار يهرب ولا يجد مهرباً سم أنه غرق فقاسى ألماً شديدا وإن أنت استقرت الناس لم تجد أحدا الا وقد جرب
من نفسه تشبيح الحوادث المجمعة بتنعمات وتوجعات مناسبة لها وللنفس الرائية جميعاً فهذا المبطل في الرؤيا غير
أنها رؤيا لا يقظة منها إلى يوم القيامة وصاحب الرؤيا لا يعرف في رؤياه أنها لم تكن أسماء خارجية وأن

(١) أى فسد اه (٢) أى نزولها اه (٣) أى تعظيم اه (٤) أى النفس اه (٥) أى يميل اه
(٦) فرطت في جنب الله أى قصرت في أمره اه (٧) أى المحقرين والمستهزئين اه (٨) جمع جابية وهى الخوض
كالجوبة والجية اه (٩) أى ساكنا اه (١٠) ما يتمسك وبقيته هر جيز اه (١١) أى أحرقت اه

التوجع والتنعيم لم يكن في العالم الخارجي ولولا يقظة لم يتنبه لهذا السر *
 فعسى أن يكون تسمية هذا العالم (١) عالما خارجيا أحق وافصح من تسميته بالرؤيا فربما يرى صاحب السبعية أنه يخدشه (٢) سبع وصاحب البخل تنهشه (٣) حيات وعقارب ويتشبح زوال العلوم الفوقانية بملكين يسألانه من ربك وما دينك وما قولك في النبي صلى الله عليه وسلم ؟ وصنف بهيميتهم وملكيتهن ضعيفتان يلحقون بالملائكة السافلة لأسباب جباية بان كانت ملكيتهم قليلة الانغماس (٤) في البهيمية غير مذعنة لها ولا متأثرة منها وكسبية بان لا بست الطهارات بداعية قلبية ومكنت من نفسها الالهامات وبوارق ملكية فكما أن الانسان ربما يخلق في صورة الذكران وفي مزاجه خنوثة وميل الى هيات الاناث لكنه لا يتميز شهوات الانوثة من شهوات الذكورة في الصبا انما المهم حينئذ شهوة الطعام والشراب وحب اللعب فيجري حسبا يؤمر به من التوسم بسمة (٥) الرجال ويتمنع عما ينهى عنه من اختيار زى النساء حتى اذا شب ورجع الى طبيعته الماجنة استبد (٦) باختيار زين والتعود بعباداتهن وغلبت عليه شهوة الابنة (٧) وفعل ما يفعله النساء وتكلم بكلامهن وسمى نفسه تسمية الانثى فعند ذلك خرج من حيز الرجال بالكلية فكذلك الانسان قد يكون في حياته الدنيا مشغولا بشهوة الطعام والشراب والغلبة (٨) وغيرها من مقتضيات الطبيعة والرسم لكنه قريب الماخذ من الملاء السافل قوى الانجذاب اليهم فاذا مات انقطعت العلاقات ورجع الى مزاجه فالحق بالملائكة وصار منهم والهم كاهامهم وسعى فيما يسعون فيه ، وفي الحديث «رأيت جعفر بن أبي طالب ملكا يطير في الجنة مع الملائكة بجناحين» وربما اشتغل هؤلاء باعلاء كلمة الله ونصر حزب الله وربما كان لهم لمة (٩) خير بان آدم وربما اشتاق بعضهم الى صورة جسدية اشتياقا شديدا ناشئا من أصل جبلته ففرع ذلك بابا من المثل واختلطت قوة منه بالنسمة الهوائية وصار كالجسد النوراني وربما اشتاق بعضهم الى مطعوم ونحوه فامد فيها انتهى قضاء لشوقه ، واليه الاشارة في قوله تعالى : (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله) الآية وبازاء هؤلاء قوم قريبو الماخذ من الشياطين جبلة بان كان مزاجهم فاسدا يستوجب آراء مناقضة للحق منافرة للرأي الكلي على طرف شاسع (١٠) من محاسن الاخلاق وكسبا بان لا بست هيئات خسيصة وافكار فاسدة وانقادت لوسوسة الشياطين واحاط بهم اللعن فاذا ماتوا ألحقوا بالشياطين وألبسوا لباسا ظلمانيا وصور لهم ما يقضون به بعض وطهرهم من الملاذ الخسيصة والاول ينعم بحدوث ابتهاج في نفسه والثاني يعذب بضيق وغم كالمنخنث يعلم أن الخنوثة أسوأ حالات الانسان ولكن لا يستطيع الاقلاع عنها وصنفهم أهل اصطلاح قوية بهيميتهم ضعيفة ملكيتهم وهم أكثر الناس وجودا يكون غالب أمورهم تابعا للصورة الحيوانية المجبولة على التصرف في البدن والانغماس فيه فلا يكون الموت انفكاكا لنفوسهم عن البدن بالكلية بل تنفك تدبير او لا تنفك وهما فتعلم علما من كذا بحيث لا يخطر عندها إمكان مخالفة أنها عين الجسد حتى لو وطىء الجسد أو قطع لا يقنت أنه فعل ذلك بها وعلامتهم أنهم يقولون من جذر قلوبهم أن ارواحهم عين أجسادهم أو عرض ظاريء عليها وان نطقوا ألسنتهم لتقليد أو رسم خلاف ذلك فاولئك إذا ماتوا برق عليهم بارق ضعيف وتراءى لهم

(١) أي البرزخ اه (٢) أي خراشد اه (٣) أي كزند اه (٤) فرورفتن اه (٥) روش اه (٦) استقل اه

(٧) أن يلاط فيه اه (٨) شهوة الجماع اه (٩) أي نزول اه (١٠) بعيد اه

خيال طفيف (١) مثل ما يكون هنا للمرتاضين وتشبه الامور في صور خيالية تارة ومثالية خارجية أخرى كما قد تشبه للمرتاضين فان كان لابس أعمالا ملكية دس علم الملايكة في اشباح ملائكة حسان الوجوه بأيديهم الحرير ومخاطبات وهيآت لطيفة وفتح باب الى الجنة تأتي منه روائحها وان كان لابس (٢) أعمالا منافرة للملكية أو جالبة للعن دس علم ذلك في اشباح ملائكة سود الوجوه ومخاطبات وهيآت عنيفة كما قد يدس الغضب في صورة السباع والجن في صورة الارنب وهناك نفوس ملكية استوجب استعدادهم ان يوكلوا بمثل هذه المواطن ويؤمروا بالتعذيب أو التنعيم فيراهم المبتلى عيانا وان كان أهل الدنيا لا يرونهم عيانا، واعلم أنه ليس عالم القبر إلا من بقايا هذا العالم وانما تترشح هنالك العلوم من وراء حجاب وانما تظهر أحكام النفوس المختصة بفرد دون فرد بخلاف الحوادث الحشرية فانها تظهر عليها وهي فانية وعن أحكامها الخاصة بفرد فرد باقية بأحكام الصورة الانسانية والله أعلم.

(باب ذكر شيء من أسرار الوقائع الحشرية)

اعلم ان للارواح البشرية حضرة تنجذب اليها انجذاب الحديد الى المغناطيس وتلك الحضرة هي حضرة القدس محل اجتماع النفوس المتجردة عن جلايب الابدان بالروح الاعظم الذي وصفه النبي صلى الله عليه وسلم بكثرة الوجوه والالسن واللغات وانما هو تشبه بصورة نوع الانسان في عالم المثال او في الذكر أيا ما شئت فقل ومحل فنائها عن المتأكد من أحكامها الناشئة من الخصوصية الفردية وبقائها بأحكامها الناشئة من النوع أو الغالب عليها جانب النوع وتفصيله ان افراد الانسان لها أحكام يمتاز بها بعضها من بعض ولها أحكام تشترك فيها جملتها وتتوارد عليها جميعها ولا جرم انها من النوع واليه الاشارة في قوله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة» الحديث وكل نوع يختص به نوعان من الاحكام: أحدهما الظاهرة كالخلق أي اللون والشكل والمقدار وكالصوت أي فرد وجد منه على هيئة يعطيها النوع ولم يكن مخدجا (٣) من قبل عصيان المادة فانه لا بد يتحقق بها ويتوارد عليها فالانسان مستوى القامة ناطق بادی البشرية والفرس معوج القامة صاهل أشعر الى غير ذلك مما لا ينفك عن الافراد عند سلامة مزاجها. اوثانيهما الاحكام الباطنة كالادراك والاهتداء للبعاش والاستعداد لما يهجم عليها من الوقائع فكل نوع شريعة، ألا ترى النحل كيف أوحى الله تعالى اليها ان تتبع الاشجار فتأكل من ثمراتها ثم كيف تتخذ بيتا يجتمع فيه بنو نوعها ثم كيف تجمع العسل هنالك وأوحى الى العصفور ان يرغب الذكر في الانثى ثم يتخذ عشا ثم يحضن البيض ثم يزق الفراخ ثم اذا نهضت الفراخ عليها أين الماء وأين الحبوب وعلمها ناصحها من عدوها وعلمها كيف تفر من السنور والصيد وكيف تنازع بني نوعها عند جلب نفع او دفع ضرر وهل تظن الطبيعة السليمة بتلك الاحكام أنها لا ترجع الى اقتضاء الصورة النوعية، وأعلم ان سعادة الافراد ان تمكن منها أحكام النوع وافرة كاملة وان لا تعصى مادتها عليه ولذلك يختلف افراد الانواع فيما يعد لها من سعادتها وشقاوتها ومهما بقيت على ما يعطيه النوع لم يكن لها ألم لئلا يغير فطرتها بأسباب طارئة بمنزلة الورم واليه وقعت الاشارة بقوله ﷺ: «ثم ابواه يهودانه او ينصرانه او يمجسانه» *

واعلم أن الارواح البشرية تنجذب إلى هذه الحضرة تارة من جهة البصيرة والهمة وتارة من جهة تشبـيح
آثارها فيها إيلاما وانعاما أما الانجذاب بالبصيرة فليس أحد يتخفف عن ألوات البهيمية إلا وتلحق نفسه
بها وينكشف عليها شيء منها وهو المشار إليه في قوله صلى الله عليه وسلم: «اجتمع آدم وموسى عند ربهما» وروى
عنه صلى الله عليه وسلم من طرق شتى أن أرواح الصالحين تجتمع عند الروح الاعظم * وأما الانجذاب الآخر
فاعلم أن حشر الاجساد واعادة الأرواح إليها ليست حياة مستأنفة إنما هي تنمة النشأة المتقدمة بمنزلة التخمـة
لكثرة الاكل كيف ولولا ذلك لكانوا غير الاواين ولما أخذوا بما فعلوا، واعلم أن كثيراً من الاشياء
المتحققة في الخارج تكون بمنزلة الرؤيا في تشبـيح المعاني باجسام مناسبة لها كما ظهرت للملائكة لداود عليه
السلام في صورة خصمين ورفعت إليه القضية فعرف أنه تشبـيح لما فرط (١) منه في امرأة أوريا فاستغفر
وأنا، وكما كان عرض قدح الخمر واللبن عليه صلى الله عليه وسلم واختياره اللبن تشبـيحاً لعرض الفطرة
والشهوات على أمته واختيار الراشدين منهم الفطرة وكما كان جلوس النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر
مجتمعين على قف (٢) البئر وجلوس عثمان منفرداً منهم تشبـيحاً لما قدر الله تعالى من حال قبورهم ومدافنهم
على ما أوله سعيد بن المسيب وناهيك به واكثر الوقائع الحشرية من هذا القبيل *

واعلم أن تعاق النفس الناطقة بالنسمة أ كيد شديد في حق أكثر الناس وإنما مثلها بالنسبة إلى العلوم
البعيدة من مألوفها كمثل الاكـمـه لا يتخيل الالوان والاضواء أصلاً ولا مطمع لها في حصول ذلك الا بعد احقاب (٣)
كثيرة ومدد متطاولة في ضمن تشبـحات وتمثلات، والنفوس أول ما تبعث تجازى بالحساب اليسير أو العسير أو
بالمرور على الصراط ناجياً ومخدوشاً أو بأن يتبع كل أحد متبوعه فينجو أو يهلك أو تنطق الايدي والارجل وقراءة
الصحف أو بظهور ما بخل به وحمله على ظهره أو الـمـكـي (٤) به، وبالجملة فتشـبـحات وتمثلات لما عندها بما تعطيه احكام
الصورة النوعية وأيمار جل كان أو ثق نفساً وأوسع نسمة فالتشـبـحات الحشرية في حقه أتم واوفر ولذلك أخبر
النبي صلى الله عليه وسلم أن أكثر عذاب أمته في قبورهم وهناك أمور متمثلة تتساوى النفوس في مشاهدتها
كالهداية المبسوطة ببعثة النبي صلى الله عليه وسلم وتشـبـيح حوضاً وتشـبـيح أعمالها المحصاة عليها وزناً إلى غير ذلك
وتشـبـيح النعمة بمطعم هنيء (٥) ومشرب مريء ومنكح شهوى وملبس رضى ومسكن بهي *

وللخروج من ظلمات التخليط الى النعمة تدريجات عجيبة كما بينه النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حديث
الرجل الذي هو آخر أهل النار خروجا منها وان للنفوس شهوات تتوارد عليها من تلقاء نوعها تتمثل بها النعمة
وشهوات دون ذلك يتميز بها بعضها من بعض وهو قول النبي صلى الله عليه وسلم: «دخلت الجنة فاذا جارية
أدماء (٦) لعساء فقلت ماهذه يا جبريل؟ فقال ان الله تعالى عرف شهوة جعفر بن ابى طالب للادم للعس خلق
له هذه» وقوله صلى الله عليه وسلم: «إن الله أدخلك الجنة فلا تشاء أن تحمل فيها على فرس من ياقوتة حمراء تطير
بك في الجنة حيث شئت الا فعلت» وقوله: «إن رجلاً من أهل الجنة استأذن ربه في الزرع فقال له ألسـت فيما شئت

(١) أى صدر على سبيل الافراط اهـ (٢) هو بضم قاف وتشديد فاء هو الدكة التى تجعل حول البئر اهـ (٣) أى قرون

اهـ (٤) داغ اهـ (٥) كور انده (٦) صفة من الادمة بالضم وهى السمرة فى الناس جمعها آدم على وزن قفل، واللعساء

صفة من اللعس بالتحريك وهو سواد الشفة المختلط بالحمره جمعها لعس بضمـتـين اهـ

قال بلى ولكنى أحب أن أزرع فبذر فبادر الطرف نباته واستواؤه واستحصاده فكان امثال الجبال فيقول الله تعالى ذلك (١) يا ابن آدم فإنه لا يشبعك شيء ثم آخر ذلك رؤية رب العالمين وظهور سلطان التجليات في الجنة الكتيب (٢) ثم كائن بعد ذلك ما سكت عنه ولا أذكره اقتداء بالشارع صلى الله عليه وسلم *

المبحث الثالث مبحث الارتفاقات * باب كيفية استنباط الارتفاقات (٣)

اعلم أن الانسان يوافق أبناء جنسه في الحاجة الى الاكل والشرب والجماع والاستظلال من الشمس والمطر والاستدفاء (٤) في الشتاء وغيرها، وكان من عناية الله تعالى به أن الهمة كيف يرتفق (٥) باداء هذه الحاجات الهاما طبيعيا من مقتضى صورته النوعية فلا جرم يتساوى الافراد في ذلك الاكل مخدج (٦) عصت مادته كما ألهم النحل كيف تأكل الثمرات ثم كيف تتخذ بيتا يجتمع فيه أشخاص من بنى نوعها ثم كيف تنقاد ليعسوبها (٧) ثم كيف تغسل وكما ألهم العصفور كيف يتبع الحبوب الغازية وكيف يرد الماء وكيف يفر عن السنور والصيد وكيف يقاتل من صده عما يحتاج اليه وكيف يسافد (٧) ذكره الاثنى عند الشبق ثم يتخذان عشا (٩) عند الجبل ثم كيف يتعاونان في حضانة البيض ثم كيف يزقان (١٠) الفراخ، وكذلك لكل نوع شريعة تنفذ في صدور افراده من طريق الصورة النوعية وكذلك ألهم الانسان كيف يرتفق من هذه الضرورات غير أنه انضم له مع هذا ثلاثة أشياء لمقتضى صورته النوعية الربية (١١) على كل نوع أحدها الانبعاث الى شيء من رأى كلى فالهيمه انها تنبعث الى غرض محسوس أو متوهم من داعية ناشئة من طبيعتها كالجوع والعطش والشبق، والانسان ربها ينبعث الى نفع معقول ليس له داعية من طبيعته فيقصد ان يحصل نظاما صالحا في المدينة أو يكمل خلقه ويهذب نفسه أو يتفصى (١٢) من عذاب الآخرة أو يمكن جامعه في صدور الناس، الثاني انه يضم مع الارتفاق الظرافة فالهيمه انها تبتغى ما تسد به خلقتها وتدفع حاجتها فقط والانسان ربها يريد أن تقر عينه وتلذذ نفسه زيادة على الحاجة فيطلب زوجه جميلة وطعاما لذيذا وملبسا فاخرا ومسكنا شامخا، والثالث انه يوجد منهم اهل عقل ودراية يستنبطون الارتفاقات الصالحة ويوجد منهم من يختلج في صدره ما يختلج في صدور أولئك ولكن لا يستطيع الاستنباط فاذا رأى من الحالكاء وسمع ما استنبطوه تلقاه بقباه وعض عليه بنواجذه لما وجد موافقا لعلمه الاجمالى فرب انسان يجوع ويظما فلا يجد الطعام والشراب فيقاسى ألما شديدا حتى يجدهما فيحاول (١٣) ارتفاقا بازاء هذه الحاجة ولا يهتدى سبيلا ثم يتفق ان يلقي حكما أصابه ما اصاب ذلك فتعرف الحبوب الغازية واستنبط بذرها وسقيها وحصادها ودياسها وتذريتها (١٤) وحفظها الى وقت الحاجة واستنبط حفر الآبار للبعيد من العيون والانهار واصطناع القلال (١٥) والقرب والقصاع فيتخذ ذلك بابا من الارتفاق ثم انه يقضم (١٦) الحبوب كما هي فلا تنهضم في معدته ويرتع الفواكه نيئة فلا تنهضم فيحاول شيئا بازاء هذه فلا يهتدى سبيلا فيلقى حكما استنبط الطبخ والقلي (١٧) والطحن والخبز فيتخذ ذلك بابا آخر وقس على ذلك

(١) اي خذاه (٢) الكتيب محرك القرب ولعل الكتيب لغة فيه لكنى لم أجده في اللغة والمراد منه كتيب ممسك اهـ (٣) التدبيرات النافعة اهـ (٤) أى طلب الحرارة اهـ (٥) أى ينفع اهـ (٦) أى ناص اهـ (٧) أميرها اهـ (٨) أى يجمع اهـ (٩) أشياء اهـ (١٠) أى يطعمان اهـ (١١) أى العالیه اهـ (١٢) أى يخاص اهـ (١٣) أى يقصده اهـ (١٤) أى وطأها بارجل البهائم، وتذريتها إطارة الزهن عنها بالريح اهـ (١٥) خم بزرک، والقرب مشك، والقصاع كاسه كلان اهـ (١٦) ميخايداه (١٧) برپان کردن

حاجاته كلها والمستبصر (١) يشهد عنده لما ذكرنا حدوث كثير من المرافق في البلدان بعد ما لم تكن فمضى على ذلك قرون ولم يزالوا يفعلون ذلك حتى اجتمعت جملة صالحة من العلوم الالهامية المؤيدة بالمسكتسبة ونشبت (٢) عليها نفوسهم وعليها كان محياهم ومماتهم، وبالجملة فحال الالهامات الضرورية مع هذه الاشياء الثلاثة كمثل النفس أصله ضروري بمنزلة حركة النبض وقد انضم معه الاختيار في صغر الانفاس وكبرها .

ولما كانت هذه الثلاثة لا توجد في جميع الناس سواء لاختلاف أهزجة الناس وعقولهم الموجبة الانبعاث من رأى كلى ولحب الظرافة ولاستنباط الارتفاقات والاقتراء فيها ولاختلافهم في التفرغ للنظر (٣) ونحو ذلك من الاسباب كان للارتفاقات حدان، الاول هو الذي لا يمكن أن ينفك عنه أهل الاجتماعات القاصرة كأهل البدو وسكان شواحق الجبال والنواحي البعيدة من الاقاليم الصالحة وهو الذي نسميه بالارتفاق الاول، والثاني ما عليه أهل الحضرة والقرى العامرة من الاقاليم الصالحة المستوجبة أن ينشأ فيها أهل الاخلاق الفاضلة والحكماء فانه كثر هنالك الاجتماعات وازدحمت الحاجات وكثرت التجارب فاستنبطت سنن جزيلة وعضوا عليها بالنواجذ والطرف الاعلى من هذا الحد ما يتعامله الملوك أهل الرفاهية الكاملة الذين يرد عليهم حكماء الامم فينتحلون منهم سننا صالحة وهو الذي نسميه بالارتفاق الثاني ولما كمل الارتفاق الثاني أوجب ارتفاقا ثالثا وذلك أنهم لما دارت بينهم المعاملات وداخلها الشح والحسد والمطل والتجا حد نشأت بينهم اختلافات ومنازعات وانهم نشأ فيهم من تغلب عليه الشهوات الرديئة أو يجبل على الجراءة في القتل والنهب وأنهم كانت لهم ارتفاقات مشتركة النفع لا يطيق واحد منهم اقامتها أو لا تسهل عليه أو لا تسمح نفسه بها فاضطروا إلى اقامة ملك يقضى بينهم بالعدل ويزجر عاصيهم ويقاوم جريئهم ويجبي (٤) منهم الخراج ويصرفه في مصرفه وأوجب الاتفاق الثالث ارتفاقا رابعا وذلك انه لما انفرد كل ملك بمدينته وجب اليه الاموال وانضم اليه الابطال وداخلهم الشح والحرص والحقد تشاجروا فيما بينهم وتقاتلوا فاضطروا إلى اقامة الخليفة أو الانقياد لمن تسلط عليهم تسلط الخلافة الكبرى واعنى بالخليفة من يحصل له من الشوكة ما يرى معه كالممتنع أن يسلبه رجل آخر ملكه اللهم الا بعد اجتماعات كثيرة وبذل أموال خطيرة لا يتمكن منها الا واحد في القرون المتطاولة ويختلف الخليفة باختلاف الاشخاص والعادات وأي أمة طبائعها أشد وأحد فهي أحوج إلى الملوك والخلفاء ممن هي دونها في الشح والشحناء، ونحن نريد أن ننبهك على أصول هذه الارتفاقات وفهارس أبوابها كما أوجبه عقول الامم الصالحة ذوى الاخلاق الفاضلة واتخذوه سنة مسلمة لا يختلف فيها أقاصيهم ولا أدانيهم فاستمع لما يتلى عليك .

(باب الارتفاق الاول)

منه اللغة المعبرة عما في ضمير الانسان والاصل في ذلك أفعال وهيات وأجسام تلابس صوتا ما (٥) بالمجاورة أو التسبب أو غيرهما فيحكي ذلك الصوت كما هو ثم يتصرف فيه باشتقاق الصيغ (٦) بازاء اختلاف المعاني ويشبه

(١) أى المتأمل اهـ (٢) أى لزمت (٣) أى الاستدلال اهـ (٤) أى يجمع اهـ

(٥) مثل الطعن بالرمح يلابس صوتا هو طع طع فسمى بالطعن لملاسته ذلك الصوت، ولما كان الطعن في النسب مشابها بالطعن بالرمح سمي باسمه، وهو من قبيل تشبيه الوجدانيات بالمحسوسات اهـ (٦) كالماضى والمضارع ونحوهما اهـ

أمور مؤثرة في الابصار أو محدثة لهيات وجدانية في النفس بالقسم الاول ويتكلف له صوت كمثل شتم اتسعت اللغات بالتجوز بمشابهة أو مجاورة والنقل لعلاقة ما، وهناك أصول أخرى ستجدها في بعض كلامنا، ومنه الزرع والغرس وحفر الآبار وكيفية الطبخ والائتدام، ومنه اصطناع الاواني والقرب، ومنه تسخير البهائم واقتناؤها (١) ليستعان بظهورها وخومها وجلودها وأشعارها وأوبارها وألبانها وأولادها، ومنه مسكن يؤويه (٢) من الجرب والبرد من الغيران (٣) والعشوش (٤) ونحوها، ومنه لباس يقوم مقام الريش من جلود البهائم أو أوراق الاشجار أو مما عملت أيديهم، ومنه أن اهتدى لتعيين منكوبة لا يزاخه فيها أحد يدفع بها شبقه ويذراً بها نسله ويستعين بها في حوائجه المنزلية وفي حضانة الاولاد وتربيتها وغير الانسان لا يعينها الا بنحو من الاتفاق أو بكونهما توأمين ادركا (٥) على المرافقة ونحو ذلك، ومنه أن اهتدى لصناعات لا يتم الزرع والغرس والحفر وتسخير البهائم وغير ذلك الا بها كالمعول والدلو والسكة (٦) والحبال ونحوها، ومنه أن اهتدى لمبادلات ومعاونات في بعض الامر، ومنه أن يقوم أسدهم رأيا وأشدهم بطشا فيسخر الآخرين ويرأس (٧) ويربع ولو بوجه من الوجوه، ومنه أن تكون فيها سنة مسلمة لفصل خصوماتهم وكبح ظالمهم (٨) ودفع من يريد أن يغزوهم ولا بد أن يكون في كل قوم من يستنبط طرق الارتفاق فيما يهمهم شأنه فيقتدى به سائر الناس وأن يكون فيهم من يحب الجمال والرفاهية والدعة (٩) ولو بوجه من الوجوه ومن يباهي باخلاقه من الشجاعة والسماحة والفصاحة والكيس (١٠) وغيرها ومن يحب أن يطير صيته ويرتفع جاهه وقد من الله تعالى في كتابه العظيم على عباده بالهام شعب هذا الارتفاق (١١) لعله بان التكليف بالقرآن يعم أصناف الناس وانه لا يشملهم جميعا الا هذا النوع من الارتفاق والله أعلم *

﴿ باب فن آداب المعاش ﴾

وهي الحكمة الباحثة عن كيفية الارتفاق من الحاجات المبينة من قبل على الحد الثاني والاصل فيه أن يعرض الارتفاق الاول على التجربة الصحيحة في كل باب فيختار الهيات البعيدة من الضرر القربية من النفع ويترك ما سوى ذلك وعلى الاخلاق الفاضلة التي يجبل عليها أهل الامزجة الكاملة فيختار ما توجبه وتقتضيه ويترك ما سوى ذلك وعلى حسن الصحبة بين الناس وحسن المشاركة معهم ونحو ذلك من المقاصد الناشئة من الرأي الكلي ومعظم مسائله (١٢) آداب الأكل والشرب والمشى والقيود والنوم والسفر والخلاء والجماع واللباس والمسكن والنظافة والزينة ومراجعة الكلام والتمسك بالادوية والرقى في العاهات (١٣) وتقدمة المعرفة في الحوادث المجمععة والولائم عند عروض فرح من ولادة ونكاح وعيد وقدم مسافر وغيرها والمآتم عند المصائب وعيادة المرضى ودفن الموتى فانه أجمع من يعتد به من أهل الامزجة الصحيحة سكان البلدان المعمورة على أن لا يؤكل الطعام الخبيث كالميت حتف أنفه (١٤) والمتعفن والحيوان البعيد من اعتدال المزاج وانتظام الاخلاق ويستحبون أن يوضع الطعام في الاواني وتوضع هي على السفر ونحوها وان ينظف الوجه

(١) ذخيرة كردون اه (٢) أي يحفظه (٣) جمع غار اه (٤) جمع عش بضم اشيانه اه (٥) أي بلغا اه (٦) قلبه (٧) أي يصير رئيسا، ويربع أي يستقيم اه (٨) لكأم باز كشيدن ستور راتا باز ايستداه (٩) تن آساق اه (١٠) ذيرني (١١) أي الاول اه (١٢) أي المعاش اه (١٣) أي الآفات اه (١٤) أي الميت بنفسه بغير قتل أو ذبح اه

واليدان عند ارادة الاكل ويحترز عن هيات الطيش (١) والشره والتي تورث الضغائن في قلوب المشار كين وأن لا يشرب الماء الآجن (٢) وأن يحترز من الكرع والعب (٣) وأجمعوا على استحباب النظافة نظافة البدن والثوب والمساكن عن شيئين عن النجاسات المنتنة المتقدرة وعن الاوساخ النابتة على نهج طبيعي كالبخر (٤) يزال بالسواك وكشعر الابط والعانة وكتوسخ الثياب واعشيشاب (٥) البيت وعلى استحباب أن يكون الرجل شامة (٦) بين الناس قد سوى لباسه وسرح رأسه ولحيته والمرأة اذا كانت تحت رجل تزين بخضاب وحلى ونحو ذلك وعلى ان العرى شين واللباس زين وظهور السوأيتين عار وان أتم اللباس ماسترعاة البدن وكان ساتر العورة غير ساتر البدن وعلى تقدم المعرفة بشيء من الاشياء إما بالرؤيا أو بالنجوم أو الطيرة أو العيافة (٧) والكهانة والرمل ونحو ذلك وكل من خلق على مزاج صحيح وذوق سليم يختار لا محالة في كلامه من الالفاظ كل لفظ غير وحشى ولا ثقل على اللسان ومن التراكيب كل تركيب متين جيد ومن الاساليب كل أسلوب يميل اليه السمع ويركن اليه القلب وهذا الرجل هو ميزان الفصاحة، وبالجملة ففي كل باب مسائل اجماعية مسلمة بين أهل البلدان وان تباعدت والناس بعدها في تمهيد قواعد الآداب مختلفون فالطبيعي يمهدها على استحسانات الطب والمنجم على خواص النجوم والالهى على الاحسان كما تجدها في كتبهم مفصلة، ولكل قوم زى وآداب يتميزون بها يوجبها اختلاف الامزجة والعادات ونحو ذلك

(باب تدبير المنزل)

وهو الحكمة الباحثة عن كيفية حفظ الربط الواقع بين أهل المنزل على الحد الثاني من الارتفاق وفيه أربع جمل، الزواج، والولاد، والملكة، والصحة والاصل في ذلك أن حاجة الجماع أوجبت ارتباطا واصطحابا بين الرجل والمرأة ثم الشفقة على المولود أوجبت تعاونا منهما في حضائته وكانت المرأة اهداهما للحضانة (٨) بالطبع وأخفهما عقلا واكثرهما انحجاما (٩) من المشاق واتمهما حياء ولزوما للبيت واحذقهما سعيا في محقرات الامور وأوفرهما انقيادا وكان الرجل أسدهما عقلا وأشدهما ذبا عن الذمار (١٠) واجراهما على الاقتحام (١١) في المشاق وأتمهما تباها وتسليطا ومناقشة وغيره فكان معاش هذه لا تتم الا بذلك، وذاك يحتاج الى هذه وأوجبت مزاحمت الرجال على النساء وغيرتهم عليهن أن لا يصلح امرهم الا بتصحيح اختصاص الرجل بزوجه على رؤس الاشهاد وأوجبت رغبة الرجل في المرأة وكرامتها على وليها وذبه عنها ان يكون مهر وخطبة وتصد من الولي وكان لو فتح رغبة الاولياء في المحارم أفضى ذلك الى ضرر عظيم عليها من عضلها (١٢) عمن ترغب فيه وان لا يكون لها من يطالب عنها بحقوق الزوجية مع شدة احتياجها الى ذلك وتكدير الرحم بمنازعات الضرات ونحوها مع ما تقتضيه سلامة المزاج من قلة الرغبة في التي نشأ (١٣) منها او نشأت منه او كانا كغصني دوحه واوجب الحياء عن ذكر

(١) أى الحق (٢) أى العفن اه (٣) الكرع ان يشرب الماء بفيه من موضعه من غير الكفين والالنام، والعب تتابع الجرع اه (٤) هو بفتحيتين أن الفم اه (٥) اعشوشبت الارض أى كثر عشبها والمراد من عشيشاب البيت وجود قطعات العشب وغيره فيه اه (٦) هى علامة تخالف لون البدن الذى هى فيه والمراد ههنا ان يكون ظاهر النظافة بين الناس اه (٧) العيافة بالكسر التفاؤل بالطيور اه (٨) أى التربية اه (٩) الانحجام بتقديم الحياء على الجيم الامتناع اه (١٠) أى العار وقلة المروءة (١١) أى الدخول اه (١٢) أى منعها من الزواج اه (١٣) أى الرجل منها كالأم او نشأت أى المرأة منه كالبنات

الحاجة الى الجماع ان تجعل مدسوسة (١) في ضمن عروج يتوقع لها كانه الغاية التي وجد لها واوجب التلطف في التشهير وجعل الملاك المنزلي عروجا ان تجعل وليمة يدعى الناس اليها ودف وطرب، وبالجملة فلو جوه جمعة مما ذكرنا وما حذفنا اعتماداً على ذهن الاذكياء - كان النكاح بالهيئة المعتادة اعنى نكاح غير المحارم بمحضر من الناس مع تقديم مهر وخطبة وملاحظة كفاءة وتصدد من الاولياء ووليمة وكون الرجال قوامين على النساء متكفلين معاشهن وكونهن خادعات حاضنات مطيعات سنة (٢) لازمة وأمر امسلياً عند الكافة وفطرة فطر الله الناس عليها لا يختلف في ذلك عربهم ولا عجمهم، ولما لم يكن بذل الجهد منهما في التعاون بحيث يجعل كل واحد ضرر الآخر ونفعه كالراجع الى نفسه إلا بان يوطنا أنفسهما على ادامة النكاح ولا بد من ابقاء طريق للخلاص اذا لم يطاوعا ولم يتراضيا وان كان من أبغض المباحات وجب في الطلاق ملاحظة قيود وعدة وكذا في وفاته عنها تعظيماً لأمر النكاح في النفوس واداء لبعض حق الادامة ووفاء لعهد الصحة ولئلا تشبه الانساب ٥

وأوجبت حاجة الاولاد إلى الآباء وخدمهم (٣) عليهم بالطبع أن يكون تمرين الاولاد على ما ينفعهم فطرة وأوجب تقدم الآباء عليهم فلم يكبروا الا والآباء أكثر عقلاً وتجربة مع ما يوجبهم صحة الاخلاق من مقابلة الاحسان بالاحسان وقد قاسوا في تربيتهم مالا حاجة إلى شرحه أن يكون (٤) بر الوالدين سنة لازمة، وأوجب اختلاف استعداد بنى آدم أن يكون فيهم السيد بالطبع وهو الا كيس المستقل بمعيشته ذو سياسة ورفاهية جبليتين والعبد بالطبع وهو الاخرق (٥) التابع ينقاد كما يقاد وكان معاش كل واحد لا يتم الا بالآخر ولا يمكن التعاون في المنشط والمكروه الا بان يوطنا أنفسهما على ادامة هذا الربط ثم أوجبت اتفاقات أخر أن يأسر بعضهم بعضاً فوق ذلك منهم بموقع وانتظمت الملكية ولا بد من سنة يؤخذ كل واحد نفسه عليها ويلام على تركها ولا بد من ابقاء طريق الخلاص في الجملة بمال أو بدونه وكان يتفق كثيراً أن تقع على الانسان حاجات وعاهات من مرض وزمانة (٦) وتوجه حق عليه وحوادث يضعف عن اصلاح أمره معها الا بمعاونة بنى جنسه و كان الناس فيها سواسية (٧) فاحتاجوا الى اقامة ألفة بينهم وادامتها وأن تكون لاغاثة المستغيث واعانة الملهوف سنة بينهم يطالبون بها ويلامون عليها ولما كانت الحاجات على حدين لا يتم إلا بان يعد كل واحد ضرر الآخر ونفعه راجعاً الى نفسه ولا يتم الا ببذل كل واحد الطاقة في موالاة الآخر ووجوب الانفاق عليه والتوراث، وبالجملة فبأمور تلزمهم من الجانبين ليكون الغنم (٨) بالغرم وكان أليق الناس بهذا الحد الاقارب لان تحابهم واصطحابهم كالأمر الطبيعي وحد يتأتى بأقل من ذلك فوجب أن تكون مواساة أهل العاهات سنة مسلمية بين الناس وأن تكون صلة الرحم أو كدوأشد من ذلك كله، ومعظم مسائل هذا الفن معرفة الاسباب المقتضية للزواج وتركه وسنة الزواج وصفة الزوج والزوجة وما على الزوج من حسن المعاشرة وصيانة الحرم عن الفواحش والعار وما على المرأة من التعفف وطاعة الزوج وبذل الطاقة في مصالح المنزل وكيفية صالح المتناشرين وسنة الطلاق واحداث المتوفى عنها زوجها وحضانة الاولاد وبر الوالدين وسياسة المالك والاحسان

أو كانا كعضني دوحه كالآخت (١) أي مخفية (٢) خبر كان (٣) أي ميلاهم (٤) وهو مفعول اوجب اه (٥) أي الاحق اه (٦) أي آفة (٧) يقال هم سواء وأسواء وسواسية أي اشباه وزنه فعاغه ذهب عنه الحرف الثالث فان سواء فعال وسية فعة اه (٨) غنيمت وقوله بالغرم تاوان اه

اليهم وقيام الممالك بخدمة الموالى وسنة الاعتاق وصلة الارحام والجيران والقيام بمواساة فقراء البلد والتعاون في دفع عاهات طارئة عليهم وأدب نقيب القبيلة وتعهده حالهم وقسمة التركات بين الورثة والمحافظة على الانساب والاحساب فلن تجد أمة من الناس الا وهم يعتقدون أصول هذه الابواب ويجتهدون في اقامتها على اختلاف اديانهم وتباعد بلدانهم والله اعلم *

(باب فن المعاملات)

وهو الحكمة الباحثة عن كيفية اقامة المبادلات والمعاونات والاكساب على الارتفاق الثانى والاصل فى ذلك انه لما ازدحمت الحاجات وطلب الاتقان فيها وأن تكون على وجه تقر به الاعين وتلد به النفس تعذر اقامتها من كل واحد وكان بعضهم وجد طعاما فاضلا عن حاجته ولم يجد ماء وبعضهم ماء فاضلا ولم يجد طعاما فرغب كل واحد فيما عند الآخر فلم يجدوا سبيلا الا المبادلة فوقع من حاجتهم فاصطلحوا بالضرورة على أن يقبل كل واحد على اقامة حاجة واحدة واتقانها والسعى في جميع ادواتها ويجعلها ذريعة الى سائر الحوائج بواسطة المبادلات وصارت تلك سنة مسلمة عندهم، ولما كان كثير من الناس يرغب في شىء وعن شىء فلا يجد من يعامله في تلك الحالة اضطروا الى تقدمه وتهيئة واندفعوا الى الاصطلاح على جواهر معدنية تبقى زمانا طويلا أن تكون المعاملة بها أمر امسليا عندهم وكان الالىق من بينها الذهب والفضة لصغر حجمهما وتماثل افرادهما وعظم نفعهما في بدن الانسان ولتأتى التجميل بهما فكانا نقدين بالطبع وكان غيرهما نقدا بالاصطلاح * وأصول المكاسب الزرع والرعى والتقاط الاموال المباحة من البر والبحر من المعدن والنبات والحيوان والصناعات من نجارة وحدادة وحياسة وغيرها مما هو من جعل الجواهر الطبيعية بحيث يتأتى منها الارتفاق المطلوب ثم صارت التجارة كسبا ثم صار الاقبال على كل ما يحتاج الناس اليه كسبا وكلها رقت النفوس وأمعنت في حب اللذة والرفاهية تفرعت حواشى المكاسب واختص كل رجل بكسب لا حد شيئين مناسبة القوى فالرجل الشجاع يناسب الغزو، والكيس الحافظ يناسب الحساب، وقوى البطش يناسب حمل الاثقال وشاق الاعمال واتفاقات توجد فولد الحداد وجاره يتيسر له من صناعة الحدادة مالا يتيسر له من غيرها ولا لغيره منها وقاطن ساحل البحر يتأتى منه صيد الحيتان دون غيره ودون غيرها وبقيت نفوس أعيت بهم المذاهب الصالحة فأنحدروا الى اكساب ضارة بالمدينة كالسرقة والقمار والتكدي والمبادلة إما عين بعين وهو البيع أو عين بمنفعة وهى الاجارة ولما كان انتظام المدينة لا يتم الا بانشاء ألفة ومحبة بينهم وكانت الالفه كثيرا ما تفضى الى بذل المحتاج اليه بلا بدل أو تتوقف عليه انشعبت الهبة والعارية ولا تتم أيضا الا بمواساة الفقراء انشعبت الصدقة وأوجبته المعدات أن يكون منهم الا خرق (١) والكافى والمماق والمثرى والمستنكف من الاعمال الخسيسة وغير المستنكف والذي ازدحمت عليه الحاجات والمتفرغ (٢) فكان معاش كل واحد لا يتم الا بمعاونة آخر ولا معاونة الا بعقد وشروط واصطلاح على سنة فانشعبت المزارعة والمضاربة والاجارة والشركة والتوكيل ووقعت حاجات تسوق الى مداينة ووديعة وجربوا الخيانة والجحود والمطل

(١) أى الاحق والكافى دار كزارى والمماق الممس، والمثرى بالفارسية توانكره والمستنكف عاردا رنده ام

(٢) أى من الحاجات ام

فأضطروا إلى إسهاد وكتابة وثائق ورهن وكفالة وحوالة وكلما ترفهت النفوس انشعبت أنواع المعاونات ولن تجد أمة من الناس إلا ويباشرون هذه المعاملات ويعرفون العدل من الظلم والله اعلم ٥

(باب سياسة المدينة)

وهي الحكمة الباقية عن كيفية حفظ الربط الواقع بين أهل المدينة - راعى بالمدينة جماعة متقاربة تجرى بينهم المعاملات ويكونون أهل منازل شتى - والاصل في ذلك أن المدينة شخص واحد من جهة ذلك الربط مركب من اجزاء وهيئة اجتماعية وكل مرئى يمكن أن يلحقه خلل في مادته أو صورته ويلحقه مرض اعنى حالة غيرها أليق به باعتبار نوعه وصحة اى حالة تحسنه وتجمله ولما كانت المدينة ذات اجتماع عظيم لا يمكن أن يتفق رأيهم جميعا على حفظ السنة العادلة ولا أن ينكر بعضهم على بعض من غير أن يمتاز بمنصب إذ يفضى ذلك إلى مقاتلات عريضة لم ينتظم أمرها الا برجل اصطاح على طاعته جمهور أهل الحل والعقد له اعوان وشوكة وكل من كان أشج وأحد وأجراً على القتل والغضب فهو أشد حاجة إلى السياسة ومن الخلل أن تجتمع أنفس شريرة لهم منعة وشوكة على اتباع الهوى ورفض السنة العادلة إما طمعا في أموال الناس وهم قطاع الطريق أو إضراراً لهم بغضب أو حقد أو رغبة في الملك فيحتاج في ذلك إلى جمع رجال ونصب قتال، ومنه اصابة ظالم انسانا بقتل أو جرح أو ضرب أو في أهله بان يزاحم على زوجته أو يطعم في بناته وأخواته لغير حق أو في ماله من غصب جهرة أو سرقة خفية أو في عرضه من نسبته إلى أمر قبيح يلام به أو إغلاظ القول عليه، ومنه أعمال ضارة بالمدينة ضرراً خفياً كالسحر ودرس السم وتعليم الناس الفساد وتخيب (١) الرعية على الملك والعبد على مولاه والزوجة على زوجها، ومنه عادات فاسدة فيها إهمال للارتفاقات الواجبة كاللواطة والسحاقة (٢) واتيان البهائم فانها تصد عن النكاح أو انسلاخ (٣) عن الفطرة السليمة كالرجل يؤث المرأة تذكر أو حدوث لمنازعات عريضة كالزاحمة على الموطوءة من غير اختصاص بها وكادمان الخمر، ومنه معاملات ضارة بالمدينة كالقمار والربا أضعافاً مضاعفة والرشوة وتطيف الكيل والوزن والتدليس (٤) في السلم وتلقى الجلب (٥) والاحتكار (٦) والنجش، ومنه خصومات مشككة يتمسك فيها كل بشبهة ولا تنكشف جليلة الحال فيحتاج إلى التمسك بالبينات والأيمان والوثائق وقرائن الحال ونحوها وردها إلى سنة مسلمة وابداء وجه الترجيح ومعرفة مكاييد المتخاصمين ونحو ذلك، ومنه أن يبدو أهل المدينة ويكتفوا بالارتفاق الاول أو يتمدوا في غير هذه المدينة أو يكون توزيعهم (٧) في الاقبال على الاكساب بحيث يضر بالمدينة مثل أن يقبل أكثرهم على التجارة ويدعوا الزراعة أو يتكسب أكثرهم بالغزو ونحوه وانما ينبغى أن يكون الزراع بمنزلة الطعام والصناع والتجار والحفظة بمنزلة الملح المصلح له، ومنه انتشار السباع الضارية (٨) والهوام المؤذية فيجب السعى في إفنائها ومن باب كمال الحفظ بناء الابنية التي يشتركون في الانتفاع بها كالاسوار

(١) هو بالفارسية قرب ب دادن اه (٢) نعت سوء للمرأة كما في القاموس اه (٣) يبرون شدن (٤) بنهان کردن عيب، وقوله في السلم اى المتاع اه (٥) وهو أن يأتي التجار الذين جاؤا من البلد الآخر قبل دخولهم بلدهم واشترأ أجناسهم لبيعها عالية اه (٦) خريدن غله وحبس کردن آن تاله وقت کرانی فروشود، وقوله والنجش وصف کردن متاع وزيادة کردن قیمت آن بدون قصد خريداری خود تا که دیگر کسی خريد سازد (٧) أى انقسامهم اه (٨) در پی شنودم

والربط والحصون والثغور والأسواق والقناطر، ومنه حفر الآبار واستنباط العيون وتهيئة السفن على سواحل
الأنهار، ومنه (١) حمل التجار على الميرة بتأنيدهم وتأليفهم وتوصية أهل البلد أن يحسنوا المعاملة مع الغرباء
فإن ذلك يفتح باب كثرة ورودهم وحمل الزراع على أن لا يتركوا أرضاً مهملة والصناع أن يحسنوا
الصناعات ويتقنوها وأهل البلد على اكتساب الفضائل كالخط والحساب والتاريخ والطب والوجوه
الصحيحة من تقدم المعرفة، ومنه معرفة أخبار البلد لتمييز الداعر (٢) من الناصح ولتعلم المحتاج فيعان وصاحب صنعة
مرغوبة فيستعان به وغالب سبب خراب البلدان في هذا الزمان شيان، أحدهما تضيقهم على بيت المال بأن يعتادوا
التكسب بالاختدمنه على أنهم من الغزاة أو من العلماء الذين لهم حق فيه أو من الذين جرت عادة الملوك بصلاتهم كالزهاد
والشعراء أو بوجه من وجوه التكدي ويكون العمدة عندهم هو التكسب دون القيام بالمصلحة فيدخل قوم على قوم
فينغصون عليهم ويصرون كلاً على المدينة، والثاني ضرب الضرائب (٣) الثقيلة على الزراع والتجار والمتحرفة
والتشديد عليهم حتى يفضى إلى اجحاف (٤) المطاوعين واستئصالهم وإلى تمنع أولى بأس شديد وبغيرهم وإنما تصلح
المدينة بالجباية (٥) اليسيرة وإقامة الحفظة بقدر الضرورة فليتنبه أهل الزمان لهذه النكتة والله أعلم.

(باب سيرة الملوك)

يجب أن يكون الملك متصفاً بالاخلاق المرضية وإلا كان كلاً (٦) على المدينة فإن لم يكن شجاعاً ضعف
عن مقاومة المحاربين ولم تنظر إليه الرعية إلا بعين الهوان وإن لم يكن حليماً كاد يهلكهم بسطوته وإن لم يكن
حكيماً لم يستنبط التدبير المصلح وأن يكون عاقلاً بالغاً حراً ذا رأي وسمع وبصر ونطق ممن سلم الناس
شرفه وشرف قومه ورأوا منه ومن آباءه المآثر الحميدة وعرفوا أنه لا يألو جهداً (٧) في إصلاح المدينة
هذا كله يدل عليه العقل وأجمعت عليه أمم بني آدم على تباعد بلدانهم واختلاف أديانهم لما أحسوا من أن
المصلحة المقصودة من نصب الملك لا تتم إلا به فإن وقع شيء من إهماله رأوه خلاف ما ينبغي وكرهته قلوبهم
ولو سكتوا سكتوا على غيظ ولا بد للملك من إنشاء الجاه في قلوب رعيته ثم حفظه وتدارك الخادشات له
بتدبيرات مناسبة ومن قصد الجاه فعليه أن يتحلى بالاخلاق الفاضلة مما يناسب رياسته كالشجاعة والحكمة
والسخاوة والعفو عن ظلم وإرادة نفع العامة ويفعل بالناس ما يفعل الصياد بالوحش فكما أن الصياد يذهب
إلى الغيضة فينظر إلى الظباء ويتأمل الهيئة المناسبة لطبائعها وعاداتها فيتبهاً بتلك الهيئة ثم يبرز لها من بعيد
ويقصر النظر على عيونها وآذانها فهمما عرف منها تيقظاً أقام بمكانه كأنه جماد ليس به حراك ومهما عرف
منها غفلة دب إليها ديباً ور بما أطربها بالنغم وألقى إليها أطيب ما ترومه من العلف على أنه صاحب لرم
بالطبع وأنه لم يقصد بذلك صيدها والنعم تورث حب المنعم وقيد المحبة أوثق من قيد الحديد فكذلك
الرجل الذي يبرز إلى الناس ينبغي أن يؤثر هيئة ترغب فيها النفوس من زى ومنطق وأدب.

ثم يتقرب منهم هونا ويظهر اليهم النصيح والمحبة من غير مجازفة (٨) ولا ظهور قرينة تدل على أن ذلك
لصيدهم ثم يعلمهم أن نظيره كالممتنع في حقهم حتى يرى أن نفوسهم قد اطمأنت بفضلهم وتقدمه وصدورهم قد

(١) أي من باب المال الحفظ وقوله الميرة أي القوت اهـ (٢) أي المفسد اهـ (٣) أي الخراجات اهـ (٤) بتقديم
الجم على الحاء بمعنى درر بودن (٥) كرد كردن خراج اهـ (٦) بار (٧) أي لا يقصر اهـ (٨) من الجزاف وهو معرب كزاف

امتلات مودة وتعظيها وجوارحهم تدابت خشوعا واخباتا ثم ليحفظ ذلك فيهم فلا يكن منه ما يختلفون به عليه فان فرط شيء من ذلك فليتدارك بلطف واحسان واظهار ان المصلحة حكمت بما فعل وانه لم لا عليهم والملك مع ذلك يحتاج الى ايجاب طاعته بالانتقام ممن عصاه فمهما استشعر من رجل كفاية في حرب أو جباية (١) أو تدبير فليضعف عطائه وليرفع قدره وايدبط له بشره (٢) ومهما استشعر منه خيانة وتخلفا وانسلالا فليقلص من عطائه وليخفض من قدره وليطو عنه بشره وإلى يسار أكمل من يسار الناس وليكن مما لا يضيق عليهم كموات يحويه وناحية بيعدة يحميها ونحو ذلك وإلى ان لا يبطش باحدا لا بعد أن يصحح على أهل الحل والعقد انه يستحقه (٣) وان المصلحة الكلية حاكمة به ولا بد للملك من فراسة يتعرف بها ما أضمرت نفوسهم ويكون المعيا (٤) يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمع ويجب عليه أن لا يؤخر مالا بد منه الى غد ولا يصبر ان رأى منهم احدا يضر عداوته دون فك نظامه واضعاف قوته والله أعلم *

(باب سياسة الاعوان)

لما كان الملك لا يستطيع اقامة هذه المصالح كلها بنفسه وجب ان يكون له بازاء كل حاجة أعوان ومن شرط الاعوان والامانة والقدرة على اقامة ما أمروا به وانقيادهم للملك والنصح له ظاهرا وباطنا وكل من خالف هذه الشريعة فقد استحق العزل فان أهمل الملك عزله فقد خان المدينة وأفسد على نفسه امره وينبغي أن لا يتخذ الاعوان ممن يتعذر عزله أو ممن له حق على الملك من قرابة او نحوها فيقبح عزله ، وللميز الملك بين محبيه فمنهم من يحبه لرهبته أو لرغبته فليجره اليه بحيلة ومنهم من يحبه لذاته ويكون نفعه نفعه له وضرره ضررا عليه فذلك المحب الناصح ولكل انسان جبلة جبل عليها وعادة اعتادها ولا ينبغي للملك أن يرجو من احد أكثر مما عنده والاعوان إما حفظة من شر المخالفين بمنزلة اليدين الحاملتين للسلاح من بدن الانسان وإما مدبرون للمدينة بمنزلة القوى الطبيعية من الانسان أو المشاورون للملك بمنزلة العقل والحواس للانسان ويجب على الملك ان يسأل كل يوم ما فيهم من الاخبار ويعلم ما وقع من الاصلاح وضده، ولما كان الملك وأعوانه عاملين للمدينة عملا نافعا وجب ان يكون رزقهم عليها ولا بد ان يكون بجباية العشور (٥) والخراج سنة عادلة لا تضر بهم وقد لفت الحاجة ولا ينبغي أن يضرب على كل أحد وفي كل مال ولأمر ما أجمعت ملوك الامم من مشارق الارض ومغاربها أن تكون الجباية من أهل الدثور والقناطر المقنطرة ومن الاموال النامية كماشية متناسلة (٦) وزراعة وتجارة فان احتيج الى أكثر من ذلك فعلى رؤس الكاسبين ولا بد للملك من سياسة جنوده وطريق السياسة ما يفعله الرائض (٧) الماهر بفرسه حيث يتعرف اصناف الجرى من ارقال (٨) وهرولة وعدو وغيرها والعادات الذميمة من حرونة (٩) ونحوها والامور التي تنبه الفرس تنبيهها بليغا كالنخس والزجر والسوط ثم يراقبه فكلما فعل ما لا يرتضيه او ترك ما يرتضيه ينبهه بما ينقاد له طبعه وتنكسر به سورته وليقصد في ذلك أن لا يتشوش خاطره فلا يتفطن لماذا ضربه ولتكن صورة الامر الذي يلقيه اليه متمثلة في صدره منعقدة في قلبه والخوف

(١) أي جمع خراج اه (٢) أي وجهه وقوله، وانسلالا أي بيرون شدة ازطاعت اه (٣) أي البطش اه (٤) تيز رأى اه

(٥) أي جمعها (٦) بالفارسية دابة نسل دهنده اه (٧) جابك سوار رياضت دهنده اه (٨) بوبه رفقن، والهرولة

دوبدن، والعدو شتافتن اه (٩) توسني، وقوله كالنخس الخ بالفارسية جوبزدن اه

من المجازاة مقيما في خاطره ثم اذا حصل فعل المطلوب والكف عن المهروب لا ينبغي ان يترك الرياضة حتى يرى ان الطريقة المطلوبة صارت خلقا له وديدنا وصار بحيث لولا الزجر لما ركن الى خلافها فكذلك يجب على رائض الجنود أن يعرف الطريقة المطلوبة فعلا وكفا (١) والامور التي يقع بها تنبيههم وليكن من شأنه أن لا يهمل شيئا من ذلك أبدا وليس للاعوان حصر في عدد لكنه يدور على دوران حاجات المدينة فرما تقع الحاجة الى اتخاذ عونين في حاجة وربها كفي عون لحاجتين غير ان رؤس الاعوان خمسة، القاضي وليكن حرا ذكرا بالغ عاقلا كافيا عارفا بسنة المعاملات وبمكايد الخصوم في اختصاصهم وليكن صلبا حليما جامعا للامرين ولينظر في مقامين، أحدهما معرفة جليلة الحال وهي إما عقد او مظلمة أو سابقة بينهما، وثانيهما ما يريد كل واحد من صاحبه أي الارادتين أصوب وأرجح ولينظر في وجه المعرفة فهناك حجة لا يريب فيها الناس تقتضي الحكم الصراح وحجة ليست بذاك تقتضي حكما دون الحكم الاول، وامير الغزاة وليكن من شأنه معرفة عدة الحرب وتأليف الابطال والشجعان ومعرفة مبلغ كل رجل في النفع وكيفية تعبئة (٢) الجيوش ونصب الجواسيس والخبرة بمكايد الخصوم، وسائس المدينة وليكن مجربا قد عرف وجوه صلاح المدينة وفسادها صلبا حليما وليكن من قوم لا يسكتون اذا رأوا خلافا ما يرتضونه وليتخذ لكل قوم نقيبا منهم عارفا باخبارهم ينتظم به امرهم ويؤاخذ بهما عندهم، والعامل وليكن عارفا بكيفية جباية الاموال وتفريقها على المستحقين، والوكيل المتكفل بعائش الملك فانه مع ما به من الاشغال لا يمكن ان يتفرغ للنظر الى اصلاح معاشه *

(باب الارتفاق الرابع)

وهي الحكمة الباحثة عن سياسة حكام المدن وملوكها وكيفية حفظ الربط الواقع بين أهل الاقاليم وذلك أنه لما انفرد كل ملك بمدينته وجب اليه الاموال وانضم اليه الابطال أوجب اختلاف امزجتهم وتشقت استعداداتهم أن يكون فيهم الجور وترك السنة الراشدة وان يطمع بعضهم في مدينة الآخر وان يتحاسدوا ويتقاتلوا بآراء جزئية من نحو رغبة في الاموال والاراضي او حسد وحقد فلما كثر ذلك في الملوك اضطروا الى الخليفة وهو من حصل له من العساكر والعدد ما يرى كالممتنع أن يسلب رجل آخر ملكه فانه إنما يتصور بعد بلاء عام وجهد كبير واجتماعات كثيرة وبذل أموال خطيرة تنقاصر الانفس دونها وتحيله العادة وإذا وجد الخليفة وأحسن السيرة في الارض وخضعت له الجبابرة وانقاد له الملوك تمت النعمة وأطمأنت البلاد والعباد واضطر الخليفة الى إقامة القتال دفعا للضرر اللاحق لهم من أنفس سبعية تنهب أموالهم وتسبي ذرارهم (٣) وتهتك حرمتهم وهذه الحاجة هي التي دعت بني اسرائيل الى أن قالوا لنبي لهم (ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله) وابتداء اذا أساءت أنفس شهوية أو سبعية السيرة وافسدوا في الارض فألهم الله سبحانه إما بلا واسطة أو بواسطة الانبياء أن يسلب شوكتهم ويقتل منهم من لا سبيل له الى الاصلاح أصلا وهم في نوع الانسان بمنزلة العضو المؤف بالأكلة (٤) وهذه الحاجة هي المشار اليها بقوله تعالى: (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع) (٥) الآية وقوله تعالى: (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة) ولا يتصور للخليفة

(١) أي منعاه (٢) أي ترتيب وتهية (٣) أي نأسر اولادهم اه (٤) الأكلة كفرحة داء في العضو ياكل منه

(٥) صوامع جمع صومعة، والبيع جمع بيعة وكلاهما بمعنى معبد النصراني اه

مقالة الملوك بجارية وازالة شوكتهم الا باموال وجمع رجال ولا بد في ذلك من معرفة الاسباب المقتضية لكل واحد من القتال والهدنة (١) وضرب الخراج والجزية وأن يتأمل أولا ما يقصد بالمقاتلة من دفع مظلة أوازهاق (٢) أنفس سبعية خبيثة لا يرجى صلاحها أو كبت أنفس دونها في الخبث بازالة شوكتها أو كبت قوم مفسدين في الارض بقتل رؤسهم المدبرين لهم أو حبسهم أو حيازة أموالهم وأراضهم أو صرف وجوه الرعية عنهم ولا ينبغي لخليفة أن يقتحم لتحصيل مقصد فيما هو أشد منه فلا يقصد حيازة الاموال بافناء جماعة صالحة من الموافقين ولا بد من استمالة قلوب القوم ومعرفة مبلغ نفع كل واحد فلا يعتمد على أحد أكثر مما هو فيه والتنويه (٣) بشأن السراة والدهاة والتجريض على القتال ترغيبا وترهيبا وليكن أول نظره إلى تفريق جمعهم وتسكيل (٤) حدهم واخافة قلوبهم حتى يتمثلوا بين يديه لا يستطيعون لانفسهم شيئا فاذا ظفر بذلك فليتحقق فيهم ظنه الذي زوره (٥) قبل الحرب فان خاف منهم أن يفسدوا تارة أخرى ألزمهم خراجا منها وجزية مستأصلة وهدم صياصيمهم وجعلهم بحيث لا يمكن لهم أن يفعلوا فعلهم ذلك، ولما كان الخليفة حافظا لصحة مزاج حاصل من أخلاط متشا كسة (٦) جدا أوجب أن يكون متيقظا وبيعث عيوننا في كل ناحية ويستعمل فراسة نافذة واذا رأى اجتماعا منعقدا من عسا كره فلا صبر دون أن ينصب اجتماعا آخر مثله ممن تحيل العادة مواطاتهم معهم واذا رأى من رجل التماس خلافة فلا صبر دون اتقاء جرأته وازالة شوكته واضعاف قوته ولا بد أن يجعل قبول امره والارتفاق على مناصحته سنة مسلمة عندهم ولا يكفي في ذلك مجرد القبول بل لابد من أمارة ظاهرة للقبول بها يؤاخذ الرعية كالدعاء له والتنويه بشأنه في الاجتماعات العظيمة وأن يوطنوا انفسهم على زى وهيئة امر بها الخليفة كالاصطلاح على الدنانير المنقوشة باسم الخليفة في زماننا والله اعلم *

﴿ باب اتفاق الناس على اصول الارتفاقات ﴾

﴿ اعلم ﴾ ان الار تفاعلات لا تخلو عنهما مدينة من الاقاليم المعمورة ولا امة من الامم أهل الامزجة المعتدلة والاخلق الفاضلة من لدن آدم عليه السلام الى يوم القيامة واصولها مسلمة عند الكل قرنا بعد قرن وطبقة بعد طبقة لم يزوالا يذكرون على من عصاها اشد نكير ويرونها امورا بديهة من شدة شهرتها، ولا يصدنك عما ذكرنا اختلافهم في صور الارتفاقات وفروعها فاتفقوا مثلا على ازالة نتن الموت وستر سواآتهم ثم اختلفوا في الصور، فاختار بعضهم الدفن في الارض وبعضهم الحرق بالنار واتفقوا على تشهير امر النكاح وتمييزه عن السفاح (٧) على رؤس الاشهاد ثم اختلفوا في الصور، فاختار بعضهم الشهود والايحاب والقبول والولية وبعضهم الدف والغناء ولبس ثياب فاخرة لا تلبس الا في الولايم الكبيرة واتفقوا على زجر الزناة والسراق ثم اختلفوا، فاختار بعضهم الرجم وقطع اليد وبعضهم الضرب الاليم والحبس الوجيع والغرامات المنهكة، ولا يصدنك أيضا مخالفة طائفتين، احدهما البله الملتحقون بالبهايم ممن لا يشك الجمهور أن امزجتهم ناقصة وعقولهم مخدجة وصاروا يستدلون على بلاهتهم بما يرون من عدم تقييدهم انفسهم بتلك القيود (٨)؛ والثانية الفجار الذين لونقح ما في قلوبهم ظهر

(١) أي الصالح اه (٢) أي اهلاك (٣) التنويه الرفع أي لا بد من رفع شأن هؤلاء، والسراة اسم جمع لسرى كغنى وهو الشريف صاحب المروءة كما في القاموس والمراد ههنا الرؤساء، والدهاة جمع الداهي وهو الرجل الجيد الرأي اه (٤) كند كردن اه (٥) أي هياه اه (٦) أي متخالفة، والعيون الجواسيس اه (٧) أي الزناه (٨) أي الارتفاقات اه

انهم يعتقدون الار تفاعلات لكن تغلب عليهم الشهوات فيعصونها شاهدين على انفسهم بالفجور ويزنون بينات الناس واخواتهم ولوزني بيناتهم واخواتهم كادوا يميزون من الغيظ ويعلمون قطعان الناس يصيبهم ما اصاب اولاء، وان اصابة هذه الامور مخلة بانتظام المدينة لكن يعميهم الهوى، وكذلك الكلام في السرقة والغصب وغيرها ولا ينبغي أن يظن أنهم اتفقوا على ذلك من غير شيء بمنزلة الاتفاق على أن يتغدى بطعام واحد أهل المشارق والمغرب كلهم وهل سفسطة أشد من ذلك؟ بل الفطرة السليمة حكمة بان الناس لم يتفقوا عليها مع اختلاف أمزجتهم وتباعد بلدانهم وتشدت مذاهبهم وأديانهم المناسبة فطرية منشعبة من الصورة النوعية ومن حاجات كثيرة الوقوع يتوارد عليها افراد النوع ومن أخلاق توجبها الصحة النوعية في أمزجة الافراد ولو ان انسانا نشأ بادية نائية (١) عن البلدان ولم يتعلم من احد رسما كان له لاجرم حاجات من الجوع والعطش والغلة (٢) واشتاق لامحالة الى امرأة ولا بد عند صحة مزاجهما ان يتولد بينهما اولاد وينضم اهل ابيات وينشأ فيهم معاملات فينتظم الاتفاق الاول (٣) عن آخره ثم اذا كثروا لا بد ان يكون فيهم اهل اخلاق فاضلة تقع فيهم وقائع توجب سائر الار تفاعلات والله اعلم *

﴿باب الرسوم السائرة في الناس﴾

اعلم أن الرسوم من الار تفاعلات هي بمنزلة القلب من جسد الانسان واياها قصدت الشرائع أولا وبالذات وعنهما البحث في النواميس (٤) الالهية واليهما الاشارات ولها أسباب تنشأ منها كاستنباط الحكماء وكالهام الحق في قلوب المؤيدين بالنور الملوكي واسباب تنتشر بها في الناس مثل كونها سنة ملك كبير دانت (٥) له الرقاب او كونها تفصيلا لما يحده الناس في صدورهم فيتلقونها بشهادة قلوبهم واسباب يعضون (٦) عليها بالنواجذ لاجلها من تجربة مجازاة غيبية على اهمالها او وقوع فساد في اغفالها وكاقامة أهل الآراء الراشدة اللائمة على تركها ونحو ذلك والمستبصر ربما يوفق لتصديق ذلك من احياء سنن واماتتها في كثير من البلدان بنظائر ما ذكرنا والسنن السائرة وإن كانت من الحق في أصل أمرها لكونها حافظة على الار تفاعلات الصالحة ومفضية بافراد الانسان إلى كمالها النظري والعملي ولولاها لالتحق أكثر الناس بالبهائم، فكم من رجل يباشر النكاح والمعاملات على الوجه المطلوب واذا سئل عن سبب تقييده بتلك القيود لم يجد جوابا بالاموافقة القوم وغاية جهده علم اجمالى لا يعرب عنه لسانه فضلا عن تمهيد ارتفاقه فهذا لو لم يلتزم سنة كاد يلتحق بالبهائم لكننها (٧) قد ينضم معها باطل فيلبس على الناس سنتهم وذلك بان يترأس (٨) قوم يغلب عليهم الآراء الجزئية دون المصالح الكلية فيخرجون إلى أعمال سبعية كقطع الطريق والغصب وشهوية كاللواط وتأنث الرجال أو أكساب ضارة كالربا وتطفيف الكيل والوزن أو عادات في الزى والولائم تميل الى الاسراف وتحتاج إلى تعمق بليغ في الاكساب أو الاكثار من المسليات (٩) بحيث يفضى إلى اهمال أمر المعاشر والمعاد كالزمير والشطرنج والصيد واقتناء الحمام ونحوها أو جبايات منهكة (١٠)

(١) أي بعيدة اه (٢) تيزى شهوت اه (٣) أي المذكور في الباب الثاني من هذا المبحث اه (٤) أي الشرائع اه (٥) أي انقادت اه (٦) أي يتمسكون اه (٧) أي السنن اه (٨) بالفارسية رئيس كردر (٩) أسلاء بي غم كردن وخرسندی دادن مسليات جيزها که جهت تفریح طبع رفیع را کن کی خاطر باشند، وقوله واقتناء الحمام بالفارسية ذخيرة کردن اه (١٠) أي مجهدة في العقوبة، والتشاحح الحرص؛ والتشاحن التباغض اه

لا بناء السبيل وخراج مستأصل للرعية أو التشاحح والتشاحن فيما بينهم فيستحسنون أن يفعلوها مع الناس ولا يستحسنون أن يفعل ذلك معهم فلا ينكر عليهم أحد لجأهم وصولتهم فيجىء فجرة القوم فيقتدون بهم وينصرونهم ويبذلون السعى في إشاعة ذلك ويجىء قوم لم يخلق في قلوبهم ميل قوى الى الاعمال الصالحة ولا الى اضدادها فيحملهم ما يرون من الرؤساء على التمسك بذلك وربما أعيت بهم المذاهب الصالحة ويبقى قوم فطرتهم سوية في أخريات القوم لا يخالطونهم ويسكتون على غيظ فتعقد سنة سيئة وتأكّد، ويجب بذل الجهد على أهل الآراء الكلية في إشاعة الحق وتمشيته وإخماد الباطل وصدده فربما لم يمكن ذلك إلا بمخاضات أو مقاتلات فيعد كل ذلك من أفضل أعمال البر وإذا انعقدت سنة راشدة فسلها القوم عصرا بعد عصر وعليها كان محياهم ومماتهم ويبست عليها نفوسهم وعلومهم فظنوها متلازمة للأصول وجودا وعدمها تكن إرادة الخروج عنها وعصيانها الآمن سمجت (١) نفسه وطاش عقله وقويت شهوته واقتعد غاربه الهوى فإذا باشر الخروج أضمر في قلبه شهادة على فجوره وسدل حجاب بينه وبين المصلحة الكلية فإذا لم فعله صار ذلك شر حال مرضه النفساني وكان ثلثة في دينه فإذا تقرر ذلك تقررا بيننا ارتفعت أدعية الملائكة الاعلى وتضرعات منهم لمن وافق تلك السنة وعلى من خالفها وانعقد في حظيرة القدس رضا وسخط عمن باشرها أو عليه وإذا كانت السنن كذلك عدت من الفطرة التي فطر الله الناس عليها والله أعلم *

﴿المبحث الرابع مبحث السعادة﴾

﴿باب حقيقة السعادة﴾

اعلم أن للإنسان كالا تقتضيه الصورة النوعية وكالا يقتضيه موضوع النوع من الجنس القريب والبعيد وسعاداته التي يضره فقدها ويقصدها أهل العقول المستقيمة قصدا مؤكدا هو الاول وذلك أنه قد مدح في العادة بصفات يشارك فيها الأجسام المعدنية كالطول وعظم القامة فإن كانت السعادة هذه فالجبال أتم سعادة، وصفات يشارك فيها النبات كالنمو المناسب والخروج إلى تخاطيط جميلة وهيآت ناضرة فإن كانت السعادة هذه فالشقائق والأوراد أتم سعادة، وصفات يشارك فيها الحيوان كشدة البطش وجهورية الصوت وزيادة الشبق وكثرة الأكل والشرب ووفور الغضب والحسد فإن كانت السعادة هذه فالحمار أتم سعادة. وصفات يختص بها الإنسان كالأخلاق المهذبة والارتفاقات الصالحة والصنائع الرفيعة والجاه العظيم فبادئ الرأي أنها سعادة الإنسان ولذلك ترى كل أمة من أمم الناس يستحب أتمها عقلا وأسدّها رأيا أن يكتسب هذه ويجعل ما سواها كأنها ليست صفات مدح ولكن الأمر إلى الآن غير منقح لأن أصل هذه موجود في أفراد الحيوان فالشجاعة أصلها الغضب وحب الانتقام والثبات في الشدائد والاقدام على المهالك وهذه كلها موفرة في الفحول من البهائم لكن لا تسمى شجاعة إلا بعد ما يهذبها فيض النفس النطقية فتصير منقادة للمصلحة الكلية منبعثة من داعية معقولة وكذلك أصل الصناعات موجود في الحيوان كالعصفور الذي ينسج العش بل رب صنعة يصنعها الحيوان بطبيعته لا يتمكن منها الإنسان بتجشم، كلا بل الحق أن هذه سعادة بالعرض وأن السعادة الحقيقية هي انقياد البهيمية للنفس النطقية واتباع الهوى للعقل وكون النفس الناطقة قاهرة على البهيمية والعقل غالبا على الهوى

وسائر الخصوصيات ملغاة، واعلم أن الأمور التي تشتبك بالسعادة الحقيقية على قسمين: قسم هو من باب ظهور فيض النفس النطقية في المعاش بحكم الجبلة ولا يمكن أن يحصل الخاق المطلوب بهذا القسم بل ربما يكون الغوص في تلك الأفعال بزيئها لاسيما بفكر جزئي كما هو شأن الناقص ضد الكمال المطلوب كالذي يقصد تحصيل الشجاعة بآثار الغضب والمصارعة ونحو ذلك أو الفصاحة بمعرفة اشعار العرب وخطبهم والاخلاق لا تظهر إلا عند مزاحمت من بنى النوع والارتفاقات لا تقتنص (١) إلا بحاجات طارئة والصنائع لا تتم إلا بآلات ومادة وهذه كلها منقضية بانقضاء الحياة الدنيا فإن مات الناقص في تلك الحالة وكان سمجا (٢) بقى عاريا عن الكمال وإن لزق بنفسه صور هذه العلاقات كان الضرر عليه أشد من النفع، وقسم انهاروحيه هيئة اذعان البهيمية للملكية بان تتصرف حسب وحيها وتنصبغ بصبغها وتمنع الملكية منها بان لا تقبل ألوانها الدنية ولا تنطبع فيها نقوشها الخسيسة كما تنطبع نقوش الخاتم في الشمعة ولا سبيل الى ذلك إلا أن تقتضى الملكية شيئا من ذاتها وتوحيه الى البهيمية وتقرحه عليها فتقادها ولا تبغى عليها ولا تتمنع منها ثم تقتضى ايضا فتقاد هذه أيضا ثم وثم حتى تعتاد ذلك وتتمرن وهذه الأشياء التي تقتضيها هذه (٣) من ذاتها وتقرس عليها تلك (٤) على رغم انفها إنما يكون من جنس مافيه انشراح لهذه وانقباض لتلك وذلك كالتشبه بالملكوت والتطلع للجبروت فإنها خاصة الملكية بعيدة عنها البهيمية غاية البعد أو يترك ما تقتضيه البهيمية وتستلذه وتشتاق اليه في غلوائها *

وهذا القسم يسمى بالعبادات والرياضات (٥) وهي شركات تحصيل الفئات من الخلق المطلوب فال تحقيق المقام إلى أن السعادة الحقيقية لا تقتنص الا بالعبادات ولذلك كانت المصحلة الكلية تنادى أفراد الانسان من كوة الصورة النوعية وتأمرها أمرا مؤكدا أن تجعل اصلاح الصفات التي هي كمال ثان (٦) بقدر الضرورة وأن تجعل غاية همتها ومطمح بصرها تهذيب النفس وتحليتها بهيئات تجعلها شبيهة بما فوقها من الملائكة الأعلى مستعدة لنزول أكوان الجبروت والملكوت عليها وأن تجعل البهيمية مدعنة للملكية مطيعة لها منصبة لظهور احكامها وافراد الانسان عند الصحة النوعية وتمكين المادة لظهور احكام النوع كاملة وافرة تشتتاق الى هذه السعادة وتنجذب اليها انجذاب الحديد إلى المغناطيس وذلك خلق خلق الله الناس عليه وفطرة فطرهم عليها ولهذا ما كانت في بنى آدم امة من أهل المزاج المعتدل الا فيها قوم من عظمائهم يهتمون بتكميل هذا الخلق ويروونه السعادة القصوى ويأمرهم الملوك والحكام فمن دونهم فائزين بما يحل عن سعادات الدنيا كلها ملتحقين بالملائكة منخرطين في سلكهم حتى صاورا يتبركون بهم ويقبلون ايديهم وارجلهم فهل يمكن أن يتفق عرب الناس وعجمهم على اختلاف عاداتهم واديانهم وتباعد مساكنهم وبلدانهم على شيء واحد ووحدة نوعية الا لمناسبة فطرية كيف لا وقد عرفت أن الملكية موجودة في اصل فطرة الانسان وعرفت افاضل الناس واساطينهم من هم والله اعلم *

﴿ باب اختلاف الناس في السعادة ﴾

﴿ اعلم ﴾ ان الشجاعة وسائر الاخلاق كما يختلف افراد الانسان فيها، فمنهم الفاقد الذي لا يرجى له

(١) أى لا تصطاد اه (٢) زشت (٣) أى الملكية (٤) أى البهيمية (٥) العبادات باعتبار اقتضاء الملكية، والرياضات باعتبار اقتضاء البهيمية اه (٦) يعنى الارتفاقات الصالحة والصنائع العجيبة ونحوها اه

حصولها ابدا لقيام هيئة مضادة في أصل جبلته كالخنث وضعيف القلب جدا بالنسبة إلى الشجاعة، ومنهم
الفاقد الذي يرجى له ذلك بعد ممارسة أفعال وأقوال وهيآت تناسبها وتلقى ذلك من أهلها وتذكر أحاديث
أئمتها وما جرى عليهم من الحوادث في الأيام فثبتوا في الشدائد وأقدموا على المهالك، ومنهم الذي خلق فيه
أصل الخلق ولا تزال تنبجس فيه فلتات (١) كل حين فإن أمر بحبس نفسه عنها ضاق عليه الأمر وسكت على
غيظ وإن أمر بما يناسب جبلته كان كالكبريت يتصل به النار فلا يتراخي احتراقه، ومنهم الذي خلق فيه
الخلق كاملا وافرا ويندفع (٢) إلى مقتضياته ضرورة وإن دعى إلى الجبن مثلا أشد دعوة لم يقبل ويتيسر له
الخروج إلى أفعال هذا الخلق وهيآت المناسبة له بالطبع من غير رسم ولا دعوة وهذا هو الامام في هذا الخلق
لا يحتاج إلى امام أصلا ويجب على الذين هم دونه في الخلق أن يتمسكوا بسنته ويعضوا بنواجذهم على رسومه
ويتكلفوا في محاكاة هيئاته ويتذكروا وقائعه ليتخرجوا إلى الكمال المتوقع لهم من الخلق بحسب ما قدر لهم
فكذلك يختلفون في هذا الخلق الذي عليه مدار سعادتهم فمنهم الفاقد الذي لا يرجى صلاحه كالذي قتله الخضر
طبع كافرا واليه الإشارة في قوله تعالى: (صم بكم عمى فهم لا يرجعون)، ومنهم الفاقد الذي يرجى له ذلك بعد
رياضات شاقة وأعمال ديمة (٣) يؤاخذ بها نفسه ويحتاج إلى دعوة حثيثة (٤) من الانبياء وسنن ماثورة منهم وهؤلاء
أكثر الناس وجوداً وهم المقصودون في البعثة أولا وبالذات، ومنهم الذي ركب فيه الخلق اجمالا وينبجس منه فلتاته
الا انه يحتاج في التفصيل وتمهيد الهيآت على ما يناسب الخلق في كثير مما ينبغي إلى امام وفيه قوله تعالى: (يكادزيها يضىء
ولولم تمسه نار) وهم السابق، ومنهم الانبياء يتأتى لهم الخروج إلى كمال هذا الخلق واختيار هيآت مناسبة له وكيفية
تحصيل الفائت منه وابقاء الحاضر واتمام الناقص من غير امام ولا دعوة فينتظم من جريانهم في مقتضى جبلتهم سنن
يتذكرها الناس ويتخذونها دستورا كيف ولما كانت الحداثة والتجارة وامثالها لا تتأتى من جمهور الناس الا بسنن
ماثورة عن أسلافهم فما ظنك بهذه المطالب الشريفة التي لا يهتدى إليها الا الموفقون، ومن هذا الباب ينبغي أن يعلم
شدة الحاجة إلى الانبياء ووجوب اتباع سنتهم والاشتغال باحاديثهم والله اعلم *

﴿ باب توزيع الناس في كيفية تحصيل هذه السعادة ﴾

اعلم أن هذه السعادة تحصل بوجهين، أحدهما ماهو كالانسلاخ عن الطبيعة البهيمية وذلك أن يتمسك
بالحيل الجالبة لرؤد (٥) أحكام الطبيعة وخمود سورتها وانطفاء لهب علومها وحالاتها ويقبل على التوجه
التام إلى ما وراء الجهات من الجبروت وقبول النفس لعلوم مفارقة عن الزمان والمكان بالكلية ولذات
مباينة للذات المألوفة من كل وجه حتى يصير لا يخالط الناس ولا يرغب فيما يرغبون ولا يرهب مما يرهبون
ويكون منهم على طرف شاسع (٦) وصقع بعيد وهذا هو الذي يرومه المتألهون (٧) من الحكماء والمجذوبون
من الصوفية فوصل بعضهم غاية مداها وقليل ما هم وبقي آخرون (٨) مشتاقين لها طامحة أبصارهم إليها متكلفين
لمحاكاة هيئاتها، وثانيهما ماهو كالاصلاح للبهيمية والاقامة لعوجها مع تعلق أصلها وذلك أن يسعى في محاكاة
البهيمية ما عند النفس النطقية بأفعال وهيآت واذكار ونحوها كمثل ما يحاكي الاخرس أقوال الناس بإشاراته

(١) أي هفوات وزلات (٢) أي يسارع اه (٣) أي التي تدوم (٤) برانكيز زده (٥) ابستادن (٦) بعيد
(٧) الاشرافيون (٨) كناره

والمصور أحوالاً نفسانية من الوجل والخجل بهيات مبصرة يجدها متعاقبة متشابكة مع تلك الأحوال والشكلية
تفجعها بكلمات وترجيحات لا يسمعها أحد إلا حزن وتمثل عنده صورة التفجع ولما كان مبنى التدبير الإلهي
في العالم على اختيار الأقرب فالأقرب والأسهل فالأسهل والنظر إلى صلاح ما يجري مجرى جملة أفراد
النوع دون الشاذة والفاذة وإقامة مصالح الدارين من غير أن ينخرم نظام شيء منها يقتضى لطف الله ورحمته
أن يبعث الرسل أولاً وبالذات لإقامة الطريقة الثانية والدعوة إليها والحث عليها ويدل على الأولى بإشارات
التزامية وتلويحات تضمنية لا غير والله الحجة البالغة، تفصيل ذلك أن الأولى إنما تتأتى من قوم ذوى تجاذب
وقليل ما هم ورياضات شاقة وتفرغ قوى وقليل من يفعلها وإنما أئمتها قوم أهملوا معاشهم ولادعوة لهم في
الدنيا ولا تتم إلا بتقديم جملة صالحة من الثانية ولا يخلو من إهمال إحدى السعادتین إصلاح الار تفاقات في
الدنيا وإصلاح النفس للآخرة فلو أخذ بها أكثر الناس خربت الدنيا ولو كفوا بها كان كالتكليف بالمحال لأن
الار تفاقات صارت كالجبلية، والثانية إنما أئمتها المفهمون وذوو اصطلاح وهم القائمون برياسة الدين والدنيا
معا ودعوتهم هي المقبولة وسنتهم هي المتبعة وينحصر فيها كمال المصطلحين من السابقين أصحاب اليمين وهم
أكثر الناس وجوداً ويتمكن منها الذكى والغبي والمشتغل والفارغ ولا حرج فيها وتكفي العبد في استقامة
نفسه ودفع اعوجاجها ودفع الآلام المتوقعة في المعاد عنها إذ لكل نفس أفعال ملكية تتنعم بوجودها وتتألم
بفقدائها أما أحكام التجرد فسيلقى إليها نشأت القبر والحشر من حيث لا يدري بجبلتها ولو بعد حين (شعر)

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزود

وبالجملة فالاحاطة واستقصاء وجوه الخير بالمحال في حق الأكثرين والجهل البسيط غير ضار والله أعلم *

(باب الأصول التي يرجع إليها تحصيل الطريقة الثانية)

إعلم أن طرق تحصيل السعادة على الوجه الثاني كثيرة جداً غير أنى فهمنى الله تعالى بفضله أن مرجعها إلى
خصال أربع تتلبس بها البهيمية متى غطتها النفس النطقية وقسرتها على ما يناسبها وهي أشبه حالات الإنسان
بصفة الملائكة الأعلى معدة للحقوقه بهم وانخراطه في سلوكهم وفهمنى أنه إنما بعث الأنبياء للدعوة إليها والحث
عليها وإن الشرائع تفصيل لها وراجعة إليها أحدها الطهارة وحقيقتها أن الإنسان عند سلامة فطرته وصحة
مزاجه وتفرغ قلبه من الأحوال السفلية الشاغلة له عن التدبير إذا تلطخ بالنجاسات وكان حاقباً (١) حاقباً
قريب العهد من الجماع ودواعيه انقبضت نفسه وأصابه ضيق وحزن ووجد نفسه في غاشية عظيمة ثم إذا
تخفف عن الأخبثين وذلك بدنه واغتسل ولبس أحسن ثيابه وتطيب اندفع عنه ذلك الانقباض ووجد مكانه
انشراحاً وسروراً وانبساطاً كل ذلك لا لمرآة الناس والحفظ على رسومه بل لحكم النفس النطقية فقط، فالحالة
الأولى تسمى حدثاً، والثانية طهارة، والذكى من الناس والذي يرى منه سلامة أحكام النوع وتمكين المادة لأحكام
الصورة النوعية يعرف الحالتين متميزة كل واحدة من الأخرى ويحب أحدهما ويبغض الأخرى لطبيعته،
والغبي منهم إذا أضعف شيئاً من البهيمية ولج بالطهارات والتبذل وتفرغ لمعرفة ما لا بد يعرفهما ويميز كل
واحدة من الأخرى والطهارة أشبه الصفات النسمية بحالات الملائكة الأعلى في تجردها عن الألوات البهيمية

(١) الحاقب من احتاج إلى الخلاء فلم يتبرز فاحصر غائطه، والحاقن من به شدة الهول فحسسه

وابتهاجها بما عندها من النور ولذلك كانت معدة لتلبس النفس بكمالها بحسب القوة العملية والحدث اذا تمكن من الانسان وأحاط به من بين يديه ومن خلفه وأورث له استعداداً لقبول وساوس الشياطين ورؤيتهم بحاسة الحس المشترك ولمنومات موحشة وظهور الظلمة عليه فيما يلي النفس النطقية وتمثل الحيوانات الملعونة اللئيمة واذا تمكنت الطهارة منه واحاطت به وتنبه لها وركن اليها أورثت استعداداً لقبول إلهامات الملائكة ورؤيتها ولمنومات صالحة وظهور الانوار وتمثل الطيبات والاشياء المباركة الممطرة **﴿والثانية﴾** الاخبات لله تعالى وحقيقته ان الانسان عند سلامته وتفرغه اذا ذكر بآيات الله تعالى وصفاته وأمعن في التذكر تنهت النفس النطقية وخضعت الحواس والجسد لها وصارت كالحائرة السكيلة ووجد ميلا الى جانب القدس وكان كمثل الحالة التي تعترى السوقة بحضرة الملوك وملاحظة عجز أنفسهم واستعداد أولئك بالمنع والعطاء وهذه الحالة اقرب للحالات النسمية وأشبهها بحال الملائكة الاعلى في توجهها الى بارئها وهيمانها (١) في جلاله واستغراقها في تقديسه ولذلك كانت معدة لخروج النفس الى كمالها العلى اعنى انتقاش المعرفة الالهية في لوح ذهنها والحق بتلك الحضرة بوجه من الوجوه وان كانت العبارة تقصر عنه **﴿والثالثة﴾** السماحة وحقيقته كون النفس بحيث لا تنقاد لدواعى القوة البهيمية ولا يتشبع فيها نقوشها ولا يلحق بها ضرر (٢) لو ثها وذلك لان النفس اذا تصرفت في أمر معاشها وتاقت للنساء وعافست (٣) اللذات او قرمت (٤) لطعام فاجتهدت في تحصيله حتى استوفت منها حاجتها وكذلك اذا غضبت او شحت بشيء فانها لا بد في تلك الحالة تستغرق ساعة في هذه الكيفية لا ترفع الى ما وراءها النظر البتة ثم اذا زائلت تلك الحالة فان كانت سمحة خرجت من تلك المضايق كأن لم تكن فيها قط وان كانت غير ذلك فانها تشتبك معها تلك الكيفيات وتتشبع كما تشبع نقوش الخاتم في الشمعة فاذا فارقت الجسد وتخففت عن العلائق الظلمانية المتراكمة ورجعت الى ما عندها لم تجد شيئا مما كان في الدنيا من مخالفات الملائكية فحصل لها الانس وصارت في أرغد عيش والشحيحة تتمثل نقوشها عندها كما ترى بعض الناس يسرق منه مال نفيس فان كان سخيا لم يجد له بالادان كان ركيك النفس صار كالمجنون وتمثلت (٥) عنده والسماحة وضدها (٦) لها ألقاب كثيرة بحسب ما يكونان فيه فما كان منهما في المال يسمى سخاوة وشحا وما كان في داعية شهوة الفرج أو البطن يسمى عفة وشرة وما كان في داعية الرفاهية والنبو (٧) عن المشاق يسمى صبرا وهلما (٨) وما كان في داعية المعاصى الممنوعة عنها في الشرع يسمى تقوى وفجورا واذا تمكنت السماحة من الانسان بقيت نفسه عرية عن شهوات الدنيا واستعدت للذات العلية المجردة والسماحة هيئة تمنع الانسان من ان يتمكن منه ضد الكمال المطلوب علما وعملا **﴿الرابعة﴾** العدالة وهي ملكة في النفس تصدر عنها الافعال التي يقام بها نظام المدينة والحى بسهولة وتكون النفس كالمجبول على تلك الافاعيل والسرفى ذلك ان الملائكة والنفوس المجردة عن العلائق الجسمانية ينطبع فيها ما أراد الله في خلق العالم من اصلاح النظام ونحوه فتقلب مرضياتها الى ما يناسب ذلك النظام فهذه طبيعة الروح المجردة فان فارقت جسدها وفيها شيء من هذه الصفة ابتهجت كل الابتهاج ووجدت سبيلا الى اللذة المفارقة عن اللذات الخسيسة وان فارقت وفيها ضد هذه الخصلة ضاق عليها الحال وتوحشت وتألمت فاذا بعث الله تعالى نبيا لاقامة الدين وليخرج الناس

(١) أى حيرتها اه (٢) وسخ اه (٣) عادت كرفت (٤) اشتاقت (٥) أى صورة المال اه (٦) أى الشح اه

(٧) البعد (٨) أى جزعا فاحشا اه

من الظلمات الى النور ويقوم الناس بالعدل فمن سعى في اشاعة هذا النور ووطأ له في الناس كان مرحوماً ومن سعى لردّها واخمائها كان ملعوناً مرجوماً واذا تمكنت العدالة من الانسان وقع اشتراك بينه وبين حملة العرش ومقربى الحضرة من الملائكة الذين هم وسائط نزول الجود والبركات وكان ذلك باباً مفتوحاً بينه وبينهم ومعداً لنزول ألوانهم وصبغهم بمنزلة تمسكين النفس من الهام الملائكة والانبعاث حسبها فهذه الخصال الاربع ان تحققت حقيقتها وفهمت كيفية اقتضاؤها للكمال العلى والعملى واعدادها للانسلاك في سلك الملائكة وفطنت كيفية انشعاب الشرائع الالهية بحسب كل عصر منها أوتيت الخير الكثير وكنت فقيها في الدين بمن أراد الله به خيراً والحالة المركبة منها تسمى بالفطرة وللفطرة اسباب تحصل بها بعضها علمية وبعضها عملية وحجب تصد الانسان عنها وحيل تكسر الحجب، ونحن نريد ان نذهبك على هذه الامور فاستمع لما يتلى عليك بتوفيق الله تعالى والله أعلم ٥

﴿ باب طريق اكتساب هذه الخصال وتكميل ناقصها ورد فائتها ﴾

إعلم أن اكتساب هذه الخصال يكون بتدبيرين تدبير على وتدبير عملى، أما التدبير العلى فانما احتيج له لان الطبيعة منقادة للقوى العلمية ولذلك ترى سقوط الشهوة والشبق عند خطوط ما يورث في النفس كيفية الحياء أو الخوف فتى امتلاء عليه بما يناسب الفطرة جر ذلك الى تحققها في النفس وذلك أن يعتقد أن له رباً بمنزها عن الادناس البشرية لا يعزب عنه مثقال ذرة في الارض ولا في السماء ما يكون من نجوى ثلاثة الا هور ابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا راد لقضائه ولا مانع لحكمه منعم بأصل الوجود وتوابعه من النعم الجسمانية والنفسانية مجاز على أعماله إن خير أفخير وإن شر أفشر وهو قوله تعالى: «أذن عبدي ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب قد غفرت لعبدي»، وبالجملة فيعتقد اعتقاداً مؤكداً ما يفيد الهية وغاية التعظيم وما لا يبقى ولا يذر في قلبه جناح بعوضة من إخبات غيره ورهبة ويعتقد أن كمال الانسان أن يتوجه إلى ربه ويعبده وان أحسن حالات البشر أن يتشبه بالملائكة ويدنو منهم وان هذه الامور مقربة له من ربه وان الله تعالى ارتضى منهم ذلك وانه حق الله عليه لا بد له من توفيقه ٥

وبالجملة فيعلم علماً لا يحتمل النقيض أن سعادته في اكتساب هذه وأن شقاوته في إهمالها ولا بد له من سوط يذبه البهيمية تنبيهاً قوياً ويزعجها انزعاجاً شديداً، واختلف مسالك الانبياء في ذلك فكان عمدة ما أنزل الله تعالى على ابراهيم عليه السلام التدكير بآيات الله الباهرة وصفاته العليا ونعمه الافاقية والنفسانية حتى يصحح بما لا مزيد عليه أنه حقيق أن يبذلوا له الملاذ وأن يؤثروا ذكره على ماسواه وأن يحبوه حباً شديداً ويعبدوه بأقصى مجهودهم وضم الله معه لموسى عليه السلام التدكير بأيام الله وهو بيان مجازاة الله تعالى للمطيعين والعصاة في الدنيا وتقليبه النعم والنقم حتى يتمثل في صدورهم الخوف من المعاصى ورغبة قوية في الطاعات وضم معهما لنبينا صلى الله عليه وسلم الانذار والتبشير بحوادث القبر وما بعده وبيان خواص البر والاثم ولا يفيد أصل العلم بهذه الامور بل لا بد من تكرارها وتردادها وملاحظتها كل حين وجعلها بين عينيه حتى تمتلى القوى العلمية بها فتنقاد الجوارح لها، وهذه الثلاثة (١) مع اثنين آخرين أحدهما بيان

(١) اسم الإشارة مبتدأ أى التدكير بآيات الله وبأيام الله والانذار والتبشير وبيان خواص البر والاثم

الاحكام من الواجب والحرم وغيرهما وثانيهما مخاصمة الكفار فنون (١) خمسة هي عمدة علوم القرآن العظيم أما التدبير العملي فالعمدة فيه التلبس بهيات وأفعال وأشياء تذكر النفس الخصلة المطلوبة وتنبيهها لها وتهيجها اليها وتحثها عليها إما لتلازم عادي بينها وبين الخصلة أو لكونها مظنة لها بحكم المناسبة الجلية فكما أن الانسان اذا أراد ان يذبه نفسه للغضب ويحضره بين عينيه يتخيل الشتم الذي تفوه (٢) به المغضوب عليه والذي يلحقه من العار ونحو ذلك والناتجة اذا ارادت أن تجدد عهدا بالفجع تذكر نفسها بحسن الميت وتتخيلها وتبعث من خواطرها الخيل والرجل اليها والذي يريد الجماع يتمسك بدواعيه ، ونظائر هذا الباب كثيرة جدا لا تعصى على من يريد الاحاطة بجوانب الكلام فكذلك لكل واحد من هذه الخصال أسباب تكتسب بها والاعتماد في معرفة تلك الامور على ذوق أهل الاذواق السليمة ، فأسباب الحدث امتلاء القلب بحالة سفلية (٣) كقضاء الشهوة من النساء جماعا ومباشرة ووضارته مخالفة الحق واحاطة لعن الملا الأعلى به وكونه حاقبا حاقنا وقرب العهد بالبول والغائط والريح وهذه الثلاثة فضول المعدة وتوسخ البدن والبخر واجتماع المخاط ونبات الشعر على العانة والابط وتلطخ الثوب والبدن بالنجاسات المستقذرة وامتلاء الجواس بصورة تذكر الحالة السفلية كالمقاذورات والنظر الى الفرج ومسافدة الحيوانات والنظر الممعن في الجماع والطعن في الملائكة والصالحين والسعي في ايداء الناس ، واسباب الطهارة ازالة هذه الاشياء واكتساب أضدادها واستعمال ما تقرر في العادات كونه نظافة بالغة كالغسل والوضوء ولبس احسن ثيابه واستعمال الطيب فان استعمال هذه الاشياء تنبه النفس على صفة الطهارة ، واسباب الاخبات مؤاخذه نفسه بما هو أعلى حالات التعظيم عنده من القيام مطرقا والسجود والنطق بالفاظ دالة على المناجاة والتذلل لديه ورفع الحاجات اليه فان هذه الامور تنبه النفس تنبيهها قويا على صفة الخضوع والاخبات ، واسباب السماحة التمرن على السخاوة والبذل والعفو عن ظلم ومؤاخذه نفسه بالصبر عند المكاره ونحو ذلك ، واسباب العدالة المحافظة على السنة الراشدة بتفاصيلها والله أعلم *

(باب الحجب المانعة عن ظهور الفطرة)

إعلم أن معظم الحجب ثلاثة ، حجاب الطبع ، وحجاب الرسم ، وحجاب سوء المعرفة وذلك لأنه ركب في الانسان دواعي الأكل والشرب والنكاح وجعل قلبه مطية للاحوال الطبيعية كالخزن والنشاط والغضب والوجل وغيرها فلا يزال مشغولا بها اذ كل حالة يتقدمها توجه النفس إلى أسبابها وانقياد القوى العلمية لما يناسبها ويجمع معها استغراق النفس فيها وذوولها عما سواها ويتخلف عنها بقية ظلها ووضر لونها فتتمر الايام والليالي وهو على ذلك لا يتفرغ لتحصيل غيرها من الكمال ورب انسان ارتطمت (٤) قدماء في هذا الوحل فلم يخرج منه طول عمره ورب انسان غلب عليه حكم الطبع فخلع رقبته عن ربة الرسم والعقل ولم ينزجر بالملازمة وهذا الحجاب يسمى بالنفس لكن من تم عقله وتوفر تيقظه يختطف من أوقاته فرصا كدفيها أحواله الطبيعية ويتسع نفسه لهذه الاحوال وغيرها ويستوجب لقيضان علوم أخرى غير استيفاء مقتضيات الطبع ويشتاق الى الكمال النوعي بحسب القوتين العاقلة والعاملة فاذا فتحت حديقة بصيرته ابصر في اول الامر قومه في ارتفاعات وزى ومباهات وفضائل من الفصاحات والصناعات فوقعت من قلبه بموقع عظيم واستقبلها بعزيمة كاملة وهمة

(١) هو خبر عن قوله وهذه الثلاثة (٢) أي تكلم (٣) أي غلو مقتضيات البهيمية (٤) دخلت اه

قوية وهذا حجاب الرسم ويسمى بالدنيا ومن الناس من لا يزال مستغرقاً في ذلك إلى أن يأتيه الموت فتزول تلك الفضائل بأسرها لأنها لا تتم إلا بالبدن والآلات فتبقى النفس عارية ليس بها شيء وصار مثله كمثل ذي جنة أصابها إعصار أو كرماد اشتدت به الرياح في يوم عاصف فإن كان شديد التنبه عظيم الفطنة استيقن بدليل برهاني أو خطائي أو بتقليد الشرع أن له رباً قاهراً فوق عباده مدبراً أمورهم منعماً عليهم جميع النعم ثم خلق في قلبه ميل إليه ومحبة به وأراد التقرب منه ورفع الحاجات إليه وأطرح لديه فمن مصيب في هذا القصد ومخطئ، ومعظم الخطأ شيان أن يعتقد في الواجب صفات المخلوق، أو يعتقد في المخلوق صفات الواجب. فالأول هو التشبيه ومنشؤه قياس الغائب على الشاهد، والثاني هو الاشتراك ومنشؤه رؤية الآثار الخارقة من المخلوقين فيظن أنها مضافة إليهم بمعنى الخلق وأنها ذاتية لهم وينبغي لك أن تستقري أفراد الإنسان هل ترى من تفاوت فيما أخبرتك؟ لا أظنك تجد ذلك بل كل إنسان وإن كان في تشريع ما لا بد له من أوقات تستغرق في حجاب الطبع قلت أو كثرت وإن لم يزل مباشراً للأعمال الرسمية ومن أوقات تستغرق في حجاب الرسم ويهمه حينئذ التشبيه بعقلي قومه كلاماً وزياً وخلقاً ومعاشرة وأوقات يصغى فيها إلى ما كان يسمع ولا يصغى من أحاديث الجبروت والتدبير الغيبي في العالم والله أعلم.

﴿باب طريق رفع هذه الحجب﴾

اعلم أن تدبير حجاب الطبع شيان أحدهما يؤمر به ويرغب فيه ويحث عليه، والثاني يضرب عليه من فوقه ويؤاخذ به أم أبي، فالأول رياضات تضعف البهيمية كالصوم والسهرة ومن الناس من أفرط واختار تغيير خلق الله مثل قطع آلات التناسل وتجفيف عضو شريف كاليد والرجل وأولئك جهال العباد وخير الأمور وسطها وإنما الصوم والسهرة بمنزلة دواء سمي يجب أن يتقدر بقدر ضروري، والثاني إقامة الإنكار على من اتبع الطبيعة بخالف السنة الراشدة وبيان طريق التفصي من كل غلبة طبيعية وضرب سنّة له ولا ينبغي أن يضيق على الناس كل الضيق ولا يكفي في الكل الإنكار القول بل لا بد من ضرب وجيع وغرامة منهكة في بعض الأمور والاليق بذلك إفراطات فيها ضرر متعدد كالزنا والقتل، وتدبير حجاب الرسم شيان أحدهما أن يضم مع كل ارتفاق ذكر الله تعالى تارة بحفظ الفاظ يؤمر بها وتارة بمراعاة حدود وقيود لا يراعى إلا الله، والثاني أن يجعل أنواع من الطاعات رسماً فاشياً ويسجل (١) على المحافظة عليها أشياء أم أبي ويلازم على تركها ويكبح عن المرغوبات (٢) من الجاه وغيره جزاء لتفويتها فبهذين التدبيرين تندفع غوائل الرسم وتصير مؤيدة لعبادة الله تعالى وتصير السنة تدعو إلى الحق وسواء المعرفة بكلاً قسميه (٣) ينشأ من سببين أحدهما أن لا يستطيع أن يعرف ربه حق معرفته لتعالیه عن صفات البشر جداً وتنزهه عن سمة المحدثات والمحسوسات وتدبيره أن لا يخاطبوا إلا بما تسعه أذهانهم *
والأصل في ذلك أنه ما من موجود أو معدوم متحيز أو مجرد لا يتعلق علم الإنسان به إما بحضور صورته أو بنحو التشبيه والمقايسة حتى العدم المطلق والمجهول المطلق فيعلم العدم من جهة معرفة الوجود وملاحظة عدم الاتصاف به ويعلم مفهوم المشتق على صيغة المفعول ويعلم مفهوم المطلق فيجمع هذه الأشياء ويضم بعضها إلى بعض فينتظم صورة تركيبة هي مكشاف البسيط المقصود تصوره الذي لا وجود له في الخارج ولا في

(١) أي يؤكده (٢) بازداشته شود (٣) أي الاشتراك والتشبيه

الاذهان كما أنه ربما يتوجه إل معاروم نظري فيعمد إلى ما يحسبه جنسا وإلى ما يحسبه فصلا فير كها فيحصل صورة من كمية هي مكتشف المطلوب تصوره فيخاطبوا مثلاً بأن الله تعالى موجود لا لوجودنا وبأنه حي لا حياتنا وبالحجة فيعمد إلى صفات هي مورد المدح في الشاهد ويلاحظ ثلاثة مفاهيم فيما نشاهد شيء في هذه الصفات وقد صدرت منه آثارها وشيء ليست فيه وليست من شأنه، وشيء ليست فيه ومن شأنه أن تكون فيه كالحي والجماد والميت فيثبت هذه الأمور آثارها ويجبر هذه التشبيه بأنه ليس كمثلنا، والثاني (١) تمثل الصورة المحسوسة بزيئها واللذات بحماها وامتلأ القوى العلية بالصورة الحسية فينقاد قلبه لذلك ولا يصفو التوجه إلى الحق وتدير هذا رياضات وأعمال يستعد بها الإنسان للتجليات الشائخة ولو في المعاد واعتكافات وإزالة للشاغل بقدر الامكان كما هنك رسول الله صلى الله عليه وسلم القرام (٢) المصور ونزع خميسة (٣) فيها أعلام والله أعلم.

(المبحث الخامس مبحث البر والاسم)

(مقدمة في بيان حقيقة البر والاسم) إذ قد ذكرنا لمية المجازاة وإنيتها ثم ذكرنا الارتفاقات التي جبل عليها البشر فهي مستمرة فيهم لا تنفك عنهم ثم ذكرنا السعادة وطريق اكتسابها، حان أن نشغل بتحقيق معنى البر والاسم، فالبر كل عمل يفعله الإنسان قضية لانتقياده للمعلا الأعلى واضمحلاله في تلقى الإلهام من الله وصيرورته فانيا في مراد الحق وكل عمل يجازى عليه خيرا في الدنيا أو الآخرة وكل عمل يصلح الارتفاقات التي بنى عليها نظام الإنسان وكل عمل يفيد حالة الانتقياد ويدفع الحجب، والاسم كل عمل يفعله الإنسان قضية لانتقياده للشيطان وصيرورته فانيا في مراده وكل عمل يجازى عليه شرا في الدنيا أو الآخرة وكل عمل يفسد الارتفاقات وكل عمل يفيد هيئة مضادة للانتقياد ويؤكد الحجب وكما أن الارتفاقات استبطها أولو الخبرة فاقتدى بهم الناس بشهادة قلوبهم واتفق عليها أهل الأرض أو من يعتد به منهم فكذلك للبر سنن ألهمها الله تعالى في قلوب المؤيدين بالنور الملكي الغالب عليهم خلق الفطرة بمنزلة ما ألهم في قلوب النحل ما يصلح به معاشها فحروا عليها وأخذوا بها وأرشدوا إليها وحشوا عليها فاقتدى بهم الناس واتفق عليها أهل الملل جميعها في أقطار الأرض على تباعد بلدانهم واختلاف أديانهم بحكم مناسبة فطرية واقتضاء نوعي ولا يضر ذلك اختلاف صور تلك السن بعد الاتفاق على أصولها ولا صدود طائفة مخرجة لو تأمل فيهم أصحاب البصائر لم يشكوا أن مادتهم عصت الصورة النوعية ولم تمكن لأحكامها (٤) وهم في الإنسان كالعضو الزائد من الجسد زواله أجمل له من بقائه ولشيوع هذه السنن أسباب جلية وتدبيرات محكمة أحكمها المؤيدون بالوحي صلوات الله عليهم فالتبتوا لهم منه عظيمة في رقاب الناس ونحن نريد أن ننبهك على أصول هذه السنن بما أجمع عليه جمهور أهل الأقاليم الصالحة من الأمم العظيمة التي يجمع كل واحدة أقواما من المتأهلين والملوك والحكام ذوي الرأي الناقد من عربهم وعجمهم ويهودهم ونجوسهم وهنودهم ونشرح كيفية توليدها من انقياد البهيمة للقوة الملكية وبعض فوائدها حسبما جربنا على أنفسنا غير مرة وادى إليه العقل السليم والله أعلم.

(باب التوحيد)

أصل أصول البر وعمدة أنواعه هو التوحيد وذلك لأنه يتوقف عليه الأخبات لرب العالمين الذي هو اعظم

(١) أي من أسباب صور المعرفة اه (٢) بالدر الستر الرقيق اه (٣) هي ثوب غرا أو صوف معلم اه (٤) أي الصورة النوعية

الاخلاق الكاسية للسعادة وهو اصل التدبير العلى الذى هو أفيد التدبيرين وبه يحصل للانسان التوجه التام تلقاء الغيب ويستعد نفسه للحقوق به بالوجه المقدس وقد نبه النبي صلى الله عليه وسلم على عظم أمره وكونه من أنواع البر بمنزلة القلب اذا صالح صلاح الجميع واذا فسد فسد الجميع حيث اطلق القول فيمن مات لا يشرك بالله شيئاً انه دخل الجنة أو حرمة الله على النار أو لا يحجب من الجنة ونحو ذلك من العبارات، وحكى عن ربه تبارك وتعالى من لقينى بقرب (١) الارض خطيئة لا يشرك بالله شيئاً لقيته بمثلها مغفرة (واعلم) ان للتوحيد أربع مراتب إحداها حصر وجوب الوجود فيه تعالى فلا يكون غيره واجبا، والثانية حصر خلق العرش والسموات والارض وسائر الجواهر فيه تعالى وهاتان المرتبتان لم تبحث الكتب الالهية عنهما ولم يخالف فيهما مشركو العرب ولا اليهود ولا النصارى بل القرآن العظيم ناص (٢) على أنهما من المقدمات المسلمة عندهم، والثالثة حصر تدبير السموات والارض وما بينهما فيه تعالى، والرابعة انه لا يستحق غيره العبادة وهما متشابكتان متلازمتان لربط طبيعى بينهما وقد اختلف فيهما طوائف من الناس معظمهم ثلاث فرق النجمون ذهبوا الى أن النجوم تستحق العبادة وان عبادتها تنفع في الدنيا ورفع الحاجات اليها حق قالوا: قد تحققنا أن لها أثراً عظيماً في الحوادث اليومية وسعادة المرء وشقاوته وصحته وسقمه وان لها نفوساً مجردة عاقلة تبعثها على الحركة ولا تغفل عن عبادها فبنوا هياكل على أسماؤها وعبدوها والمشركون (٣) وافقوا المسلمين في تدبير الامور العظام وفيما ابرم وجزم ولم يترك لغيره خيرة ولم يوافقوهم في سائر الامور ذهبوا الى ان الصالحين من قبلهم عبدوا الله وتقربوا اليه فأعطاهم الله الالهية فاستحقوا العبادة من سائر خلق الله كما ان ملك الملوك يخدمه عبده فيحسن خدمته فيعطيه خلعة الملك ويفوض اليه تدبير بلد من بلاده فيستحق السمع والطاعة من اهل ذلك البلد وقالوا لا تقبل عبادة الله الا مضمومة بعبادتهم بل الحق في غاية التعالى فلا تفيد عبادته تقرباً منه بل لا بد من عبادة هؤلاء ليقربوا الى الله زلفى وقالوا هؤلاء يسمعون ويبصرون ويشفعون لعبادهم ويدبرون أمورهم وينصرونهم فنحتوا على اسمائهم أحجاراً وجعلوها قبلة عند توجههم الى هؤلاء فخلف من بعدهم خلف فلم يفتنوا للفرق بين الاصنام وبين من هي على صورته فظنوها معبودات بأعيانها ولذلك رد الله تعالى عليهم تارة بالتنبيه على ان الحكم والملك له خاصة وتارة ببيان انها جمادات (ألهم ارجل يمشون بها أم لهم أيدي يطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها) والنصارى (٤) ذهبوا الى ان للمسيح عليه السلام قرباً من الله وعلواً على الخلق فلا ينبغي ان يسمى عبداً فيسوى بغيره لان هذا سوء أدب معه وإهمال لقربه من الله ثم مال بعضهم عند التعبير عن تلك الخصوصية الى تسميته ابن الله نظراً الى ان الاب يرحم الابن ويربيه على عينيه وهو فوق العبيد فهذا الاسم أولى به وبعضهم الى تسميته بالله نظراً الى ان الواجب حل فيه وصار داخله ولهذا يصدر منه آثار لم تعهد من البشر مثل احياء الاموات وخلق الطير فكلامه كلام الله وعبادته هي عبادة الله، فخلف من بعدهم خلف لم يفتنوا لوجه التسمية وكادوا يجعلون النبوة حقيقية أو يزعمون انه الواجب من جميع الوجوه ولذلك رد الله تعالى عليهم تارة بانه لا صاحبة له وتارة بانه بديع السموات والارض انما أمره إذا اراد شيئاً أن يقول له كن فيكون* وهذه الفرق الثلاث لهم دعاوى

(١) قراب - بالكسر - مصدر قارب والمعنى ما يقارب ملء الارض اه (٢) كما قال: (ولئن سألتهم من خلق السموات

والارض ليقولن خلقهن العزيز العليم) اه (٣) الفرقة الثانية اه (٤) الفرقة الثالثة

عريضة وخرافات كثيرة لا تخفى على المتتبع وعن هاتين المرتبتين بحث القرآن العظيم ورد على الكافرين شبهتهم رداً مشجعاً *

(باب في بيان حقيقة الشرك)

اعلم أن العبادة هو التذلل الأقصى وكون تذلل أقصى من غيره لا يخلو إما أن يكون بالصورة مثل كون هذا قياماً وذلك سجوداً أو بالنية بان نوى بهذا الفعل تعظيم العباد لمولاهم وبذلك تعظيم الرعية للملوك أو التلامذة للاستاذ لا ثالث لهما، ولما ثبت سجود التحية من الملائكة لادم عليه السلام ومن أخوة يوسف ليوسف عليه السلام وأن السجود أعلى صور التعظيم وجب أن لا يكون التميز إلا بالنية لكن الأمر إلى الآن غير منقح إذ المولى مثلاً يطلق على معان والمراد ههنا المعبود لا محالة فقد أخذ في حد العبادة بالتنقيح أن التذلل يستدعي ملاحظة ضعف في الدليل وقوة في الآخر وخسة في الدليل وشرف في الآخر وانقياد وإخبات في الدليل وتسخير ونفاذ حكم للآخر والانسان اذا خلى ونفسه ادرك لا محالة أنه يقدر للقوة والشرف والتسخير وما أشبهها مما يعبر به عن الكمال قدرين قدراً لنفسه ولمن يشبهه بنفسه وقدر لمن هو متعال عن وصمة الحدوث والامكان بالكلية *

ولمن انتقل إليه شيء من خصوصيات هذا المتعالى فالعلم بالمغيبات يجعله على درجتين علم برؤية وترتيب مقدمات أو حدس أو منام أو تلقى الهام مما يجد نفسه لا يباين ذلك بالكلية وعلم ذاتي هو مقتضى ذات العالم لا يلقاه من غيره ولا يتجشم كسبه وكذلك يجعل التأثير والتدبير والتسخير أى لفظ قلت على درجتين بمعنى المباشرة واستعمال الجوارح والقوى والاستعانة بالكيفيات المزاجية كالحرارة والبرودة وما أشبه ذلك مما يجد نفسه مستعدة له استعداداً قريباً أو بعيداً وبمعنى التكوين من غير كيفية جسمانية ولا مباشرة شيء وهو قوله: (انما أمره إذا اراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) وكذلك يجعل العظمة والشرف والقوة على درجتين إحداها كعظمة الملك بالنسبة إلى رعيته مما يرجع إلى كثرة الاعوان وزيادة الطول أو عظمة البطل والاستاذ بالنسبة إلى ضعيف البطش والتلميذ مما يجد نفسه يشارك العظم في أصل الشيء، وثانيتهما مالا يوجد إلا في المتعالى جداً ولا تن في تفتيش هذا السر حتى تستيقن أن المعترف بانصرام سلسلة الامكان إلى واجب لا يحتاج إلى غيره يضطر إلى جعل هذه الصفات التي يتمازجون بها على درجتين درجة لما هنالك ودرجة لما يشبهه بنفسه. ولما (٢) كانت الالفاظ المستعملة في الدرجتين متقاربة فربما يحمل نصوص الشرائع الالهية على غير محلها وكثيراً ما يطلع الانسان على أثر صادر من بعض أفراد الانسان أو الملائكة أو غيرهما يستبعده من ابناء جنسه فيشتبه عليه الأمر فيثبت له شرفاً مقدساً وتسخييراً إلهياً وليسوا في معرفة الدرجة المتعالية سواء فمنهم من يحيط بقوى الانوار المحيطة الغالبة على المواليد ويعرفها من جنسه ومنهم من لا يستطيع ذلك وكل إنسان مكلف بما عنده من الاستطاعة، وهذا تأويل ما حكاه الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم من نجاته مسرف على نفسه أمر أهله بحرقه وتذرية رماده حذراً من أن يبعثه الله ويقدر عليه فهذا الرجل استيقن بان الله متصف بالقدرة التامة لكن القدرة انما هي في الممكنات لا في الممتنعات وكان يظن أن

جمع الرماد المتفرق نصفه في البر ونصفه في البحر ممتنع فلم يجعل ذلك نقصاً فأخذ بقدر ما عنده من العلم ولم يعد كافراً كان التشبيه والاشراك بالنجوم وبصالحى العباد الذين ظهر منهم خرق العوائد كالكشف واستجابة الدعاء متوارثاً فيهم وكل نبي يبعث في قومه فانه لابد أن يفهمهم حقيقة الاشراك ويميز كلا من الدرجتين ويحصر الدرجة المقدسة في الواجب وإن تقاربت الالفاظ كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لطبيب «انما أنت رفيق والطبيب هو الله» وكما قال «السيد هو الله» يشير الى بعض المعانى دون بعض، ثم لما انقرض الحواريون من أصحابه وحملته دينه خلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فحملوا الالفاظ المستعملة المشتبهة على غير محلها كما حملوا العوائد والاشراقات على انتقال العلم والتسخير الاقصيين إلى هذا الذى يرى منه والحق محلها وكما حملوا صدور خرق العوائد والاشراقات على انتقال العلم والتسخير الاقصيين إلى هذا الذى يرى منه والحق أن ذلك كله يرجع إلى قوى ناسوتية أو روحانية تعد لنزول التدبير الالهى على وجه وليس من الايجاد والامور المختصة بالواجب فى شيء، والمرضى بهذا المرض على أصناف منهم من نسى جلال الله بالكلية فجعل لا يعبد الا الشركاء ولا يرفع حاجته الا اليهم لا يلتفت الى الله أصلاً وإن كان يعلم بالنظر البرهاني أن سلسلة الوجود تنصرم إلى الله ومنهم من اعتقد أن الله هو السيد وهو المدبر لكنه قد يخلع على بعض عباده لباس الشرف والتأله ويجعله متصرفاً فى بعض الامور الخاصة ويقبل شفاعته فى عباده بمنزلة ملك الملوك يبعث على كل قطر ملكاً ويقلده وتدير تلك المملكة فيما عدا الامور العظام فيتجلى (١) لسانه ان يسميهم عباد الله فيسويهم وغيرهم فعدل عن ذلك إلى تسميتهم أبناء الله ومحبوبي الله وسمى نفسه عبداً لاولئك كعبد المسيح وعبد العزى وهذا مرض جمهور اليهود والنصارى والمشركين وبعض الغلاة من منافقى دين محمد صلى الله عليه وسلم يومنا هذا * ولما كان مبنى التشريع على اقامة المظنة مقام الاصل عد أشياء محسوسة هي مظان الاشراك كالفرا كسجدة الاصنام والذبح لها والحلف باسمها وأمثال ذلك وكان أول فتح هذا العلم على أن رفع لى قوم يسجدون لذباب صغير سمى لا يزال يحرك ذنبه واطرافه فنفت فى قلبي هل تجد فيهم ظلمة الشرك وهل أحاطت الخطيئة بانفسهم كما نجدوها فى عبدة الاوثان؟ قلت لا أجدها فيهم لانهم جعلوا الذباب قبلة ولم يخلطوا درجة تذلل بالآخرى قيل فقد هديت إلى السر فيومئذ ملئ قلبي بهذا العلم وصرت على بصيرة من الامر وعرفت حقيقة التوحيد والاشراك وما نصبه الشرع مظان لهما وعرفت ارتباط العبادة بالتدبير والله أعلم

(باب أقسام الشرك)

حقيقة الشرك أن يعتقد انسان فى بعض المعظمين من الناس أن الآثار العجيبة الصادرة منه إنما صدرت لكونه متصفا بصفة من صفات الكمال مما لم يعهد فى جنس الانسان بل يختص بالواجب جل مجده لا يوجد فى غيره الا أن يخلع هو خلعة الالهية على غيره أو يفنى غيره فى ذاته ويبقى بذاته أو نحو ذلك مما يظنه هذا المعتقد من أنواع الخرافات كما ورد فى الحديث «ان المشركين كانوا يلبون بهذه الصيغة لبيك لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك» فيتذلل عنده أقصى التذلل ويعامل معه معاملة العباد مع الله تعالى * وهذا معنى له أشباح وقوالب والشرع لا يبحث الا عن اشباحه وقوالبه التى باشرها الناس بنية الشرك

حتى صارت مظنة للشرك ولازم له في العادة كسنة الشرع في اقامة العمل المتلازمة للمصالح والمفاسد مقامها، ونحن نريد أن ننبهك على أمور جعلها الله تعالى في الشريعة المحمدية على صاحبها الصلوات والتسليمات مظنات للشرك فهي عنها فمنها أنهم كانوا يسجدون للاصنام والنجوم فجاء النهي عن السجدة لغير الله قال الله تعالى: (لا تسجدوا للشمس والقمر واسجدوا لله الذي خلقهن) والاشراك في السجدة كان متلازما للاشراك في التدبير كما أومانا اليه وليس الامر كما يظن بعض المتكلمين من أن توحيد العبادة حكم من احكام الله تعالى مما يختلف باختلاف الاديان لا يطلب دليل برهاني كيف ولو كان كذلك لم يلزمهم الله تعالى بتفردده بالتخليق والتدبير كما قال عز من قائل: (قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خير) الى آخر خمس آيات بل الحق أنهم اعترفوا بتوحيد الخلق وتوحيد التدبير في الامور العظام وسلوا أن العبادة متلازمة معهما لما اشرنا اليه في تحقيق معنى التوحيد فلذلك الزمهم الله بما الزمهم ولله الحجة البالغة، ومنها أنهم كانوا يستعينون بغير الله في حوائجهم من شفاء المريض وغناء الفقير وينذرون لهم يتوقعون إنجاح مقاصدهم بتلك النذور ويتلون أسماءهم رجاء بركتها فأوجب الله تعالى عليهم ان يقولوا في صلاتهم اياك نعبد و اياك نستعين وقال تعالى: (فلا تدعوا مع الله أحدا) وليس المراد من الدعاء العبادة كما قاله بعض المفسرين بل هو الاستعانة لقوله تعالى: (بل اياه تدعون فيكشف ما تدعون)، ومنها أنهم كانوا يسمون بعض شركائهم بنات الله وابناء الله فنهوا عن ذلك أشد النهي وقد شرحنا سره من قبل، ومنها أنهم كانوا يتخذون أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله تعالى بمعنى أنهم كانوا يعتقدون ان ما أحله هؤلاء حلال لا باس به في نفس الامر وأن ما حرمه هؤلاء حرام يؤخذون به في نفس الامر ولما نزل قوله تعالى: (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم) الآية سأل عدى بن حاتم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال: « كانوا يحلون لهم أشياء فيستحلونها ويحرمون عليهم أشياء فيحرمونها » وسر ذلك أن التحليل والتحریم عبارة عن تكوين نافذ في الملكوت أن الشيء الفلاني يؤخذ به أولا يؤخذ به فيكون هذا التكوين سببا للمؤاخذة وتركها وهذا من صفات الله تعالى، وأما نسبة التحليل والتحریم الى النبي صلى الله عليه وسلم فبمعنى أن قوله أمانة قطعية لتحليل الله وتحریمه، وأما نسبتها إلى المجتهدين من أمته فبمعنى روايتهم ذلك عن الشرع من نص الشارع أو استنباط معنى من كلامه. (واعلم) ان الله تعالى اذا بعث رسولا وثبت رسالته بالمعجزة وأحل على لسانه بعض ما كان حراما عندهم ووجد بعض الناس في نفسه انجحاما (١) عنه وبقي في نفسه ميل الى حرمة ما وجد في ملته من تحریمه فهذا على وجهين إن كان لتردد في ثبوت هذه الشريعة فهو كافر بالنبي وإن كان لا اعتقاد وقوع التحريم الاول تحريما لا يحتمل النسخ لاجل انه تبارك وتعالى خلع على عبد خاعة الالهوية أو صار فانيا في الله باقيا به فصار نهيه عن فعل أو كراهيته له مستوجبا لحرم (٢) في ماله وأهله فذلك مشرك بالله تعالى مثبت لغيره غضبا وسخطا مقدسين وتحليلا وتحريما مقدسين، ومنها أنهم كانوا يتقربون الى الاصنام والنجوم بالذبح لاجلهم إما بالاهلال عند الذبائح باسمائهم وإما بالذبح على الانصاب المخصوصة لهم فنهوا عن ذلك، ومنها أنهم كانوا يسيبون السوائب والبحائر تقربا إلى شركائهم فقال الله تعالى: (ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة) الآية، ومنها أنهم كانوا يعتقدون في اناس ان أسماءهم مباركة معظمة وكانوا يعتقدون أن الحلف باسمائهم على الكذب يستوجب حرما في ماله وأهله فلا

(١) بتقديم الجيم على الحاء وبالعكس بمعنى الامتناع والكف اهـ (٢) نقص

يقدمون على ذلك ولذلك كانوا يستحلفون الخصوم باسماء الشركاء بزعمهم فنهوا عن ذلك، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «من حلف بغير الله فقد أشرك» وقد فسر بعض المحدثين على معنى التغليظ والتهديد ولا أقول بذلك وإنما المراد عندى اليمين المنعقدة واليمين الغموس باسم غير الله تعالى على اعتقاد ما ذكرنا، ومنها الحج لغير الله تعالى وذلك ان يقصد مواضع متبركة مختصة بشركائهم يكون الحلول بها تقربا من هؤلاء، فنهى الشرع عن ذلك، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد»، ومنها انهم كانوا يسمون أبناءهم عبد العزى وعبد شمس ونحو ذلك فقال الله: (هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها) الآية، وجاء فى الحديث ان حواء سميت ولدها عبد الحرث وكان ذلك من وحى الشيطان، وقد ثبت فى أحاديث لا تحصى ان النبي صلى الله عليه وسلم غير أسماء اصحابه عبد العزى وعبد شمس ونحوهما إلى عبد الله وعبد الرحمن وما أشبههما فهذه أشباح وقوالب للشرك نهى الشارع عنها لكونها قوالب له والله أعلم *

﴿باب الايمان بصفات الله تعالى﴾

اعلم أن من أعظم أنواع البر الايمان بصفات الله تعالى واعتقاد اتصافه بها فانه يفتح بابا بين هذا العبد وبينه تعالى ويعده لانكشاف ما هنالك من المجد والكبرياء * واعلم ان الحق تعالى اجل من ان يقاس بمعقول او محسوس او يحل فيه صفات كحلول الاعراض فى محالها أو تعالجه العقول العامة أو تتناولها الالفاظ العرفية ولا بد من تعريفه إلى الناس ليكملوا كمالهم الممكن لهم فوجب أن تستعمل الصفات بمعنى وجودها لا بمعنى وجود مباديها فمعنى الرحمة إفاضة النعم لا انعطاف القلب والرقعة وان تستعار الفاظ تدل على تسخير الملك لمدينته لتسخيره لجميع الموجودات اذ لا عبارة فى هذا المعنى أفصح من هذه وأن تستعمل تشبيهات بشرط أن لا يقصد الى أنفسها بل الى معان مناسبة لها فى العرف فيراد ببسط اليد الجود مثلا وبشرط أن لا يوهم المخاطبين إيهاما صريحا أنه فى ألوات البهيمية وذلك يختلف باختلاف المخاطبين فيقال يرى ويسمع ولا يقال يذوق ويلبس وأن يسمى إفاضة كل معان متفقة فى أمر باسم كالرزاق والمصور وان يسلب عنه كل ما لا يليق به لاسيما ما لهج به الظالمون فى حقه مثل لم يلد ولم يولد وقد أجمعت الملل السماوية قاطبتها على بيان الصفات على هذا الوجه وعلى أن تستعمل تلك العبارات على وجهها ولا يبحث عنها أكثر من استعمالها وعلى هذا مضت القرون المشهود لها بالخير ثم خاض طائفة من المسلمين فى البحث عنها وتحقيق معانيها من غير نص ولا برهان قاطع، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «تفكروا فى الخلق ولا تفكروا فى الخالق» وقال فى قوله تعالى: (وأن الى ربك المنتهى) «لا فكرة فى الرب» والصفات ليست بمخلوقات محدثات والتفكر فيها انما هو أن الحق كيف اتصف بها فكان تفكرا فى الخالق قال الترمذى فى حديث «يد الله ملاءى» وهذا الحديث قال الأئمة نؤمن كما جاء من غير ان يفسر أو يتوهم هكذا قال غير واحد من الأئمة منهم سفيان الثورى، ومالك بن أنس، وابن عيينة، وابن المبارك أنه تروى هذه الاشياء ويؤمن بها ولا يقال كيف، وقال فى موضع آخر إن إجراء هذه الصفات كما هى ليس بتشبيه وانما التشبيه أن يقال سمع كسمع وبصر كبصر وقال الحافظ ابن حجر لم ينقل عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا عن أحد من الصحابة من طريق صحيح التصريح بوجوب تأويل شىء من ذلك يعنى المتشابهات ولا المنع من ذكره ومن المحال أن يأمر الله نبيه بتبليغ ما أنزل اليه من ربه وينزل عليه (اليوم أكملت لكم دينكم) ثم يترك هذا الباب فلا يميز ما يجوز نسبته

اليه تعالى بما لا يجوز مع حثه على التبليغ عنه بقوله: «ليبلى الشاهد الغائب» حتى نقلوا أقواله وافعاله واحواله وما فعل بحضرة فدل على أنهم اتفقوا على الايمان به على الوجه الذي اراد الله تعالى منها وأوجب تنزيهه عن مشابهاة المخلوقات بقوله: (ليس كمثله شيء) فمن أوجب خلاف ذلك بعدهم فقد خالف سبيلهم اهـ (١) (أقول) ولا فرق بين السمع والبصر والقدرة والضحك والكلام والاستواء فان المفهوم عند أهل اللسان من كل ذلك غير ما يليق بجناب القدس وهل في الضحك استحالة الا من جهة انه يستدعى الفهم وكذلك الكلام؟ وهل في البطش والنزول استحالة الا من جهة انهما يستدعيان اليد والرجل؟ وكذلك السمع والبصر يستدعيان الاذن والعين، والله أعلم.

واستطال هؤلاء الخائضون على معشر أهل الحديث وسموهم مجسمة ومشبهة وقالوا هم المتسترون بالملكفة وقد وضع على وضوحا بينا أن استطالتهم هذه ليست بشيء وانهم مخطئون في مقالتهم رواية ودراية وخاطئون في طعنهم أمة الهدى، تفصيل ذلك ان ههنا مقامين احدهما ان الله تبارك وتعالى كيف اتصف بهذه الصفات وهل هي زائدة على ذاته او عين ذاته؟ وما حقيقة السمع والبصر والكلام وغيرها؟ فان المفهوم من هذه الالفاظ بادي الرأي غير لائق بجناب القدس، والحق في هذا المقام أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يتكلم فيه بشيء بل حجراً أمته عن التكلم فيه والبحث عنه فليس لاحد أن يقدم على ما حجره، والثاني أنه أي شيء يجوز في الشرع أن نصفه تعالى به وأي شيء لا يجوز أن نصفه به والحق أن صفاته واسماءه توقيفية بمعنى إنا وان عرفنا القواعد التي بنى الشرع بيان صفاته تعالى عليها كما حررنا في صدر الباب لكن كثير من الناس لو أبيح لهم الخوض في الصفات لضلوا وأضلوا وكثيراً من الصفات وان كان الوصف بها جائزاً في الاصل لكن قوم من الكفار حملوا تلك الالفاظ على غير محلها وشاع ذلك فيما بينهم فكان حكم الشرع النهي عن استعمالها دفعا لتلك المفسدة وكثير من الصفات يوهى استعمالها على ظواهرها خلاف المراد فوجب الاحتراز عنها فلهذه الحـكم جعلها الشرع توقيفية ولم يبيح الخوض فيها بالرأى * وبالجملة فالضحك والفرح والتبشيش (٢) والغضب والرضا يجوز لنا استعمالها والبكاء والخوف ونحو ذلك لا يجوز لنا استعمالها وإن كان المأخذان متقاربين والمسألة على ما حققناه معتزدة بالعقل والنقل لا يحوم الباطل من بين يديها ولا من خلفها والاطالة في ابطال أقوالهم ومذاهبهم لها موضع آخر غير هذا الموضع ولنا أن نفسرها بمعان هي أقرب وأوفق مما قالوا إبانة (٣) لان تلك المعاني لا يتعين القول بها ولا يضطر الناظر في الدليل العقلي اليها وأنها ليست راجحة على غيرها ولا فيها مزية بالنسبة الى ماعداها لاحكام بأن مراد الله ما نقول ولا اجماعاً على الاعتقاد بها والاذعان بها هيئات ذلك (فنقول) مثلاً لما كان بين يديك ثلاثة أنواع حي وميت وجماد وكان الحي أقرب شبيهاً بما هناك لكونه عالماً مؤثراً في الخلق وجب ان يسمى حياً ولما كان العلم عندنا هو الانكشاف وقد انكشفت عليه الاشياء كلها بما هي مندرجة في ذاته ثم بما هي موجودة تفصيلاً وجب أن يسمى عليماً ولما كانت الرؤية والسمع انكشافاً تاماً للمبصرات والمسموعات وذلك هناك بوجه أتم وجب أن يسمى بصيراً سميعاً ولما كان قولنا اراد فلان انما نغني به هاجس عزم على فعل او ترك وكان الرحمن يفعل كثيراً من افعاله عند حدوث شرط أو استعداد في العالم فيوجب عند ذلك مالم يكن واجباً ويحصل في بعض الاحياز (٤) الشاهقة اجماع بعد مالم يكن باذنه وحكمه وجب ان يسمى مريداً

(١) أي قول ابن حجر (٢) شاده اني اهـ (٣) أي إظهاراً (٤) أي الامكنة، والشاهقة العالية اهـ

وأيضاً فالارادة الواحدة الازلية الذاتية المفسرة باقتضاء الذات لما تعلقت بالعالم بأسره مرة واحدة ثم جاءت الحوادث يوماً بعد يوم صح ان ينسب الى كل حادث حادث على حدته ويقال أراد كذا وكذا، ولما كان قولنا قدر فلان انما نعني به أنه يمكن له أن يفعل ولا يصده من ذلك سبب خارج أما إيثار أحد المقدورين من القادر فانه لا ينفي اسم القدرة وكان الرحمن قادراً على كل شيء وإنما يؤثر بعض الافعال دون اضداده لغنايته واقتضائه الذاتي وجب أن يسمى قادراً، ولما كان قولنا ظم فلان فلان انما نعني به أفاضة المعاني المرادة مقرونة بالفاظ دالة عليها وكان الرحمن ربما يفيض على عبده علوماً ويفيض معها ألفاظاً منعقدة في خياله دالة عليها ليكون التعليم اصرح ما يكون وجب ان يسمى متكلماً قال الله تعالى (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بأذنه ما يشاء إنه على حكيم) فالوحي هو النفث في الروح برؤيا أو خلق علم ضروري عند توجهه الى الغيب ومن وراء حجاب أن يسمع كلاماً منظوماً كأنه سمعه من خارج ولم ير قائله أو يرسل رسولا فيتمثل الملك له وربما يحصل عند توجهه الى الغيب وانقمار الحواس صوت صاصلة الجرس (١) كما قد يكون عند عروض الغشي من رؤية ألوان حمراء وسود ولما كان في حظيرة القدس نظام مطلوبة اقامته في البشر فان وافقوه لحقوا بالملائكة الاعلى وأخرجوا من الظلمات الى نور الله وبسطته ونعموا في أنفسهم وألهمت الملائكة وبنو آدم ان يحسنوا اليهم وان خالفوا باينوا من الملائكة الاعلى واصيبوا بغيضه منهم وعذبوا بنحو ما ذكروا وجب ان يقال رضى وشكر أو سخط ولعن والكل يرجع الى جريان العالم حسب مقتضى المصلحة وربما كان من نظام العالم خلق المدعو اليه فيقال استجاب الدعاء، ولما كانت الرؤية في استعمالنا انكشاف المرئي أتم ما يكون وكان الناس اذا انتقلوا الى بعض ما وعدوا من المعاد اتصلوا بالتجلي القائم وسط عالم المثال ورأوه رأى عين بأجمعهم وجب ان يقال انكم سترون القمر ليلة البدر والله اعلم.

(باب الايمان بالقدر)

من أعظم أنواع البر الايمان بالقدر وذلك انه به يلاحظ الانسان التدبير الواحد الذي يجمع العالم ومن اعتقده على وجهه يصير طامح البصر الى ما عند الله يرى الدنيا وما فيها كالظلم له ويرى اختيار العباد من قضاء الله كالصورة المنطبعة في المرآة وذلك يعد له - لانكشاف ما هنالك من التدبير الواحد ولو في المعاد - أتم اعداد وقد نبه صلى الله عليه وسلم على عظم أمره من بين انواع البر حيث قال: «من لم يؤمن بالقدر خيره وشره فأنا بريء منه» وقال صلى الله عليه وسلم: «لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره وحتى يعلم ان ما أصابه لم يكن ليخطئه وان ما أخطأه لم يكن ليصيبه» * واعلم ان الله تعالى شمل علمه الازلي الذاتي كل ما وجد أو سيوجد من الحوادث محال ان يتخلف علمه عن شيء او يتحقق غير ما علم فيكون جهلاً لا علماً، وهذه مسألة شمول العلم وليست بمسألة القدر ولا يخالف فيها فرقة من الفرق الاسلامية انما القدر (٢) الذي دلت عليه الاحاديث المستفيضة ومضى عليه السلف الصالح ولم يوفق له الا المحققون ويتجه عليه السؤال بأنه متدافع مع التكليف وأنه فيم العمل هو القدر الملزم الذي يوجب الحوادث قبل وجودها فيوجد بذلك الايجاب لا يدفعه هرب ولا تنفع منه حيلة وقد وقع ذلك (٣) خمس مرات فأولها انه أجمع في الازل أن يوجد العالم على أحسن وجه ممكن مراعيًا للمصالح مؤثرًا لما هو

(١) هو بفتح الصادين الصوت المتدارك الذي يسمع ولا يثبت اول ما يقرع سمعه حتى يفهمه بعده والجرس بفتح الحاء ما يعاق بعنق الدابة اي الجلل وشبهه به صوت الملك من جهة القوة والظنين (٢) مبتدأ خبره قوله الآتي هو القدر اه (٣) اي القدر اه

الخبر النسبي حين وجوده وكان علم الله ينتهي الى تعيين صورة واحدة من الصور لا يشار كها غير ها فكانت الحوادث سلسلة مترتبة مجتمعا وجودها لا تصدق على كثيرين فارادة إيجاد العالم ممن لا تخفى عليه خافية هو بعينه تخصيص صورة وجوده الى آخر ما ينجر اليه الامر، وثانيها أنه قدر المقادير، ويروى أنه كتب مقادير الخلائق كلها والمعنى واحد قبل ان يخلق السموات والارض بخمسين ألف سنة وذلك أنه خلق الخلائق حسب العناية الازلية في خيال (١) العرش فصور هنالك جميع الصور وهو المعبر عنه بالذكر في الشرائع فتحقق هنالك مثلا صورة محمد صلى الله عليه وسلم وبعثه الى الخلق في وقت كذا وانذاره لهم وانكار أذى لهب واحاطة الخطيئة بنفسه في الدنيا ثم اشتعال النار عليه في الآخرة وهذه الصورة سبب لحدوث الحوادث على نحو ما كانت هنالك كتأثير الصورة المنتقشة في أنفسنا في زلق الرجل على الجذع الموضوع فوق الجدران ولم تكن لتزلق لو كانت على الارض، وثالثها انه لما خلق آدم عليه السلام ليكون أبا للبشر وليبدأ منه نوع الانسان أحدث في عالم المثال صور بنيه ومثل سعادتهم وشقاوتهم بالنور والظلمة وجعلهم بحيث يكلفون وخلق فيهم معرفته والاخبارات له وهو أصل الميثاق المدسوس (٢) في فطرتهم فيؤاخذون به وان نسوا الواقعة اذ النفوس المخلوقة في الارض انما هي ظل الصور الموجودة يومئذ فمدسوس فيها مادم يومئذ، ورابعها حين نفخ الروح في الجنين فكما ان النواة اذا أُلقيت في الارض في وقت مخصوص وأحاط بها تدبير مخصوص علم المطلع على خاصية نوع النخل وخاصية تلك الارض وذلك الماء والهواء انه يحسن نباتها ويتحقق من شأنه على بعض الامر فكذلك تتلقى الملائكة المدبرة يومئذ وينكشف عليهم الامر في عمره ورزقه وهل يعمل عمل من غلبت ملاكيته على بهيميته أو بالعكس واى نحو تكون سعادته وشقاوته، وخامسها قبيل حدوث الحادثة فينزل الامر من حظيرة القدس الى الارض وينتقل شىء مثالى فتنبسط أحكامه في الارض (وقد شاهدت) ذلك مرارا، منها ان ناسا تشاجروا فيما بينهم وتحادوا فالتجأت الى الله فرأيت نقطة مثالية نورانية نزلت من حظيرة القدس الى الارض فجعلت تنبسط شيئا فشيئا وكلما انبسطت زال الحقد عنهم فما برحنا المجلس حتى تلاطفوا ورجع كل واحد منهم الى ما كان من الالفه وكان ذلك من عجيب آيات الله عندي * ومنها أن بعض أولادى كان مريضا وكان خاطرى مشغولا به فبينما أنا أصلى الظهر شاهدت موته نزل فمات في ليلته. وقد بينت السنة بيانا واضحا ان الحوادث يخلقها الله تعالى قبل ان تحدث في الارض خلقا ما ثم ينزل في هذا العالم فيظهر فيه كما خلق اول مرة سنة من الله تعالى ثم قد يمحي الثابت ويثبت المعدوم بحسب هذا الوجود قال الله تعالى: (يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب) مثل أن يخلق الله تعالى البلاء خلقا ما فينزله على المبلى ويصعد الدعاء فيرده، وقد يخلق الموت فيصعد البر ويرده والفقه فيه ان المخلوق النازل سبب من الاسباب العادية كالطعام والشراب بالنسبة الى بقاء الحياة وتناول السم والضرب بالسيف بالنسبة الى الموت وقد دل احاديث كثيرة على ثبوت عالم تتجسم فيه الاعراض وتنتقل المعانى ويخلق الشىء قبل ظهوره في الارض مثل كون الرحم معلقا بالعرش ونزول الفتن كمواقع القطر وخلق النيل والفرات في اصل السدرة ثم انزالهما الى الارض وانزال الحديد والانعام وانزال القرآن الى السماء الدنيا مجوعا وحضور الجنة والنار بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم وبين جدار المسجد بحيث يمكن تناول العنقود ويأتى حر النار وكتعالج (٣) البلاء والدعاء وخلق ذرية

آدم وخلق العقل وانه أقبل وأدبر وإتيان الزهراوين (١) كأنهما فرقان ووزن الاعمال وحفوف الجنة بالمكاره والنار بالشهوات وأمثال ذلك مما لا يخفى على من له أدنى معرفة بالسنة (واعلم) ان القدر لا يزاحم سببية الاسباب لمسبباتها لانه إنما تعلق بالسلسلة المترتبة جملة مرة واحدة وهو قوله صلى الله عليه وسلم في الرقي والدواء والتقاة هل ترد شيئا من قدر الله؟ قال: «هي من قدر الله» وقول عمر رضي الله عنه في قصة سرغ (٢) أليس إن رعيته في الخصب رعيته بقدر الله؟ الخ وللعباد اختيار أفعالهم نعم لا اختيار لهم في ذلك الاختيار لكونه معلولا بحضور صورة المطلوب ونفعه ونهوض داعية وعزم مما ليس له علم بها فكيف الاختيار فيها وهو قوله: «إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله يقلبها كيف يشاء» والله أعلم *

(باب الايمان بأن العبادة حق الله تعالى على عباده لانه منعم عليهم مجاز لهم بالارادة) (اعلم) ان من أعظم أنواع البر أن يعتقد الانسان بمجامع قلبه بحيث لا يحتمل نقيض هذا الاعتقاد عنده ان العبادة حق الله تعالى على عباده وانهم مطالبون بالعبادة من الله تعالى بمنزلة سائر ما يطالبه ذوو الحقوق من حقوقهم قال النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ: «يامعاذ هل تدري ما حق الله على عباده وما حق العباد على الله؟ قال معاذ الله ورسوله أعلم قال: فان حق الله على العباد ان يعبدوه ولا يشركوا به شيئا وحق العباد على الله تعالى ان لا يعذب من لا يشرك به شيئا» وذلك لان من لم يعتقد ذلك اعتقادا جازما واحتمل عنده أن يكون سدى مهملا لا يطالب بالعبادة ولا يؤخذ به من جهة رب يريد مختار كان دهريا لا تقع عبادته وإن باشرها بجوارحه بموقع من قلبه ولا تفتح بابا بينه وبين ربه وكانت عادة كسائر عاداته (والاصل) في ذلك انه قد ثبت في معارف الانبياء وورثتهم عليهم الصلوات والتسليمات أن موطننا (٣) من مواطن الجبروت فيه إرادة وقصد بمعنى الاجماع على فعل مع صحة الفعل والترك بالنظر إلى هذا الموطن وان كانت المصلحة الفوقانية لا تبقى ولا تدر شيئا إلا أوجب وجوده أو أوجب عدمه لا وجود للحالة المنتظرة بحسب ذلك ولا عبرة بقوم يسمون الحكماء بعموم أن الارادة بهذا المعنى فقد حفظوا شيئا وغابت عنهم أشياء وهم محجوبون عن مشاهدة هذا الموطن محجوجون بأدلة الآفاق والانفس، أما حجابهم فهو انهم لم يهتدوا إلى موطن بين التجلي الأعظم وبين الملاء الأعلى شبيه بالشعاع القائم بالجوهرة والله المثل الأعلى، ففي هذا الموطن يتمثل اجماع على شيء استوجبه علوم الملاء الأعلى وهياتهم بعد ما كان مستوى الفعل والترك في هذا الموطن، وأما الحجة عليهم فهي ان الواحد منا يعلم بداهة انه يمد يده ويتناول القلم مثلا وهو في ذلك يريد قاصد يستوى بالنسبة إليه الفعل والترك بحسب هذا القصد وبحسب هذه القوى المتشعبة في نفسه وان كان كل شيء بحسب المصلحة الفوقانية إما واجب الفعل أو واجب

(١) اي المنيرتين وهما البقرة وآل عمران وكانهما فرقان أي قطعتان من طير صراف اه
(٢) بفتح الراء وسكونها قرية بوادي تبوك، اخرج مالك عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في قصة وباء الشام انه لما جاء عمر رضي الله عنه في سرغ وسمع وباء الشام امر بالرجوع فقال له ابو عبيدة بن الجراح أفرارا من قدر الله؟ فكان آخر قول عمر رضي الله عنه له نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله أرايت لو كانت لك ابل فهبطت واديا له عدوتان احدهما خصبة واخرى جدبة أليس إن رعيته الخصبة رعيته بقدر الله وإن رعيته الجدبة رعيته بقدر الله أم
(٣) أي موضعا أه

أنك في ذلك حال في حال يستواجه استعجاب خاص فيقول من يرى الصور نزول الصور (١) على المواد
المستعدة لما بالاستجابة حيث الدعاء بما فيه دخل فتجد حادث بوجه من الوجوه وتلك تقول هذا جيل
وجواب الشيء بحسب المصلحة القوقاية فكيف يكون في موطن من موطن الحق (١) فأنقول نحن في هو
علم وإله الحق هذا الموطن أما الجهل أن يقال ليس بواجب أصلاً وقد نعت الشرائع الإلهية بهذا الجهل
حيث أثبتت الإيمان بالقدر وإن ما صابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك وأما إذا قيل
بصح فعله وتركه بحسب هذا الموطن فهو علم حق لا محالة في أنك إذا رأيت الفعل (٢) من الهام بفعل
الأفعال الفعلية ورأيت الأتي تفعل الأفعال الاثوية فإن حكمت بأن هذه الأفعال صادرة جبراً كحركة الحجر في
تدحرجه كذبت وإن حكمت بأنها صادرة من غير علة موجهة لها فلا المزاج الفعل يوجب هذا الباب ولا
المزاج الاثوي يوجب ذلك كذبت وإن حكمت بأن الإرادة المتشعبة في أنفسها تعلى وجبراً فوقها وتعتمد
عليه وأنها لا تهوور فوراً (٣) استقلالاً فإن ليس وراء ذلك مرمى فقد كذبت بل الحق اليقين أمرين الأمرين
وهو أن الاختيار معلول لا يتخلف عن علة والفعل المراد توجبه العلة ولا يمكن أن لا يكون ولكن هذا
الاختيار من شأنه أن ينتج بالنظر إلى نفسه ولا ينظر إلى ما فوق ذلك فإن أدبت حق هذا الموطن وقتت أحد في
نفسه أن الفعل والترك كانا مستويين وأنى اخترت الفعل فكان الاختيار علة لفعله صدقت وورثت فأخبرت
الشرائع الإلهية عن هذه الإرادة المتشعبة في هذا الموطن وبالحكمة فقد ثبتت إرادة بتعدد تعلقها وتشتت المجازاة
في الدنيا والآخرة وثبت أن مدير العالم دبر العالم بإيجاب شريعة يسلكونها ليتعموا بها فكان الأمر شيئاً بأن السيد
استخدم عبيده وطلب منهم ذلك ورضى عن خدم وسخط على من لم يخدم فزالت الشرائع الإلهية بهذه العبارة
لما ذكرنا أن الشرائع تنزل في الصفات وغيرها بعبارة ليس هنالك أصح ولا أجن لتحق منها أثبات حقيقة لقوة
أو مجازاً متعارفاً مكنى الشرائع الإلهية هذه المعرفة العامة من تقوسهم بثلاثة مقامات مسألة عدم جارية
مجرى المشهورات البديهية بينهم ، أحدها أنه تعالى منعم وشكر المنعم واجب والعبادة شكر له على نعمه ،
والثاني أنه يجازى المعروض عنه التاركين لعبادته في الدنيا أشد الجزاء ، والثالث أنه يجازى في الآخرة المطيعين
والعاصين فانبسطت من هنالك ثلاثة علوم ، علم الله كبر بالآلاء ، وعلم الله كبر بأهلام الله ، وعلم الله كبر بالتدبير بالمعاد
فزل القرآن العظيم شرحاً لهذه العلوم وأما عظمت العناية بشرح هذه العلوم لأن الإنسان خلق في أصل فطرته
ميل إلى باريه جل مجده وذلك الميل أمر دقيق لا يقتضيه إلا بحليته ومطته وخليقته ومطته على ما أثبتته الوجدان
الصحيح الإيمان بأن العبادة حق الله تعالى على عباده لأنه منعم لهم بجار على أعمالهم فمن أنكر الإرادة أو
ثبوت حقه على العباد أو أنكر المجازاة فهو الدهري القائل لسلامة فطرته لأنه أقصد على نفسه مطقة الميل
الفطري المودع في جبلته ونائبه وخليفته والمأخوذ مكانه وإن شئت أن تعلم حقيقة هذا الميل فاعلم أن في
روح الإنسان لطيفة نورانية تميل بطبيعتها إلى الله عز وجل ميل الحديد إلى المغناطيس وهذا أمر يدرك
بالوجدان فكل من آمن في الفحص عن لطائف نفسه وعرف على لطيفة تعالها لابد أن يدرك هذه الطيفة
النورانية ويدرك ميلها بطبيعتها إلى الله تعالى ويسمى ذلك الميل عند أهل الوجدان بالحجة الذاتية مثله كمثل

سائر الوجدانيات لا يقتنع بالبراهين كجوع هذا الجائع وعطش هذا العطشان فاذا كان الانسان في غاشية من أحكام لطائفه السفلية كان بمنزلة من استعمل مخدرا (١) في جسده فلم يحس بالحرارة والبرودة فاذا هدت لطائفه السفلية عن المراحة إما بموت اضطرارى يوجب تناثر كثير من أجزاء نسمة ونقصان كثير من خواصها وقواها أو بموت اختياري وتمسك حيل عجيبة من الرياضات النفسانية والبدنية كان كمن زال المخدر عنه فأدرك ما كان عنده وهو لا يشعر به فاذا مات الانسان وهو غير مقبل على الله تعالى فان كان عدم إقباله جهلا بسيطا وفقدأ ساذجا فهو شقى بحسب الكمال النوعى وقد يكشف عليه بعض ما هنالك ولا يتم الانكشاف لفقد استعداده فبقى حائرا مبهورا وأن كان ذلك مع قيام هيئة مضادة في قواه العلمية أو العملية كان فيه تجاذب فانجذبت النفس الناطقة الى صقع (٢) الجبروت والنسمة بما كسبت من الهيئة المضادة الى السفلى فكانت فيه وحشة ساطعة من جوهر النفس منبسطة على جوهرها وربما أوجب ذلك تمثيل واقعات هي اشباح الوحشة كما يرى الصفر اوى في منامه النيران والشلل وهذا اصل توجيه حكمة معرفة النفس وكان اضافيه تحديق غضب من الملاء الاعلى يوجب إلهامات في قلوب الملائكة وغيرها من ذوات الاختيار ان تعذبه وتؤلمه وهذا اصل توجيه معرفة اسباب الخطرات والدواعى الناشئة في نفوس بنى آدم، وبالجملة فالميل الى صقع الجبروت وجوب العمل بما يفك وثاقه من مزاحمة اللطائف السلفية والمؤاخذة على ترك هذا العمل بمنزلة أحكام الصورة النوعية وقواها وآثارها الفائضة في كل فرد من أفراد النوع من بارى الصور ومفيض الوجود وفق المصلحة الكلية لا باصطلاح البشر والتزامهم على أنفسهم وجريان رسومهم بذلك فقط وكل هذه الاعمال في الحقيقة حق هذه اللطيفة النورانية المنجذبة الى الله وتوفير مقتضاها واصلاح عوجها، ولما كان هذا المعنى دقيقا وهذه اللطيفة لا تدركها الا شزيمة (٣) قليلة وجب أن ينسب الحق الى ما اليه مالت وإياه قصدت ونحوه انتحت كأن ذلك تعيين لبعض قوى النفس التى مالت من جهته وكأن ذلك اختصار قولنا حق هذه اللطيفة من جهة ميلها الى الله فنزلت الشرائع الالهية كاشفة عن هذا السر بعبارة سهلة يفهمها البشر بعلومهم الفطرية ويعطيها سنة الله من إنزال المعانى الدقيقة فى صور مناسبة لها بحسب النشأ المثالية كما يتلقى واحد منا فى منامه معنى مجردا فى صرورة شىء ملازم له فى العادة أو نظيره وشبهه فقليل العبادة حق الله تعالى على عباده وعلى هذا ينبغى أن يقاس حق القرآن وحق الرسول وحق المولى وحق الوالدين وحق الارحام فكل ذلك حق نفسه على نفسه لتكامل كمالها ولا تقترب على نفسها جورا ولكن نسب الحق الى من معه هذه المعاملة، ومنه المطالبة فلا تكن من الواقعين على الظواهر بل من المحققين للامر على ما هو عليه *

(باب تعظيم شعائر الله تعالى)

قال الله تعالى: (ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب) (٤) اعلم أن مبنى الشرائع على تعظيم شعائر الله تعالى والتقرب بها اليه تعالى وذلك لما أو مانا اليه من أن الطريقة التى نصبها الله تعالى للناس هى محاكاة ما فى صقع التجرد بأشياء يقرب تناولها للبهيمية واعنى بالشعائر أمور ظاهرة محسوسة جعلت ليعبد الله بها واختصت به حتى صار تعظيمها عندهم تعظيما لله والتفريط (٥) فى جنبها تفريطا فى جنب الله وركز ذلك فى صميم قلوبهم لا يخرج منه الا أن تقطع قلوبهم، والشعائر انما تصير شعائر بنهج طبيعى وذلك أن تطمئن نفوسهم بعادة وخصلة

(١) أى مضعفا ومفترأ اه (٢) أى جانب اه (٣) أى جماعة اه (٤) جمع شعيرة وهى المعالم التى دعا الله اليها وامر بالقيام عليها ، وقيل هى كل ما كان من أعمال الحج والاول أنسب (٥) أى التقصير ، وقوله فى جنب أى ذات

وتصير من المشهورات النائعة التي تلحق بالدينيات الاولى ولا تقبل التشكيك فعند ذلك تظهر رحمة الله في صورة أشياء تستوجبها نفوسهم وعلومهم النائعة فيما بينهم فيقبلونها ويكشف الغطاء عن حقيقتها وتبلغ الدعوة الاداني والاقاصي على السواء فعند ذلك يكتب عليهم تعظيمها ويكون الامر بمنزلة الخائف باسم الله يضم في نفسه التفريط في حق الله ان حث فيواخذ بما يضمرو كذلك هؤلاء يشهر فيما بينهم أمور تنقاد لها علومهم فيوجب انقياد علومهم لها أن لا تظهر رحمة الله بهم إلا فيما انقادوا له إذ مبنى التدبير على الأسهل فالأسهل ويوجب أيضا أن يواخذوا أنفسهم بأقصى ما عندهم من التعظيم لأن عالمهم هو التعظيم الذي لا يشوبه اهمال وما أوجب الله تعالى شيئا على عباده لفائدة ترجع اليه تعالى عن ذلك علوا كبيرا بل لفائدة ترجع اليهم وكانوا بحيث لا يكملون إلا بالتعظيم الاقصى فأخذوا بما عندهم وأمروا أن لا يفرطوا في جنب الله وليس المقصود بالذات في العناية التشريعية حال فرد بل حال جماعة ثابها كل الناس والله الحجة البالغة •

ومعظم شعائر الله أربعة، القرآن، والكعبة، والنبي، والصلاة، أما القرآن فكان الناس شاع فيما بينهم رسائل الملوك الى رعاياهم وكان تعظيمهم للملوك مساوقا (١) لتعظيمهم للرسائل وشاع صف الانبياء وصنفاً غيرهم وكان تمذهبهم لمذاهبهم مساوقا لتعظيم تلك الكتب وتلاوتها وكان الانقياد للعلوم وتلقيها على مر الدهور بدون كتاب يتلى ويروى كالحال بادي الرأي فاستوجب الناس عند ذلك أن تظهر رحمة الله في صورة كتاب نازل من رب العالمين ووجب تعظيمه، فنه أن يستمعوا له وينصتوا اذا قرئ، ومنه أن يبادروا لاوامره لسجدة التلاوة والتسبيح عند الامر بذلك، ومنه أن لا يمسوا المصحف إلا على وضوء • وأما الكعبة فكان الناس في زمن ابراهيم عليه السلام توغلوا في بناء المعابد والكنائس باسم روحانية الشمس وغيرها من الكواكب وصار عندهم التوجه الى المجرد غير المحسوس بدون هيكل يبنى باسمه يكون الحلول فيه والتلبس به تقرباً منه أمراً محالاً تدفعه عقولهم بادي الرأي فاستوجب أهل ذلك الزمان أن تظهر رحمة الله بهم في صورة بيت يطوفون به ويتقربون به الى الله فدعوا الى البيت وتعظيمه ثم نشأ قرن بعد قرن على علم أن تعظيمه مساوق لتعظيم الله والتفريط في حقه مساوق للتفريط في حق الله فعند ذلك وجب حجه وأمروا بتعظيمه، فنه أن لا يطوفوا إلا متطهرين، ومنه أن يستقبلوها في صلاتهم وكرامية استقبالها واستدبارها عند الغائط • وأما النبي فلم يسم مرسل إلا تشبيها برسل الملوك الى رعاياهم مخبرين بأمرهم ونهيهم ولم يوجب عليهم طاعتهم الا بعد مساوقة تعظيمهم لتعظيم المرسل عندهم فمن تعظيم النبي وجوب طاعته والصلاة عليه وترك الجهر عليه بالقول • وأما الصلاة فيقصد فيها التشبيه بحال عبيد الملك عند مثولهم (٢) بين يديه ومناجاتهم إياه وخضوعهم له ولذلك وجب تقديم الثناء على الدعاء ومواخذة الانسان نفسه بالهيآت التي يحب مراعاتها عند مناجاة الملوك من ضم الاطراف وترك الالتفات وهو قوله ﷺ: «إذا أحدم صلى فان الله قبل وجهه (٣) والله أعلم»

(باب أسرار الوضوء والغسل)

اعلم ان الانسان قد يختطف من ظلمات الطبيعة الى أنوار حظيرة القدس فتغلب عليه تلك الانوار ويصير

(١) اي متابعاً (٢) اي قيامهم (٣) اي اتجاه وجهه ومقابله والمراد التزام السكينة والوقار في الصلاة لان المصلي يكون بحضرة ملك الملوك مناجياً لإياه، وقيل إن الله قبل وجهه المراد به أن قبله أو ثوابه تجاه وجهه

ساعة ما بريئاً من أحكام الطبيعة بوجه من الوجوه فينسلك في سلوكهم ويصير فيما يرجع الى تجريد النفس كأنه منهم ثم يرد الى حيث كان فيشتاق إلى ما يناسب الحالة الاولى ليغتنمه عند فقدها ويجعله شركاً لاقتناص الفائت منها فيجد بهذه الصفة حالة من أحواله وهي السرور والانشرح الحاصل من هجر الرجز واستعمال المطهرات فيعض عليها بنواجذه ويتلوه انسان سميع المخبر الصادق يخبر بأن هذه الحالة كالانسان وانه ارتضاها منه بآثره وان فيها فوائد لا تحصى فصدقه بشهادة قلبه ففعل ما أمر به فوجد ما أخبر به حقاً وفتحت عليه أبواب الرحمة وانصبغ بصبغ الملائكة ويتلوه رجل لا يعلم شيئاً من ذلك لكن قاده الانبياء وألجأوه إلى هيات تعدله في معاده للانسلak في سلك الملائكة وأولئك قوم جروا بالسلاسل إلى الجنة والحدث الذي يحس أثره في النفس بآدى الرأى والذي يليق أن يخاطب به جمهور الناس لانضباط مظانه والذي يكثرو وقوع مثله وفي إهمال تعليمه ضرر عظيم بالناس منحصر استقراء في جنسين، أحدهما اشتغال النفس بما يجد الانسان في معدته من الفضول الثلاثة الريح والبول والغائط فليس من البشر أحد إلا ويعلم من نفسه أنه إذا وجد في بطنه الريح أو كان حاقباً حاقباً خبثت نفسه فأخذت (١) إلى الارض وصارت كالخائرة المنقبضة وكان بينها وبين انشراحها حجاب فاذا اندفعت عنه الريح وتخفف عنه الاخبثان واستعمل ما ينبه نفسه للطهارة كالغسل والوضوء وجد انشراحاً وسروراً وصار كأنه وجد ما فقد، والثاني اشتغال النفس بشهوة الجماع وغوصها (٢) فيها فان ذلك يصرف وجه النفس الى الطبيعة البهيمية بالكلية حتى ان البهائم اذا ارتيضت ومرنت (٣) على الآداب المطلوبة والجوارح اذا ذلت بالجوع والسهر وعلمت إمساك الصيد على صاحبها والطيور اذا كلفت بمحاكاة كلام الناس، وبالجملة كل حيوان أفرغ الجهد في إزالة ماله من طبيعته واكتساب مالا تقتضيه طبيعته ثم قضى هذا الحيوان شهوة فرجه وعافس (٤) الاناس وغاص في تلك اللذة أياماً لا بد أن ينسى ما اكتسبه ورجع إلى عمه وجهل وضلال، ومن تأمل في ذلك علم لا محالة ان قضاء هذه الشهوة يؤثر في تلويث النفس مالا يؤثره شيء من كثرة الاكل والمغامرة وسائر ما يميل النفس إلى الطبيعة البهيمية وليجرب الانسان ذلك من نفسه وليرجع إلى ما ذكره الاطباء في تدبير الرهبان المنقطعين إذا أريد إرجاعهم إلى النفس البهيمية والطهارة التي يحس أثرها بآدى الرأى والتي يليق أن يخاطب بها جمهور الناس لكثرة وجود آلتها في الاقاليم المعمورة أعنى الماء وانضباط أمرها والتي هي أوقع الطهارات في نفوس البشر وكالمسلات المشهورة بينهم مع كونها كالمذهب الطبيعى تنحصر بالاستقراء في جنسين صغرى وكبرى، أما الكبرى فتعميم البدن بالغسل والدلك إذ الماء طهور مزيل للنجاسات قد سلمت الطبائع منه ذلك فهي آلة صالحة لتنبيه النفس على خلة (٥) الطهارة ورب إنسان شرب الخمر وثلث وغلب السكر على طبيعته ثم فرط منه شيء من قتل بغير حق أو إضاعة مال في غاية النفاسة فتنبهت نفسه دفعة وعقلت وكشفت عنها الثمالة ورب إنسان ضعيف لا يستطيع أن ينهض ولا أن يباشر شيئاً فاتفتت واقعة تنبه النفس تنبيهاً قويا من عروض غضب أو حمية أو منافسة فعالج معالجة شديدة وسفك سفكاً بليغاً، وبالجملة فللنفس انتقال دفعى وتنبيه

(١) أى حبست، وقوله الاخبثان أى البول والغائط اه (٢) فروشن اه (٣) از تمرين بمعنى خو لردن، وقوله الجوارح أى الطيور والدواب التى تصيد اه (٤) أى مارس ولاعب اه (٥) أى خصلة وقوله ثلث أى أخذه الشرب والسكر، والتمالة أثر السكر اه

من خصلة الى خصلة هو العمدة في المعالجات النفسانية وانما يحصل هذا التنبيه بماركز في صميم طبائعهم وجذر نفوسهم أنه طهارة بليغة وما ذلك إلا الماء، والصغرى الاقتصار على غسل الاطراف وذلك لانها مواضع جرت العادة في الاقاليم الصالحة بانكشافها وخروجها من اللباس لمذهب طبيعي اليه وقعت الاشارة حيث هي للنبي صلى الله عليه وسلم عن اشتغال الصماء (١) فلا يتحقق حرج في غسلها وليس ذلك في سائر الاعضاء، وأيضا جرت العادة في أهل الحضرة بتنظيفها كل يوم وعند الدخول على الملوك وأشباههم وعند قصد الاعمال النظيفة وفقه ذلك أنها ظاهرة تسرع اليها الاوساخ وهي التي ترى وتبصر عند ملاقات الناس بعضهم لبعض وأيضا التجربة شاهدة بأن غسل الاطراف ورش الماء على الوجه والراس ينبه النفس من نحو النوم والغشى المقل تنبيهها قويا ويرجع الانسان في ذلك الى ما عنده من التجربة والعلم والى ما أمر به الاطباء في تدبير من غشى عليه أو أفرط به الاسهال والفصد، والطهارة باب من أبواب الارتفاق الثاني الذي يتوقف كمال الانسان عليه وصار من جبلتهم وفيها قرب من الملائكة وبعد من الشياطين وتدفع عذاب القبر وهو قوله ﷺ: «استنزهوا من البول» (٢) فان عامة عذاب القبر منه، ولها مدخل عظيم في قبول النفس لونه الاحسان وهو قوله تعالى: (والله يحب المتطهرين) وإذا استقرت في النفس وتمكنت منها تقررت فيها شعبة من نور الملائكة وانقهرت شعبة من ظلمة البهيمية هو معنى كتابة الحسنات وتكفير الخطايا وإذا جعلت رسما نفعت من غوائل (٣) الرسوم وإذا حافظ صاحبها على ما فيها من هياآت يؤاخذ الناس بها أنفسهم عند الدخول على الملوك وعلى النية المستصحبة والاذكار نفعت من سوء المعرفة وإذا عقل الانسان أن هذه آله فآداب جوارحه حسبما عقل من غير داعية حسية وأكثر من ذلك كانت تمرينا على انقياد الطبيعة للعقل والله أعلم •

﴿ باب أسرار الصلاة ﴾

اعلم ان الانسان قد يختطف الى الحظيرة المقدسة فيلتصق بجناب الله تعالى أنتم لصوق وينزل عليه من هنالك التجليات المقدسة فتغلب على النفس ويشاهد هنالك ما لا يقدر اللسان على وصفه ثم يرد الى حيث كان فلا يقر به القرار فيعالج نفسه بحالة هي أقرب الحالات السفلية من استغراق النفس في معرفة بارئها ويتخذها شركا لاقتناص مافاته منها وتلك الحالة هي التعظيم والخضوع والمناجاة في ضمن أفعال وأقوال بنيت لذلك ويتلوه رجل سمع المخبر الصادق يدعو الى هذه الحالة ويرغب فيها فصدقه بشهادة قلبه ففعل ووجد ما وعد به حقا وارتنى الى ما يرجوه ثم يتلوه رجل ألجأه الانبياء الى الصلوات وهو لا يعلم بمنزلة الوالد يحبس أولاده على تعليم الصناعات النافعة وهم كارهون وربما يسأل الانسان من ربه دفع بلاء أو ظهور نعمة فيكون أقرب حينئذ الاستغراق في أفعال وأقوال تعظيمية لتؤثر همته التي هي روح السؤال وذلك ماسن من صلاة الاستسقاء وأصل الصلاة ثلاثة أشياء أن يخضع القلب عند ملاحظة جلال الله وعظمته ويعبر اللسان عن تلك العظمة وذلك الخضوع أفصح عبارة وأن يؤدب الجوارح حسب ذلك الخضوع قال القائل (شعر)

(١) هو أن يتجلل الرجل بثوبه ولا يرفع منه جانبا ويسد على يديه ورجليه المنافذ كلها كالصخرة الصماء التي ليس فيها خرق ولا صدع اهـ (٢) استبرؤا وتطهروا اهـ (٣) اي بلابا اهـ

أفادتكم النعماء منى ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجبا (١)
ومن الأفعال التعظيمية أن يقوم بين يديه مناجيا ويقبل عليه مواجهها وأشد من ذلك (٢) أن يستشعر
ذله وعزة ربه فينكس رأسه إذ من الأمر المجبول في قاطبة البشر والبهايم أن رفع العنق آية التيه والتكبر
وتنكيسه آية الخضوع والاختبات وهو قوله تعالى: (فظلت أعناقهم لها خاضعين) وأشد من ذلك أن يعفر
وجهه الذي هو أشرف أعضائه ومجمع حواسه بين يديه فتلك التعظيمات الثلاث الفعلية شائعة في طوائف
البشر لا يزالون يفعلونها في صلواتهم وعند ملوكهم وأمراءهم وأحسن الصلاة ما كان جامعا بين الأوضاع
الثلاثة مترقيا من الأدنى إلى الأعلى ليحصل الترقى في استشعار الخضوع والتذلل وفي الترقى من الفائدة ما ليس
في أفراد التعظيم الأقصى ولا في الانحطاط من الأعلى إلى الأدنى وإنما جعلت الصلاة أم الأعمال المقربة دون
الفكر في عظمة الله ودون الذكر الدائم لأن الفكر الصحيح فيها لا يتأتى إلا من قوم عالية نفوسهم وقليل
ما هم وسوى أولئك لو خاضوا فيه تبلدوا وأبطلوا رأس ما لهم فضلا عن فائدة أخرى والذكر بدون
أن يشرحه ويعضده عمل تعظيمي يعمل به بجوارحه ويعنو في آدابها لقلقة خالية عن الفائدة في حق
الأكثرين، (أما الصلاة) فهي المعجون المركب من الفكر المصروف تلقاء عظمة الله بالقصد الثاني
والالتفات التبعي المتأتى من كل واحد ولا حرج لصاحب استعداد الخوض في لجة الشهود أن يخوض بل
ذلك منه له أتم تنبيه، ومن الأدعية المبينة لإخلاص عمله لله وتوجيه وجهه تلقاء الله وقصر الاستعانة في الله
ومن أفعال تعظيمية كالسجود والركوع يصير كل واحد عضد الآخر ومكمله والمنبه عليه فصارت
نافعة لعامة الناس وخاصتهم تريبا قويا لا أثر ليكون لكل إنسان منه ما استوجبه أصل استعداد الصلاة
معراج المؤمن معدة للتجليات الآخروية وهو قوله صلى الله عليه وسلم: «انكم سترون ربكم فان استطعتم
أن لا تغلبوا (٣) على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا» وسبب عظيم لمحبة الله ورحمته
وهو قوله صلى الله عليه وسلم: «أعنى على نفسك بكثرة السجود» وحكايته تعالى عن أهل النار (ولم نك من
المصلين) وإذا تمكنت (٤) من العبد اضمحل في نور الله وكفرت عنه خطاياها (إن الحسنات يذهبن السيئات) ولا
شيء أنفع من سوء المعرفة منها لا سيما إذا فعلت أفعالها وأقوالها على حضور القلب والنية الصالحة وإذا جعلت
رسما مشهورا نفعت من غوائل الرسوم نفعا بينا وصارت شعارا للمسلم يتميز به من الكافر وهو قوله صلى الله
عليه وسلم: «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر» ولا شيء في تمرين النفس على انقياد الطبيعة للعقل
وجريانها في حكمه مثل الصلاة والله أعلم *

(باب أسرار الزكاة)

اعلم ان المسكين اذا عنت له حاجة وتضرع إلى الله فيها بلسان المقال أو الحال قرع تضرعه باب الجود الإلهي
وربما تكون المصلحة أن يلهم في قلب زكي أن يقوم بسد خلته فاذا تغشاه الإلهام وانبعث وفقه رضى الله عنه
وأفاض عليه البركات من فوقه ومن تحته وعن يمينه وعن شماله وصار مرحوما، وسألني مسكين ذات يوم

(١) أى أفادتكم نعماء منى ثلاثة أعضاء منى، والمصراع الثانى من البيت بيان هذه الثلاثة اه (٢) أى من القيام بين يديه اه

(٣) معناه لا تصيروا مغلوبين بالاشتغال عن صلاة الصبح والعصر اه (٤) أى الصلاة اه

في حاجة اضطر فيها فأوجست في قلبي إلهاما يأمرني بالاعطاء ويبشرني بأجر جزيل في الدنيا والآخرة فأعطيت وشاهدت ما وعدني ربي حقاً وكان قرعه لباب الجود وانبعث الإلهام واختياره لقلبي يومئذ وظهور الأجر كل ذلك بمراي مني وربما كان الاتفاق في مصرف مظنة لرحمة إلهية كما إذا انعقدت داعية في الملائكة الأعلى فتويه ملة فصار كل من يتعرض لنشئة أمرها مرحوماً وتكون تمثيته يومئذ في الاتفاق كغزوة العسرة وكما إذا كان أيام قحط وتكون أمة هي أحوج خلق الله ويكون المراد إحياءهم، وبالجملة في أخذ المخبر الصادق من هذه المظنة كآية فيقول: «من تصدق على فقير - كذا وكذا أو في حالة كذا وكذا - تقبل منه عمله» فيسمعه سامع وينقاد لحكمه بشهادة قلبه فيجد ما وعد حقاً وربما تفتطنت النفس بأن حب الأموال والشح بها يضره ويصده عما هو بسبيله فيتأذى منه أشد تأذى ولا يتمكن من دفعه إلا بتمرين على إنفاق أحب ما عنده فصار الاتفاق في حقه أنفع شيء. ولولا الاتفاق لبقى الحب والشح كما هو فيتمثل في المعاد شجاعاً أقرع (١) أو تمثلت الأموال ضارة في حقه وهو حديث (٢) «بطح لها بقاع قرقر» وقوله تعالى (والذين يكتزون الذهب والفضة) الآية، وربما يكون العبد قد أحيط به وقضى بهلاكه في عالم المثال فاندفع إلى بذل أموال خطيرة وتضرع إلى الله هو وناس من المرحومين فمحا هلاكه بنفسه باهلاك ماله وهو قوله صلى الله عليه وسلم: «لا يرد القضاء إلا الدعاء ولا يزيد في العمر إلا البر» وربما يفرط من الإنسان أن يعمل عملاً شريراً بحكم غلبة الطبيعة ثم يطلع على قبحه فيندم ثم تغلب عليه الطبيعة فيعود له فتكون الحكمة في معالجة هذه النفس أن تلزم بذل مال خطير غرامة على ما فعل ليكون ذلك بين عليه فيردعه عما يقصد وربما يكون حسن الخلق والمحافظة على نظام العشرة منحصراً في إطعام طعام وإفشاء سلام وأنواع من المواساة فيؤمر بها وتعد صدقة، والزكاة تزيد في البركة وتطفى الغضب بحلها فيضامن الرحمة وتدفع عذاب الآخرة المترتب على الشح وتعطف دعوة الملائكة الأعلى المصلحين في الأرض على هذا العبد والله أعلم.

(باب اسرار الصوم)

اعلم أنه ربما يتفطن الإنسان من قبل إلهام الحق إياه أن سورة الطبيعة البهيمية تصده عما هو كماله من انقيادها للملكية فيبغضها ويطلب كسر سورتها فلا يجد ما يغيثه في ذلك كالجوع والعطش وترك الجماع والاختلاص على لسانه وقلبه وجوارحه ويتمسك بذلك علاجاً لمرضه النفساني ويتلوه من يأخذ ذلك عن المخبر الصادق بشهادة قلبه، ثم الذي يقوده الأنبياء شفقة عليه وهو لا يعلم فيجد فائدة ذلك في المعاد من انكسار السورة وربما يطلع الإنسان على أن انقياد الطبيعة للعقل كمال له وتكون طبيعته باغية تنقاد تارة ولا تنقاد أخرى فيحتاج إلى تمرين فيعتمد إلى عمل شاق كالصوم فيكلف طبيعته ويلتزم وفاء العهد ثم وثم حتى يحصل الأمر المطلوب وربما يفرط منه ذنب فيلتزم صوم أيام كثيرة يشق عليه بازاء الذنب ليردعه عن العود في مثله وربما نأقت نفسه إلى النساء ولا يجد طويلاً ويخاف العنت فيكسر شهوته بالصوم وهو قوله صلى الله عليه وسلم: «فإن الصوم له وجاء» (٣)، والصوم

(١) الشجاع الحية، والأقرع من المنعطف شعر رأسه المثرة الدم أو طول العمر اه (٢) أي ما قاله النبي ﷺ لم يؤد زكاة إبله وغنمه أنه يرم القيامة «بطح لها بقاع قرقر تطؤه إبله وغنمه» (بطح) بمعنى ألقى (ولها) أي لأجل إبله وغنمه (والقاع) الأرض السهلة (والقرقر) بمعنى فالصفة كاشفة أو نأ ليد اه (٣) الوجاء الاختصاص، وأول الحديث «ومن لم يستطع - أي التزوج - فعليه بالصوم فإنه له وجاء» والمعنى أن الصوم يقطع الشهوة ويدفع شر المنى اه

حسنة عظيمة يقوى الملكية ويضعف البهيمية ولا شيء مثله في صيقله وجه الروح وقهر الطبيعة ولذلك قال الله تعالى: «الصوم لي وأنا أجزي به» ويكفر الخطايا بقدر ما اضمحل من سورة البهيمية ويحصل به تشبه عظيم بالملائكة فيحبونه فيكون متعلق الحب أثر ضعف البهيمية وهو قوله صلى الله عليه وسلم: «لخلاف (١) فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك» وإذا جعل رسماً مشهوراً نفع عن غوائل الرسوم وإذا التزمته أمة من الأمم سلسلت شياطينها وفتحت أبواب جناتها وغالقت أبواب النيران عنها والانسان إذا سعى في قهر النفس وإزالة رذائلها كانت لعمله صورة تقديسية في المثال ومن أذكى العارفين من يتوجه إلى هذه الصورة فيمد من الغيب في علمه فيصل إلى الذات من قبل التنزيه والتقديس وهو معنى قوله صلى الله عليه وسلم: «الصوم لي وأنا أجزي به» (٢) وربما يتفطن الإنسان بضرر توغله في معاشه وامتلاء حواسه مما يدخل عليه من خارج وينفع التفرغ للعبادة في مسجد بني للصوات فلا يمكنه إقامة ذلك وما لا يدرك كله لا يترك كله فيختطف من أحواله فرصاً فيعتكف ما قدر له ويتلوه المتلقى له من المخبر الصادق بشهادة قلبه، والعامي المغلوب عليه كما مر وربما يصوم ولا يستطيع تنزيه لسانه إلا بالاعتكاف وربما يطلب ليلة القدر واللصوق بالملائكة فيها فلا يتمكن منها إلا بالاعتكاف وسيأتيك معنى ليلة القدر والله أعلم *

(باب أسرار الحج)

اعلم أن حقيقة الحج اجتماع جماعة عظيمة من الصالحين في زمان يذكر حال المنعم عليهم من الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين ومكان فيه آيات بينات قد قصده جماعات من أئمة الدين معظمين لشعائر الله متضرعين راغبين وراجين من الله الخير وتكفير الخطايا فإن المهم إذا اجتمعت بهذه الكيفية لا يتخلف عنها نزول الرحمة والمغفرة وهو قوله صلى الله عليه وسلم: «مارؤى الشيطان يوماً هو فيه أصغر ولا أذحر (٣) ولا أحقر ولا أغيظ منه في يوم عرفة» الحديث وأصل الحج موجود في كل أمة لا بد لهم من موضع يتبركون به لما رأوا من ظهور آيات الله فيه ومن قرابين وهيات مأثورة عن أسلافهم يلتزمون لها لأنها تذكر المقربين وما كانوا فيه، وأحق ما يحج إليه بيت الله فيه آيات بينات بنه إبراهيم صلوات الله عليه المشهود له بالخير على السنة أكثر الأمم بأمر الله ووحيه بعد أن كانت الأرض قفراً (٤) وعراً إذ ليس غيره محجوج إلا وفيه إشراك أو اختراع ما لا أصل له، ومن باب الطهارة النفسانية الحلول بموضع لم يزل الصالحون يعظمونه ويحلون فيه ويعمرونه بذكر الله فإن ذلك يجلب تعلق همم الملائكة السفلية ويعطف عليه دعوة الملائكة الأعلى الكلية لاهل الخير فإذا حل به غلب ألوانهم على نفسه وقد شاهدت ذلك رأى عين، ومن باب ذكر الله تعالى رؤية شعائر الله وتعظيمها فإنها إذا رؤيت ذكر الله كما يذكر الملزوم اللازم لا سيما عند التزام هيات تعظيمية وقيود وحدود تنبه النفس تنبيهها عظيماً وربما يشواق الإنسان إلى ربه أشد شوق فيحتاج إلى شيء يقضى به شوقه فلا يجده

(١) بالضم وقيل بالفتح تغير ريح الفم وهو مجاز عن قربته تعالى، وقيل يكون يوم القيامة كذلك كدم الشهيد اه
(٢) أي لم يشاركني فيه أحد بالتعبد به فإنا أتولى جزاءه بنفسى ولا أكله إلى أحد اه (٣) من الدحر وهو الدفع بعنف على الإهانة اه (٤) القفر أرض خالية لأماءها والوعر غليظ صعب الوصول إليه اه

الا الحج وكما ان الدولة تحتاج إلى عرضة (١) بعد كل مدة لتمييز الناصح من الغاش والمنقاد من المتمرد وليرتفع الصيت وتعلو الكلمة ويتعارف أهلها فيما بينهم فكذلك الملة تحتاج إلى حج لتمييز الموفق من المنافق وليظهر دخول الناس في دين الله أفواجا وليرى بعضهم بعضا فيستفيد كل واحد ما ليس عنده اذ الرغائب انما تكتسب بالمصاحبة والتراخي، واذا جعل الحج رسما مشهورا نفع عن غوائل الرسوم ولا شيء مثله في تذكر الحالة التي كان فيها أئمة الملة والتحضيض على الأخذ بها، ولما كان الحج سفرا شاسعا (٢) وعملا شاقا لا يتم إلا بجهد النفس كان مباشرته خالصا لله مكفرا للخطايا هادما لما قبله بمنزلة الايمان.

(باب أسرار أنواع من البر)

منها الذكر فانه لا حجاب بينه وبين الله تعالى ولا شيء مثله في علاج سوء المعرفة وهو قوله صلى الله عليه وسلم: «ألا انبئكم بأفضل أعمالكم» الحديث وفي كسب المحاضرة وطرده القسوة لاسيما لمن ضعفت بهيميته جبلة أو ضعفت كسبا ولمن سكت خياله جبلة عن خلط المجرد بأحكام المحسوس، ومنها الدعاء فانه يفتح بابا عظيما من المحاضرة ويجعل الانقياد التام والاحتياج الى رب العالمين في جميع الحالات بين عينيه وهو قوله صلى الله عليه وسلم: «الدعاء مخ العبادة» وهو شبح (٣) توجه النفس الى المبدأ بصفة الطلب الذي هو السر في جلب الشيء المدعو اليه، ومنها تلاوة القرآن واستماع المواعظ فمن ألقى السمع الى ذلك ومكنه من نفسه انصبغ بحالات الخوف والرجاء والخيرة في عظمة الله والاستغراق في منة الله وغيرها فينفع من خمود الطبيعة نفعا بينا ويعد النفس لفيضان ألوان ما فوقها ولذلك كان أنفع شيء في المعاد وهو قول الملك للمقبور: «لادريت (٤) ولا تليت» وفي القرآن تطهير للنفس عن الهيئات السفلية وهو قوله صلى الله عليه وسلم: «لكل شيء مصقلة ومصقلة القلب تلاوة القرآن» ومنها صلة الارحام والجيران وحسن المعاشرة مع أهل القرية وأهل الملة وفك العاني بالاعتاق فان ذلك يعد لنزول الرحمة والطمأنينة وبها يتم نظام الارتفاق الثاني والثالث وبها يستجلب دعوة الملائكة، ومنها الجهاد وذلك أن يلعن الحق انسانا فاسقا ضارا بالجمهور إعدامه أو وفق بالمصلحة السكينة من إبقائه فيظهر الالهام في قلب رجل زكى ليقتله فينبجس من قلبه غضب ليس له سبب طبيعي ويكون فانيا عن مراده باقيا بمراد الحق ويضمحل في رحمة الله ونوره وينتفع العباد والبلاد بذلك ويتلوه أن يقضى الله بزوال دولة مدن جائرة كفروا بالله وأساؤا السيرة فيؤمر نبي من أنبياء الله تعالى بمجاهدتهم فينفخ داعية الجهاد في قلوب قومه ليكون أمة أخرجت للناس وتشمله الرحمة الالهية ويتلوه أن يطلع قوم بالرأى السكلى على حسن أن يذبوا (٥) أنفسهم سبعة عن المظلومين وإقامة الحدود على العصاة والنهي عن المنكر فيكون سببا لأمن العباد وطمأنينتهم فيشكر الله له عمله، ومنها تقريرات ترد على البشر من غير اختياره كالمصائب والأمراض فتعد من باب البر لمعان، منها ان الرحمة اذا توجهت

(١) أى اختبار اهـ (٢) أى بعيدا اهـ (٣) كالبد (٤) أى ان كان المقبور كافرا او منافقا ويسأله الملك «ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول لا أدري فيقول الملك لادريت» أى لاعلمت ما هو الحق والصواب، ولا تليت أى لا اتبعت الناجين وقيل أصله لا تلوت يعنى ما علمت بنفسك بالنظر ولا اتبعت العلماء بقراءة الكتب اهـ (٥) أى يدفعوا، وقوله فيشكر الله له أى للقوم اهـ

الى عبد بصلاح عمله واقتضت الاسباب التضيق عليه انصرفت الى تكميل نفسه فكفرت خطاياها وكتبت له الحسنات كما اذا صد مجرى الماء نبع الماء من فوقه ومن تحته فينسب الاجراء الى ذلك التضيق والسر فيه المحافظة على الخير النسبي (١) ومنها ان المؤمن اذا اشتدت به المصائب ضاقت عليه الارض بما رحبت فأنكسر حجاب الطبع والرسم وانقلع قلبه إلا عن الله أما الكافر فلا يزال يتذكر الفاتت ويغوص في الحياة الدنيا حتى يصير أخبث منه قبل أن يصيبه ما أصاب، ومنها ان حامل السيئات المتحجرة انما هو البهيمية الغليظة الكشيقة فاذا مرض وضعف وتحلل منه أكثر مما يدخل فيه اضمحل كثير من الحامل وانتقص بقدر ذلك المحمول كما نرى أن المريض يزول شبقه وغضبه وتبدل أخلاقه وينسى كثيرا مما كان فيه كأنه ليس الذي كان، ومنها أن المؤمن الذي انفكت بهيميته عن ملكيته نوع انفكاك أخذ على سياسته في الدنيا غالبا وذلك حديث « نصيب المؤمن من العذاب نصب الدنيا (٢) » والله أعلم .

(باب طبقات الأثم)

إعلم أنه كما أن لانقياد البهيمية للملكية أعمالا هي أشباحه ومظانه والسنن الكاسبة له فكذلك للحالة المضادة للانقياد كل المضادة أعمال ومظان وكواسب وهي الآثام وهي على مراتب (المرتبة الاولى) أن ينسند سبيله إلى الكمال المطلوب رأسا ومعظم ذلك في نوعين ، أحدهما ما يرجع إلى المبدأ بأن لا يعرف ان له ربا أو يعرفه متصفا بصفات المخلوقين أو يعتقد في مخلوق شيئا من صفات الله ، فالثاني التشبيه ، والثالث الاشراك فان النفس لا تتقدس أبداً حتى تجعل مطمح بصيرتها التجرد الفوقاني والتدبير العام المحيط بالعالم فاذا فقدت هذه بقيت مشغولة بنفسها - أو بما هو مثل نفسها في التقيد - كل الشغل لا يقدر حجاب النكرة ولا موضع إبرة فهذا هو البلاء كل البلاء ، والثاني أن يعتقد أن ليس للنفس نشأة غير النشأة الجسدية وأنه ليس لها كمال آخر يجب عليها طلبه فان النفس إذا أضمرت ذلك لم يطمح (٣) بصرها إلى الكمال أصلاً . ولما كان القول باثبات كمال غير كمال الجسد لا يتأتى من الجمهور إلا بتصور حالة تباين الحالة الحاضرة من كل وجه ولولا ذلك لتعارض الكمال المعقول والمحسوس فما إلى المحسوس وأهمل المعقول نصب له مظنة هو الايمان بقاء الله واليوم الآخر وهو قوله تعالى : (فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون) وبالجمله فاذا كان الانسان في هذه المرتبة من الأثم فمات واضمحلت بهيميته وشحت (٤) عليه المنافرة من فوقه كل المنافرة بحيث لا يجد سبيلا إلى الخلاص أبداً (المرتبة الثانية) أن يتكبر بسكبره البهيمي على مانصبه الله تعالى لوصول الناس إلى كمالهم وقصدت الملاءة على بأقصى هممها إشاعة أمره وتنويه شأنه من الرسل والشرائع فينكرها ويعاديها فاذا مات انعطف جميع هممهم منافرة له ومؤذية إياه وأحاطت به خطيئته من حيث لم يجد للخروج منه سبيلا على أنه لا تنفك هذه الحالة من عدم الوصول إلى كماله أو الوصول الذي لا يعتد به وهذه المرتبة تخرج الانسان من ملة نبيه في جميع الشرائع (المرتبة الثالثة) ترك ما ينجيهِ وفعل ما انعقد في الذكر اللعن على فاعله من جهة كونه مظنة غالبا لفساد كبير في الارض وهيئة مضادة لتهذيب النفس، فمنها أن لا يفعل من للشرائع الكاسبة للانقياد أو المهية له ما يعتد به ويختلف باختلاف

النفوس إلا أن المنغصة في الهيئات البهيمية الضعيفة أحوج الناس إلى إكثارها والامم التي بهيمتها أشد وأغلظ أحوج الناس إلى إكثار الشاق منها ، ومنها أعمال سبعة تستجلب لعنا عظيما كالقتل ، ومنها أعمال شهوية ومنها مكاسب ضارة كالقمار والربا وفي كل شيء من هذه المذكورات ثلثة عظيمة في النفس من جهة الاقدام تل خلافا السنة اللازمة كما ذكرنا ولعن من الملائكة الأعلى يحيط به فمجموع الأمرين يحصل العذاب وهذه المرتبة أعظم الكبائر قد انعقد في حظيرة القدس تحريمها ولعن صاحبها ولم يزل الانبياء يترجمون ما انعقد هنالك وأكثرها مجمع عليه في الشرائع (المرتبة الرابعة) معصية الشرائع والمناهج المختلفة باختلاف الامم والاعصار وذلك أن الله تعالى إذا بعث نبيا إلى قوم ليخرجهم من الظلمات إلى النور وليقيم عوجهم وليسوسهم أحسن السياسة كان بعثه متضمنا لا يحجب مالا يمكن إقامة عوجهم وسياستهم إلا به فلكل مقصد مظنة أكثرية أو دائمة يجب أن يؤاخذوا عليها ويخاطبوا بها وللتوقيف قوانين توجب ورب أمر يكون داعيا إلى مفسدة أو مصلحة فيؤمرون حسبما يدعون إليه ، ومن ذلك ما هو مأمور أو منهي عنه حتما ، ومنه ما هو مأمور أو منهي عنه من غير عزم وأقل ذلك ما نزل به الوحي الظاهر وأكثره مالا يثبت إلا اجتهد النبي صلى الله عليه وسلم (المرتبة الخامسة) ما لم ينص عليه الشارع ولم ينعقد في الملائكة الأعلى حذره لكن توجه عبد إلى الله بمجامع همته فاعتراه شيء بظنه ممنوعا عنه أو مأمورا به من قبل قياس أو تخريج أو نحو ذلك كما يظهر للعوام تأثير بعض الادوية من قبل تجربة ناقصة أو دوران حكم الطبيب الحاذق على علة ولا يعلمون وجه التأثير ولا ينص عليه الطبيب فلا يخرج مثل هذا الانسان من العهدة حتى يأخذ بالاحتياط وإلا كان بينه وبين ربه حجاب فيما يظن فيؤاخذ بظنه ، وأصل المرضي في هذه المرتبة أن يهمل أمرها ولا يلتفت إليها غير أن في الوجود أنفسا يستوجبون ذلك فيوفر عليهم الجواد ما استوجبوه وفيها قوله تعالى : «انا عند ظن عبدي بي» وقوله تعالى في القرآن العظيم : (ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله) وقوله صلى الله عليه وسلم : « لا تشددوا فيشدد الله عليكم » وقوله صلى الله عليه وسلم : « الاثم ما حاك (١) في صدرك » ويلحق بهامعية حكم مجتهد فيه اذا كان مقلدا مجمعا تقليد من يرى ذلك والله أعلم .

(باب مفسد الآثام)

واعلم ان الكبيرة والصغيرة تطلقان باعتبارين ، احدهما بحسب حكمة البر والاثم ، وثانيهما بحسب الشرائع والمناهج المختصة بعصر دون عصر ، أما الكبيرة بحسب حكمة البر والاثم فهي ذنب يوجب العذاب في القبر وفي المحشر إيجابا قويا ويفسد الارتفاقات الصالحة إفسادا قويا ويكون من الفطرة على الطرف المخالف جدا ، والصغيرة ما كان مظنة لبعض ذلك أو مفضيا اليه في الأكثر أو يوجب بعض ذلك من وجه ولا يوجب من وجه لمن ينفق في سبيل الله واهله جياح في دفع رذيلة البخل ويفسد تدبير المنزل ، وأما بحسب الشرائع الخاصة فما نصت الشريعة على تحريمه أو أوعد الشارع عليه بالنار أو شرع عليه حدا أو سمي مرتكبه كافرا خارجا من الملة إبانة لقبحه وتغليظا لأمره فهو كبيرة وربما يكون شيء صغيرا بحسب حكمة البر والاثم كبيرة بحسب

(١) حاك أي اثر ورسخ يعني الاثم ما يؤثر في النفس الشريعة القدسية تأثيرا لا يتفك عن تفكير أي مالا يشرح له صدر من شرح الله صدره دون عموم المؤمنين .

الشريعة وذلك أن الملة الجاهلية ربما ارتكبت شيئاً حتى فشا الرسم به فيهم لا يخرج منهم إلا أن تنقطع قلوبهم ثم جاء الشرع ناهياً عنه فحصل منهم لجأج (١) ومكابرة وحصل من الشرع تغليظ وتهديد بحسب ذلك حتى صار ارتكابها كالمناوأة الشديدة للملة ولا يتأتى الاقدام على مثله إلا من كل مارد متمرّد لا يستحي من الله ولا من الناس فكتب كبيرة عند ذلك وبالجملة فنحن نؤخر الكلام في الكبائر بحسب الشريعة إلى القسم الثاني من هذا الكتاب لأن ذلك موضعه وننبه على مفسد الكبائر بحسب حكمة البر والاثم ههنا كما فعلنا في أنواع البر نحواً من ذلك * وقد اختلف الناس في الكبيرة إذا مات العاصي عليها ولم يتب هل يجوز أن يعفو الله عنه أولاً؟ وجاء كل فرقة بأدلة من الكتاب والسنة، وحل الاختلاف عندي أن أفعال الله تعالى على وجهين، منها الجارية على العادة المستمرة، ومنها الخارقة للعادة، والقضايا التي يتكلم بها الناس موجهة بجهتين، إحداهما في العادة، والثانية مطلقاً وشرط التناقض اتحاد الجهة مثل ما قرره المنطقيون في القضايا الموجهة وقد تحذف الجهة فيجب اتباع القرائن فقولنا كل من تناول السم مات معناه بحسب العادة المستمرة وقولنا ليس كل من تناول السم مات معناه بحسب خرق العادة فلا تناقض وإنما أن الله تعالى في الدنيا أفعالا خارقة وأفعالا جارية على العادة فكذلك في المعاد أفعال خارقة وعادية أما العادة المستمرة فأن يعاقب العاصي إذا مات من غير توبة زماناً طويلاً وقد تخرق العادة وكذلك حال حقوق العباد وأما خلود صاحب الكبيرة في العذاب فليس بصحيح وليس من حكمة الله أن يفعل بصاحب الكبيرة مثل ما يفعل بالكافر سواء والله أعلم *

﴿ باب في المعاصي التي هي فيما بينه وبين نفسه ﴾

إعلم أن القوة الملكية من الانسان قد اكتنفت بها القوة البهيمية من جوانبها وإنما مثلها في ذلك مثل طائر في قفص سعادته ان يخرج من هذا القفص فيلحق بحيزه الاصلى من الرياض الاريضة ويأكل الحبوب الغاذية والفواكه اللذيذة من هنالك ويدخل في زمرة أبناء نوعه فيبتهج بهم كل الابتهاج فأشد شقاوة الانسان أن يكون دهرىاً وحقيقة الدهرى أن يكون مناقضاً للعلوم الفطرية المخلوقة فيه وقد بينا أن له ميلاً في أصل فطرته إلى المبدىء جل جلاله وميلاً إلى تعظيمه أشد ما يجد من التعظيم وإليه الإشارة في قوله تبارك وتعالى : (وإذ أخذ ربك من بنى آدم) الآية وقوله صلى الله عليه وسلم : « كل مولود يولد على الفطرة » (٢) والتعظيم الاقصى لا يتمكن من نفسه إلا باعتقاد تصرف في بارئه بالقصد والاختيار ومجازاة وتكليف لهم وتشريع عليهم فمن أنكر أن له رباً تنتهى إليه سلسلة الوجود أو اعتقد بامعطلا لا يتصرف في العالم أو يتصرف بالاجاب من غير إرادة أو لا يجازى عبادته على ما يفعلون من خير وشر أو اعتقد ربه كمثل سائر الخلق أو أشرك عبادته في صفاته أو اعتقد أنه لا يكافهم بشريعة على لسان نبي فذلك الدهرى الذي لم يجمع في نفسه تعظيم ربه وليس لعله نفوذ إلى حيز القدس أصلاً وهو بمنزلة الطائر المحبوس في قفص من حديد ليس فيه منفذ ولا موضع إبرة فاذا مات شف الحجاب (٣) وبرزت الملكية بروزاً ما وتحرك الميل المفطور فيه وعاقته العوائق في علمه

(١) أى اصرار، وقوله المناوأة أى العداوة (٢) الفطرة الابتداء والاختراع، والفطرة الحالة يريد أنه يولد على نوع من الطبع المتهى لقبول الدين فلو ترك عليها لاستمر على لزومها، وقيل يريد كل مولود يولد على معرفة الله والاقرار به فلا تجد أحداً إلا وهو يقر بأن له صانعاً وإن سماه بغير اسمه أو عبد معه غيره اهـ (٣) من شف الثوب شفوفاً إذا بدا وراءه ولم يستره اهـ

بربه وفي الوصول إلى حيز القدس فهاجت في نفسه وحشة عظيمة ونظر إليها بارئها والملا الأعلى وهي في تلك الحالة الخبيثة فأحدثت فيها بنظر السخط والازدراء وترشحت في نفوس الملائكة الهامات السخط والعذاب فعذب في المثال (١) وفي الخارج أو كافراً تكبر على الشأن الذي تطور به الله تعالى كما قال: (كل يوم هو في شأن) وأعنى بالشأن أن للعالم أدواراً وأطواراً حسب الحكمة الإلهية فإذا جاء دورة أوحى الله تعالى في كل سماء أمرها ودبر الملا الأعلى بما يناسبها وكتب لهم شريعة ومصلحة *

ثم ألهم الملا الأعلى أن يجمعوا تمشية هذا الطور في العالم فيكون اجتماعهم سبباً لاهامات في قلوب البشر فهذا الشأن تلو المرتبة القديمة التي لا يشوبها حدوث وهذه أيضاً شارحة لبعض كمال الواجب جل مجده كالمرتبة الأولى فكل من باين هذا الشأن وأبغضه وصد عنه أتبع من الملا الأعلى بلعنة شديدة تحيط بنفسه فتحبط أعماله ويقسو قلبه ولا يستطيع أن يكسب من أعمال البر ما ينفعه وإلى الإشارة في قوله تعالى: (ان الذين يكتُمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون) وقوله (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم) فهذا كطير في قفص له منافذ إلا أنه قد غشى من فوقه بغاشية عظيمة وأدنى من ذلك (٢) أن يعتقد التوحيد والتعظيم على وجهيهما ولكن ترك الامتثال لما أمر به في حكمة البر والاثم ومثله كمثل رجل عرف الشجاعة ما هي وما فائدتها ولكن لا يستطيع الاتصاف بها لان حصول نفس الشجاعة غير حصول صورتها في النفس وهو أحسن حالا ممن لا يعرف معنى الشجاعة أيضاً ومثله كمثل طائر في قفص مشبك يرى الخصرة والفواكه وقد كان فيما هنالك أياماً ثم طراً عليه الحبس فيشتاق إلى ما هنالك ويضرب بجناحه ويدخل في المنافذ مناقيره ولا يجد طريقاً يخرج منه وهذه هي الكبائر بحسب حكمة البر والاثم، وأدنى من ذلك أن يفعل هذه الأوامر ولكن لا على شريعتها التي تجب لها فمثله كمثل طائر في قفص مكسور في الخروج منه حرج ولا يتصور الخروج إلا بخدش في جلده وتنف في ريشه فهو يستطيع أن يخرج من قفصه ولكن بجد وكد ولا يبتهج في أبناء نوعه كل الابتهاج ولا يتناول من فواكه الرياض كما ينبغي لما أصابه من الخدش والتنف وهؤلاء هم الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً وعوائقهم هذه هي الصغائر بحسب حكمة البر والاثم وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم في حديث الصراط إلى هذه الثلاثة حيث قال: «ساقط في النار ومخردل (٣) ناج ومخدوش ناج» والله أعلم *

﴿باب الآثام التي هي فيما بينه وبين الناس﴾

﴿اعلم﴾ أن أنواع مراتب الحيوان على شتى، منها ما يتكون تكون الديدان من الأرض ومن حقها أن تلهم من باريء الصور كيف تتغذى ولا تلهم كيف تدبر المنازل، ومنها ما يتناسل ويتعاون الذكر والأنثى منها في حضانة الأولاد ومن حقها في حكمة الله تعالى أن تلهم تدبير المنازل أيضاً فألهم الطير كيف يتغذى ويطير وألهم أيضاً كيف يسافد وكيف يتخذ عشاً وكيف تزق الفراخ والإنسان من بينها مدنى الطبع لا يتعيش

(١) أي عالمه، وقوله أو كافراً عطف على دهرياً أي أشد شقاوة الإنسان أن يكون دهرياً أو كافراً، وقوله تطور أي جعله طوراً لنفسه اه (٢) أي من أن يكون دهرياً أو كافراً (٣) المخردل هو المرمى المصروع، وقيل المقطع تقطعه كلاليب الصراط حتى يهوى في النار، والمخدوش الذي تأخذ الخطاطيف من لحمه وتسفعه النار ثم ينجز اه

إلا بتعاون من بنى نوعه فانه لا يتغذى الحشيش النابت بنفسه ولا بالفواكه نيئة ولا يتدفأ بالوبر الى غير ذلك مما شرحنا من قبل، ومن حقه أن يلهم تدبير المدن مع تدبير المنازل وآداب المعاش غير أن سائر الانواع تلهم عند الاحتياج إلهاما جبليا والانسان لم يلهم إلهاما جبليا إلا في حصة قليلة من علوم التعيش كص الثدي عند الارتضاع والسعال عند البحة (١) وفتح الجفون عند إرادة الرؤية ونحو ذلك وذلك لان خياله كان صناعا هماما فقوض له علوم تدبير المنازل وتدبير المدن الى الرسم وتقليد المؤيدين بالنور الملوكي فيما يوحى اليهم والى تجربة ورصد (٢) تدبير غيبي وروية بالاستقراء والقياس والبرهان ومثله في تلقي الامر الشائع الواجب فيضانه من باري الصور مع الاختلاف الناشئ من قبل استعداداتهم كمثل الواجهات التي يتلقاها في المنام فيفاض عليهم العلوم فوقانية من حيزها فتشبه عندهم بأشباح مناسبة فتختلف الصور لمعنى في المفاض عليه لا في المفيض. فمن العلوم الفائضة على أفراد الانسان جميعا عربهم وعجمهم حضرهم وبدوهم - وإن اختلف طريق التلقى منهم - حرمة خصال تدمر نظام مدنيهم وهي ثلاثة أصناف، منها أعمال شهوية، ومنها أعمال سبعية، ومنها أعمال ناشئة من سوء الأخذ في المعاملات، والاصل في ذلك أن الانسان متوارد أبناء نوعه في الشهوة والغيرة والحرص، والفحول (٣) منهم يشبهون الفحول من البهائم في الطموح الى الاناث وفي عدم تجويز المزاحمة على الموطوءة غير أن الفحول من البهائم تتحارب حتى يغلب أشدها بطشا واحدها نفسا وينهزم مادون ذلك أولا تشعر بالمزاحمة لعدم رؤية المسافدة (٤) والانسان المعنى يظن الظن كأنه يرى ويسمع وألهم أن التحارب لاجل ذلك مدمر لمدنيهم لانهم لا يتمدون إلا بتعاون من الرجال والفحول أدخل في المدن من الاناث فألهم إنشاء اختصاص كل واحد بزوجه وترك المزاحمة فيما اختص به أخوه وهذا أصل حرمة الزنا، ثم صورة الاختصاص بالزوجات أمر موكل الى الرسم والشرائع والفحول منهم أيضا يشبهون الفحول من البهائم من حيث أن سلامة فطرتهم لا تقتضي إلا الرغبة في الاناث دون الرجال كما أن البهائم لا تلتفت هذه اللفتة (٥) الا قبل الاناث غير أن رجالا غلبتهم الشهوة الفاسدة بمنزلة من يتلذذ بأكل الطين والحممة (٦) فانسلكوا من سلامة الفطرة يقضى هذا شهوته بالرجال وذلك صار مأبونا يستلذ ما لا يستلذه الطبع السليم فأعقب ذلك تغيراً لامزجتهم ومرضاً في نفوسهم وكان مع ذلك سبباً لاهمال النسل من حيث أنهم قضوا حاجتهم التي قيض الله تعالى عليهم منهم ليدراً (٧) بها نسلهم بغير طريقها فغيروا النظام الذي خلقهم الله تعالى عليه فصار قبح هذه الفعلة مندمجا في نفوسهم فلذلك يفعلها الفساق ولا يعترفون بها ولا نسبوا اليها لما توارثوا حياء إلا أن يكون انسلاخا قويا فيجهررون ولا يستحيون فلا يتراخى أن يعاقبوا كما كان في زمن سيدنا لوط عليه السلام، وهذا أصل حرمة اللواط ومعاش بنى آدم وتدبير منازلهم وسياسة مدنيهم لا يتم إلا بعقل وتميز وإدمان الخمر (٨) ترجع الى نظامهم بخرم قوى ويورث محاربات وضغائن غير أن أنفسا غلبت شهوتهم الرديئة على عقولهم أقبلوا على هذه الرذيلة وأفسدوا عليهم اتفاقاتهم فلو لم يجر الرسم بمنع عن فعلتهم تلك لهلك الناس، وهذا أصل حرمة

(١) البحة - بضم الباء وتشديد الحاء المهملة - خشونة الصوت وغلظه اه (٢) انتظار اه (٣) أى الذكور، والطموح الميل اه (٤) أى الجماع (٥) أى النظرة (٦) أى الفحمة، وقوله هذا أى أحدهم، وقوله ذلك أى الآخر، وقوله مأبونا أى مغتلبا اه (٧) أى يخلق (٨) إدمان الخمر شره دائما، وقوله بخرم أى قطع ونقص اه

(١١٢ - ج ١ حجة الله البالغة)

إدمان الخمر ، وأما حرمة قليلها وكثيرها فلا يبين إلا في مبحث الشرائع والفحول منهم يشبهون الفحول من البهائم في الغضب على من يصد عن مطلوب ويجري عليه مؤلما في نفسه أو في بدنه لكن الفحول من البهائم لا تتوجه إلا إلى مطلوب محسوس أو متوهم والانسان يطلب المتوهم والمعقول وحرصه أشد من حرص البهائم وكانت البهائم تتقاتل حتى ينهزم واحد ثم ينسى الحقد إلا ما كان من مثل الفحول من الابل والبقر والخيول والانسان يحقد ولا ينسى فلو فتح فيهم باب التقاتل لفست مدينتهم واختلت معاشهم فألهموا حرمة القتل والضرب إلا لمصلحة عظيمة من قصاص ونحوه وهاج من الحقد في صدور بعضهم مثل ماهاج في صدور الاولين وخافوا القصاص فأنحدروا (١) الى أن يدسوا السم (٢) في الطعام أو يقتلوا بسحر ، وهذا حال بمنزلة حال القتل بل أشد منه فان القتل ظاهر يمكن التخلص منه وهذه لا يمكن التخلص منها وأنحدروا أيضا الى القذف (٣) والمشى به الى ذى سلطان ليقتل والمعاش التي جعلها الله تعالى لعباده انما هي الالتقاط من الارض المباحة والرعى والزراعة والصناعة والتجارة وسياسة المدينة والملة وكل كسب تجاوز عنها فانه لا مدخل له في تمدنهم وأنحدروا بعضهم الى أكساب ضارة كالسرقة والغصب وهذه كلها مدمرة للمدينة فألهم أنها محرمة واجتمع بنو آدم كلهم على ذلك وإن باشرها العصاة منهم في غلواء (٤) نفوسهم وسعى الملوك العادلة في إبطالها ومحققا واستشعر بعضهم سعى الملوك في إبطالها فأنحدروا الى الدعاوى الكاذبة واليمين الغموس (٥) وشهادة الزور وتطفيف الكيل والوزن والقمار والربا أضعافا مضاعفة وحكمها حكم تلك الاكساب الضارة وأخذ العشر النكح بمنزلة قطع الطريق بل أقبح ، وبالجملة فلهذه الاسباب دخلت في نفوس بني آدم حرمة هذه الاشياء وقام أقواهم عقلا وأسدهم رأيا وأعلمهم بالمصلحة الكلية يمنع عن ذلك طبقة بعد طبقة حتى صار رسما فاشيا ودخلت في البديهيات الاولى كسائر المشهورات الذائعة فعند ذلك رجع الى الملاء الاعلى لون منهم حسبا كان أنحدروا اليهم من الالهام أن هذه محرمة وأنها ضارة أشد الضرر فصاروا كلما فعل واحد من بني آدم شيئا من تلك الافعال تأذوا منه مثل ما يضع احدنا رجله على الجرة فتنتقل إلى القوى الادراكية في تلك اللمحة وتنادى منه ثم صار لتأذيتها خطوط شعاعية تحيط بهذا العاصي وتدخل في قلوب المستعدين من الملائكة وغيرهم أن يؤذوه اذا امكن ايذاؤه ورخصت فيه مصلحته المكتوبة عليه المسماة في الشرع بالهام الملائكة مارزقه وما أجله وما عمره وشقى أو سعيد وفي النجوم بأحكام الطالع حتى اذا مات وهدأت (٦) عنه هذه المصلحة فرغ له بارئته كما قال: (سنفرغ لكم أيه الثقلان) وجزاءه الجزاء الاو في والله أعلم .

﴿ المبحث السادس مبحث السياسات المالية ﴾

﴿ باب الحاجة الى هداة السبل ومقيمي الملل ﴾

قال الله تعالى: (إنما أنت منذر ولكل قوم هاد) واعلم أن السنن الكاسية لا نقياد البهيمية للملكية والآثام المباينة لها وان كان العقل السليم يدل عليها ويدرك فوائدها ومضار تلك لكن الناس في غفلة منها لانه تغلب عليهم الحجب فيفسد وجدانهم كمثلي الصفر اوى فلا يتصورون الحالة المقصودة ولا نفعها ولا الحالة المخوفة

(١) أي مالوا (٢) من الدسيس وهو كتمان المسكر والحيلة والمعنى يجعلوا السم في الطعام خفاء اه (٣) أي

التهمة اه (٤) أي غلوا اه (٥) أي التي تغمس صاحبها أي تغرقه في الاثم اه (٦) أي سكنت اه

ولا ضررها فيتحتاجون إلى عالم بالسنة الرشيدة يسوسهم ويأمر بها ويحض عليها وينكر على مخالفتها، ومنهم ذو رأي فاسد لا يقصد بالذات إلا لاضداد الطريقة المطلوبة فيضل ويضل فلا يستقيم امر القوم إلا بكبته وإخماله، ومنهم ذو رأي راشد في الجملة لا يدرك إلا حصة ناقصة من الاهتداء فيحفظ شيئاً ويغيب عنه أشياء أو يظن في نفسه أنه الكامل الذي لا يحتاج إلى مكمل فيحتاج إلى من ينبهه على جهله، وبالجملة فالناس يحتاجون لا محالة إلى عالم حق العلم تؤمن فلتاته، ولما كانت المدينة مع استبداد (١) العقل المعاشي الذي يوجد عند كثير من الناس بادراك النظام المصالح لها تضطر إلى رجل عارف بالمصلحة على وجهها يقوم بسياستها فما ظنك بأمة عظيمة من الأمم تجمع استعدادات مختلفة جداً في طريقة لا يقبلها بشهادة القلوب إلا الأذكاء أهل الفطرة الصافية أو التجريد البالغ ولا يهتدي إليها إلا الذين هم في أعلى درجة من أصناف النفوس - وقليل ما هم - وكذلك أيضاً لما كانت الحداثة والتجارة وأمثالهما لا تتأتى من جمهور الناس إلا بسنن مأثورة عن أسلافهم وأساتذتهم يهدونهم إليها ويحضونهم عليها فما ظنك بهذه المطالب الشريفة التي لا يهتدي إليها إلا الموفقون ولا يرغب فيها إلا المخلصون * ثم لا بد لهذا العالم أن يثبت على رؤوس الأشهاد أنه عالم بالسنة الرشيدة وأنه معصوم فيما يقوله من الخطأ والاضلال ومن أن يدرك حصة من الإصلاح ويترك حصة أخرى لا بد منها وذلك ينحصر في وجهين، إما أن يكون راوياً عن رجل قبله انقطع عنده الكلام لكونهم مجتمعين على اعتقاد كماله وعصمته وكون الرواية محفوظة عندهم فيمكن له أن يؤاخذهم بما اعتقدوه ويحتج عليهم ويفهمهم أو يكون هو الذي انقطع عنده الكلام وأجمعوا عليه، وبالجملة فلا بد للناس من رجل معصوم يقع عليه الإجماع يكون فيهم أو تكون الرواية محفوظة عندهم وعلمه بحالة الانقياد وتوليده هذه السنن منها ووجوه منافعتها وعلمه بالآثام ووجوه مضارها لا يمكن أن يحصل بالبرهان ولا بالعقل المتصرف في المعاش ولا بالحس بل هي أمور لا يكشف عن حقيقتها إلا الوجدان فكما أن الجوع والعطش وتأثير الدواء المسخن أو المبرد لا يدرك إلا بالوجدان فكذلك معرفة ملائمة الشيء للروح ومباينته لها لا طريق إليها إلا الذوق السليم وكونه مأموناً عن الخطأ في نفسه إنما يكون بخاق الله علماً ضرورياً فيه بأن جميع ما أدرك وعلم حق مطابق للواقع بمنزلة ما يقع للمبصر عند الابصار فانه إذا أبصر شيئاً لا يحتمل عنده أن تكون عينه مؤفة وأن يكون الابصار على خلاف الواقع وبمنزلة العلم بالموضوعات اللغوية فإن العربي مثلاً لا يشك أن الماء موضوع لهذا العنصر ولفظ الأرض لذلك مع أنه لم يقم له على ذلك برهان وليس بينهما ملازمة عقلية ومع ذلك فانه يخلق فيه علم ضروري وإنما يحصل ذلك في الأكثر بأن يكون لنفسه ملكة جبلية يكون بها تلقى العلم الوجداني على سنن الصواب دائماً وإن يتتابع الوجدان ويتكرر تجربة صدق وجدانه وعند الناس (٢) إنما يكون بان يصحح عندهم بأدلة كثيرة برهانية أو خطائية أن ما يدعوا إليه حق وأن سيرته صالحة يبعد منها الكذب وأن يروا منه آثار القرب كالمعجزات واستجابة الدعوات حتى لا يشكوا أن له في التدبير العالي منزلة عظيمة وأن نفسه من النفوس القدسية اللاحقة بالملائكة وأن مثله حقيق بأن لا يكذب على الله ولا يباشر معصية، ثم بعد ذلك تحدث أمور تؤلفهم تأليفاً عظيماً وتصيره عندهم أحب من أموالهم وأولادهم والماء الزلال عند العطشان فهذا كله لا يتحقق انصباً من الأمم بالحالة المقصودة بدون ذلك لم يزل المشغولون بنظائر

(١) أي استقلاله أي كونه مأموناً من الخطأ عند الناس يكون إذا صح عندهم أن ما يدعوا إليه حق الخ

هذه العبادات يسندون امرهم إلى من يعتقدون فيه هذه الامور أصابوا أم أخطأوا والله أعلم *

((باب حقيقة النبوة وخواصها))

اعلم أن أعلى طبقات الناس المفهمون وهم ناس أهل اصطلاح ملاكيتهم في غاية العلو يمكن لهم أن ينبعثوا إلى إقامة نظام مطلوب بداعية حقانية و يترشح عليهم من الملائكة الاعلى علوم وأحوال إلهية (١) ومن سيرة المفهم أن يكون معتدل المزاج سوى الخلق والخلق ليس فيه خباية (٢) مفرطة بحسب الآراء الجزئية ولا ذكاء مفرط لا يجذبه من الكلى إلى الجزئى ومن الروح إلى الشبح سبيلا ولا غباوة مفرطة لا يتخلص بها من الجزئى إلى الكلى ومن الشبح إلى الروح ويكون ألزم الناس بالسنة الراشدة ذا سمت حسن في عباداته ذاعدالة في معاملته مع الناس محبا للتدبير الكلى راغبا في النفع العام لا يؤذى أحدا إلا بالعرض بأن يتوقف النفع العام عليه أو يلازمه لا يزال مائلا إلى عالم الغيب يحس أثر ميله في كلامه ووجهه وشأنه كله يرى أنه مؤيد من الغيب يفتح له بأدنى رياضة ما لا يفتح لغيره من القرب والسكينة ((والمفهمون)) على أصناف كثيرة واستعدادات مختلفة فمن كان أكثر حاله ان يتلقى من الحق علوم تهذيب النفس بالعبادات فهو الكامل، ومن كان أكثر حاله تلقى الاخلاق الفاضلة وعلوم تدبير المنزل ونحو ذلك فهو الحكيم، ومن كان أكثر حاله تلقى السياسات الكلية ثم وفق لإقامة العدل في الناس وذب الجور عنهم يسمى خليفة، ومن أملت به الملائكة الاعلى فعلته وخاطبته وتراءت له وظهرت أنواع من كراماته يسمى بالمؤيد بروح القدس، ومن جعل منهم في لسانه وقلبه نور فنفع الناس بصحبته وموعظته وانتقل منه إلى حواريين من أصحابه سـكينة ونور فبلغوا بواسطته مبالغ الكمال وكان حثيثا (٣) على هدايتهم يسمى هاديا مزيكا، ومن كان أكثر علمه معرفة قواعد الملة ومصالحها وكان حثيثا على إقامة المـنـدـرس منها يسمى إماما ومن نفث في قلبه أن يخبرهم بالدهية المقدرة عليهم في الدنيا أو تفتن باعن الحق قوما فأخبرهم بذلك أو جرد من نفسه في بعض أوقاته فعرف ماسيكون في القبر والحشر فأخبرهم بتلك الاخبار يسمى منذرا، وإذا اقتضت الحكمة الالهية أن يبعث إلى الخلق واحدا من المفهمين فيجعله سببا لخروج الناس من الظلمات إلى النار وفرض الله على عباده أن يسلموا وجوههم وقلوبهم له وتأكد في الملائكة الاعلى الرضا عن انقاده وانضم اليه واللعن على من خالفه وناواه (٤) فأخبر الناس بذلك وألزمهم طاعته فهو النبي، وأعظم الانبياء شأننا من له نوع آخر من البعثة أيضا وذلك أن يكون مراد الله تعالى فيه أن يكون سببا لخروج الناس من الظلمات إلى النور وأن يكون قومه خير أمة أخرجت للناس فيكون بعثه يتناول بعثا آخر *

وإلى الاول وقعت الإشارة في قوله تعالى: (هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم) الآية وإلى الثاني في قوله تعالى: (كنتم خير أمة أخرجت للناس) وقوله صلى الله عليه وسلم: «فانما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين» ونبينا صلى الله عليه وسلم استوعب جميع فنون المفهمين واستوجب أتم البعثين وكان من الانبياء قبله من يدركنا أو فنين ونحو ذلك ((واعلم)) أن اقتضاء الحكمة الالهية لبعث الرسل لا يكون إلا لانحصار الخير النسبي للمعتبر في التدبير في البعث ولا يعلم حقيقة ذلك إلا اعلام الغيوب إلا أننا نعلم قطعا أن هنالك أسبابا لا يتخلف عنها البعث

(١) كالشوق والتجريد أو غيرهما اهـ (٢) أي اضطراب وعدم استقلال اهـ (٣) صفة من الحث أي حرصا سرعاه

(٤) عاداه اهـ

البتة وافترض الطاعة إنما يكون بأن يعلم الله تعالى صلاح أمة من الامم أن يطيعوا الله ويعبدوه ويكونوا بحيث لا تستوجب نفوسهم التلقى من الله ويكون صلاح أمرهم محصوراً يؤمئذ في اتباع النبي فيقضى الله في حظيرة القدس بوجوب اتباعه ويتقرر هنالك الامر وذلك إما بأن يكون الوقت وقت ابتداء ظهور دولة وكبت الدول بها فيبعث الله تعالى من يقيم دين أصحاب تلك الدولة كبعث سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أو يقدر الله تعالى بقاء قوم واصطفاهم على البشر فيبعث من يقوم عوهم ويعلمهم الكتاب كبعث سيدنا موسى عليه السلام أو يكون نظم ما قضى لقوم من استمرار دولة أو دين يقتضى بعث مجدد كداود وسليمان وجمع من أنبياء بنى اسرائيل عليهم السلام وهؤلاء الانبياء قد قضى الله بنصرتهم على أعدائهم كما قال: (ولقد سبقنا كامتنا لعبادنا المرسلين انهم لهم المنصورون وأن جندنا لهم الغالبون) ووراء هؤلاء قوم يبعثون لاتمام الحجة والله أعلم. وإذا بعث النبي وجب على المبعوث اليهم أن يتبعوه وإن كانوا على سنة راشدة لأن مناواة هذا المنوه شأنه يورث لعنات الملائكة الاعلى وإجماعاً على خذلانه فينسب سبيل تقربهم من الله ولا يفيد كدهم شيئاً وإذا ماتوا أحاطت اللعنة بنفوسهم على أن هذه صورة مفروضة غير واقعة ولك عبرة باليهود كانوا أخرج خلق الله إلى بعث الرسول لغلوهم في دينهم وتحريفاتهم في كتابهم وثبوت حجة الله على عباده ببعثه الرسل إنما هو بأن أكثر الناس خلقوا بحيث لا يمكن لهم تلقي ما لهم وما عليهم بلا واسطة بل استعدادهم إما ضعيف يتقوى باخبار الرسل أو هنالك مفسد لا تندفع إلا بالقسر على رغم أنفسهم وكانوا بحيث يؤخذون في الدنيا والآخرة فأوجب لطف الله عند اجتماع بعض الاسباب العلوية والسفلية أن يوحى إلى أذى القوم أن يهديهم إلى الحق ويدعوهم إلى الصراط المستقيم فمثله في ذلك كمثله سيد مرض عبيده فأمر بعض خواصه أن يكلفهم شرب دواء أشاؤا أم أبوا فلو أنه أكرههم على ذلك كان حقاً ولكن تمام اللطف يقتضى أن يعلمهم أولاً أنهم مرضى وأن الدواء نافع وأن يعمل أموراً خارقة تطمئن نفوسهم بها على أنه صادق فيما قال وان يشوب الدواء بحلو فحينئذ يفعلون ما يؤمرون به على بصيرة منه وبرغبة فيه فليست المعجزات ولا استجابة الدعوات ونحو ذلك إلا أموراً خارجة عن أصل النبوة لازمة لها في الاكثر وظهور معظم المعجزات يكون من أسباب ثلاثة، أحدها كونه من المفهمين فان ذلك يوجب انكشاف بعض الحوادث عليه ويكون سبباً لاستجابة الدعوات وظهور البركات فيما يبرك (١) عليه. والبركة إما زيادة نفع الشيء بأن يخيل اليهم مثلاً أن الجيش كثير فيفشلوا أو بصرف الطبيعة الغذاء إلى خلط صالح فيكون كمن تناول أضعاف ذلك الغذاء أو زيادة عين الشيء بأن تتقلب المادة الهوائية بتلك الصورة لحلول قوة مثالية ونحو ذلك من الاسباب التي يعسر إحصاؤها، والثاني أن تكون الملائكة الاعلى مجمعة إلى تمشية أمره فيوجب ذلك الهامات وإحالات وتقريبات لم تكن تعهد من قبل فينصر الأحياء ويخذل الأعداء ويظهر أمر الله ولو كره الكافرون، والثالث أن تحدث حوادث لاسبابها الخارجية من مجازاة العصاة وحدوث الامور العظام في الجو فيجعلها الله تعالى معجزة له بوجه من الوجوه إما لتقدم أخبارها أو ترتب المجازاة على مخالفة أمره أو كونها موافقة بما أخبر من سنة المجازاة أو أمر مما يشبه ذلك والعصمة لها أسباب ثلاثة، أن يخلق الانسان نقياً عن الشهوات الرذيلة سمحاً لاسيما فيما يرجع إلى محافظة الحدود الشرعية وأن يوحى اليه حسن

الحسن وقبح القبيح ومالها وأن يحول الله بين ما يريد من الشهوات الرذيلة (واعلم) أن من سيرة الانبياء عليهم السلام أن لا يأمرُوا بالتفكر في ذات الله تعالى وصفاته فان ذلك لا يستطيعه جمهور الناس وهو قوله صلى الله عليه السلام: «تفكروا في خلق الله ولا تتفكروا في الله» وقوله في آية (وان إلى ربك المنتهى) قال: «لا فكرة في الرب» وإنما يأمرُون بالتفكر في نعم الله تعالى وعظيم قدرته، ومن سيرتهم أن لا يكلموا الناس إلا على قدر عقولهم التي خلقوا عليها وعلومهم التي هي حاصلة عندهم بأصل الخلقة وذلك لان نوع الانسان حيثما وجد فله في أصل الخلقة حد من الادراك زائد على إدراك سائر الحيوانات إلا إذا عصت المادة جدا وله علوم لا يخرج اليها إلا بخرق العادة المستمرة كالنفوس القدسية من الانبياء والاولياء أو برياضات شاقة تهيب نفسه لادراك ما لم يكن عنده بحساب أو بممارسة قواعد الحكمة والكلام وأصول الفقه ونحوها مدة طويلة فالانبياء لم يخاطبوا الناس إلا على منهاج إدراكهم الساذج المودع فيهم بأصل الخلقة ولم يلتفتوا الى ما يكون نادر الاسباب قلما يتفق وجودها فلذلك لم يكلفوا الناس أن يعرفوا ربهم بالتجليات والمشاهدات ولا بالبراهين والقياسات ولا أن يعرفوه منزها عن جميع الجهات فان ذلك كالممتنع بالاضافة إلى من لم يشتغل بالرياضات ولم يخالط المعقوليين مدة طويلة ولم يرشدوهم الى طرق الاستنباط والاستدلالات ووجوه الاستحسانات والفرق بين الاشباه والنظائر بمقدمات دقيقة المأخذ وسائر ما يتناول (١) به أصحاب الرأي على أهل الحديث، ومن سيرتهم أن لا يشتغلوا بما لا يتعلق بهتذيب النفس وسياسة الامة كبيان أسباب حوادث الجو من المطار والكسوف والهالة وعجائب النبات والحيوان ومقادير سير الشمس والقمر وأسباب الحوادث اليومية وقصص الانبياء والملوك والبلدان ونحوها اللهم إلا كلمات يسيرة ألفها أسماعهم وقبلتها عقولهم يؤتى بها في التذكير بآلاء الله والتذكير بأيام الله على سبيل الاستطراد بكلام إجمالي يسامح في مثله بايراد الاستعارات وبالمجازاة ولهذا الاصل لما سألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن لمية نقصان القمر وزيادته أعرض الله تعالى عن ذلك الى بيان فوائد الشهور فقال: (يسئلونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج) وترى كثيراً من الناس فسد ذوقهم بسبب الألفة بهذه الفنون أو غيرها من الاسباب فحملوا كلام الرسل على غير محمله والله أعلم.

(باب بيان أن أصل الدين واحد والشرائع والمناهج مختلفة)

قال الله تعالى: (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) قال مجاهد: أوصيناك يا محمد وإياهم ديناً واحداً، وقال تعالى (وأن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون) يعنى ملة الاسلام ملتكم فتقطعوا يعنى المشركين واليهود والنصارى وقال تعالى: (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا) قال ابن عباس: سيلا وسنة وقال تعالى: (لكل أمة جعلنا منسكاهم فاسكوه) يعنى شريعة هم عاملون بها *

(إعلم) أن أصل الدين واحد اتفق عليه الانبياء عليهم السلام وإنما الاختلاف في الشرائع والمناهج، تفصيل ذلك انه أجمع الانبياء عليهم السلام على توحيد الله تعالى عبادة واستعانة وتنزيهه عما لا يليق بجنابه وتحريم الاحاد في أسمائه وأن حق الله على عباده ان يعظموه تعظيماً لا يشوبه تفريط وأن يسلموا وجوههم وقلوبهم

اليه وأن يتقربوا بشعائر الله الى الله وأنه قدر جميع الحوادث قبل أن يخلقها وان لله ملائكة لا يعصونه فيما أمر ويفعلون ما يؤمرون وأنه ينزل الكتاب على من يشاء من عباده ويفرض طاعته على الناس وأن القيامة حق والبعث بعد الموت حق والجنة حق والنار حق وكذلك أجمعوا على أنواع البر من الطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج والتقرب الى الله بنوافل الطاعات من الدعاء والذكر وتلاوة الكتاب المنزل من الله وكذلك أجمعوا على النكاح وتحريم السفاح (١) وإقامة العدل بين الناس وتحريم المظالم وإقامة الحدود على أهل المعاصي والجهاد مع أعداء الله والاجتهاد في إشاعة أمر الله ودينه فهذا أصل الدين ولذلك لم يبحث القرآن العظيم عن ملية هذه الاشياء إلا ماشاء الله فانها كانت مسلمة فيمن نزل القرآن على ألسنتهم وانما الاختلاف في صور هذه الامور وأشباحها فكان في شريعة موسى عليه السلام الاستقبال في الصلاة إلى بيت المقدس وفي شريعة نبينا صلى الله عليه وسلم إلى الكعبة وكان في شريعة موسى عليه السلام الرجم فقط وجاءت شريعتنا بالرجم للمحصن والجلد لغيره وكان في شريعة موسى عليه السلام القصاص فقط وجاءت شريعتنا بالقصاص والدية جميعا وعلى ذلك اختلافهم في اوقات الطاعات وآدابها وأركانها وبالجملة فلا وضاع الخاصة التي مهدت وبنيت بها أنواع البر والارتفاقات هي الشرعة والمنهاج، واعلم أن الطاعات التي أمر الله تعالى بها في جميع الاديان إنما هي أعمال تنبعث من الهيئات النفسانية التي هي في المعاد للنفوس أو عليها وتمد فيها وتشرحها وهي أشباحها وتماثيلها ولا جرم ان ميزانها وملاك أمرها تلك الهيئات فمن لم يعرفها لم يكن من الاعمال على بصيرة فربما اكتفى بما لا يكفي وربما صلى بلا قراءة ولا دعاء فلا يفيد فلا بد من سياسة عارف حق المعرفة يضبط الخفي المشتبه بأمارات واضحة ويجعلها أمراً محسوساً يميزه الاذني والاقاصي ولا يشتبه عليهم ليطلبوا به ويؤاخذوا عليه على حجة من الله واستطاعة منهم* والآثام ربما تشتبه بما ليس باثم كقول المشركين: (إنما البيع مثل الربا) إما لقصور العلم أو لغرض ذنبوى يفسد بصيرته فمست الحاجة إلى أمارات يتميز بها الاثم من غيره ولولم يؤقت الاوقات لاستكثر بعضهم القليل من الصلاة والصوم فلم يغن ذلك عنهم شيئاً ولم تمكن المعاقبة على تسليهم (٢) واحتياهم ولولم يعين لهم الاركان والشروط لخطبوا خبط عشواء (٣) ولولا الحدود لم ينزجر أهل الطغيان، وبالجملة فجمهور الناس لا يتم تكليفهم إلا بأوقات وأركان وشروط وعقوبات وأحكام كلية ونحو ذلك وإذا شئت ان تعرف للتشريع ميزانا فتأمل حال الطبيب الحاذق عند ما يجتهد في سياسة المرضى ويخبرهم بما لا يعرفون ويكلفهم بما لا يحيطون بدقائقه علما كيف يعتمد إلى مظنات محسوسة فيقيمها مقام الامور الخفية كما يقيم حمرة البشرة وخروج الدم من اللثة مقام غلبة الدم وكيف ينظر الى قوة المرض وسن المريض وبلده وفصله وإلى قوة الدواء وجميع ما هناك فيجدس (٤) بمقدار خاص من الدواء يلائم الحال فيكلفه به وربما اتخذ قاعدة كلية من قبل إقامة المظنة مقام سبب المرض وإقامة هذا القدر الذي تفتن به من الدواء مقام إزالة المادة المؤذية أو تغيير هيئتها الفاسدة فيقول مثلاً من احمرت بشرته ودميت لثته وجب عليه بحكم الطب أن يحتسى (٥) على الريق شراب العناب أو ماء العسل ومن لم يفعل ذلك فانه على شرف الهلاك ويقول من تناول من معجون كذا وكذا وزن مثقال زال عنه مرض كذا وأمن

(١) أي الزنا اه (٢) أي يبرون أي دن اه (٣) خبط دست وباردن ستور، والعشواء الناقة التي في بصرها ضعف، والمعنى لكانوا على غير بصيرة اه (٤) أي يظن اه (٥) أي يشرب اذا اصبح من غير أن يأكل شيئاً، يعني بباشامد ناشتافاشسته اه

من مرض كذا فيؤثر عنه تلك الكلية ويعمل بها فيجعل الله في ذلك نفعا كثيرا، وتأمل حال الملك الحكيم الناظر في إصلاح المدينة وسياسة الجيوش كيف ينظر إلى الأراضى وريعتها وإلى الزراع وموتهم وإلى الحراس وكفايتهم فيضرب العشر والخراج حسب ذلك وكيف يقيم هيئات محسوسة وقرائن مقام الاخلاق والملكات التي يجب وجودها في الاعوان فيتخذهم على ذلك القانون وكيف ينظر إلى الحاجات التي لا بد من كفايتها وإلى الاعوان وكثرتهم فيوزعهم توزعا يكتفي المقصود ولا يضيق عليهم، وتأمل حال معلم الصبيان بالنسبة إلى صبيانهم والسيد بالنسبة إلى غلامانه يريد هذا تعليمهم وذلك كفاية الحاجة المقصودة بأيديهم وهم لا يعرفون حقيقة المصلحة ولا يرغبون في إقامتها ويتسللون ويعتذرون ويحتالون كيف يعرفان مظنة الثلثة قبل وقوعها فيسدان الخلل ولا يخاطبهم إلا بطريقة ليلا نهارها ونهارها ليلا لا يجدون منها حيلة ولا يتمكنون من التسال وهي تفضى إلى المقصود من حيث يعلمون أو لا يعلمون، وبالجملة فكل من تولى لإصلاح جم غفير مختلفة استعدادهم وليسوا من الأمر على بصيرة ولا فيه على رغبة يضطر إلى تقدير وتوقيت وتعيين أوضاع وهيئات يجعلها العمدة في المطالبة والمواخظة.

﴿واعلم﴾ أن الله تعالى لما أراد ببعثة الرسل أن يخرج الناس من الظلمات إلى النور فأوحى إليهم أمره لذلك وألقى عليهم نوره ونفث فيهم الرغبة في إصلاح العالم وكان اهتداء القوم يومئذ لا يتحقق إلا بأمر ومقدمات وجب في حكمة الله أن يلتوى (١) جميع ذلك في إرادة بعثتهم، وأن يكون افتراض طاعة الرسل وانقيادهم منفسحا إلى افتراض مقدمات الإصلاح وكل ما لا يتم في العقل أو العادة إلا به فانه جملة يجر بعضها بعضها والله لا تخفى عليه خافية وليس في دين الله جزاف فلا يعين شيء دون نظائره إلا بحكم وأسباب يعلمها الراسخون في العلم ونحن نريد أن ننبه على جملة صالحة من تلك الحكم والأسباب والله أعلم.

﴿باب أسباب نزول الشرائع الخاصة بعصر دون عصر وقوم دون قوم﴾

والاصل فيه قوله تعالى: (كل الطعام كان حلا لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين) تفسيرها أن يعقوب عليه السلام مرض مرضا شديدا فنذر لئن عافاه الله ليحرم من على نفسه أحب الطعام والشراب إليه فلما عوفي حرم على نفسه لحمان الابل وألبانها واقتدى به بنوه في تحريمها ومضى على ذلك القرون حتى أضمرها في نفوسهم التفريط في حق الأنبياء إن خالفوهم بأكلها فنزل التوراة بالتحريم، ولما بين النبي صلى الله عليه وسلم أنه على ملة إبراهيم قالت اليهود كيف يكون على ملته وهو يأكل لحوم الابل وألبانها فرد الله تعالى عليهم أن كل الطعام كان حلا في الأصل وإنما حرمت الابل لعارض لحق باليهود فلما ظهرت النبوة في بني إسماعيل وهم برآء من ذلك العارض لم يجب رعايته وقول النبي صلى الله عليه وسلم في صلاة التراويح «ما زال بكم الذي رأيت من صنعكم حتى خشيت أن يكتب عليكم ولو كتب عليكم ما قمت به فصلوها أيها الناس في بيوتكم» فكبحهم النبي صلى الله عليه وسلم عن جعلها شائعا ذائعا بينهم لئلا تصير من شعائر الدين فيعتقدوا تركها تفريطا في جنب الله فتفرض عليهم، وقوله صلى الله عليه وسلم: «أعظم المسلمين في المسلمين جرما من سأل عن شيء فحرم لأجل مسأله» وقوله صلى الله عليه وسلم: «إن إبراهيم حرم مكة ودعاها وإنى حرمت المدينة فحرم إبراهيم مكة ودعوت لها في مدها وصاعها

مثل مادعا إبراهيم لمكة وقوله صلى الله عليه وسلم لمن سأله عن الحج «أهو في كل عام لو قلت نعم لوجبت ولو وجبت لم تقوموا بها ولو لم تقوموا بها عذبتهم» واعلم أنه إنما اختلفت شرائع الأنبياء عليهم السلام لأسباب ومصالح وذلك أن شعائر الله إنما كانت شعائر لمعدات وأن المقادير يلاحظ في شرعها حال المكلفين وعاداتهم فلما كانت أمزجة قوم نوح عليه السلام في غاية القوة والشدة كما نبه عليه الحق تعالى استوجبوا أن يؤمروا بدوام الصيام ليقاوم سورة بهيميتهم، ولما كانت أمزجة هذه الأمة ضعيفة نهوا عن ذلك وكذلك لم يجعل الله تعالى الغنائم حلالاً للأنولين وأحلها لنا لما رأى ضعفنا وأن مراد الأنبياء عليهم السلام إصلاح ما عندهم من الارتفاقات فلا يعدل عنها إلى ما يبين المؤلف إلا ما شاء الله وأن مظان المصالح تختلف باختلاف الأعصار والعادات ولذلك صح وقوع النسخ وإنما مثله كمثل الطبيب يعتمد إلى حفظ المزاج المعتدل في جميع الأحوال فتختلف أحكامه باختلاف الأشخاص والزمان فيأمر الشاب بما لا يأمر به الشائب ويأمر في الصيف بالنوم في الجو لما يرى أن الجو مظنة الاعتدال حينئذ ويأمر في الشتاء بالنوم داخل البيت لما يرى أنه مظنة البرد حينئذ فمن عرف أصل الدين وأسباب اختلاف المناهج لم يكن عنده تغيير ولا تبديل ولذلك نسبت الشرائع إلى أقوامها ورجعت اللائمة إليهم حين استوجبوا بها بما عندهم من الاستعداد وسألوها جهد سؤلهم بلسان الحال وهو قوله تعالى (فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون) ولذلك ظهر فضل أمة نبينا ﷺ حين استحقوا تعيين الجمعة لكونهم أميين برآء من العلوم المكتسبة واستحققت اليهود السبب لاعتقادهم أنه يوم فرغ الله فيه من الخلق وأنه أحسن شيء لأداء العبادة مع أن الكل بأمر الله ووحيه، ومثل الشرائع في ذلك كمثل العزيمة (١) يؤمرون بها أولاً ثم يكون هنالك أعذار وخرج فتشريع لهم الرخص (٢) لمعنى يرجع إليهم فربما توجه بذلك بعض اللائمة إليهم لكونهم استوجبوا ذلك بما عندهم قال الله تعالى (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «مارأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن» وبين نقصان دينهن بقوله «أرأيت أنها إذا حاضت لم تصل ولم تصم» واعلم أن أسباب نزول المناهج في صورة خاصة كثيرة لكنها ترجع إلى نوعين، أحدهما كالأمر الطبيعي الموجب لتكليفهم بتلك الأحكام فكما أن لأفراد الإنسان جميعها طبيعة وأحوالاً ورثتها من النوع توجب تكليفهم بأحكام، وكما أن الآكام لا يكون في خزانة خياله الألوان والصور وإنما هنالك الألفاظ والملموسات ونحو ذلك فإذا تلقى من الغيب علماً في رؤيا أو واقعة أو نحو ذلك فأنما يتشبع عليه في صورة ما اختزنه خياله دون غيره، وكما أن العربي الذي لا يعرف غير لغة العرب إذا تمثل له علم في نشأة اللفظ فأنما يتمثل له في لغة العرب دون غيرها، وكما أن البلاد التي يوجد فيها الفيل وغيره من الحيوانات سيئة المنظر يترأى لأهلها إمام الجن وتخوين الشياطين في صورة تلك الحيوانات دون غير تلك البلاد والتي يعظم فيها بعض الأشياء ويوجد فيها بعض الطيبات من الأطعمة والألبسة تترأى لأهلها النعمة وانبساط الملائكة في تلك الصور دون غير تلك البلاد، وكما أن العربي المتوجه إلى شيء ليفعله أو طريق ليسلكه إذا سمع لفظة راشد أو نجيح كان دليلاً على حسن ما يستقبله دون غير العربي وقد جاءت السنة ببعض هذا النوع فكذلك يعتبر في الشرائع علوم مخزونة في القوم واعتقادات كامنة فيهم

(١) أي الواجب المأمور به اهـ (٢) جمع رخصة وهي ضد العزيمة والمراد الاجازات والاباحات اهـ

وعادات تتجارى فيهم كما يتجارى الكلب (١) *

ولذلك نزل تحريم لحوم الابل والابلانها على بنى اسرائيل دون بنى اسماعيل ولذلك كان الطيب والخبيث في المطاعم مفوضاً إلى عادات العرب، ولذلك حرمت بنات الاخت علينا دون اليهود فانهم كانوا يعدونها من قوم أبيها لا مخالطة بينهم وبينها ولا ارتباط ولا اصطحاب فهي كالأجنبية بخلاف العرب، ولذلك كان طبخ العجل في لبن أمه حراماً عليهم دوننا فان علم كون ذاك تغييراً لخلق الله ومصادمة لتدبير الله حيث صرف ما خلقه الله لنشء العجل ونموه إلى فك بنيته وحل تركيبه كان راسخاً في اليهود متجارياً فيهم وكان العرب أبعد خلق الله عن هذا العلم حتى لو ألقى عليهم لما فهموه ولما أدر كوا المناط المناسب للحكم، والمعتبر في نزول الشرائع ليس العلوم والحالات والعقائد المتمثلة في صدورهم فقط بل أعظمها اعتباراً وأولها اعتداداً مانشأوا عليهم واندفعت عقولهم إليه من حيث يعلمون ومن حيث لا يعلمون كما ترى ذلك في علاقات تمثل شيء بصورة غيره كتمثيل منع الناس عن السحور في صورة الختم على الافواه فان الختم شبح المنع عند القوم استحضره أم لا وحق الله على عباده في الاصل أن يعظموه غاية التعظيم ولا يقدموا على مخالفة أمره بوجه من الوجوه والواجب فيما بين الناس أن يقيموا مصلحة التأليف والتعاون ولا يؤذى أحد أحداً إلا إذا أمر به الرأي السكلى ونحو ذلك، ولذلك كان الذى وقع على امرأة يعلم أنها أجنبية قد أرخى بينه وبين الله حجاب وكتب ذلك من اجترائه على الله وإن كانت امرأته في الحقيقة لأنه أقدم على مخالفة أمر الله وحكمه والذى وقع على أجنبية وهو يعلم أنها امرأته لا يألو (٢) في ذلك معذوراً فيما بينه وبين الله وكان الذى نذر الصوم مأخوذاً بنذره دون من لم ينذر وكان من تشدد في الدين شدد عليه وكانت لطمة اليتيم للتأديب حسنة وللتعذيب سيئة وكان المخطئ والناسى معفوا عنهما في كثير من الاحكام فهذا الاصل يتلقاه علوم القوم وعاداتهم السكامة منها والبارزة فيتشخص الشرائع في حقهم حسب ذلك **﴿واعلم﴾** أن كثيراً من العادات والعلوم السكامة يتفق فيها العرب والعجم وجميع سكان الاقاليم المعتدلة وأهل الامزجة القابلة للاخلاق الفاضلة كالخزن لميتهم واستحباب الرفق به وكالفخر بالاحساب والانساب والانساب وكالنوم إذا مضى ربع الليل أو ثلثه أو نحو ذلك والاستيقاظ في تبشير (٣) الصبح إلى غير ذلك مما أومأنا إليه في الارتفاقات، فتلك العادات والعلوم أحق الأشياء بالاعتبار ثم بعدها عادات وعقائد تختص بالمبعوث اليهم فتعتبر تلك أيضاً وقد جعل الله لكل شيء قدراً.

واعلم أن النبوة كثيراً ما تكون من تحت الملة كما قال الله تعالى: (ملة أبيكم ابراهيم) وكما قال: (وإن من شيعته لابراهيم) وسر ذلك أنه تنشأ قرون كثيرة على الدين بدين وعلى تعظيم شعائره وتصير أحكامه من المشهورات الذائعة اللاحقة بالبدعيات الأولية التي لا تكاد تنكر فتجىء نبوة أخرى لأقامة ما عوج منها وصلاحي ما فسد منها بعد اختلاط رواية نبيها فتفتش عن الاحكام المشهورة عندهم فما كان صحيحاً موافقاً لقواعد السياسة المالية لا تغيره بل تدعو إليه وتحث عليه وما كان سقيماً قد دخله التحريف فانها تغيره بقدر الحاجة وما كان

(١) هو بالتحريك داء يعرض من عض الكلب الكلب فيصيبه شبه جنون فلا يعض احداً إلا لطلب ويعرض له

أعراض رديئة ويمتنع من شرب الماء حتى يموت عطشاً، وقوله تتجارى أى تترتب في بواطنهم وتؤثر فيها اه

(٢) أى لا يقصر اه (٣) أى اوائل اه

حرى أن يزداد فأنها تزيد على ما كان عندهم، وكثيرا ما يستدل هذا النبي في مطالبه بما بقى عندهم من الشريعة الأولى فيقال عند ذلك هذا النبي في ملة فلان النبي أو من شيعته، وكثيرا ما تختلف النبوات لاختلاف الملل النازلة تلك النبوة فيها، والنوع الثاني (١) بمنزلة طارئ عارض وذلك أن الله تعالى وإن كان متعاليا عن الزمان فله ارتباط بوجه من الوجوه بالزمان والزمانيات، وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن الله يقضى بعد كل مائة بحادثة عظيمة من الحوادث وأخبر آدم وغيره من الأنبياء عليهم السلام في حديث الشفاعة بشيء من هذا الباب حيث قال كل واحد منهم إن ربي تبارك وتعالى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله فإذا تهيا العالم لأفاضة الشرائع وتعيين الحدود وتجلي الحق منزلا عليهم الدين وامتلاء الملأ الأعلى بهمة قوية حسب ذلك يكون حينئذ أدنى سبب من الأسباب الطارئة كافيا في قرع باب الجود ومن دق باب الكرم انفتح، ولك عبرة بفصل الربيع يؤثر فيه أدنى شيء من الغرس والبذر ما لا يؤثر في غيره أضعاف ذلك وهمة النبي صلى الله عليه وسلم واستشرافه للشئ ودعوته له واشتياقه إليه وطلبه إياه سبب قوى لنزول القضاء في ذلك الباب وإذا كانت دعوته تحي السنة الشهباء وتغلب فئة عظيمة من الناس وتزيد الطعام والشراب زيادة محسوسة فما ظنك في نزول الحكم الذي هو روح لطيف؟ إنما يتعين بوجود مثالي وعلى هذا الأصل ينبغي أن يخرج أن حدوث حادثة عظيمة فخيمة في ذلك الزمان يفرع لها النبي صلى الله عليه وسلم كقصة الافك وسؤال سائل يراجع النبي صلى الله عليه وسلم ويحاوره فيهم له صلى الله عليه وسلم كقصة الظهار يكون سببا لنزول الأحكام وأن يكشف عليه فيها جليلة الحال وأن استبطاء القوم عن الطاعة وتبلدهم عن الانقياد وإخلادهم إلى العصيان وكذا رغبتهم في شيء وعضهم عليه بالنواجذ واعتقادهم التفريط في جنب الله عند تركه يكون سببا لأن يشدد عليهم بالوجوب الأكيد والتحريم الشديد، ومثل ذلك كله في استمطار الجود كمثال الإنسان الصالح قوى الهمة يتوخى (٢) ساعة انتشار الروحانية وقوة السعادة فيسأل الله فيها بجهد همته فلا تتراخى إجابته، وإلى هذه المعاني وقعت الإشارة في قوله تبارك وتعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تسئلوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤم وإن تسئلوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم) وأصل المرضى أن يقل هذا النوع من أسباب نزول الشرائع لأنه يعد لنزول ما يغلب فيه حكم المصلحة الخاصة بذلك الوقت فكثيرا ما كان تضيقا على الذين يأتون من بعد، ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يكره المسائل وكان يقول: «ذروني ما ترككم فانما هلك من قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم» وقال: «إن أعظم المسلمين في المسلمين جرما من سأل شيئا فحرم لاجل مسئلته» وجاء في الخبر أن بني إسرائيل لو ذبحوا أي بقرة شاءوا كفت عنهم لكن شددوا قشدهم عليهم والله أعلم.

(باب أسباب المؤاخذه على المناهج)

لنبحث عن المناهج والشرائع التي ضربها الله تعالى لعباده هل يترتب الثواب والعذاب عليها كما يترتب على أصول البر والاثم أو لا يترتب إلا على ما جعلت مطنات وأشباها وقوالب له؟ فمن ترك صلاة وقت من الاوقات وقلبه مطمئن بالاخبارات هل يعذب بتركها ومن صلى صلاة وأدى الاركان والشروط حسب ما يخرج عن العهدة ولم يرجع بشيء من الاخبارات ولم يدخل ذلك في صميم قلبه هل يثاب على فعلها، وليس الكلام في كون معصية المناهج

مفسدة عظيمة من جهة كونها قد حافى السنة الراشدة وفتح باب الاثم وغشا بالنسبة إلى جماعة المسلمين وضرراً
للحى والمدينة والاقليم بمنزلة سيل سد مجراه لمصلحة المدينة فجاء رجل ونقب السد ونجا بنفسه وأهلك أهل
مدينته ولكن الكلام فيما يرجع إلى نفسه من إحاطة السيئات بها أو إحاطة الحسنات *
فذهب أهل الملل قاطبة إلى أنها توجب الثواب والعذاب بنفسها فالمحققون منهم والراسخون في العلم والحواريون
من أصحاب الانبياء عليهم السلام يدركون مع ذلك وجه المناسبة والارتباط لتلك الاشباح والقوالب بأصولها
وأرواحها وعامة حملة الدين ووعاة الشرائع يكتفون بالاول وذهب فلاسفة الاسلام إلى أن العذاب والثواب إنما
يكونان على الصفات النفسانية والاخلاق المتشعبة بذيل الروح وإنما ذكر قواها وأشباحها في الشرائع تفهيماً وتقريباً
للمعاني الدقيقة إلى أذهان الناس، هذا تحرير المقام على مشرب القوم **﴿أقول﴾** - والحق ما ذهب اليه المحققون من
أهل الملل - بيان ذلك أن الشرائع لها معدات وأسباب تشخصها وترجح بعض محتملاتها على بعض والحق يعلم
إن القوم لا يستطيعون العمل بالدين إلا بتلك الشرائع والمناهج ويعلم أن هذه الاوضاع هي التي يليق أن تكون
عليهم فتندرج في عناية الحق بالقوم أزلاً ثم لما تنهاى العالم لفيضان صور الشرائع وإيجاد شخوصها المثالية فأوجدتها
وأفاضها وتقرر هنالك أمرها كانت أصلاً من الاصول، ثم لما فتح الله على الملأ الأعلى هذا العلم وألهمهم أن
المظنات قائمة مقام الاصول وأنها أشباحها وتمثيلها وأنه لا يمكن تكليف القوم إلا بتلك حصل في حظيرة القدس
اجماع ما على أنها هي بمنزلة اللفظ بالنسبة إلى الحقيقة الموضوع لها والصورة الذهنية بالنسبة إلى الحقيقة الخارجية
المنتزعة منها والصورة التصويرية بالنسبة إلى من انتقشت مكشافاً له والصورة الخطية بالنسبة إلى الالفاظ الموضوع
هي لها فانه في كل ذلك لما قويت العلاقة بين الدال والمدلول وحصل بينهما تلازم وتعانق أجمع في حيز ما من
الاحياز أنه هو ثم ترشح شبح هذا العلم أو حقيقته في مدركات بنى آدم عربهم وعجمهم فاتفقوا عليه فلن ترى
أحداً إلا ويضمّر في نفسه شعبة من ذلك وربما سميناها وجوداً شبيهاً للمدلول وربما كان لهذا الوجود آثار عجيبة
لا تخفى على المتتبع، وقد روى في الشرائع بعض ذلك ولذلك جعلت الصدقة من أوساخ المتصدقين وسرت شناعة
العمل في الأجرة ثم لما بعث النبي صلى الله عليه وسلم وأيد بروح القدس ونفث في روعه إصلاح القوم وفتح
لجوهر روجه فج واسم إلى الهمة القوية في باب نزول الشرائع وصدور الشخوص المثالية فعزم على ذلك أقصى
عزيمته ودعا للموافقين ولعن على المخالفين بجهد همته وإن همهم تخترق السبع الطباق وأنهم يستسقون وما هنالك
قرعة (١) سحاب فتشأ أمثال الجبال في الحال وإنهم يدعون فيحيي الموتى بدعوتهم تأكد انعقاد الرضا والسخط
في حظيرة القدس وهو قوله **﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ نَذِيرٌ لِّكُفَّارٍ كَذِبٍ﴾** وأنا أدعو للمدينة الحديث ثم إن هذا
العبد إذا علم أن الله تعالى أمره بكذا وكذا وأن الملأ الأعلى تؤيد النبي صلى الله عليه وسلم فيما يأمر وينهى وعلم
أن إهمال هذا والاقدام على ذلك اجترأ على الله وتفريط في جنب الله، ثم أقدم على العمل عن قصد وعمد وهو
يرى ويبصر فان ذلك لا يكون إلا لغاشية عظيمة من الحجب وانكسار تام للملكية وذلك يوجب قيام خطيئة
بالنفس وإذا أقدم على عمل شاق تنحجم عنه طبيعته لا لمراعاة الناس بل تقرباً من الله وحفظاً على مرضياته فان
ذلك لا يكون إلا لغاشية عظيمة من الاحسان وانكسار تام للبهيمية وذلك يوجب قيام حسنة بالنفس أمام

ترك صلاة وقت من الاوقات فيجب أن يبحث عنه لم تركها وأى شيء حمله على ذلك فإن نسيها أو نام عنها أو جهل وجوبها أو شغل عنها بما لا يجد منه بداً فنص الملة أنه ليس باثم وإن تركها وهو يعلم ويتذكر وأمره بيده فإن ذلك لا يكون لا محالة إلا من حزازة (١) في دينه وغاشية شيطانية أو نفسانية غشيت بصيرته وهو يرجع إلى نفسه، وأما من صلى صلاة وخرج عن عهدة ما وجب عليه فيجب أن يبحث عنه أيضاً إن فعلها رياء وسمعة أو جريانا على عادة قومه أو عبثاً فنص الملة أنه ليس بمطيع ولا يعتد بفعله ذلك وإن فعلها تقرباً من الله وأقدم عليها إيماناً واحتساباً وتصديقاً بالموعود واستحضر النية وأخلص دينه لله فلا جرم أنه فتح بينه وبين الله باب ولو كرأس إبرة وأما من أهلك المدينة ونجا بنفسه فلا نسلم أنه نجا بنفسه كيف وهنالك لله ملائكة أقصى همهم الدعاء لمن يسعى في إصلاح العالم وعلى من سعى في إفساده وإن دعوتهم تقرر باب الجود ويكون سبباً لنزول الجزاء بوجه من الوجوه بل هنالك لله تعالى عناية بالناس توجب ذلك ولدقة مدر كها جعلنا دعوة الملائكة عنواناً لها والله أعلم.

﴿ باب أسرار الحكم والعلة ﴾

اعلم أن للعباد أفعالا يرضى لأجلها رب العالمين عنهم وأفعالا يسخط لأجلها عليهم وأفعالا لا تقتضى رضاً ولا سخطاً فاقضت حكمته البالغة ورحمته التامة أن يبعث إليهم الأنبياء ويخبرهم على ألسنتهم بتعلق الرضا والسخط بتلك الأفعال ويطلب منهم الفصل الأول وينهى عن الثانى ويخبرهم فيما سوى ذلك (ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة) فتعلق الرضا والسخط بالفعل وكونه غفلاً منهما وكون الشيء بحيث يطلب منهم وينهون عنه ويخبرون فيه أياً ما شئت فقل هو الحكم والطلب منه مؤكداً يقتضى الرضا والثواب على فعل المطلوب والسخط والعقاب على تركه، ومنه غير مؤكداً يقتضى الرضا والثواب على فعل المطلوب دون السخط والعقاب على تركه، وكذلك النهى منه مؤكداً يقتضى الرضا والثواب على الكف منه لأجل النهى ويقتضى السخط والعقاب على فعل المنهى عنه، ومنه غير مؤكداً يقتضى الرضا والثواب على الكف عنه لأجل النهى دون السخط والعقاب على فعله، واعتبر بما عندك من ألفاظ الطلب والمنع وبمحاورات الناس في ذلك فإنك ستجد ثنية كل قسم من جهة سريان الرضا والسخط في ضد المنطوق أولاً أمراً طبيعياً لا محيص عنه، فالأحكام خمسة: إيجاب، وندب، وإباحة، وكراهية، وتحريم والذى يؤتى به في مخاطبة الناس لا يمكن أن يكون حال كل فعل على حدته من أفعال المكلفين لعدم انحصارها ولعدم استطاعة الناس الاحاطة بعلمها فوجب إذاً أن يكون ما يخاطبون به قضايا كلية معنونة بوحدة تنظم كثرة ليحيطوا بها علماً فيعرفوا منها حال أفعالهم ولك عبرة بالصناعات الكلية التى جعلت لتكون قانوناً في الأمور الخاصة يقول النحوى: الفاعل مرفوع فيعى مقالته السامع فيعرف بها حال زيد فى قولنا قام زيد وعمرو فى قولنا قعد عمرو وهلم جرا وتلك الوحدة التى تنظم كثرة هى العلة التى يدور الحكم على دورانها وهى قسمان، قسم يعتبر فيها حالة توجد فى المكلفين ولا يمكن أن تكون حالة دائمة لا تنفك عنهم فىكون مضمون الخطاب تكليفهم بالأمر دائماً إذ لا يستطيعون ذلك اللهم إلا فى الإيمان خاصة فلا جرم أن تعتبر حالة مركبة من صفة لازمة فى المكلف بها يصح كونه مخاطباً وهيئة طارئة تنوبه مرة

بعد مرة وأكثر ما يكون هذا القسم في العبادات والهيئة إما وقت أو استطاعة ميسرة أو مظنة حرج أو إرادة شيء ونحو ذلك كقول الشرع «من أدرك وقت صلاة وهو عاقل بالغ وجب عليه أن يصليها ومن شهد الشهر وهو عاقل بالغ مطيق وجب عليه أن يصومه ومن ملك نصاباً وحال عليه الحول وجب أن يزكيه ومن كان على سفر جاز له القصر والافطار ومن أراد الصلاة وكان محدثاً وجب عليه الوضوء» وفي مثل هذا ربما تسقط الصفات المعتبرة في أكثر الأوامر وتخص الصفة التي بها امتاز بعضها من البعض فيسأح بتسميتها علة فيقال علة الصلاة إدراك الوقت وعلة الصوم شهود الشهر وربما يجعل الشارع لبعض تلك الأوصاف دون بعض أثراً كما جوز تعجيل الزكاة لسنة أو سنتين لمن ملك النصاب دون من لم يملكه فيعطي الفقيه كل ذي حق حقه فيخص بعضها بسبب والآخر بالشرط، وقسم يعتبر فيه حال مايقع عليه الفعل أو يلابسه وهي إما صفة لازمة له كقول الشارع «يحرم شرب الخمر ويحرم أكل الخنزير ويحرم أكل كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير ويحرم نكاح الأمهات» أو صفة طارئة تنوبه كقوله تعالى: (السارق والسارقة فاقطعوا أيديهما) وقوله تعالى (الزانية والزانية فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة) وربما يجمع بين اثنين فصاعداً من أحوال مايقع عليه الفعل كقول الشارع «يجب رجم الزاني المحصن وجلد زان غير محصن» وربما يجمع بين حال المكلف وحال مايقع عليه الفعل كقول الشارع «يحرم الذهب والحريز على رجال الأمة دون نساءها» وليس في دين الله جزاف فلا يتعلق الرضا والسخط بتلك الأفعال إلا بسبب وذلك أن ههنا شخوصاً يتعلق بها الرضا والسخط في الحقيقة وهي نوعان: أحدهما البر والاشم والارتفاقات وإضاعتهما وما يحذو حذو ذلك، وثانيهما ما يتعلق بالشرائع والمناهج من سد باب التحريف والاحتراز من التسلل ونحو ذلك ولها محال ولوازم يتعلقان بها بالعرض وينسبان (١) إليها توسعاً نظيره ما يقال من أن علة الشفاء تناول الدواء وإنما العلة في الحقيقة نضج الخلط أو إخراجها وهو شيء يعقب الدواء في العادة وليس هو هو ويقال علة الحى قد تكون الجلوس في الشمس وقد تكون الحركة المتعبة وقد تكون تناول غذاء حار والعلة في الحقيقة سخونة الخلط وهي واحدة في ذاتها ولكنها طرق إليها وأشباح لها وكان الاكتفاء بالأصول وترك اعتبار تعدد الطرق والمحال لسان المتعمقين في الفنون النظرية دون العامة وإنما نزل الشرع بلسان الجمهور ويجب أن يكون علة الحكم صفة يعرفها الجمهور ولا تخفى عليهم حقيقتها ولا وجودها من عدمها ويكون مظنة لأصل من الأصول التي تتعلق بها الرضا والسخط إما لكونها مفضية إليه أو مجاورة له ونحو ذلك كشرب الخمر فإنه مظنة لمفاسد يتعلق بها السخط من الأعراض عن الاحسان والاخلاد إلى الأرض وإفساد نظام المدينة والمنزل وكان لازماً لها غالباً فتوجه المنع إلى نوع الخمر وإذا كان لشيء لوازم وطرق لم يخص للعلية منها إلا ما تميز من سائر ما هنالك برجحان من جهة الظهور والانضباط أو من جهة لزوم الأصل أو نحو ذلك كرخصة القصر والافطار أديرت على السفر والمرض دون سائر مظنات الحرج لأن الاكساب الشاقة كالفلاحة والحدادة وإن كان يلزمها الحرج لكنها مخرجة بالطاعة لأن المكتسب بها يداوم عليها ويتوقف عليها معاشه، وأما وجود الحر والبرد فغير منضبط لأن لها مراتب مختلفة يعسر إحصاؤها وتعيين شيء منها بأمارات وعلامات وإنما يعتبر عند

السبر مظنات كانت في الأمة الأولى أكثرية معروفة وكان السفر والمرض بحيث لا يشتبه عليهم إلا مر فيهما وإن كان اليوم بعض الاشتباه لانقراض العرب الأول وتعمق الناس في الاحتمالات حتى فسد ذوقهم السليم الذي يحده قبح العرب والله أعلم *

(باب المصالح المقتضية لتعيين الفرائض والأركان والآداب ونحو ذلك)

إعلم أنه يجب عند سياسة الأمة أن يجعل لكل شيء من الطاعات حدان أعلى وأدنى فالأعلى هو ما يكون مفضيا إلى المقصود منه على الوجه الآتم، والأدنى هو ما يكون مفضيا إلى جملة من المقصود ليس بعدها شيء يعتد به وذلك لأنه لا سبيل إلى أن يطلب منهم الشيء ولا يبين لهم أجزاءه وصورته ومقدار المطلوب منه فإنه ينافي موضوع الشرع ولا سبيل إلى أن يكلف الجميع باقامة الآداب والمكملات لأنه بمنزلة التكليف بالمحال في حق المشتغلين أو المتعسر وإنما بناء سياسة الأمة على الاقتصاد دون الاستقصاء ولا سبيل إلى أن يهمل الأعلى ويكتفى بالأدنى فإنه مشرب السابقين وحظ المخلصين وإهمال مثله لا يلائم اللطف فلا محيص (١) إذا من أن يبين الأدنى ويسجل على التكليف به ويندب إلى ما يزيد عليه من غير إيجاب، والذي يسجل على التكليف به ينقسم إلى مقدار مخصوص من الطاعة كالصلوات الخمس وصيام رمضان وإلى أبعاض لها لا يعتد بها بدونها كالتكبير وكقراءة فاتحة الكتاب للصلاة وتسمى بالأركان، وأمور خارجة منها لا يعتد بها بدونها وتسمى بالشروط كالوضوء للصلاة (واعلم) أن الشيء قد يجعل ركنا بسبب يشبه المذهب الطبيعي وقد يجعل بسبب طارئ فالأول أن تكون الطاعة لا تتقوم ولا تفيد فائدتها إلا به كالركوع والسجود في الصلاة والامساك عن الأكل والشرب والجماع في الصوم أو يكون ضبطا لمبهم خفي لا بد منه فيها كالتكبير فإنه ضبط للنية واستحضار لها وكالفاتحة فإنها ضبط للدعاء والسلام فإنه ضبط للخروج من الصلاة بفعل صالح لا ينافي الوقار والتعظيم، والثاني أن يكون واجبا بسبب آخر من الأسباب فيجعل ركنا في الصلاة لأنه يكملها ويوفر الغرض منها ويكون التوقيت بها أحسن توقيت كقراءة سورة من القرآن على مذهب من يجعلها ركنا فإن القرآن من شعائر الله يجب تعظيمه وأن لا يترك ظهريا (٢) ولا أحسن في التوقيت من أن يؤمروا بها في أكدهم عباداتهم وأكثرها وجوداً وأشملها تكليفاً أو يكون التمييز بين مشتبهين أو التفريق بين مقدمة الشيء والشيء المستقل موقوفاً على شيء فيجعل ركنا ويؤمر به كالقومة بين الركوع والسجود بها يحصل الفرق بين الانحناء الذي هو مقدمة السجود وبين الركوع الذي هو تعظيم برأسه وكلاهما لا يجاب والقبول والشهود وحضور الولي ورضا المرأة في النكاح فإن التميز بين انسحاق والنكاح لا يحصل إلا بذلك ويمكن أن يخرج بعض الأركان على الوجهين جميعاً وعلى ما ذكرنا في الركن ينبغي أن يقاس حال الشرط فربما يكون الشيء واجبا بسبب من الأسباب فيجعل شرطاً لبعض شعائر الدين تنويهاً به ولا يكون ذلك حتى تكون تلك الطاعة كاملة بانضمامه كاستقبال القبلة لما كانت الكعبة من شعائر الله وجب تعظيمها وكان من أعظم التعظيم أن تستقبل في أحسن حالاتهم وكان الاستقبال إلى جهة خاصة هنالك بعض شعائر الله منها صلى على صفات

(١) أي مفر وقوله ويندب أي يدعى اه

(٢) منسوب إلى الظهر بفتح الظاء وكسر هـ من تغييرات النسبة، والمعنى أن القرآن لا ينبغي أن يجعل وراء

الظهور ويعرض عنه ولا يبالي به اه

الإخبات والخضوع مذكراً له هيئة قيام العبيد بين أيدي ساداتهم جعل استقبال القبلة شرطاً في الصلاة وربما يكون الشيء لا يفيد فائدة بدون هيئة فيشترط لصحته كاليه فان الأعمال إنما تؤثر لكونها أشباح هيآت نفسانية والصلاة شبح لإخبات ولا إخبات بدون النية وكاستقبال القبلة أيضاً على تخريج آخر فان توجيه القلب لما كان خفياً نصب توجيه الوجه إلى الكعبة التي من شعائر الله مقامه ، وكالوضوء وستر العورة وهجر الرجز فانه لما كان التعظيم أمراً خفياً نصبت الهيآت التي يؤاخذ الانسان بها نفسه عند الملوك وأشباههم ويعدونها تعظيماً وصار ذلك كامناً في قلوبهم وأجمع عليه عربهم وعجمهم مقامه وإذا عين شيء من الطاعات للفرضية فلا بد من ملاحظة أصولها منها أن لا يكلف إلا بالميسر وذلك قوله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة» وتفسيره ما جاء في رواية أخرى «لولا أن أشق على أمتي لفرضت عليهم السواك عند كل صلاة كما فرضت عليهم الوضوء» ومنها أن الأمة إذا اعتقدت في مقدار أن تركه وإهماله تفريط في جنب الله واطمأنت به نفوسهم إما لكونه مأثوراً عن الأنبياء مجمعا عليه من السلف أو نحو ذلك كانت الحكمة أن يكتب ذلك المقدار عليهم كما استوجبوه كتحریم لحوم الابل والبانها على بني إسرائيل وهو قوله ﷺ في قيام ليالى رمضان حتى : «خشيت أن يكتب عليكم» ومنها أن لا يسجل على التكليف بشيء حتى يكون ظاهراً منضبطاً لا يخفى عليهم فلذلك لا يجعل من أركان الاسلام الحياء وسائر الاخلاق وإن كانت من شعبه ثم الادنى قد يختلف باختلاف حالى الرفاهية والشدة فيجعل القيام ركناً للصلاة في حق المطيق ويجعل القعود مكانه في حق غيره، وأما الحد الأعلى فيزيد كما وكيفاً، أما الكم فنوافل من جنس الفرائض كسنن الرواتب وصلاة الليل حق غيره، وأما الحد الأدنى فيزيد كما وكيفاً، أما الكم فنوافل من جنس الفرائض كسنن الرواتب وصلاة الليل وصيام ثلاثة أيام من كل شهر، وكالصدقات المندوبة ونحو ذلك، وأما الكيف فهيآت وأذكار وكف لا يلائم الطاعة يؤمر بها في الطاعة لتكمل وتكون مفضية إلى المقصود منها على الوجه الاتم كتعهد المغابن (١) يؤمر به في الوضوء لتكمل النظافة، وكالابتداء باليمين يؤمر به لتكون النفس متنبهة على عظم أمر الطاعة وتقبل عليها حين أخذت نفسها بما يفعل في الأعمال المهمة (واعلم) أن الانسان إذا أراد أن يحصل خلقاً من الاخلاق وتنصبغ نفسه ويحيط بها من جميع جوانبها فحيلة ذلك أن يؤاخذ نفسه بما يناسب ذلك الخلق من فعل وهيآت ولو في الامور القليلة التي لا يعبا بها العادة كالتمرن على الشجاعة يؤاخذ نفسه أن لا ينحجم (٢) عن الخوض في الوحل والمشي في الشمس والسرى في الليلة الظلماء ونحو ذلك وكذلك المتمرن على الاخبات يحافظ على الآداب التعظيمة كل حال فلا يجلس على الغائط إلا مطرقاً مستحيماً وإذا ذكر الله جمع أطرافه ونحو ذلك والمتمرن على العدالة يجعل لكل شيء حقاً فيجعل اليمين للاكل والطيبات واليسار لازالة النجاسة وهو سر ما قيل للنبي صلى الله عليه وسلم في السواك «كبر كبر (٣)» وقوله صلى الله عليه وسلم في قصة حويصة ومحبيصة (٤) «كبر الكبر» فهذا أصل أبواب

(١) جمع غيب من غيب الثوب إذا عطفه وهي معاطف الجلد ومكاسره التي تجمع فيها الوسخ والمراد بتعهدها غسلها
(٢) أى يمتنع (٣) عن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أراني في المنام أستاك بسواك فجاءني رجلان أحدهما أكبر من الآخر فناولت الأصغر منهما فقبل لي كبر فدفعته إلى الأكبر منهما» أخرجه الشيخان، وقوله «كبر» أى أعطى الكبير له فضل السواك (٤) حويصة ومحبيصة - بضم الأول وتشديد الياء المكسورة - وقيل بتشديد الصاد مصغرتين ابناً مسعوداً، والمعنى أنه لما قتل عبد الله بن سهل في خيبر ولم يدر قاتله جاء عبد الرحمن أخو المقتول وابناً مسعوداً إلى النبي صلى الله عليه وسلم فبدأ عبد الرحمن بالكلام وكان أصغر سناً فقال له النبي صلى الله عليه وسلم «كبر الكبر» يعنى

من الآداب ((واعلم)) أن سر قوله صلى الله تعالى عليه وسلم «إن الشيطان يأكل بشماله» ونحو ذلك من نسبة بعض الأفعال إلى الشياطين على ما فهمنى ربى تبارك وتعالى أن الشياطين قد أقدرهم الله تعالى على أن يتشكلوا في رؤيا الناس ولا بصارهم في اليقظة بأشكال تعطيها أمزجتهم وأحوال طارئة عليهم في وقت التشكل ، وقد علم أهل الوجدان السليم أن مزاجهم يعطى التلبس بأفعال شنيعة وأفعال تميل إلى طيش (١) وضجر والتقرب من النجاسات والقسوة عن ذكر الله والافساد لكل نظام مستحسن مطلوب ، وأغنى بالأفعال الشنيعة ما إذا فعله الانسان اشمازت قلوب الناس عنه واقشعرت جلودهم وانطلقت ألسنتهم باللعن والطعن ويكون ذلك كالذهب الطبيعي لبنى آدم تعطيه الصورة النوعية ويستوى فيه طوائف الامم لا للمحافظة على رسم قوم دون قوم أو ملة دون ملة مثل أن يقبض على ذكره ويثب ويرقص أو يدخل إصبه في دبره ويلطخ لحيته بالمخاط أو يكون أجدع الأنف والأذن مسخم الوجه (٢) أو ينكس لباسه فيجعل أعلى القيمص أسفل أو يركب دابة فيجعل وجهه من قبل ذنبها أو يلبس خفا في رجل والرجل الأخرى حافية ونحو ذلك من الأفعال والهيئات المنكرة التي لا يراها أحد إلا لعن وسب وشتم ، وقد شاهدت في بعض الواقعات الشياطين يفعلون بعض ذلك ، وأغنى بأفعال الطيش مثل العبث بثوبه وبالحصى وتحريك الاطراف على وجه منكر ، وبالجملة قد كشف الله على نبيه ﷺ تلك الأفعال وأنها تعطيها أمزجة الشياطين فلا يتمثل الشيطان في رؤيا أحد أو يقظته إلا وهو يتلبس ببعضها وأن المرضى في حق المؤمن أن يتباعد من الشياطين وهيأتهم بقدر الاستطاعة ، فبين النبي صلى الله عليه وسلم تلك الأفعال والهيئات وكرهها وأمر بالاحتراز عنها ، ومن هذا الباب قوله صلى الله عليه وسلم : «إن هذه الحشوش (٣) محتضرة» وقوله صلى الله عليه وسلم : «إن الشيطان يلعب بمقاعد بنى آدم وأنه يضحك إذا قال الانسان هاهاه» وقس على ذلك الترغيب في هيئات الملائكة وهو قوله صلى الله عليه وسلم : «ألا تصفون كما تصف الملائكة» وهذا أصل آخر لا بواب من الآداب ((واعلم)) أن من أسباب جعل الشيء فرضا بالكفاية أن يكون اجتماع الناس عليه بأجمعهم مفسداً لمعاشهم ومفضياً إلى إهمال ارتفاقاتهم ولا يمكن تعيين بعض الناس له وتعيين آخرين لغيره كالجهاد لو اجتمعوا عليه وتركوا الفلاحة والتجارة والصناعات لبطل معاشهم ولا يمكن تعيين بعض الناس للجهاد وآخرين للتجارة وآخرين للقضاء وتعليم العلم فان كل واحد يتيسر له مالا يتيسر لغيره ولا يعلم المستعد لشيء من ذلك بالاسامى والاصناف ليدار الحكم عليها ، ومنها (٤) أن تكون المصلحة المقصودة به وجود نظام ولا يلحق بتركه فساد حال النفس وغلبة البهيمية كالقضاء وتعليم علوم الدين والقيام بالخلافة فانها شرعت للنظام وتحصل بقيام رجل واحد بها وعبادة المريض والصلاة على الجنازة فان المقصود أن لا تضيع المرضى والموتى وتحصل بقيام البعض بها والله أعلم *

((باب أسرار الأوقات))

لا تتم سياسة الأمة إلا بتعيين أوقات طاعاتها ، والأصل في التعيين الحدس المعتمد على معرفة حال المكلفين

قدم الاعظم في الكلام ، وكبر أمر من الكبير ، والكبر - بضم الكاف وسكون الباء - أعظم القوم اه (١) أى خفة اه (٢) أى مسوده اه (٣) جمع حش بالثلاث وهو البستان ، والمراد مواضع قضاء الحاجة أى الكنف يحضرها الجن والشياطين لقصد الايذاء فلها أمر بستر العورات والامتناع من التعرض لأبصار الناظر اه (٤) أى الاصول اه

وقليل فاعله» وسئل أى الدعاء أسمع؟ قال «جوف الليل» وقال في ساعة الزوال: «إنها ساعة تفتح فيها أبواب السماء فأحب أن يصعد لى فيها عمل صالح» وقال «ملائكة النهار تصعد إليه قبل ملائكة الليل وملائكة الليل تصعد إليه قبل ملائكة النهار» وقد أشار الله تعالى في محكم كتابه إلى هذه المعاني حيث قال: (فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد في السموات والأرض وعشياً وحين تظهرون) والنصوص في هذا الباب كثيرة معلومة وقد شاهدت منه أمراً عظيماً *

الأصل الثاني أن وقت التوجه إلى الله هو وقت كون الانسان خالياً عن التشويشات الطبيعية كالجوع المفرط والشبع المفرط وغلبة النعاس وظهور الكلال وكونه حاقباً حاقناً والخيالية كامتلاء السمع بالأراجيف والغط والبصر بالصور المختلفة والألوان المشوشة ونحو ذلك من أنواع التشويشيات، وذلك مختلف باختلاف العادات لكن الذى يشبه أن يكون كالمذهب الطبيعى لعربهم وعجمهم ومشارقتهم ومغاربتهم، والذى يليق أن يتخذ دستوراً فى النواميس الكلية والذى يعد مخالفه كالشيء النادر هو الغدوة والدجة والانسان يحتاج إلى مصقلة تزيل عنه الرين بعد تمكنه من نفسه وذلك إذا أوى إلى فراشه ومال للنوم، ولذلك نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن السمر (١) بعد العشاء وعن قرض الشعر بعده، وسياسة الأمة لا تتم إلا بأن يؤمر بتعهد النفس بعد كل برهة من الزمان حتى يكون انتظاره للصلاة واستعدادها لها من قبل أن يفعلها وبقيّة لونها وصبابة نورها بعد أن يفعلها فى حكم الصلاة فيتحقق استيعاب أكثر الأوقات إن لم يمكن استيعاب كلها، وقد جربنا أن النائم على عزيمة قيام الليل لا يتغلغل فى النوم البهيمى وأن المتوزع خاطره على ارتفاق دنيوى وعلى محافظة وقت صلاة أو ورد أن لا يفوته لا يتجرد للبهيمية، وهذا سر قوله ﷺ «من تعار من الليل» الحديث (٢) وقوله تعالى: (رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله) ويصلح أن يجعل الفصل بين كل وقتين ربع النهار فانه يحتوى على ثلاث ساعات وهى أول حد كثرة للمقدار المستعمل عندهم فى تجزئة الليل والنهار عربهم وعجمهم، وفى الخبر «إن أول من جزأ النهار والليل إلى الساعات نوح عليه السلام وتوارث ذلك بنوه» *

الأصل الثالث إن وقت أداء الطاعة هو الوقت الذى يكون مذكراً لنعمة من نعم الله تعالى مثل يوم عاشوراء نصر الله تعالى فيه موسى عليه السلام على فرعون فصامه، وأمر بصيامه وكرمضان نزل فيه القرآن وكان ذلك ابتداء ظهور الملة الاسلامية، أو مذكراً لطاعة أنبياء الله تعالى لربهم، وقبوله إياها منهم كيوم الاضحى يذكر قصة ذبح اسمعيل عليه السلام وفدائه (بذبح عظيم) أو يكون أداء الطاعة فيه تنويها لبعض شعائر الدين كيوم الفطر فى إيقاع الصلاة والصدقة فيه تنويه برمضان وأداء شكر ما أنعم الله تعالى من توفيق صيامه وكيوم الاضحى فيه تشبه بالحاج وتعرض لنفحات الله المعدة لهم، أو تكون جرت سنة الصالحين المشهود لهم بالخير على ألسن الامم أن يطيعوا الله تعالى فيه، مثل أوقات الصلوات الخمس لقول جبرائيل: هذا وقتك ووقت الانبياء من قبلك،

(١) أى الحديث، وقوله قرض الشعر أى إنشاده، وقوله برهة أى طائفة، وقوله صبابة أى بقية، وقوله يتغلغل أى يستغرقه (٢) تعار أى انتبه واستيقظ وتماهى الحديث فقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله ثم قال رب اغفرلى - أو قال - ثم دعا استجيب له فان توطأ وصلى قبلت صلاته، اه

ومثل رمضان على وجه واحد في تفسير قوله تعالى (كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم) وكصوم يوم عاشوراء بالنسبة إلينا، ويشبه أن يكون الأصل الثالث معتبراً في أكثر الأوقات، والأصلان الأولان أصل الأصل والله أعلم *

﴿ باب أسرار الأعداد والمقادير ﴾

﴿ اعلم ﴾ أن الشرع لم يخص عدداً ولا مقداراً دون نظيره إلا لحكم ومصالح وإن كان الاعتماد الكلي على الحدس المعتمد على معرفة حال المكلفين وما يليق بهم عند سياستهم، وهذه الحكم والمصالح ترجع إلى أصول، الأول أن الوتر عدد مبارك لا يجاوز عنه ما كان (١) فيه كفاية، وهو قوله صلى الله عليه وسلم: «إن الله وتر يحب الوتر فأوتروا يا أهل القرآن» وسره أنه ما من كثرة إلا مبدؤها وحدة، وأقرب الكثرات من الوحدة ما كان وترأ إذ كل مرتبة من العدد فيها وحدة غير حقيقية بها تصوير تلك المرتبة، فالعشرة مثلاً وحدات مجتمعة أعتبرت واحداً لا خمسة وخمسة، وعلى هذا القياس، وتلك الوحدة نموذج الوحدة الحقيقية في تلك المراتب وميراثها منها، وفي الوتر هذه الوحدة ومثلها معها وهو الوحدة - بمعنى عدم الانقسام إلى عددين صحيحين متساويين - فهو أقرب إلى الوحدة من الزوج وقرب كل موجود من مبدئه يرجع إلى قرب من الحق لأنه مبدأ المبادئ والائتم في الوحدة متخلق بخلق الله ﴿ ثم اعلم ﴾ أن الوتر على مراتب شتى، وتر يشبه الزوج ويخضع كالسبعة والخمسة فأنهما بعد إسقاط الواحد ينقسمان إلى زوجين، والتسعة وإن لم تنقسم إلى عددين متساويين فأنها تنقسم إلى ثلاثة متساوية، كأن الزوج أيضاً على مراتب زوج يشبه الوتر - كاثني عشر - فانه ثلاث أربعاء، والستة فأنها ثلاث اثنتين، وإمام الأوتار وأبعدها من مشابهة الزوج الواحد ووصيه فيها وخليفته ووارثه ثلاثة وسبعة وما سوى ذلك فانه من قوم الواحد وأمه، ولذلك اختار النبي صلى الله عليه وسلم الواحد والثلاثة والسبعة في كثير من المقادير، وحيث اقتضت الحكمة أن يؤمر بأكثر منها اختار عدداً يحصل من أحدها بالترفع كالواحد يترفع إلى عشرة ومائة وألف وأيضاً إلى أحد عشر، وكالثلاثة تترفع إلى ثلاثين وثلاثة وثلاثين وثلاثمائة، وكالسبعة إلى سبعين وسبعائة فان الذي يحصل بالترفع كأنه هو بعينه، ولذلك سن النبي صلى الله عليه وسلم مائة كعبة بعد كل صلاة ثم قسمها إلى ثلاثة وثلاثين ثلاث مرات، وأفضل واحداً ليصير الأمر كله وترأ راجعاً إلى الإمام أو وصيه، وكذلك لكل مقولة من مقولات الجوهر والعرض إمام ووصي كالنقطة إمام والدائرة والكرة وصياه، وأقرب الأشكال إليه وحدثني أبي قدس سره أنه رأى واقعة عظيمة تمثل فيها الحياة والعلم والارادة وسائر الصفات الإلهية - أوقال الحى والعليم والمريد وسائر الأسماء - لا أدري أى ذلك قال: بصورة دوائر مضيئة ثم نبهني على أن تمثل الشيء البسيط في نشأة الأشكال إنما يكون بأقربها إلى النقطة وهو في السطح الدائرة وفي الجسم الكرة انتهى كلامه. ﴿ واعلم ﴾ أن سنة الله جرت بأن نزول الوحدة إلى الكثرة إنما يكون بارتباطات مثالية وعلى تلك الارتباطات تتمثل الوقائع وإياها يراعى تراجمة لسان القدم ما أمكنت مراعاتها *

(١) أى مادام، وقوله «وتر الوتر» بكسر الواو ويفتح الفرد، والله وتر - أى واحد في ذاته لا يقبل الانقسام - واحد في صفاته لا شبه له، واحد في أفعاله فلا معين له، ويجب الوتر أى يثيب عليه ويقبله من عامله «فأوتروا يا أهل القرآن» يريد به تأدية قيام الليل على أصحاب القرآن والأمر بصلاة الوتر اه

الأصل الثاني في كشف سر ما بين في الترغيب والترهيب ونحو ذلك من العدد (اعلم) أنه ربما يعرض على النبي ﷺ خصال من البر والاثم ويكشف عليه فضائل هذه ومثالب تلك فيخبر عما عليه الله ويذكر عدد ما علم حاله حينئذ وليس من قصده الحصر قال ﷺ: «عرضت على أعمال أمتي حسناتها وسيئها فوجدت في محاسن أعمالها الأذى يماط (١) عن الطريق ووجدت في مساوي أعمالها النخاعة تكون في المسجد لا تدفن» وقال: «عرضت على أجور أمتي حتى القذاة يخرجها الرجل من المسجد» وعرضت على ذنوب أمتي فلم أر ذنباً أعظم من سورة من القرآن أو آية أو تيها رجل ثم نسيها» وعلى هذا ينبغي أن يخرج قوله ﷺ: «ثلاثة لهم أجران» الحديث (٢) وقوله صلى الله عليه وسلم: «ثلاثة لا يكلمهم الله تعالى» الحديث (٣) وقوله صلى الله عليه وسلم: «أربعون خصلة أعلاهن منحة العز (٤) لا يعمل عبد بخصلة منها رجاء ثوابها أو تصديق موعودها إلا أدخله الله بها الجنة» وربما يكشف عليه فضائل عمل أو أبعاد شيء إجمالاً فيجتهد في إقامة وجه ضبط لها ونصب عدد يحصر فيه ما كثر وقوعه أو عظم شأنه ونحو ذلك، فيخبر بذلك وعلى هذا ينبغي أن يخرج قوله صلى الله عليه وسلم: «صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ (٥) بسبع وعشرين درجة» فإن هذا العدد ثلاثة في ثلاثة في ثلاثة وقد رأى أن منافع الجماعة ترجع إلى ثلاثة أقسام: ما يرجع إلى نفع نفسه من تهذيبها وظهور الملكية وقهر البهيمية، وما يرجع إلى الناس من شيوع السنة الراشدة فيهم وتنافسهم فيها وتهذيبهم بها واجتماع كلمتهم عليها وما يرجع إلى الملة المصطفوية من بقاءها غضة (٦) طرية لم يخالطها التحريف ولا التهاون، وفي الأول ثلاثة: (٧) القرب من الله والملا الأعلى، وكتابة الحسنات لهم، وتكفير الخطيئات عنهم، وفي الثاني ثلاثة: انتظام حيزهم ومدى بينهم ونزول البركات عليهم في الدنيا وشفاعة بعضهم لبعض في الآخرة: وفي الثالث ثلاثة: تمشية إجماع الملا الأعلى، وتمسكهم بحبل الله الممدود، وتعاكس أنوار بعضهم على بعض، وفي كل من هذه التسعة ثلاثة: رضا الله عنهم، وصلوات الملائكة عليهم، وانحناس الشياطين عنهم، وفي رواية أخرى بخمس وعشرين (٨) ووجهه أن منافع الجماعة خمسة في خمسة: استقامة نفوسهم، وتألف جماعتهم، وقيام ملتهم، وانبساط الملائكة، وانحناس الشياطين عنهم، وفي كل واحد خمسة: رضا الله عنهم، ونزول البركات في الدنيا عليهم، وكتابة الحسنات لهم، وتكفير الخطيئات عنهم، وشفاعة النبي ﷺ والملائكة لهم. وسبب اختلاف الروايات في ذلك اختلاف وجوه الضبط والله أعلم * وربما يؤتى بالعدد إظهاراً لعظم الشيء وكبره فيخرج العدد مخرج المثل، نظيره ما يقال محبة فلان في قلبي مثل الجبل، وقد رفلان يصل إلى عنان السماء. وعلى هذا ينبغي أن يخرج قوله صلى الله عليه وسلم: «يفسح في قبره (٩) سبعون ذراعاً» وقوله «مد البصر» وقوله «إن حوضي ما بين الكعبة وبين

(١) أي يزال، وقوله النخاعة بلغم. كفهان (٢) تمامه: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه را من محمد، والعبد المملوك إذا أدى حق الله وحق مواليه، ورجل كانت عنده أمة يطؤها فأديها فأحسن تأديبها وعلمها فأحسن تعليمها ثم أعتقها فتزوجها فله أجران، اهـ (٣) تمامه: ولا يزكيهم شيخ زان وملك كذاب وعامل متكبر، اهـ (٤) المنحة العطية، والعز الاثنى من الشياء أي يعطى شاة ينتفع بلبنها وصوفها زماناً ثم يردّها اهـ (٥) أي الفرد اهـ (٦) ترو تازّه اهـ (٧) أي منافع اهـ (٨) أي صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بخمس وعشرين درجة اهـ (٩) أي المقبور المؤمن إذا أجاب منكر أو نكيراً بالقول الثابت فيقولان له قد كنا نعلم أنك تقول هذا ثم يفسح له الخ، وقوله مد البصر أي يفسح للمقبر المؤمن بعد سؤال منكر ونكير

المقدس» وقوله «حوضي لا بعد من أيلة (١) إلى عدن» وفي مثل ذلك ربما يذكر تارة مقدار وأخرى مقدار آخر ولا تناقض في ذلك بحسب ما يرجع إلى الغرض.

الأصل الثالث أنه لا ينبغي أن يقدر الشيء إلا بمقدار ظاهر معلوم يستعمله المخاطبون في نظام الحكم وله مناسبة بمقدار الحكم وحكمته فلا ينبغي أن يقدر الدراهم إلا بالأوراق ولا التمر إلا بالأوساق ولا ينبغي أن يؤتى بجزء لا يستخرجه إلا المتعمقون في الحساب كجزء من سبعة عشر وجزء من تسعة وعشرين ولذلك ما ذكر الله تعالى في الفرائض إلا كسوراً يسهل تنصيفها وتضعيفها ومعرفة مخرجها، وذلك فصلان: أحدهما سدس وثلاث وثلثان، وثانيهما ثمن وربيع ونصف، وسره أن يظهر فضل ذي الفضل ونقصان ذي النقصان بادي الرأي وأن يسهل تخريج المسائل على الأداني والاقاصي، وحيثما وقعت الحاجة إلى مقدار دون المقدار المعتبر أولاً لا تكون النسبة بينهما نسبة الضعف فلا ينبغي أن يتعدى من الثلثين بين النصف والواحد ومن الثلث بين الربع والنصف لأن سائر الأجزاء أخفى منهما، وإذا أريد تقدير ماهو كثير في الجملة فالمناسب أن يقدر بثلاثة، وإذا أريد تقدير ماهو أكثر من ذلك فالمناسب تقديره بعشرة، وإذا كان الشيء قد يكون قليلاً وقد يكون كثيراً فالمناسب أن يؤخذ أقل حد وأكثر حد فينصف بينهما، والمعتبر في باب الزكاة خمس وعشر ونصف العشر وربيع العشر لأن زيادة الصدقة تدور على كثرة الريع وقلة المؤنة وكانت مكاسب جمهور أهل الأقاليم لا تنتظم إلا في أربع مراتب وكان المناسب أن يظهر الفرق بين كل مرتبتين - أصرح ما يكون - وذلك أن تكون الواحدة منها ضعف الأخرى، وسيأتيك تفصيله. وإذا وقعت الحاجة إلى تقدير اليسار مثلاً ينبغي أن ينظر إلى ما يعد في العرف يساراً ويرى فيه ماهو من أحكام اليسار، وذلك بحسب عادة جمهور المكلفين مشارقتهم ومغاربتهم عربهم وعجمهم وبحسب ماهو كالمنذهب الطبيعي لهم لولا المانع فإن لم يكن بناء الأمر على عادة الجمهور لتشتت حالهم فالمعتبر حال العرب الأول الذين نزل القرآن بلغتهم وتعينت الشريعة في عاداتهم ولذلك قدر الشرع الكنز بخمس أواق (٢) لأنها تكفي أقل أهل بيت سنة كاملة في أكثر أطراف المعمورة - اللهم إلا في الجذب أو البلاد العظيمة جداً أو أعمالها - وقدر الثلثة (٣) الصغيرة من الغنم بأربعين والكبيرة بمائة وعشرين، وقدر الزرع الكثير بخمسة أوساق (٤) لأن أقل البيت زوج وزوجة وثالث إما خادم أو ولد بينهما وأكثر ما يأكله الإنسان في اليوم والليلة مد أو رطل ويحتاج مع ذلك إلى إدام وهذا القدر يكفي من ذلك سنة كاملة، وقدر الماء الكثير بقلتين (٥) ولأنه حد لا ينزل منه المعادن ولا يرتقى إليه إلا واني في عادة العرب وقس على ذلك سائر التقديرات والله أعلم.

﴿باب أسرار القضاء والرخصة﴾

اعلم أن من السياسة أنه إذا أمر بشيء أو نهى عن شيء وكان المخاطبون لا يعلمون الغرض من ذلك حق العلم وجب أن يجعل عندهم كالشيء المؤثر بالخاصية، يصدق بتأثيره ولا يدرك سبب التأثير وكالرقى لا يدرك سبب تأثيرها

في قبره مد بصره (١) بفتح الهجزة وسكون الياء بلدة بين مصر والشام اهـ

(٢) جمع أوقية وهي أربعون درهما وكان ذلك فيما مضى فأما اليوم فهي أستار وثلثا أستار (٣) الثلثة بالفتح جماعة الغنم اهـ

(٤) جمع وسق وهو ستون صاعاً اهـ (٥) القلة بالضم جرة تسع مائتين وخمسين رطلاً بغدادياً اهـ

ولذلك سكنت النبي صلى الله عليه وسلم عن بيان أسرار الاوامر والنواهي تصريحاً في الاكثر وإنما لوح بشيء منه للراسخين في العلم من أمته، ولذلك كان اعتناء حملة الملة من الخلفاء الراشدين وأئمة الدين باقامة أشباح الملة أكثر من الاعتناء باقامة أرواحها حتى روى عن عمر رضى الله عنه أنه قال: أحسب جزية البحرين وأنا في الصلاة وأجهز الجيش وأنا في الصلاة، ولذلك كان سنة المفتين قديماً وحديثاً أن لا يتعرضوا لدليل المسألة عند الافتاء ووجب أن يسجل على الأخذ بالمأمور حق التسجيل ويلام على تركه أشد الملامة وتجعل أنفسهم ترغب فيها وتألفها حق الرغبة والالفة حتى تصير داعية الحق محيطة بظواهرهم وبواطنهم وإذا كان كذلك ثم منع من المأمور به مانع ضروري وجب أن يشرع له بدل يقوم مقامه لأن المكلف حينئذ بين أمرين: إما أن يكلف به مع ما فيه من المشقة والخرج وذلك خلاف موضوع الشرع قال الله تعالى: (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر)، وإما أن ينبذ وراء الظهر بالسكينة فتألف النفس بتركه وتسترسل مع إهماله، وإنما تمرن النفس تمرين الدابة الصعبة يغتنم منها الالفة والرغبة، ومن اشتغل بريضة نفسه أو تعليم الاطفال أو تمرين الدواب ونحو ذلك يعلم كيف تحصل الالفة بالمداومة ويسهل بسببها العمل وكيف تذهب الالفة بالترك والاهمال فتضيق النفس بالعمل ويثقل عليها فإن رام العود اليه احتاج إلى تحصيل الالفة ثانياً فلا بد إذاً من شرع القضاء إذا فات وقت العمل ومن الرخص في العمل ليتأتى منه ويتيسر له والعمدة في ذلك الحدس المعتمد على معرفة حال المكلفين وغرض العمل وأجزائه التي لا بد منها في تحصيل ذلك الغرض ومع ذلك فله أصول يعلمها الراسخون في العلم: أحدها أن الركن والشرط فيهما شيان *

أحدهما الأصلي الذي هو داخل حقيقة الشيء أو لازمه الذي لا يعتد به بدونه بالنظر إلى أصل الغرض منه كالدعاء وفعل الانحناء الدال على التعظيم والتبته لخلاتي الطهارة والخشوع وهذا القسم من شأنه أن لا يترك في المكروه والمنشط سواء إذ لا يتحقق من العمل شيء عند تركه.

وثانيهما التكميلي الذي إنما شرع لكونه واجباً لمعنى آخر محتاجاً إلى التوقيت ولا وقت له أحسن من هذه الطاعة أو لانه آلة صالحة لاداء أصل الغرض كاملاً وافراً، وهذا القسم من شأنه أن يرخص فيه عند المكاره، وعلى هذا الأصل ينبغي أن تخرج الرخصة في ترك استقبال القبلة إلى التحري في الظلمة ونحوها، وترك ستر العورة لمن لا يجد ثوباً، وترك الوضوء إلى التيمم لمن لا يجد ماءً، وترك الفاتحة إلى ذكر من الاذكار لمن لا يقدر عليها، وترك القيام إلى القعود والاضطجاع لمن لا يستطيعه، وترك الركوع والسجود إلى الانحناء لمن لا يستطيعهما، الأصل الثاني أنه ينبغي أن يلتزم في البدل شيء يذكر الأصل ويشعر بأنه نائبه وبدله، وسره تحقيق الغرض المطلوب من شرع الرخص وهو أن تبقى الالفة بالعمل الأول وأن تكون النفس ظالمتظرة، ولذلك اشترط في المسح على الخفين الطهارة وقت اللبس وجعل له مدة ينتهي إليها واشترط التحري في القبلة *

والأصل الثالث أنه ليس كل حرج يرخص لأجله فإن وجوه الحرج كثيرة والرخصة في جميع ذلك تفضي إلى إهمال الطاعة والاستقصاء في ذلك ينفي العناية ومقاساة التعب وهو المعروف لانقياد الشرع واستقامة النفس فافتضت الحكمة أن لا يدور الكلام إلا على وجوه كثر وقوعها وعظم الابتلاء بها لاسيما في قوم نزل القرآن بلغتهم وتعينت الشريعة في عاداتهم. ولا ينبغي أن يجاوز من ملاحظة كون الطاعة مؤثرة بالخاصية متى ما أمكن،

ولذلك شرع القصر في السفر دون الاكساب الشاقة ودون الزراع والعمال وجوز للمسافر المترفة ما جوز لغير المترفة والقضاء منه قضاء بمثل معقول ومنه بمثل غير معقول، ولما كان أصل الطاعة انقياد القلب لحكم الله ومؤاخذة النفس بتعظيم الله كان كل من عمل عن غير قصد ولا عزيمة أو هو من جنس من لا يتكامل قصده (١) ولا يتمكن من مؤاخذة نفسه بالتعظيم كما ينبغي من حقه أن يعذر وأن لا يضيق عليه كل التضيق . وعلى هذا ينبغي أن يخرج قوله ﷺ : « رفع القلم عن ثلاثة » الحديث (٢) والله أعلم *

(باب إقامة الارتفاقات وإصلاح الرسوم)

قد ذكرنا فيما سبق تصريحاً أو تلويحاً أن الارتفاق الثاني والثالث مما جبل عليه البشر وامتازوا به عن سائر أنواع الحيوان محال أن يتركوهما أو يهملوهما، وأنهم يحتاجون في كثير من ذلك إلى حكم عالم بالحاجة وطريق الارتفاق منها منقاد للمصلحة الكلية إما مستنبط بالفكر والروية أو يكون نفسه قد جبلت فيها قوة ملكية فيكون مهيباً لنزول علوم من الملأ الأعلى - وهذا أتم الأمرين وأوثق الوجهين - وأن الرسوم من الارتفاقات هي بمنزلة القلب من الجسد، وأنه قد يدخل في الرسوم مفسد من جهة ترأس (٣) قوم ليس عندهم مسكة (٤) العقل الكلى فيخرجون إلى أعمال سبعية أو شهوية أو شيطانية فيروجونها فيقتدى بهم أكثر الناس . ومن جهة أخرى نحو ذلك فتمس الحاجة إلى رجل قوى مؤيد من الغيب منقاد للمصلحة الكلية ليغير رسومهم إلى الحق بتدبير لا يهتدى له في الأثر إلا المؤيدون من روح القدس، فإن كنت قد أحطت علماً بما هنالك ﷺ فاعلم أن أصل بعثة الأنبياء وإن كان لتعليم وجوه العبادات أولاً وبالذات لكنه قد تنضم مع ذلك إرادة إخمال الرسوم الفاسدة والحث على وجوه من الارتفاقات، وذلك قوله ﷺ « بعثت لمحق المعازف » (٥) وقوله عليه الصلاة والسلام : « بعثت لا تتم مكارم الأخلاق » ﷺ و« اعلم » أنه ليس رضا الله تعالى في إهمال الارتفاق الثاني والثالث ولم يأمر بذلك أحد من الأنبياء عليهم السلام وليس الأمر كما ظنه قوم فروا إلى الجبال وتركوا مخالطة الناس رأساً في الخير والشر وصاروا بمنزلة الوحش، ولذلك رد النبي ﷺ على من أراد التبتل وقال : « ما بعثت بالرهبانية وإنما بعثت بالملة الحنيفية السمحة » لكن الأنبياء عليهم السلام أمروا بتعديل الارتفاقات وأن لا يبلغ بها حال المتعمقين في الرفاهية كملوك العجم ولا ينزل بها إلى حال سكان شواطئ الجبال اللاحقين بالوحش . وههنا قياسان متعارضان : أحدهما أن الترفه حسن يصح به المزاج ويستقيم به الأخلاق ويظهر به المعاني التي امتاز به الآدمي من سائر بني جنسه ، والغباوة والعجز ونحوهما تنشأ من سوء التدبير، وثانيهما أن الترفه قبيح لاحتياجه إلى منازعات ومشاركات وكد وتعب وإعراض عن جانب الغيب وإهمال لتدبير الآخرة، ولذلك كان المرضي التوسط وإبقاء الارتفاقات وضم الأذكار معها والآداب وانتهاز فرص للتوجه إلى الجبروت، والذي أتى به الأنبياء قاطبة من عند الله تعالى في هذا الباب هو أن ينظر إلى ما عند القوم من آداب الأكل والشرب واللباس والبناء ووجوه الزينة ومن سنة النكاح وسيرة المتناكحين ومن طرق البيع والشراء ومن وجوه المزاجر عن المعاصي وفصل القضايا ونحو ذلك . فإن كان

(١) كالصبي اه (٢) أي النائم والصبي والمعتوه، قيل المراد بالرفع في الشردون الخير لقوله ﷺ « مروهم بالصلاة » اه

(٣) أي سيادة اه (٤) أي بقية اه (٥) المعازف الدفوف والملاهي ، والمراد بالمحق الاعدام اه

الواجب بحسب الرأي السكلي منطبقاً عليه فلا معنى لتحويل شيء منه من موضعه ولا العدول عنه إلى غيره بل يجب أن يبحث القوم على الأخذ بما عندهم وأن يصوب رأيهم في ذلك ويرشدوا إلى ما فيه من المصالح وإن لم ينطبق عليه ومست الحاجة إلى تحويل شيء أو إخماله لكونه مفضياً إلى تأذي بعضهم من بعض أو تعمقاً في لذات الحياة الدنيا وإعراضاً عن الاحسان أو من المسليات (١) التي تؤدي إلى إهمال مصالح الدنيا والآخرة ونحو ذلك فلا ينبغي أن يخرج إلى ما يباين مألوفهم بالسكلية بل يحول إلى نظير ما عندهم أو نظير ما اشتهر من الصالحين المشهود لهم بالخير عند القوم ، وبالجمل فإلى مالو ألقى عليهم لم تدفعه عقولهم بل اطمانت بأنه حق، ولهذا المعنى اختلفت شرائع الأنبياء عليهم السلام . والراسخ في العلم يعلم أن الشرع لم يحجى في النكاح والطلاق والمعاملات والزينة واللباس والقضاء والحدود وقسمة الغنيمة بما لم يكن لهم به علم أو يترددوا فيه إذا كلفوا به نعم إنما وقع إقامة المعوج وتصحيح السقيم كان قد كثر فيهم الربا فنهوا عنه وكانوا يبيعون الثمار قبل أن يبدو صلاحها يختصمون ويحتجون بعاها (٢) تصيبها فنهوا عن ذلك البيع وكانت الدية على عهد عبدالمطلب عشرة من الابل فلما رأى أن القوم لا يترددون عن القتل بلغها مائة فأبقاها النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك، وأول قسامة وقعت هي التي كانت بحكم أبي طالب وكان لرئيس القوم مربع (٣) كل غارة فسن رسول الله ﷺ الخمس من كل غنيمة وكان قباذ وابنه أنوشروان وضعا عليهم الخراج والعشر فجاء الشرع بنحو من ذلك وكان بنو إسرائيل يرمجون الزناة ويقطعون السراق ويقتلون النفس بالنفس فنزل القرآن بذلك وأمثال هذه كثيرة جداً لا تحفى على المتتبع بل لو كنت فطناً محيطاً بجوانب الاحكام لعلمت أيضاً أن الانبياء عليهم السلام لم يأتوا في العبادات غير ما عندهم هو أو نظيره لكنهم نفوا تحريفات الجاهلية وضبطوا بالاوقات والاركان ما كان مبهما وأشاعوا بين الناس ما كان خاملاً •

اعلم أن العجم والروم لما توارثوا الخلافة قرونا كثيرة وخاضوا في لذة الدنيا ونسوا الدار الآخرة واستحوذ عليهم الشيطان تعمقوا في مرافق المعيشة وتباهوا بها وورد عليهم حكماء الآفاق يستنبطون لهم دقائق المعاش ومرافقه فما زالوا يعملون بها ويزيد بعضهم على بعض ويتباهون بها حتى قيل إنهم كانوا يعيرون من كان يلبس من صناديدهم منطقة أو تاجاً قيمتها دون مائة ألف درهم أو لا يكون له قصر شامخ وآبزن وحمام وبساتين ولا يكون له دواب فارهة وغلبان حسان ولا يكون له توسع في المطاعم وتجميل في الملابس وذكر ذلك يطول وما تراه من ملوك بلادك يغنيك عن حكاياتهم فدخل كل ذلك في أصول معاشهم وصار لا يخرج من قلوبهم إلا أن تمزع (٤) وتولد من ذلك داء عضال دخل في جميع أعضاء المدينة وآفة عظيمة لم يبق منهم أحد من أسواقهم ورستاقهم وغنيهم وفقيرهم إلا قد استولت عليه وأخذت بتلايينه (٥) وأعجزته في نفسه وأهاجت عليه غموماً وهموماً لا أرجاء (٦) لها وذلك أن تلك الأشياء لم تكن لتحصل إلا ببذل أموال خطيرة ولا تحصل تلك الأموال إلا بتضعيف الضرائب على الفلاحين والتجار وأشباههم والتضييق عليهم فان امتنعوا قاتلوهم وعذبوهم وإن أطاعوا جعلوهم بمنزلة الحمير والبقر يستعمل في النضح والدياس والحصاد ولا تقتنى إلا ليلستعان

(١) مسليات جيزها بيكه بيغم كردانند اه (٢) اى آفات اه (٣) اى نوق تلد في اول التناج اى هذه الاموال من الغنيمة كانت حق الرؤساء اه (٤) اى تقطع اه (٥) جيوبه اه (٦) أطراف اه
(م - ١٤ - ج ١ حجة البالغة)

بها في الحاجات ثم لا تترك ساعة من العناء حتى صاروا لا يرفعون رؤسهم إلى السعادة الآخروية أصلاً ولا يستطيعون ذلك وربما كان إقليم واسع ليس فيهم أحد يهتم دينه ولم يكن ليحصل أيضاً إلا بقوم يتكسبون بتهيئة تلك المطاعم والملابس والأبنية وغيرها ويتركون أصول المكاسب التي عليها بناء نظام العالم وصار عامة من يطوف عليهم يتكلفون محاكاة الصناديد في هذه الأشياء وإلالم يجدوا عندهم حظوة ولا كانوا عندهم على بال، وصار جمهور الناس عيالاً على الخليفة يتكففون منه تارة على أنهم من الغزاة والمدبرين للمدينة يترسمون برسومهم ولا يكون المقصود دفع الحاجة ولكن القيام بسيرة سلفهم، وتارة على أنهم شعراء جرت عادة الملوك بصلتهم، وتارة على أنهم زهاد وفقراء يقبض من الخليفة أن لا يتفقد حالهم فيضيق بعضهم بعضاً وتتوقف مكاسبهم على صحبة الملوك والرفق بهم وحسن المحاورة معهم والتلق منهم و كان ذلك هو الفن الذي تتعمق أفكارهم فيه وتضيع أوقاتهم معه فلما كثرت هذه الاشغال تشبج في نفوس الناس هيات خسيصة وأعرضوا عن الاخلاق الصالحة، وإن شئت أن تعرف حقيقة هذا المرض فانظر إلى قوم ليست فيهم الخلافة ولا هم متعمقون في لذائذ الاطعمة والالبسة تجد كل واحد منهم بيده أمره وليس عليه من الضرائب الثقيلة ما يثقل ظهره فهم يستطيعون التفرغ لأمور الدين والملة ثم تصور حالهم لو كان فيهم الخلافة وملاً وهاوسخروا الرعية وتسلطوا عليهم فلما عظمت هذه المصيبة واشتد هذا المرض سخط عليهم الله والملائكة المقربون وكان رضاه تعالى في معالجة هذا المرض بقطع مادته فبعث نبياً آمياً ﷺ لم يخالط العجم والروم ولم يترسم برسومهم وجعله ميزاناً يعرف به الهدى الصالح المرضي عند الله من غير المرضى وانطقه بدم عادات الاعاجم وقبح الاستغراق في الحياة الدنيا والاطمئنان بها ونفث في قلبه أن يحرم عليهم رؤس ما اعتاده الاعاجم وتباهوا بها كلبس الحرير والقسي والارجوان واستعمال أواني الذهب والفضة وحلي الذهب غير المقطع والثياب المصنوعة فيها الصور وتزويق البيوت وغير ذلك. وقضى بزوال دولتهم بدولته ورياستهم برياسته وبأنه هلك كسرى فلا كسرى بعده وهلك قيصر فلا قيصر بعده ﴿واعلم﴾ أنه كان في أهل الجاهلية مناقشات ضيقت على القوم وصعبت ولم يكن زوالها إلا بقطع رؤسهم في ذلك الباب كثار القتل كان الانسان يقتل انساناً فيقتل ولي المقتول أخا القاتل أو ابنه ويعود هذا فيقتل واحداً منهم ويدور الأمر كذلك فقال النبي ﷺ: «كل دم موضوع (١) تحت قدمي هذه وأول دم أضعه دم ربيعة» وكالمواريث كان رؤساء القوم يقضون فيها بقضايا مختلفة وكان الناس لا يمتنعون من نحو غصب وربما فيمرقون على ذلك ثم يأتي قرن آخر فيحتجون بحجج فقطع النبي صلى الله عليه وسلم المناقشة من بينهم فقال كل شيء أدركه الاسلام يقسم على حكم القرآن وكل ما قسم في الجاهلية أو حازه إنسان في الجاهلية بوجه من الوجوه فهو على ما كان لا ينقض، وكالربا كان أحدهم يقرض مالا ويشترط زيادة ثم يضيق عليه فيجعل المال وما اشترط جميعاً أصلاً ويشترط الزيادة عليه وهلم جرا حتى يصير قناطير مقنطرة فوضع الربا وقضى برأس المال (لا يظلمون ولا يظلمون) إلى غير ذلك من أمور لم تكن لتترك لولا النبي صلى الله عليه وسلم ﴿واعلم﴾ أنه ربما يشرع للناس رسم قطعاً لضغائنهم (٢) كالأبتداء من اليمين في السقي ونحوه فانه قد

(١) أي مبطل كالشيء الموضوع تحت القدم يتلاشى، وأراد قطع النزاع عن دماء الجاهلية لأن منها ما كان باطلاً أو غير ثابت وكان ربيعة من أقاربه فقال: «أول دم» الخ اهـ (٢) مفعول له ليشرع، أي يشرع لقطع الضغائن اهـ

يكون ناس متشاكسون (١) ولا يسلم الفضل لبدأ بصاحبه فلا تنقطع المناقشة بينهم إلا بمثل ذلك وكلامه
صاحب البيت وكتقدم صاحب الدابة على رفيقه إذا ركبها ونحو ذلك والله أعلم .

﴿ باب الأحكام التي يجر بعضها لبعض ﴾

قال الله تعالى : (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون بالبينات
والزبر وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون) اعلم أن الله تعالى بعث نبيه صلى
الله عليه وسلم ليبين للناس ما أوحاه إليه من أبواب العبادات ليأخذوا بها ومن أبواب الآثام ليجتنبوها وما
ارتضاه لهم من الارتفاقات ليقتدوا بها، ومن هذا البيان أن يعلمهم ما يقتضيه الوحي أو يوميء إليه ونحو ذلك *
وهذه أصول يخرج عليها جملة عظيمة من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم ونذكر هنا معظمها ،
منها أن الله تعالى إذا أجرى سنته على نحو بأن رتب الأسباب مفضية إلى مسبباتها لتنظم المصلحة المقصودة
بحكمته البالغة ورحمته التامة اقتضى ذلك أن يكون تغير خلق الله شراً وسعيّاً في الفساد وسبباً لترشح التفرقة
عليه من الملائكة الأعلى ، فلما خلق الله الانسان على وجه لا يتكون في أكثر الأوقات والأحيان من الأرض
تكون الديدان منها وكانت حكمته تقتضى بقاء نوع الانسان بل انتشار أفراده وكثرتهم في العالم أودع فيهم
قوى التناسل ورغبهم في طلب النسل وجعل الغلبة (٢) مسلطة عليهم منهم ليقضى الله بذلك أمراً أوجبته
الحكمة البالغة، فلما أطلع الله النبي صلى الله عليه وسلم على هذا السر وكشف عليه جليلة الحال اقتضى ذلك أن
ينهى عن قطع هذا السبيل وإهمال تلك القوى المقتضية أو صرفها في غير محلها ولذلك نهى أشد النهى عن
الخصاء واللواط وكره العزل (٣) واعلم أن أفراد الانسان عند سلامة مزاجها وتمكين المادة أحكام النوع
من نفسها تكون على هيئة معلومة من استواء القامة وظهور البشرة ونحو ذلك وهذا حكم النوع ومقتضاه وأثره
في الافراد ، وفي الخبر العالى طلب واقتضاء لبقاء الأنواع وظهور أشباحها في الأرض ولذلك كان النبي صلى
الله عليه وسلم أمر بقتل الكلاب ثم نهى عن ذلك وقال : «إنها أمة من الأمم» يعنى أن النوع له مقتضى عند الله
ونفى أشباحه من الأرض غير مرضى وهذا الاقتضاء ينجر إلى اقتضاء ظهور أحكام النوع في الافراد فمناقضة
هذا الاقتضاء والسعى في رده قبيح منافر للمصلحة الكلية وعلى هذه القاعدة يخرج التصرف في البدن بما لا يقتضيه
حكم النوع كالخصاء والتفالج (٤) والتنميص ونحو ذلك أما الكحل والتسريح فان ذلك كالأعانة على ظهور
الأحكام المقصودة والموافقة بها، ولما شرع الله تعالى لبنى آدم شريعة ينتظم بها شملهم ويصلح بها حالهم وكان في المملوكات
داعية لظهورها كان أمرها كأمر الأنواع في طلب ظهور الأشباح في الأرض ولذلك كان السعى في إهمالها
مسخوطاً عند الملائكة الأعلى منافراً لما هو مقتضاهم ومطمح همهم وكذلك الارتفاقات التي أجمع عليها طوائف
الناس من عربهم وعجمهم وأقاصيهم وأدانهم فانها كالأمر الطبيعي .

(١) أي متخالفون اهـ (٢) أي غلبة الشهوة اهـ (٣) أي الاعتزال عن زوجته وقت الجماع والانزال خارج قبلها لكي
لا تحبل اهـ (٤) التفالج محرقة فرجة . ابين الثنايا والرباعيات، والتفالج فعل ذلك بالتكلف وقد ورد النهى عن ذلك بقوله
ﷺ « لعن الله المتفلجات للحسن » أي اللاتي يفعلنه للتحسين اهـ والنميص تنف الشعر عن الوجه، والتنميص الأمر به أي إن امرأة
تأمر أخرى بتنف الشعر عن وجهها وهو حرام اهـ

فلما شرع الله تعالى الأيمان والبيّنات موضحة لجليّة الحال اقتضى ذلك أن تكون شهادة الزور واليمين الكاذبة مسخوطة عند الله وملائكته، ومنها أنه إذا أوحى إليه بحكم من أحكام الشرع واطلع على حكمته وسببه كان له أن يأخذ تلك المصلحة وينصب (١) لها علة ويدبر عليها ذلك الحكم وهذا قياس النبي صلى الله عليه وسلم وإنما قياس أمته أن يعرفوا علة الحكم المنصوص عليه فيدبروا الحكم حيث دارت، مثاله الاذكار التي وقتها النبي صلى الله عليه وسلم بالصبح والمساء ووقت النوم فانه لما اطلع على حكمة شرع الصلوات اجتهد في ذلك، ومنها أنه إذا فهم النبي صلى الله عليه وسلم من آية وجه سوق الكلام وإن لم يكن غيره يفهم منه ذلك لدقة مأخذه أو تراحم الاحتمالات فيه كان له أن يحكم حسبما فهم كقوله تعالى «إن الصفا والمروة من شعائر الله» فهم منه النبي صلى الله عليه وسلم أن تقديم الصفا على المروة لأجل موافقة البيان لما هو المشروع لهم كما قد يكون لموافقة السؤال ونحو ذلك فقال: «ابدءوا بما بدأ الله به» وكقوله تعالى: (لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن) وقوله تعالى: (فلما أفل قال لا أحب الآفلين) فهم منهما النبي صلى الله عليه وسلم استحباب أن يعبدوا الله تعالى عند الكسوف والخسوف، وكقوله تعالى: (والله المشرق والمغرب) الآية فهم منه أن استقبال القبلة فرض يحتمل السقوط عند العذر فخرج حكم من تحرى في الليلة الظلماء فاخطأ جهة القبلة وصلى لغيرها وحكم الراكب على الدابة يصلى النافلة خارج البلد، ومنها أنه إذا أمر الله تعالى أحداً بشيء من معاملة الناس اقتضى ذلك أن يؤمر الناس بالانقياد له فيها فلما أمر القضاة أن يقيموا الحدود اقتضى ذلك أن يؤمر العصاة بأن ينقادوا لهم فيها، ولما أمر المصدق بأخذ الزكاة من القوم أمروا أن لا يصدر عنهم إلا راضياً، ولما أمر النساء أن يسترن أمر الرجال أن يغضوا أبصارهم عنهن، ومنها أنه إذا نهى عن شيء اقتضى ذلك أن يؤمر بضده وجوباً أو ندباً حسب اقتضاء الحال وإذا أمر بشيء اقتضى ذلك أن ينهى عن ضده فلما أمر بصلاة الجمعة والسعي إليها وجب أن ينهى عن الاشتغال بالبيع والمكاسب حينئذ، ومنها أنه إذا أمر بشيء حتماً اقتضى ذلك أن يرغب في مقدماته ودواعيه وإذا نهى عن شيء حتماً اقتضى ذلك أن يسد ذرائعه ويخمل دواعيه (٢) ولما كانت عبادة الصنم إثماً وكانت المخالطة بالصور والاصنام مفضية إليه كما وقع في الامم السالفة وجب أن يقبض على أيدي المصورين، ولما كان شرب الخمر إثماً وجب أن يقبض على أيدي العصارين وينهى عن الحضور على المائدة التي فيها خمر، ولما كان القتال في الفتنة إثماً وجب أن ينهى عن بيع السلاح في وقت الفتنة.

ونظير هذا الباب من سياسة المدينة أنهم لما اطلعوا على مفسدة دس السم في الطعام والشراب أخذوا الموابق من بائعي الادوية أن لا يبيعوا السم إلا قدراً لا يهلك شارب به غالباً، ولما اطلعوا على خيانة قوم اشتروا عليهم أن لا يركبوا الخيل ولا يحملوا السلاح وكذلك باب العبادات لما كانت الصلاة أعظم أبواب الخير وجب أن يحض على الجماعة فانها إعانة على الأخذ بها ووجب أن يحض على الاذان ليحصل الاجتماع في زمان واحد في مكان واحد ووجب الحث على بناء المساجد وتطيبها وتنظيفها، ولما كانت معركة أول يوم من رمضان متوقفة عند الغيم ونحوه على عدة شعبان استحجب إحصاء هلال شعبان. ونظيره من سياسة المدينة أنهم لما رأوا في الرمي منفعة عظيمة أمروا بالاكثر من اصطناع القسي والنبل والتجارة فيها، ومنها (٣) أنه إذا أمر بشيء أو نهى عن

شيء اقتضى ذلك أن ينوء بشأن المطيعين ويزدري بالعصاة، ولما كانت قراءة القرآن مطلوباً بشيوعها والمواظبة عليها وجب أن يسن أن لا يؤمهم إلا أقرؤهم وأن يوقر القراء في المجالس، ولما كان القذف إثماً وجب أن يسقط القاذف من مرتبة قبول الشهادة، وعلى ذلك يخرج ما ورد من النهي عن مفاتحة المبتدع والفاسق بالسلام والكلام، ونظيره من سياسة المدينة زيادة جائزة الرماة وتقديمهم في الإثبات والاعطاء، ومنها أنه إذا أمر القوم بشيء أو نهوا عنه كان من حق ذلك أن يؤمروا بعزيمة الإقدام على هذا والكف عن ذلك وأن يؤاخذوا قلوبهم باضمار الداعية حسب الفعل ولذلك ورد التوبيخ عن إضمار أن يقصد عدم الاداء في القرض والمهر، ومنها أنه إذا كان شيء محتمل مفسدة كان من حقه أن يكره كقوله صلى الله عليه وسلم: «فلا يغمس (١) يده في الإماء فإنه لا يدري أين باتت يده» وبالجملية علم الله تعالى نبيه أحكاماً من العبادات والآراء تفافات فيبينها النبي ﷺ بهذا النحو من البيان، وخارج منها أحكاماً جلية في كل باب باب، وهذا الباب من البيان مع الباب الذي يليه إن شاء الله تعالى تلقاهما فقهاء الأمة من بين علوم النبي صلى الله عليه وسلم ووعاها قلوبهم بتدبر فانشعب منهما ما أودعوه في مصنفاتهم وكتبهم والله أعلم.

باب ضبط المبهم وتميز المشكل والتخريج من الكلية ونحو ذلك

اعلم أن كثيراً من الأشياء التي أديرت الأحكام على أساميها معلوم بالمثل والقسمة غير معلوم بالحد الجامع المانع الذي يكشف حال كل فرد فرد أنه منه أولاً كالسرقة قال الله تعالى: (السارق والسارقة فاقطعوا أيديهما) أجرى الحد على اسم السارق ومعلوم أن الواقع في قصة بنى الالبيرق وطعيمة والمرأة (٢) الخزومية هي السرقة ومعلوم أن أخذ مال الغير أقسام (منها) السرقة، ومنها قطع الطريق، ومنها الاختلاس، ومنها الخيانة، ومنها الالتقاط، ومنها الغصب، ومنها قلة المبالاة، وفي مثل ذلك ر بما يسأل النبي ﷺ عن صورة صورة هل هي من السرقة سؤال مقال أو سؤال حال فيجب عليه أن يبين حقيقة السرقة متميزة عما يشاركها بحيث يتضح حال كل فرد فرد. وطريق التميز أن ينظر إلى ذاتيات هذه الأسماء التي لا توجد في السرقة ويقع بها التفارق بين القبيلتين وإلى ذاتيات السرقة التي يفهمها أهل العرف من تلك اللفظة ثم يضبط السرقة بأمور معنوية يحصل بها التميز فيعلم مثلاً أن قطع الطريق والحراقة ونحوهما من الأسماء تنبئ عن اعتماد القوة بالنسبة إلى المظلومين واختيار مكان أو زمان لا يلحق فيه الغوث من الجماعة، وأن الاختلاس ينبئ عن اختطاف على أعين الناس وفي مرأى منهم ومسمع، والخيانة تنبئ عن تقدم شركة أو مباسطة، وحفظ الالتقاط ينبئ عن وجدان شيء في غير حرز، والغصب ينبئ عن غلبة بالنسبة إلى المظلوم جهرة معتمداً على جدل أو ظن أن لا ترفع القضية إلى الولاية أولاً ينكشف عليهم جلية الحال أولاً يقضوا بحق لنحو رشوة، وقلة المبالاة تقال في الشيء التافه (٣) الذي جرى العرف ببذله والمواساة به كالماء والخطب، والسرقة تنبئ عن الأخذ خفية فضبط النبي ﷺ السرقة بربع دينار أو ثلاثة دراهم لتمييز عن التافه وقال: «ليس على خائن ولا منتهب ولا محتلس قطع» وقال «لا قطع في ثمر معلق ولا في حريسة (٤) الجبل» يشير

(١) أوله «إذا استيعظ أحدكم من نومته فلا يغمس» الخ كما في الصحيحين اهـ

(٢) أي فاطمة بنت الأسود التي سرق وشفع فيها أسامة بن زيد فلم يقبل رسول الله ﷺ الشفاعة وقال: «لو أن فاطمة بنت محمد

سرق لقطعت يدها» اهـ (٣) أي الحقير اهـ (٤) بمعنى محروسة أي ولا قطع فيها بحرس بالجبل إذا سرق لعدم الحرز اهـ

إلى اشتراط الحرز ، وكالرفاهية البالغة فانها مفسدة غير مضبوطة ولا تتميز بمواقع وجودها بأمارات ظاهرة يؤخذ بها الأداني والآقاصي ، ولا يشتبه على أحد أن الرفاهية متحققة فيها معلوم أن عادة العجم في اقتناء المراكب الفارحة والآبنية الشاحنة والثياب الرفيعة والحلى المترفة ونحو ذلك من الرفاهية البالغة ، ومعلوم أن الترفه مختلف باختلاف الناس فترفه قوم تقشف (١) عند الآخرين وجيد إقليم تافه في إقليم آخر ومعلوم أن الارتفاق قد يكون بالجلد وبالردىء والثاني ليس بترفه والارتفاق بالجلد قد يكون من غير قصد إلى جودته أو من غير أن يكون ذلك غالباً عليه في أكثر أمره فلا يسمى في العرف مترفها فأطلق الشرع التنبيه على مفسد الرفاهية مطلقاً وخص أشياء وجدهم لا يرتفقون بها إلا للترفه ووجد الترفه بها عادة فاشية فيهم، ورأى أهل العصر من العجم والروم كالمجمعين على ذلك فنصبها مظنة للرفاهية البالغة وحرّمها ولم ينظر إلى الارتفاقات النادرة ولا إلى عادة الأقاليم البعيدة فتحريم الحرير وأواني الذهب والفضة من هذا الباب، ثم أنه وجد (٢) حقيقة الرفاهية اختيار الجيد من كل ارتفاق والاعراض عن رديئه . والرفاهية البالغة اختيار الجيد وترك الرديء من جنس واحد ووجد من المعاملات ما لا يقصد فيه إلا اختيار الجيد والاعراض عن الرديء من جنس واحد اللهم إلا في مواد قليلة لا يعبأ بها في قوانين الشرائع فخرّمها لأنها كالشبح لمعنى الرفاهية وكالتمثال لها وتحريمها كالمقتضى الطبيعي لسكراهته الرفاهية وإذا كانت مظان الشيء محرمة لأجله وجب أن يحرم شبحه وتمثاله بالأولى، وتحريم بيع النقد والطعام بجنسها متفاضلاً مخرج على هذه القاعدة ولم يحرم اشتراء الجيد بالثمن الغالى لأن الثمن ينصرف إلى ذات المبيع دون وصفه عند اختلاف الجنس ولم يحرم اشتراء جارية بحاريتين ولا ثوب بثوبين لأنها من ذوات القيم فتصرف زيادة الثمن إلى خواص الشخص وتكون الجودة مغمورة في تلك الخواص فلا يتحقق اعتبار الجودة بآدى الرأى، ومما مهدنا ينكشف كثير من النكت المتعلقة بهذا الباب كسبب كراهية بيع الحيوان بالحيوان وغير ذلك فليتدبر . وقد يكون شيئاً مشتبهين لا يتميزان لآمر خفى لا يدركه إلا النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم والراسخون في العلم من أمته فتمس الحاجة إلى معرفة علامة ظاهرة لكل منهما وإدارة حكم البر والاثم على علامتهما وأحكام التفريق بينهما (مثاله) النكاح والسفاح لحقيقة النكاح إقامة المصلحة التي يبني عليها نظام العالم بالتعاون بين الزوج وزوجته وطلب النسل وتحصين الفرج ونحو ذلك وذلك مرضى عنه مطلوب ، وحقيقة السفاح جريان النفس في غلوائها وإمعانها في اتباع شهوتها وخرق جلباب الحياء والتقيد عنها وترك التعرّيج إلى المصلحة الكلية والنظام الكلى وذلك مسخوط عليه ممنوع عنه وهما مشتبهان في أكثر الصور فانهما يشتركان في قضاء الشهوة وإزالة ألم الغلّة والميل إلى النساء ونحو ذلك فمست الحاجة إلى تميز كل واحد عن صاحبه بعلامة ظاهرة وإدارة الطلب والمنع عليها فخص النبي ﷺ النكاح بأمور منها أن يكون بالنساء دون الرجال فان طلب النسل لا يكون إلا منهن، وأن يكون من عزم ومشورة وإعلان فشرط حضور الشهود والأولياء ورضا المرأة ، ومنها توطين النفس على التعاون ولا يكون ذلك في الأكثر إلا بأن يكون دائماً لازماً غير مؤقت فحرم نكاح السر والمتعة وحرّم اللواط وربما يكون فعل من البر مشتبهاً بما هو من مقدمات الآخر فتمس الحاجة إلى التفرقة بينهما كالقومة شرعت فاصلة بين الركوع والانحناء الذي هو من مقدمات السجود

وربما لا يكون الشيء متكثر الارتفاق كالجلوس بين السجدين وربما يكون الشرط أو الركن في الحقيقة أمرا خفيا وفعلا من أفعال القلب فينصب له أماراة من أفعال الجوارح أو الأقوال ويجعل هو ركنا ضبطا للخفي به كالنية وإخلاص العمل لله أمر خفي فنصب استقبال القبلة والتكبير له مظنة وجعلا أصلا في الصلاة وإذا ورد النص بصيغته أو اقتضى الحال إقامة نوع مداراً للحكم ثم حصل في بعض المواد اشتباه فمن حقه أن يرجع في تفسير تلك الصيغة أو تحقيق حد جامع مانع لذلك النوع إلى عرف العرب كما ورد النص في الصوم بشهر رمضان ثم وقع الاشتباه في صورة الغيم فكان الحكم ما عند العرب من إكمال عدة شعبان ثلاثين وأن الشهر قد يكون ثلاثين يوما وقد يكون تسعة وعشرين وهو قوله وَاللَّهِ عَلِيمٌ «إنا أمة أمية لانكتب ولا نحسب الشهر كذا» الحديث. وكما ورد النص في القصر بصيغة السفر ثم وقع الاشتباه في بعض المواد فحكم الصحابة أنه خروج من الوطن إلى موضع لا يصل إليه في يومه ذلك ولا أوائل ليلته تلك ومن ضرورته أن يكون مسيرة يوم وشيء معتد به من اليوم الآخر فيضبط بأربعة برد * واعلم أن العمدة في تخصيص النبي ﷺ بحكم من بين أمته أن يكون الحكم راجعا إلى مظنة شيء دون حقيقته وهو قول طاوس في ركعتين بعد العصر إنما نهى عنهما لئلا يتخذ سلما والنبي ﷺ يعرف الحقيقة فلا اعتبار في حقه للمظنة بعد ما عرف المئنة (١) كتزوج أكثر من أربعة نسوة هو مظنة ترك الاحسان في العشرة الزوجية وإهمال أمرهن ويشتبه على سائر الناس أما النبي صلى الله عليه وسلم فهو يعرف ما هو المرضي عنه في العشرة الزوجية فأمر بنفسه دون مظنته أو يكون راجعا إلى تحقيق الرسم دون معنى تهذيب النفس كنهيه عن بيع وشرط ثم ابتاع من جابر بعيرا على أن له ظهره إلى المدينة أو يكون مفضيا إلى شيء بالنسبة إلى من ليس له مسكة العصمة وهو قول عائشة رضي الله عنها في قبلة الصائم أيكم يملك إربه (٢) كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يملك إربه أو تكون نفسه العالية مقتضية لنوع من البر فيؤمر به لأن هذه النفس تشتاق إلى زيادة التوجه إلى الله وإلى زيادة خلع جلباب الغفلة كما يشتاق الرجل القوى إلى أكل طعام كثير كالتلهجد والضحي والاضحية على قول والله أعلم *

﴿باب التيسير﴾

قال الله تعالى: (فما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك) وقال (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا بى موسى. ومعاذ بن جبل رضي الله تعالى عنهما لما بعثهما إلى اليمن «يسرا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفرا وتطاوعا ولا تختلفا» وقال صلى الله عليه وسلم «فانما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين» والتيسير يحصل بوجوه، منها أن لا يجعل شيء يشق عليهم ركنا أو شرطا لطاعة والاصل فيه قوله صلى الله عليه وسلم «لولا أن أشق على أمتي لامرتهم بالسواك عند كل صلاة» ومنها أن يجعل شيء من الطاعات رسوما يتباهون بها داخلية فيما كانوا يفعلونه بداعية من عند أنفسهم كالعيدين والجمعة وهو قوله ﷺ: «ليعلم اليهود أن في ديننا فسحة» فان التجميل في الاجتماعات العظيمة والمنافسة فيما يرجع إلى التباهي ديدن (٣) الناس، ومنها أن يسن لهم في الطاعات ما يرغبون فيه بطبيعتهم لتكون الطبيعة داعية إلى ما يدعوا إليه العقل فيتعاضد الرغبةتان ولذلك

(١) أي الحقيقة اه (٢) الأرب بكسر الهمزة وسكون الراء العضو اعنى الذكر، ويروى أيضا بفتحين بمعنى الحاجة
أي يغلب هواها اه (٣) أي طريق

من تطيب المساجد وتنظيفها والاعتساف يوم الجمعة والتطيب فيه، واستحب التغنى بالقرآن وحسن الصوت بالآذان ومنها أن يوضع عنهم الأصر وما يتنفرون منه بطبيعتهم ولذلك كره إمامة العبد والاعرابي ومجهول النسب فإن القوم ينحجمون من الاقتداء بمثل ذلك ومنها أن يبقى عليهم شيء مما تقتضيه طبيعة أكثرهم أو يحدون عند تركه حرجاً في أنفسهم كالسلطان هو أحق بالإمامة وصاحب البيت أحق بالإمامة والذي ينكح امرأة جديدة يجعل لها سبعة (١) أو ثلاثاً ثم يقسم بين أزواجه، ومنها أن يجعل السنة بينهم تعليم العلم والموعظة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لتمتليء به أوعية قلوبهم فينقادوا للنواميس من غير كلفة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخولهم بالموعظة (٢) ومنها أن يفعل النبي صلى الله عليه وسلم أفعالا مما يأمرهم به أو يرخصهم فيه ليعتبروا بفعله ومنها أن يدعو الله تعالى أن يجعل القوم مذهبين كاملين، ومنها أن تنزل عليهم سكينه من ربهم بواسطة الرسول فيصيروا بين يديه بمنزلة من على رأسه الطير، ومنها أن يرغم أنف من أراد غير الحق بتأييده (٣) كالقاتل لا يرث والمكره في الطلاق لا ينفذ طلاقه فيكون كالجبارين من الإكراه إذ لم يحصل غرضهم، ومنها أن لا يشرع لهم ما فيه مشقة إلا شيئاً فشيئاً وهو قول عائشة رضي الله عنها إنما أنزل أول ما نزل منه (٥) سور من المفصل فيها ذكر الجنة والنار حتى إذا تاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا لا ندع الخمر أبداً ولو نزل لا تزنوا لقالوا لا ندع الزنا أبداً، ومنها أن لا يفعل النبي صلى الله عليه وسلم ما يختلف به قلوبهم فيترك بعض الأمور المستحبة لذلك وهو قوله صلى الله عليه وسلم لعائشة «لولا حدثان (٦) قومك بالكفر لنتقضت الكعبة وبنيتهما على أساس إبراهيم عليه السلام» ومنها أن الشارع أمر بأنواع البر من الوضوء والغسل والصلاة والزكاة والصوم والحج وغيرها ولم يتركها مفوضة إلى عقولهم بل ضبطها بالآركان والشروط والآداب ونحوها ثم لم يضبط الآركان والشروط والآداب كثير ضبط بل تركها مفوضة إلى عقولهم وإلى ما يفهمونه من تلك الألفاظ وما يعتادونه في ذلك الباب فبين مثلاً أنه لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب ولم يبين مخارج الحروف التي تتوقف عليها صحة قراءة الفاتحة وتشديداتها وحركاتها وسكناتها وبين أن استقبال القبلة شرط في الصلاة ولم يبين قانوناً نعرف به استقبالها وبين أن نصاب الزكاة مائتا درهم ولم يبين أن الدرهم ما وزنه وحيث سئل عن مثل ذلك لم يزد على ما عندهم ولم يأتهم بما لا يحدونه في عاداتهم فقال في مسألة هلال شهر رمضان «فاذا غم عليكم فأكملوا عدة شعبان ثلاثين» وقال في الماء يكون في فلاة (٧) من الأرض ترده السباع والبهائم «إذا بلغ الماء قلتين لم يحمل خبثاً (٨)» وأصله معتاد فيهم كما بينا، والسر في ذلك أن كل شيء منها لا يمكن أن يبين إلا بحقائق مثلها في الظهور والخفاء وعدم الانضباط فيحتاج أيضاً إلى البيان وهلم جرا وذلك حرج عظيم من حيث أن كل توقيت تضيق عليهم في الجملة فاذا كثرت التوقيات ضاق المجال كل الضيق ومن حيث أن الشرع يكلف به الأدنى والأقصى كلهم وفي حفظ تلك الحدود على تفصيلها حرج شديد وأيضاً فالناس إذا اعتنوا بأقامة ما ضبط به البراءة شديداً لم يحسوا

(١) أي يجعل سبعة أيام للبكر وثلاثة أيام للثيب أول ما ينكح ثم يعدل بينهما (٢) أي يتعهدهم بالموعظة مخافة السامة
(٣) أي حرمانه (٤) أي مانعاً (٥) أي القرآن (٦) حدثان السوء بالكسر أوله وهو مصدر حدث أراد قرب عهدهم بالكفر والخروج منه إلى الإسلام وأنه لم يتمكن الدين في قلوبهم فلو هدمت الكعبة ربما نفروا منه
(٧) أي صحراء ومحل واسع (٨) أي نجاسة

بقوائد البر ولم يتوجهوا إلى أرواحها كما ترى كثيرا من المجودين لا يتدبرون معنى القرآن لا اشتغال بالهم بالالفاظ فلا أوفق بالمصاحبة من أن يفوض اليهم الأمر بعد أصل الضبط والله أعلم، ومنها أن الشارع لم يخاطبهم إلا على ميزان العقل المودع في أصل خلقتهم قبل أن يتعانوا دقائق الحكمة والكلام والاصول فأثبت لنفسه جهة فقال: (الرحمن على العرش استوى) وقال النبي صلى الله عليه وسلم لا امرأة سوداء: «أين الله فأشارت إلى السماء فقال هي مؤمنة» ولم يكلفهم في معرفة استقبال القبلة وأوقات الصلاة والاعياد حفظ مسائل الهيئة والهندسة وأشار بقوله «القبلة ما بين المشرق والمغرب» إذا استقبل الكعبة إلى وجه المسئلة وقال: «الحج يوم تحجون والفطر يوم تفطرون» والله أعلم *

﴿باب أسرار الترغيب والترهيب﴾

من نعمة الله تبارك وتعالى على عباده أن أوحى إلى أنبيائه صلوات الله عليهم ما يترتب على الأعمال من الثواب والعذاب ليخبروا القوم به فتمتلئ قلوبهم رغبة ورهبة ويتقيدوا بالشرائع بداعية منبئة من أنفسهم كسائر ما فيه دفع ضرر أو جلب نفع وهو قوله تعالى: (وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون) ثم إن ههنا قواعد كلية إليها ترجع جزئيات الترغيب والترهيب وكان فقهاء الصحابة يعلمونها إجمالا وإن لم يكونوا أحرزوها تفصيلا، وما يدل على ما ذكرنا ما جاء في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «وفي بضع أحدكم صدقة فقالوا يأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال أرأيتم لو وضعها في حرام كان عليه وزر» فما توقفوا في هذه المسألة دون غيرها وما اشتبه عليهم لميتها إلا لما عندهم من معرفة مناسبة الأعمال لأجزئتها وأنها ترجع إلى أصل معقول المعنى ولو لا ذلك لم يكن لسؤالهم ولا الجواب النبي صلى الله عليه وسلم - بالاعتبار بأصل واضح - وجه، وقولي هذا نظير ما قاله الفقهاء في حديث «لو كان على أيك دين أكنت قاضيه؟ قال نعم قال فدين الله أحق أن يقضى» من أنه يدل على أن الأحكام معلقة بأصول كلية * وحاصل السؤال أن الصدقات ترجع إلى تهذيب النفس كالنسيب والتهيل والتكبير أو إقامة المصلحة في نظام المدينة وأن السيئات ترجع إلى أضداد هاتين وقضاء شهوة الفرج اتباع لداعية البهيمية ولا يعقل فيه مصلحة زائدة على العادات أو نحو ذلك مما يرجع إلى معرفة كلية واستغراب رجوع المسألة إليها.

وحاصل الجواب أن جماع الحليلة يحصن فرجها وفرجه وفيه خلاص مما يكون قضاء الشهوة في غير محلها اقتحاما فيه، وللترغيب والترهيب طرق ولكل طريقة سر ونحن ننبهك على معظم تلك الطرق، فمنها بيان الأثر المترتب على العمل في تهذيب النفس من انكسار إحدى القوتين أو غلبتها وظهورها، ولسان الشارع أن يعبر عن ذلك بكتابة الحسنات ومحو السيئات كقوله صلى الله عليه وسلم: «من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير في يوم مائة مرة كان له عدل عشر رقاب وكتبت له مائة حسنة ومحيت عنه مائة سيئة وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر منه» وقد ذكرنا سره فيما سبق، ومنها بيان أثره في الحفاظ عن الشيطان وغيره كقوله صلى الله عليه وسلم: «وكان في حرز من الشيطان حتى يمسي» وقوله صلى الله عليه وسلم: «لا يستطيعها البطلة (١)» أو توسيع الرزق وظهور

(١) أوله «افرقوا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا يستطيعها البطلة» اهـ

البركة ونحو ذلك، والسر في بعض ذلك أنه طلب من الله السلامة وهو سبب أن يستجاب دعاؤه وهو قوله ﷺ راويا عن الله تبارك وتعالى: «ولئن استعاذني لأعيذنه ولئن سألتني لأعطينه (١)» وفي البعض الآخر ان الغوص في ذكر الله والتوجه إلى الجبروت والاستمداد من الملائكة يقطع المناسبة بهؤلاء وإنما التأثير بالمناسبة وفي البعض الآخر ان الملائكة تدعو لمن كان على هذه الحالة فيدخل في شراح (٢) كثيرة فتارة في جلب نفع وتارة في دفع ضرر ومنها بيان أثره في المعاد وسره ينكشف بمقدمتين، إحداهما أن الشيء لا يحكم عليه بكونه سببا للثواب أو العذاب في المعاد حتى يكون له مناسبة بأحد سببي المجازاة إما أن يكون له دخل في الاخلاق الاربعة المبنية عليها السعادة وتهذيب النفس إثباتا أو نفيا وهي النظافة والخشوع لرب العالمين وسماحة النفس والسعي في إقامة العدل بين الناس أو يكون له دخل في تمشية ما أجمع الملائكة الأعلى على تمشيته من التمكين للشرائع والنصرة للأنبياء عليهم السلام إثباتا أو نفيا ومعنى المناسبة أن يكون العمل مظنة لوجود هذا المعنى أو متلازما له في العادة أو طريقا اليه كما أن كونه يصلي ركعتين لا يحدث فيهما نفسه مظنة الاخبات وتذكر جلال الله والترقي من حضيض البهيمية وكما أن إسباغ الوضوء طريق إلى النظافة المؤثرة في النفس وكما أن بذل المال الخطير الذي يشح به عادة والعفو عن ظلم وترك المراء فيما هو حق له مظنة لسماحة النفس ومتلازم لها وكما أن إطعام الجائع وسقي الظمآن والسعي في إطفاء نائرة الحرب من بين الأحياء مظنة لإصلاح العالم وطريق اليه وكما أن حب العرب طريق إلى التزني بزيهم وذلك طريق عطف إلى الأخذ بالملة الحنيفية لانها تشخصت في عاداتهم وتنويه بأمر الشريعة المصطفوية وكما أن المحافظة على تعجيل الفطر تباعد عن اختلاط الملل وتحريفها، وما زالت طوائف الناس من الحكماء وأهل الصناعات والأطباء يديرون الأحكام على مظانها وما زال العرب جارين على ذلك في خطبهم ومحاوراتهم، وقد ذكرنا بعض ذلك أو يكون (٣) عملا شاقا أو خاملا أو غير موافق للطبيعة لا يقصده ولا يقدم عليه إلا المخلص حق الخلاص فيصير شرحا لا خلاصه كالتضلع من ماء زمزم وكحب على رضى الله عنه فانه كان شديدا في أمر الله وكحب الانصار فانه لم تزل العرب المعديّة واليمينية متباغضين فيما بينهم حتى ألفتهم الاسلام فالتأليف معرف لدخول بشاشة الاسلام في القلب وكالطلوع على الجبل والسير في حراسة جيوش المسلمين فانه معرف لصدق عزيمته في إعلاء كلمة الله وحب دينه

﴿المقدمة الثانية﴾ أن الانسان إذا مات ورجع إلى نفسه وإلى هياتها التي انصبغت بها الملائمة لها والمنافرة إياها لا بد أن تظهر صورة التألم والتنعم بأقرب ما هنالك ولا اعتبار في ذلك للملازمة العقلية بل لنوع آخر من الملازمة لا جلها يجرب بعض حديث النفس بعضا وعلى حسبها يقع تشبّع المعاني في المنام كما يظهر منع المؤذن الناس عن الجماع والاكل بصورة الختم على الفروج والافواه، ثم إن في عالم المثال مناسبات تبنى عليها الأحكام فما ظهر جبريل في صورة دحية (٤) دون غيره إلا لمعنى ولا ظهرت النار على موسى عليه السلام إلا لمعنى، فالعارف بتلك المناسبات يعلم أن جزاء هذا العمل في أى صورة يكون كما أن العارف بتأويل الرؤيا يعرف أنه أى معنى ظهر في صورة ما رآه، وبالجملّة فمن هذا الطريق يعلم النبي صلى الله عليه وسلم أن الذي يكتّم العلم ويكف نفسه

(١) أوله ما يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فاذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشى بها رواه البخاري عن أبي هريرة اه (٢) جمع شرح بالكسر وهو مسيل الماء والمراد الطريق اه (٣) عطف على أن يكون العمل مظنة أنخ اه (٤) دحية الكلبي - هو ابن خليفة الصحابي - كان جميلا حسن الصورة اه

عن التعليم عند الحاجة إليه يعذب بلجام من نار لأنه تأملت النفس بالكف واللجام شبح (١) الكف وصورته والذي يحب المال ولا يزال يتعلق به خاطره يطوق بشجاع أقرع (٢) والذي يتعاني في حفظ الدراهم والدنانير والانعام ويحوط بها عن البذل لله يعذب بنفس تلك الأشياء على ما تقرر عندهم من وجه التأذي، والذي يعذب نفسه بحديدة أو سم ويخالف أمر الله بذلك يعذب بتلك الصورة، والذي يكسو الفقير يكسى يوم القيامة من سندس الجنة، والذي يعتق مسلماً ويفك رقبته عن آفة الرق المحيط به يعتق بكل عضو منه عضو منه من النار ومنها تشبيه ذلك العمل بما تقرر في الأذهان حسنه أو قبحه أما من جهة الشرع أو العادة وفي ذلك لا بد من أمر جامع بين الشيئين مشترك بينهما ولو بوجه من الوجوه كما شبه المرابط (٣) في المسجد بعد صلاة الصبح إلى طلوع الشمس بصاحب حجة وعمره، وشبه العائد في هبته بالكلب العائد في قيئه ونسبته إلى المحبوبين أو المبعوضين والدعاء لفاعله أو عليه وكل ذلك ينبه على حال العمل إجمالاً من غير تعرض لوجه الحسن أو القبح كقول الشارع: «تلك صلاة المنافق» (٤) - وليس منامن فعل كذا - وهذا العمل عمل الشياطين أو عمل الملائكة - ورحم الله امرءاً فعل كذا وكذا ونحو هذه العبارات، ومنها حال العمل في كونه متعلقاً لرضا الله أو سخطه وسبباً لا نعطف دعوة الملائكة إليه أو عليه كقول الشارع - إن الله يحب كذا وكذا ويبغض كذا وكذا - وقوله ﷺ «إن الله تعالى وملائكته يصلون على ميامن الصفوف» وقد ذكرنا سره والله أعلم *

﴿ باب طبقات الأمة باعتبار الخروج إلى السكك المطلوب أو ضده ﴾

والأصل في هذا الباب قوله تعالى في سورة الواقعة؟ (وكنتم أزواجا ثلاثة فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة وأصحاب المشئمة ما أصحاب المشئمة والسابقون السابقون أولئك المقربون) إلى آخر السورة، وقوله تعالى: (ثم أوردنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير) * قد علمت أن أعلى مراتب النفوس هي نفوس المفهمين وقد ذكرناها. ويتلو المفهمين جماعة تسمى بالسابقين وهم جنسان جنس أصحاب اصطلاح وعلو كان استعدادهم كاستعداد المفهمين في تلقي تلك السكالات إلا أن السعادة لم تبلغ بهم مبلغهم فكان استعدادهم كالنائم يحتاج إلى من يوقظه فلما أيقظه أخبار الرسل أقبلوا على ما يناسب استعدادهم من تلك العلوم مناسبة خفية في باطن نفوسهم فصاروا كالمتجهدين في المذهب وصار إلهامهم أن يتلقوا من الإلهام الجملي الكلي الذي توجه إلى نفوسهم بما يشملهم من الاستعداد في حظيرة القدس وهو الأمر المشترك في أكثرهم وترجم عنه الرسل، وكنس أصحاب تجاذب وعلو ساقهم سائق التوفيق إلى رياضات وتوجهات قهرت بهيميتهم فاتاهم الحق كإلهام عملياً وعملياً وصاروا على بصيرة من أمرهم فكانت لهم وقائع إلهية وإرشاد وإشراق مثل أكابر طرق الصوفية ويجمع السابقين أمران، أحدهما أنهم يستفرغون طاقتهم في التوجه إلى الله والتقرب منه، وثانيهما أن جبلتهم قوية فتمثل الملكات المطالبة عندهم على وجهها من غير نظر إلى أشباح لها وإنما يحتاجون إلى الأشباح شرحاً لتلك الملكات وتوسلاً بها إليها منهم المفردون المتوجهون إلى

(١) أي قالب اه (٢) الذي لا شعر على رأسه أي تمعظ جلد رأسه لكثرة سمة وطول عمره، وقوله يتعاني أي يحتمل التعب والمشقة اه (٣) أي المنتظر الجالس المعتكف اه (٤) تمامه «يجلس يرقب الشمس حتى إذا اصفرت وكانت بين قرني الشيطان قام فنقر أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلاً» رواه مسلم اه

الغيب طرح الذكر عنهم أثقاهم والصديقون المتميزون عن سائر الناس بشدة انقياد الحق والتجرد له والشهداء الذين أخرجوا للناس وحل فيهم صبغ الملاء الأعلى من لعن الكافرين والرضا عن المؤمنين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإعلاء الملة بواسطة النبي صلى الله عليه وسلم فاذا كان يوم القيامة قاموا يخاصمون الكفرة ويشهدون عليهم وهم بمنزلة أعضاء النبي صلى الله عليه وسلم في بعثته بهم ليكمل الأمر المراد في البعثة ولذلك وجب تفضيلهم على غيرهم وتوقيرهم والراسخون في العلم أولو ذكاء وعقل لما سمعوا من النبي صلى الله عليه وسلم والعلم والحكمة صادف ذلك منهم استعداداً فصار يمد لهم في باطنهم فهم معاني كتاب الله على وجهها وإليه أشار على رضى الله عنه حيث قال - أوفهمهم (١) أعطيه رجل مسلم - والعباد الذين أدركوا فوائد العبادة عياناً وانصبغت نفوسهم بأنوارها ودخلت في صميم أفئدتهم فهم يعبدون الله على بصيرة من أمرهم والزهاد الذين أيقنوا بالمعاد وبما هنالك من اللذة فاستحقروا في جنبها لذة الدنيا وصار الناس عندهم كأبا غير الابل والمستعدون لخلافة الأنبياء عليهم السلام ممن يعبدون الله تعالى بخلق العدالة فيصرفونه فيما أمر الله تعالى وأصحاب الخلق الحسن أغنى أهل السماحة من الجود والتواضع والعفو عمن ظلم والمتشبهون بالملائكة والمخالطون بهم كما يذكر أن بعض الصحابة كان يسلم عليهم الملائكة، ولكل فرقة من هذه الفرق استعداد جبلي يقتضى كماله بتيقظ بأخبار الأنبياء عليهم السلام واستعداد كسبي يتهيأ بأخذ للشرائع فبهما يحصل كمالهم ومن كان من المفهمين لم يبعث إلى الخلق فانه يعد في الشرائع من السابقين ويتلو السابقين جماعة تسمى بأصحاب اليمين وهم أجناس، جنس نفوسهم قريية المأخذ من السابقين لم يوفقوا لتكميل ما جبلوا له فاقصروا على الأشباح دون الأرواح لكنهم ليسوا بأجنبيين منها، وجنس أصحاب التجاذب نفوسهم ضعيفة الملكية قوية البهيمية وفقوا لرياضات شاقة فأثمرت فيهم مالملا السافل أو ضعيفة البهيمية استهتروا بذكر الله تعالى فترشح عليهم إلهامات جزئية وتعبد وتطهر جزئيان، وجنس أهل الاصطلاح ضعيفة الملكية جداً عضوا على الرياضات الشاقة إن كانوا قوين البهيمية أو الأوراد الدائمة إن كانوا ضعيفيها فلم يثمر ذلك لهم شيئاً من الانكشاف لكن دخلت الأعمال والهيآت التي هي أشباح الملكات الحسنة في جذر نفوسهم، وكثير منهم لا يشترط في عمله الاخلاص التام والتبرى من مقتضى الطبع والعادة بالكلية فيتصدقون بنية ممتزجة من دقة الطبع ورجاء الثواب ويصلون لجريان سنة قومهم على ذلك ولرجاء الثواب ويمتنعون من الزنا وشرب الخمر خوفاً من الله وخوفاً من الناس أو لا يستطيعون اتباع العشيقات ولا بذل الأموال في الملاهي فيقبل منهم ذلك بشرط أن تضعف قلوبهم عن الاخلاص الصرف وأن تتمسك نفوسهم بالأعمال أنفسها لا بما هي شروح للملكات . وكان في الحكمة الأولى - إن من الحياء خيراً ومنه ضعفاً - فقال النبي صلى الله عليه وسلم: « الحياء خير كله » ينبه على ما ذكرنا وكثير منهم يبرق عليهم بارقة ملكية في أوقات يسيرة فلا يكون ملكة لهم ولا يكونون أجنييين عنها كالمستغفرين اللوامين أنفسهم وكالذي يذكر الله خالياً وفاضت عيناه ، وكالذي لا تمسك نفسه الشر لضعف في جبلته إنما قلبه كقلب الطير أولتحلل طارء على مزاجه كالمبطون وأهل المصائب كفرت بلاياهم خطاياهم ، وبالجملة فأصحاب اليمين فقدوا إحدى خصلتي السابقين وحصلوا الأخرى وبعدهم جماعة تسمى بأصحاب الأعراف وهم جنسان، قوم

(١) أي استنباط من القرآن قاله رضى الله عنه رداً لزعم الشيعة أن النبي صلى الله عليه وسلم خص أهل بيته سيما علياً بأسرار الوحي يعني ما أسر النبي إلى شيئاً يستجبه عن غيرى بل هذه الاستنباطات اعطاهن الربى اه

صحت أمر جنتهم وزكت فطرتهم ولم تبلغهم الدعوة الاسلامية أصلاً أو بلغتهم ولكن بنحو لا تقوم به الحجة ولا نزول به الشبهة فنشأوا غير منهمكين في الملكات الخسيسة والأعمال المردية ولا ملتفتين إلى جناب الحق لانفيا ولا إثباتا كان أكثر أمرهم الاشتغال بالارتفاقات العاجلة فأولئك إذا ماتوا رجعوا إلى حالة عمياء لا إلى عذاب ولا إلى ثواب حتى تنفسخ بهيميتهم فيبرق عليهم شيء من بوارق الملكية، وقوم نقصت عقولهم كأكثر الصبيان والمعتوهين والفلاحين والأرقاء وكثير يزعمهم الناس أنهم لا بأس بهم وإذا نقح حالهم عن الرسوم بقوا لاعقل لهم فأولئك يكتفى من إيمانهم بمثل ما اكتفى رسول الله صلى الله عليه وسلم من الجارية السوداء سألها « أين الله » فأشارت إلى السماء (١) إنما يراد منهم أن يتشبهوا بالمسلمين لئلا تتفرق الكلمة . أما الذين نشأوا منهمكين في الرذائل والتفتوا إلى جناب الحق على غير الوجه الذي ينبغي أن يكون فهم أهل الجاهلية يعذبون بأصناف العذاب وبعدهم جماعة (٢) تسمى بالمنافقين نفاق العمل وهم أجناس لم تبلغ بهم السعادة إلى وجود الكمال المأمور به على ما هو عليه إما غلب عليهم حجاب الطبيعة فقفوا في ملكة رذيلة مثل شره الطعام والنساء والحقن وضععت عنهم طاعتهم أوزارهم أو حجاب الرسم فلا يكادون يسمحون بترك رسوم الجاهلية ولا بمهاجرة الإخوان والأوطان أو حجاب سوء المعرفة مثل المتشبهة والذين أشركوا بالله عبادة أو استعانة شر كما خفيا زاعمين أن الشرك المبغض غير ما يفعلونه وذلك فيما لم تنص فيه الملة ولم يكشف عنه الغطاء ، ومنهم أولو ضعف وسماجة وأهل مجون وسخافة لم ينفع حب الله وحب رسوله فيهم التبري عن المعاصي كقصة من كان يشرب الخمر وكان يحب الله ورسوله بشهادة النبي صلى الله عليه وسلم له ، وجماعة تسمى بالفاسقين وهم الذين يغلب عليهم أعمال السوء أكثر من الملكات الرذيلة منهم أصحاب بهيمية شديدة اندفعوا إلى مقتضيات السبعية والبهيمية ، ومنهم أولو أمزجة فاسدة وآراء كاسدة بمنزلة المريض الذي يحب أكل الطين والخبز المحترق فصاروا يندفعون إلى الشيطنة ، وبعدهم (٣) الكفار وهم المردة المتمردة أبوا أن يقولوا لا إله إلا الله مع تمام عقولهم وصحة التبليغ اليهم أو ناقضوا إرادة الحق في تمشية أمر الأنبياء عليهم السلام فصدوا عن سبيل الله واطمأنوا بالحياة الدنيا ولم يلتفتوا إلى ما بعدها فأولئك يلعنون لعنا مؤبداً ويسجنون سجنًا مخلداً، ومنهم أهل الجاهلية ، ومنهم المنافق الذي آمن بلسانه وقلبه باق على الكفر الخالص والله أعلم *

﴿ باب الحاجة إلى دين ينسخ الأديان ﴾

استقرى الملل الموجودة على وجه الأرض هل ترى من تفاوت عما أخبرتك في الأبواب السابقة ؟ كلا والله بل الملل كلها لا تخلو من اعتقاد صدق صاحب الملة وتعظيمه وإنه كامل منقطع النظر لما رأوا منه من الاستقامة في الطاعات أو ظهور الخوارق واستجابة الدعوات ومن الحدود والشرائع والمزاجر مما لا تنتظم الملة بغيرها هم بعد ذلك أمور تفيد الاستطاعة الميسرة مما ذكرنا وما يضاهيه ولكل قوم سنة وشرعة يتبع فيها عادة أوائلهم ويختار فيها سيرة حملة الملة وأئمتها ثم أحكم بنيانها وشدد أركانها حتى صار أهلها ينصرونها ويتناضلون دونها ويبذلون الأموال والمهج لأجلها وما ذلك إلا لتدبيرات محكمة ومصالح متقنة لا تبلغها نفوس العامة

(١) وتامه « فقال هي مؤمنة » وقد مر انفاها (٢) هم اصحاب الاعراف اهـ (٣) أي الفاسقين

ولما انفرد كل قوم بملة وانتحلوا سننا وطرائق وناخوا دونها بألسنتهم وقاتلوا عليها بأسنتهم ووقع فيهم الجور إما لقيام من لا يستحق إقامة الملة بها أو لاختلاط الشرائع الابتداعية ودسها فيها أو لتهاون حملة الملة فأهملوا كثيراً مما ينبغي فلم تبق إلا دمنة (١) لم تتكلم من أم أو في ولا مت كل ملة أختها وأنكرت عليها وقاتلتها واختفى الحق مست الحاجة إلى إمام راشد يعامل مع الممل معاملة الخليفة الراشد مع الملوك الجائرة، ولك عبرة فيما ذكره ناقل كتاب الكيلة والدمنة من الهندية إلى الفارسية من اختلاط الممل وأنه أراد أن يتحقق الصواب فلم يقدر إلا على شيء يسير وفيما ذكره أهل التاريخ من حال الجاهلية واضطراب أديانهم وهذا الإمام الذي يجمع الامم على ملة واحدة يحتاج إلى أصول أخرى غير الأصول المذكورة فيما سبق، منها أن يدعو قوماً إلى السنة الراشدة ويزكيهم ويصلح شأنهم ثم يتخذهم بمنزلة جوارحه فيجاهد أهل الأرض ويفرقهم في الآفاق وهو قوله تعالى: (كنتم خير أمة أخرجت للناس) وذلك لأن هذا الإمام نفسه لا يتأتى منه مجاهدة أمم غير محصورة وإذا كان كذلك وجب أن تكون مادة شريعته ماهو بمنزلة المذهب الطبيعي لأهل الاقاليم الصالحة عربهم وعجمهم ثم ما عند قومه من العلم والارتفاقات ويراعى فيه حالهم أكثر من غيرهم ثم يحمل الناس جميعاً على اتباع تلك الشريعة لأنه لا سبيل إلى أن يفوض الأمر إلى كل قوم أو إلى أئمة كل عصر إذ لا يحصل منه فائدة التشريع أصلاً ولا إلى أن ينظر ما عند كل قوم ويمارس كلا منهم فيجعل لكل شريعة إذا لحاظت بعاداتهم وما عندهم على اختلاف بلدانهم وتباين أديانهم كالممتنع وقد عجز جمهور الرواة عن رواية شريعة واحدة فما ظنك بشرائع مختلفة والاكثر أنه لا يكون انقياد الآخرين إلا بعد عدد ومدد لا يطول عمر النبي إليها كما وقع في الشرائع الموجودة الآن فان اليهود والنصارى والمسلمين ما آمن من أوائلهم إلا جمع ثم أصبحوا ظاهرين بعد ذلك فلا أحسن ولا أيسر من أن يعتبر في الشعائر والحدود والارتفاقات عادة قومه المبعوث فيهم ولا يضيق كل التضيق على الآخرين الذين يأتون بعد ويبقى عليهم في الجملة والاولون يتيسر لهم الاخذ بتلك الشريعة بشهادة قلوبهم وعاداتهم والآخرين يتيسر لهم ذلك بالرغبة في سير أئمة الملة والخلفاء فانها كالامر الطبيعي لكل قوم في كل عصر قديماً أو حديثاً والاقاليم الصالحة لتولد الامزجة المعتدلة كانت مجموعة تحت ملوك كـبيرين يومئذ، أحدهما كسرى وكان متسلطاً على العراق واليمن وخراسان وماوليهما - وكانت ملوك ماوراء النهر والهند تحت حكمه يجي اليه منهم الخراج كل سنة، والثاني قيصر وكان متسلطاً على الشام والروم وماوليهما وكان ملوك مصر والمغرب والافريقية تحت حكمه يجي اليه منهم الخراج، وكان كسر دولة هذين الملوك والتسلط على ملكهما بمنزلة الغلبة على جميع الارض وكانت عاداتهم في الترفه سارية في جميع البلاد التي هي تحت حكمهما وتغير تلك العادات وصدم عنها مفضيا في الجملة إلى تنبيه جميع البلاد على ذلك وإن اختلفت أمورهم بعده، وقد ذكر الهرمزان شيئاً من ذلك حين استشاره عمر رضي الله عنه في غزاة العجم، أما سائر النواحي البعيدة عن اعتدال المزاج فليس بها كثير اعتداد في المصلحة الكلية ولذلك قال النبي ﷺ: «اتركوا الترك ماتركوكم ودعوا الحبشة ماودعوكم» وبالجملة فلما أراد الله تعالى إقامة الملة العوجاء وأن يخرج للناس أمة تأمرهم بالمعروف وتنههم عن المنكر وتغير رسومهم الفاسدة كان ذلك موقوفاً على زوال دولة هذين متيسراً بالتعرض لخالهما فان حالهما يسرى في جميع الاقاليم الصالحة أو يكاد يسرى فقضى

الله بزوال دولتهما وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بأن هلك كسرى فلا كسرى بعده وهلك قيصر فلا قيصر بعده ونزل الحق الدامغ لباطل جميع الأرض في دمع باطل العرب بالنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ودمع باطل هذين الملكين بالعرب ودمع سائر البلاد بملئهما والله الحجة البالغة (١) ومنها أن يكون تعليمه الدين إياهم مضموماً إلى القيام بالخلافة العامة وأن يجعل الخلفاء من بعده أهل بلده وعشيرته الذين نشؤوا على تلك العادات والسنن وليس التكحل في العينين كالسحل، ويكون الحمية الدينية فيهم مقرونة بالحمية النسبية ويكون علو أمرهم ونباهة شأنهم علواً لا مرصاحب الملة ونباهة لشأنه وهو قوله ﷺ: «الأئمة من قريش» ويوصى الخلفاء بإقامة الدين وإشاعته وهو قول أنى بكر الصديق رضى الله عنه: بقاؤكم عليه ما استقامت بكم أئمتكم، ومنها أن يجعل هذا الدين غالباً على الأديان كلها ولا يترك أحداً إلا قد غلبه الدين بعز عزيز أو ذل ذليل فينقلب الناس ثلاث فرق، منقاد للدين ظاهراً وباطناً، ومنقاد بظاهرة على رغم أنفه لا يستطيع التحول عنه، وكافر مهان يسخره في الحصاد والدياس وسائر الصناعات كما تسخر البهائم في الحرث وحمل الأثقال ويلزم عليه سنة زاجرة ويؤتى الجزية عن يد وهو صاغره وغلبة الدين على الأديان لها أسباب، منها إعلان شعائره على شعائر سائر الأديان وشعائر الدين أمر ظاهر يختص به يمتاز صاحبه به من سائر الأديان كالختان وتعظيم المساجد والأذان والجمعة والجماعات، ومنها أن يقبض (٢) على أيدي الناس أن لا يظهروا شعائر سائر الأديان، ومنها أن لا يجعل المسلمين أكفاء للكافرين في القصاص والديات ولا في المناكحات ولا في القيام بالرياسات ليلجئهم ذلك إلى الإيمان إجماعاً، ومنها أن يكلف الناس بأشباح البر والاثم ويلزمهم ذلك إلزاماً عظيماً ولا يلوح لهم بأرواحها كثير تلويح ولا يخيرهم في شيء من الشرائع ويجعل علم أسرار الشرائع الذي هو مأخذ الأحكام التفصيلية علماً مكنوناً لا يناله إلا من ارتسخت قدمه في العلم وذلك لأن أثر المكلفين لا يعرفون المصالح ولا يستطيعون معرفتها إلا إذا ضبطت بالضوابط وصارت محسوسة يتعاطاها كل متعاط فلو رخص لهم في ترك شيء منها أو بين أن المقصود الأصلي غير تلك الأشباح لتوسع لهم مذاهب الخوض ولاختلفوا اختلافاً فاحشاً ولم يحصل ما أراد الله فيهم والله أعلم، ومنها أنه لما كانت الغلبة بالسيف فقط لا تدفع رين (٣) قلوبهم فعسى أن يرجعوا إلى الكفر عن قليل وجب أن يثبت بأمر برهانية أو خطابية نافعة في أذهان الجمهور أن تلك الأديان لا ينبغي أن تتبع لأنها غير مأثورة عن المعصوم أو أنها غير منطبقة على قوانين الملة أو أن فيها تحريفاً ووضعاً للشيء في غير موضعه ويصحح ذلك على رؤوس الأشهاد ويبين مرجحات الدين القويم من أنه سهل سمح وأن حدوده واضحة يعرف العقل حسناتها وأن ليلها نهارها وأن سننها أنفع للجمهور وأشبه بما بقى عندهم من سيرة الأنبياء السابقين عليهم السلام وأمثال ذلك والله أعلم.

﴿ باب أحكام الدين من التحريف ﴾

لا بد لصاحب السياسة الكبرى الذي يأتي من الله بدين ينسخ الأديان من أن يحكم دينه من أن يتطرق إليه تحريف وذلك لأنه يجمع أمماً كثيرة ذوى استعدادات شتى وأغراض متفاوتة فكثيراً ما يحملهم الهوى أو حب الدين الذي كانوا عليه سابقاً أو الفهم الناقص حيث عقلوا شيئاً وغابت مصالح كثيرة أن يهملوا ما نصت

(١) أي من الأصول التي ينبغي للإمام الذي يجمع الأمم على ملة واحدة (٢) أي صاحب الملة (٣) الرين الحجاب الكثيف

الملة عليه أو يدسوا (١) فيها ما ليس منها فيختل الدين كما قد وقع في كثير من الأديان قبلنا، ولما لم يمكن الاستقصاء في معرفة مداخل الخلل فانها غير محصورة ولا متعينة وما لا يدرك كله لا يترك كله وجب أن ينذرهم من أسباب التحريف إجمالاً أشد لا نذار ويخص مسائل قد علم بالحدس (٢) وأن التهاون والتحريف في مثلها أو بسببها داء مستمر في بني آدم فيسد مدخل الفساد منها بآتم وجه وأن يشرع شيئاً يخالف مألوف الملل الفاسدة فيما هو أشهر الأشياء عندهم كالصلوات مثلاً (ومن أسباب التحريف التهاون) وحقيقته أن يخاف بعد الحوارين خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات لا يهتمون باشاعة الدين تعلماً وتعليماً وعملاً ولا يأمررون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر فينعتقد عما قريب رسوم خلاف الدين وتكون رغبة الطبائع خلاف رغبة الشرائع فيجىء خلف آخرون يزيدون في التهاون حتى ينسى معظم العلم، والتهاون من سادة القوم وكبرائهم أضربهم وأكثر إفساداً. وبهذا السبب ضاعت ملة نوح وإبراهيم عليهما السلام فلم يكدر يوجد منهم من يعرفها على وجهها ومبدأ التهاون أمور منها عدم تحمل الرواية عن صاحب الملة والعمل به وهو قوله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه وإن ما حرم رسول الله كما حرم الله» وقوله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «إن الله لا يقبض العلم انتة اعا ينتزعه من الناس ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤساء جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا» (ومنها) الأغراض الفاسدة الحاملة على التأويل الباطل كطلب مرضاة الملوك في اتباعهم الهوى لقوله تعالى: (إن الذين يكتُمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمناً قليلاً أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار) (ومنها) شيوع المنكرات وترك علمائهم النهى عنها وهو قوله تعالى (فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية) (٣) ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلاً ممن أنجينا منهم واتبع الذين ظلموا ما ترفوا فيه وكانوا مجرمين) وقوله صلى الله عليه وسلم لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي: «نهتهم علماءؤهم فلم ينتهوا فجالسوهم في مجالسهم وآكلوهم وشاربوهم فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ولعنهم على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون» (ومن أسباب التحريف التعمق) وحقيقته أن يأمر الشارع بأمر وينهى عن شيء فيسمعه رجل من أمته ويفهمه حسبما يليق بذهنه فيعدي الحكم إلى ما يشاكل الشيء بحسب بعض الوجوه أو بعض أجزاء العلة أو إلى أجزاء الشيء ومظانه ودواعيه وكلما اشتبه عليه الأمر لتعارض الروايات التزم الأشد ويجعله واجباً ويحمل كل ما فعله النبي ﷺ على العبادة والحق أنه فعل أشياء على العادة فيظن أن الأمر والنهي شمل هذه الأمور فيجهر بأن الله تعالى أمر بكذا ونهى عن كذا، كما أن الشارع لما شرع الصوم لقهر النفس ومنع عن الجماع فيه ظن قوم أن السحور خلاف المشروع لأنه يناقض قهر النفس وأنه يحرم على الصائم قبله امرأته لأنها من دواعي الجماع ولأنها تشاكل الجماع في قضاء الشهوة فكشف رسول الله ﷺ عن فساد هذه المقالة وبين أنه تحريف.

(ومنها) التشدد وحقيقته اختيار عبادات شاقة لم يأمر بها الشارع كدوام الصيام والقيام والتبطل وترك الزوج وأن يلتزم السنن والآداب كالإكثار من الواجبات وهو حديث نهى النبي ﷺ عبد الله بن عمرو وعثمان بن مظعون عما قصدا من العبادات الشاقة وهو قوله ﷺ «لن يشاد الدين (٤) أحد إلا غلبه» فإذا صار هذا المتعمق أو المتشدد معلم

(١) دسه دسا إذا أدخله في شيء بقر وعنف اهـ (٢) أي الظن (٣) أي فضل (٤) أي يتعمق أحد في الدين بترك

قوم ورئيسهم ظنوا أن هذا أمر الشرع ورضاهم وهذا داء رهبان اليهود والنصارى (ومنها) الاستحسان وحقيقته أن يرى رجل الشارع يضرب لكل حكمة مظنة مناسبة ويراه يعقد التشريع فيختلس بعض ما ذكرنا من أسرار التشريع فيشرع للناس حسبما عقل من المصلحة كما أن اليهود رأوا أن الشارع إنما أمر بالحدود زجراً عن المعاصي للاصلاح ورأوا أن الرجم يورث اختلافاً وتقاتلاً بحيث يكون في ذلك أشد الفساد واستحسنوا تحميم الوجه والجلد فبين النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أنه تحريف ونبد لحكم الله المنصوص في التوراة بأرائهم . عن ابن سيرين قال : أول من قاس إبليس وما عبدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس . وعن الحسن أنه تلا هذه الآية : (خلقتني من نار وخلقته من طين) قال : قاس إبليس وهو أول من قاس . وعن الشعبي قال : والله لئن أخذتم بالمقاييس لتحرم من الحلال ولتحلن الحرام . وعن معاذ بن جبل يفتح القرآن على الناس حتى يقرأه المرأة والصبي والرجل فيقول الرجل قد قرأت القرآن فلم أتبع والله لا قوم من به فيهم لعلّي أتبع فيقوم به فيهم فلا يتبع فيقول قد قرأت القرآن فلم أتبع وقد قمت به فيهم فلم أتبع لا احتظرن في بيتي مسجداً لعلّي أتبع فيحتظر في بيته مسجداً فلا يتبع فيقول قد قرأت القرآن فلم أتبع وقمت به فيهم فلم أتبع وقد احتظرت في بيتي مسجداً فلم أتبع والله لا تينهم بحديث لا يجدونه في كتاب الله ولم يسمعه عن رسول الله ﷺ لعلّي أتبع قال معاذ : فإياكم وما جاء به فأنما جاء به ضلالة . وعن عمر رضي الله عنه قال : يهدم الإسلام زلة العالم وجدال المناق بالكتاب وحكم الأئمة المضلين . والمراد بهذا كله ما ليس استنباطاً من كتاب الله وسنة رسوله (ومنها) اتباع الاجماع وحقيقته أن يتفق قوم من حملة الملة الذين اعتقد العامة فيهم الاصابة غالباً أو دائماً على شيء فيظن أن ذلك دليل قاطع عن ثبوت الحكم وذلك فيما ليس له أصل من الكتاب والسنة وهذا غير الاجماع الذي أجمعت الأمة عليه فانهم اتفقوا على القول بالاجماع الذي مستنده الكتاب والسنة أو الاستنباط من أحدهما ولم يجوزوا القول بالاجماع الذي ليس مستنداً إلى أحدهما وهو قوله تعالى : (وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا) الآية وما تمسكت اليهود في نفي نبوة عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام إلا بأن أسلافهم فحسوا عن حالهما فلم يجدوهما على شرائط الانبياء ، والنصارى لهم شرائع كثيرة مخالفة للتوراة والانجيل ليس لهم فيها متمسك إلا إجماع سلفهم (ومنها) تقليد غير المعصوم أعني غير النبي الذي ثبتت عصمته وحقيقته أن يجتهد واحد من علماء الأئمة في مسألة فيظن متبعوه أنه على الاصابة قطعاً أو غالباً فيردوا به حديثاً صحيحاً وهذا التقليد غير ما اتفق عليه الأمة المرحومة فانهم اتفقوا على جواز التقليد للمجتهدين مع العلم بأن المجتهد يخطئ ويصيب ومع الاستشراف لنص النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في المسألة والعزم على أنه إذا ظهر حديث صحيح خلاف ما قلده فيه ترك التقليد واتبع الحديث قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في قوله تعالى : (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله) إنهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه ، ومنها خلط ملة بملة حتى لا تتميز واحدة من الأخرى وذلك أن يكون إنسان في دين من الأديان تعلق بقلبه علوم تلك الطبقة ثم يدخل في الملة الإسلامية فيبقى ميل قلبه إلى ما تعلق به من قبل فيطلب لأجله وجهها في هذه الملة ولو ضعيفاً أو موضوعاً وربما جوز الوضع ورواية الموضوع لذلك وهو قوله صلى الله تعالى عليه وسلم : « لم يزل أمر بني إسرائيل معتدلاً حتى

الرفق ويكلف نفسه من العبادة فوق طاقته إلا عجز عن عمله كله أو بعضه اهـ

نشأ فيهم المولدون (١) وأبناء سببايا الأمم فقالوا بالرأى فضلوا وأضلوا، وما دخل في ديننا علوم بني إسرائيل وتذ كير خطباء الجاهلية وحكمة اليونانيين ودعوة البابليين وتاريخ الفارسيين والنجوم والرمل والكلام وهو سر غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قرىء بين يديه نسخة من التوراة وضرب عمر رضى الله عنه من كان يطلب كتب دانيال والله أعلم.

باب أسباب اختلاف دين نبينا صلى الله عليه وسلم ودين اليهودية والنصرانية

﴿اعلم﴾ أن الحق تعالى إذا بعث رسولا في قوم فأقام الملة لهم على لسانه فإنه لا يترك فيها عوجا ولا أمثا ثم إنه تمضى الرواية عنه ويحملها الحواريون من أمته كما ينبغي برهة من الزمان ثم بعد ذلك يخلف خلف يحرفونها ويتهاونون فيها فلا تكون حقا صرفا بل ممزوجا بالباطل وهو قوله صلى الله عليه وسلم: «ما من نبي بعثه الله في أمته إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره ثم يخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون» الحديث وهذا الباطل منه إشراك جلي وتحريف صريح يؤخذون عليه على كل حال ومنه إشراك خفي وتحريف مضمحل لا يؤخذ الله بها حتى يبعث الرسول فيهم فيقيم الحجة ويكشف الغمة (٢) ليحيا من حى عن بينة ويهلك من هلك عن بينة، فاذا بعث فيهم الرسول رد كل شيء إلى أصله فنظر إلى شرائع الملة الأولى فما كان منها من شعائر الله لا يخالطها شرك ومن سنن العبادات أو طرق الارتفاقات التي ينطبق عليها القوانين المالية أبقاها ونوه (٣) بالخامل منها ومهد لكل شيء أركانها وأسبابها وما كان من تحريف وتهاون أبطله وبين أنه ليس من الدين وما كان من الأحكام المنوطة بمظان المصالح يؤمئذ ثم اختلفت المظان بحسب اختلاف العادات بدلها إذ المقصود الأصلي في شرع الأحكام هي المصالح ويعنون بالمظان وربما كان شيء مظنة لمصلحة ثم صار ليس مظنة لها، كما أن علة الحمى في الأصل ثوران الاخلاط فيتخذ الطبيب له مظنة ينسب إليها الحمى كالمشى في الشمس والحركة المتعبة وتناول الغذاء الفلاني ويمكن أن تزول مظنة هذه الأشياء فتختلف الأحكام حسب ذلك وما كان انعقد عليه إجماع الملاء الأعلى فيما يعملون ويعتادون وفيما ثبت عليه علومهم ودخل في جدر نفوسهم زاده وكان الانبياء عليهم السلام قبل نبينا صلى الله عليه وسلم يزدون ولا ينقصون ولا يبدلون إلا قليلا فزاد إبراهيم عليه السلام على ملة نوح عليه السلام أشياء من المناسك وأعمال الفطرة والختان، وزاد موسى عليه السلام على ملة إبراهيم عليه السلام أشياء كتحرير لحوم الإبل ووجوب السبت ورجم الزناة وغير ذلك، ونبينا صلى الله عليه وسلم زاد ونقص وبدل. والناظر في دقائق الشريعة إذا استقرأ هذه الأمور (٤) وجدها على وجوه، منها أن الملة اليهودية حملها الإخبار والرهبان فحرفوها بالوجوه المذكورة فيما سبق فلما جاء النبي ﷺ رد كل شيء إلى أصله فاختلفت شريعته بالنسبة إلى اليهودية التي هي في أيديهم فقالوا هذا زيادة ونقص وتبديل وليس تبديلا في الحقيقة، ومنها أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث بعثة تتضمن بعثة أخرى فالأولى إنما كانت إلى بني اسمعيل وهو قوله تعالى: (هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم) وقوله تعالى: (لتنذر قوما ما نذر آبائهم فهم غافلون) وهذه البعثة تستوجب أن يكون مادة شريعته

(١) المولد من كان أبوه من قوم وأمه من آخر و كان أبناء سببايا الأمم عطف تفسيري والسببايا الأسراء اه

(٢) الخفاء (٣) أي عظم شأن ما كان معدوما فيهم منها اه (٤) أي الزيادة والنقص والتبديل اه

ما عندهم من الشعائر وسنن العبادات ووجوه الارتفاقات إذا شرع إنما هو إصلاح ما عندهم لا تكليفهم بما لا يعرفونه أصلاً ونظيره قوله تعالى: (قرآننا عربياً لعلكم تعقلون) وقوله تعالى (لو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته أعجمى وعربى) وقوله تعالى (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه) والثانية كانت إلى جميع أهل الأرض عامة بالارتفاق الرابع وذلك لأنه (١) لعن في زمانه أقواماً وقضى بزوال دولتهم كالعجم والروم فأمر بالقيام بالارتفاق الرابع وجعل شرفه وغلبته تقريباً لاتمام الأمر المراد وآتاه مفاتيح كنوزهم فحصل له بحسب هذا الكمال أحكام أخرى غير أحكام التوراة كالخراج والجزية والمجاهدات والاحتياط عن مداخل التحريف، ومنها أنه بعث في زمان فترة قد اندرست فيه الملل الحقبة وحرقت وغلب عليهم التعصب واللجاج (٢) فكانوا لا يتركون ملتهم الباطلة ولا عادات الجاهلية إلا بتأكيدهم بالغ في مخالفة تلك العادات فصار ذلك معدداً لكثير من الاختلافات *

باب أسباب النسخ والاصل فيه قوله تعالى (ما ننسخ من آية

أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها) *

إعلم أن النسخ قسمان، أحدهما أن ينظر النبي صلى الله عليه وسلم في الارتفاقات أو وجوه الطاعات فيضبطها بوجوه الضبط على قوانين التشريع وهو اجتهاد النبي صلى الله عليه وسلم ثم لا يقرره الله عليه بل يكشف عليه ما قضى الله في المسألة من الحكم إما بنزول القرآن حسب ذلك أو تغيير اجتهاده إلى ذلك وتقريره عليه، مثال الاول ما أمر النبي صلى الله عليه وسلم من الاستقبال قبل بيت المقدس ثم نزل القرآن بنسخه، ومثال الثاني أنه صلى الله عليه وسلم نهى عن الانتباز إلا في السقاء (٣) ثم أباح لهم الانتباز في كل آنية وقال: «لا تشربوا مسكراً» وذلك انه لما رأى أن الاسكار أمر خفي نصب له مظنة ظاهرة وهي الانتباز في الاوعية التي لا مسام لها كالمأخوذة من الخزف والخشب والدباء فانه يسرع الاسكار فيما ينبذ فيها ونصب الانتباز في السقاء مظنة لعدم الاسكار إلى ثلاثة أيام ثم تغير اجتهاده صلى الله عليه وسلم إلى إدارة الحكم على الاسكار لأنه يعرف بالغليان وقذف الزبد ونصب ماهو من لوازم السكر أو من صفات الشيء المسكر مظنة أولى من نصب ماهو أمر أجنبي، وعلى تخريج آخر نقول: رأى النبي صلى الله عليه وسلم أن القوم مولعون بالمسكر فلو نهوا عنه كان مدخل أن يشربه أحد متعذراً بأنه ظن أنه ليس بمسكر وأنه اشتبه عليه علامات الاسكار أو كانت أوانيهم متلطخة بالمسكر والاسكار يسرع إلى ما ينبذ في مثل ذلك فلما قوى الاسلام واطمأنوا بترك المسكرات ونفدت تلك الاواني أدار الحكم على نفس الاسكار وعلى هذا التخريج، هذا مثال لاختلاف الحكم حسب اختلاف المظنات وفي هذا القسم قوله صلى الله عليه وسلم: «كلامي لا ينسخ كلام الله وكلام الله ينسخ كلامي وكلام الله ينسخ بعضه بعضاً» والثاني أن يكون شيء مظنة مصلحة أو مفسدة فيحكم عليه حسب ذلك ثم يأتي زمان لا يكون فيه مظنة لها فيتغير الحكم، مثاله لما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وانقطعت النصرة بينهم وبين ذوى أرحامهم وإنما كانت بالاخاء الذي جعله النبي صلى الله عليه وسلم لمصلحة ضرورية رآها نزل القرآن بإدارة التوارث على الاخاء وبين الله تعالى فائدته حيث قال: (إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير) ثم لما قوى

(١) أي الله تعالى (لعن) في زمان النبي صلى الله عليه وسلم (٢) الاصرار اهـ (٣) السقاء بالمسكر ظرف الماء من

جلد، والانتباز اتخاذ النبيذ اهـ

الإسلام ولحق بالمهاجرين أولو أرحامهم رجع الأمر إلى ما كان من التوارث بالنسب أو لا يكون شئ مصلحة في النبوة التي لم يضم معها الخلافة كما كان قبل النبي صلى الله عليه وسلم وكما كان في زمانه قبل الهجرة ويكون مصلحة في النبوة المضمومة بالخلافة، مثاله أن الله تعالى لم يحل الغنائم لمن قبلنا وأحل لنا وعلى ذلك في الحديث بوجهين، أحدهما أن الله رأى ضعفنا فأحلها لنا، وثانيهما أن ذلك من تفضيل الله نبينا صلى الله عليه وسلم على سائر الأنبياء وأمه على سائر الأمم (وتحقيق الوجهين) أن الأنبياء قبل النبي صلى الله عليه وسلم كانوا يبعثون إلى أقوامهم خاصة وهم محصورون يتأتى الجهاد معهم في سنة أو سنتين ونحو ذلك وكان أممهم أقوياء يقدرون على الجمع بين الجهاد والتسبب بمثل الفلاحة والتجارة فلم يكن لهم حاجة إلى الغنائم فأراد الله تعالى أن لا يخلط بعملهم غرض دنيوى ليكون أتم لأجورهم وبعث نبينا صلى الله عليه وسلم إلى كافة الناس وهم غير محصورين ولا كان زمان الجهاد معهم محصوراً وكانوا لا يستطيعون الجمع بين الجهاد والتسبب بمثل الفلاحة والتجارة فكان لهم حاجة إلى إباحة الغنائم وكانت أمته لعموم دعوته تشتمل ناساً ضعفاء في النية وفيهم ورد - إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر لا يجاهد أولئك إلا لغير غرض عاجل - وكانت الرحمة شملتهم في أمر الجهاد شمولاً عظيماً وكان الغضب متوجهاً إلى أعدائهم توجهاً عظيماً وهو قوله صلى الله عليه وسلم: «إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقت عربهم وعجمهم» فأوجب ذلك زوال عصمة أموالهم ودمائهم على الوجه الأتم وأوجب إغاظة قلوبهم بالتصرف في أموالهم كما أهدى إلى الحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم بغير أبي جهل في أنفه برة فضة يغيب الكفار، وكما أمر بقطع النخيل وإحراقها إغاظة لأهلها فلذلك نزل القرآن بإباحة الغنائم لهذه الأمة (مثال آخر) لم يحرم لهذه الأمة قتال الكفار في أول الأمر ولم يكن حينئذ هناك جند ولا خلافة ثم لما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم واثاب المسلمون وظهرت الخلافة وتمكنوا من مجاهدة أعداء الله أنزل الله تعالى (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير) وفي هذا القسم قوله تعالى: (ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها) فقلوه: (بخير منها) فيما تكون النبوة مضمومة بالخلافة وقوله: (أو مثلها) فيما يختلف الحكم باختلاف المظان والله أعلم *

﴿باب بيان ما كان عليه حال أهل الجاهلية فأصلحه النبي ﷺ﴾

إن كنت تريد النظر في معاني شريعة رسول الله صلى الله عليه وسلم فتحقق أولاً حال الأميين الذين بعث فيهم التي هي مادة تشريعهم، وثانياً كيفية إصلاحها بالمقاصد المذكورة في باب التشريع والتيسير وأحكام الملة (فأعلم) أنه صلى الله عليه وسلم بعث بالملة الحنيفية الإسماعيلية (١) لإقامة عوجها وإزالة تحريفها وإشاعة نورها وذلك قوله تعالى: (ملة أبيكم إبراهيم) ولما كان الأمر على ذلك وجب أن تكون أصول تلك الملة مسلبة وسنتها مقررة إذ النبي إذا بعث إلى قوم فيهم بقية سنة راشدة فلا معنى لتغييرها وتبديلها بل الواجب تقريرها لأنه أطوع لنفوسهم وأثبت عند الاحتجاج عليهم، وكان بنو إسماعيل توارثوا منها جأبهم إسماعيل فكانوا على تلك الشريعة إلى أن وجد عمرو بن لحي فأدخل فيها أشياء برأيه الكاسد فضل وأضل وشرع عبادة الأوثان وسبب السوائب وبحر البحائر فهناك بطل الدين واختلط الصحيح بالفساد وغلب عليهم الجهل والشرك والكفر فبعث الله سيدنا محمداً ﷺ

(١) التي شاعت في العرب احتراز عن اليهودية اهـ

مقيماً لعوجهم ومصلحاً لفسادهم فنظر صلى الله عليه وسلم في شريعتهم فما كان منها موافقاً لمنهاج إسماعيل عليه السلام أو من شعائر الله أبقاه ، وما كان منها تحريفاً أو إفساداً أو من شعائر الشرك والكفر أبطله وسجل على إبطاله ، وما كان من باب العادات وغيرها فبين آدابها ومكروهاها مما يحترز . عن غوائل الرسوم ونهى عن الرسوم الفاسدة وأمر بالمصلحة وما كان من مسألة أصلية أو عملية تركت في الفترة أعادها غضة طرية كما كانت فتمت بذلك نعمة الله واستقام دينه وكان أهل الجاهلية في زمان النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يسلمون جواز بعثة الأنبياء ويقولون بالمجازاة ويعتقدون أصول أنواع البر ويتعاملون بالارتفاقات الثاني والثالث . ولا ينافي ما قلناه وجود فرقتين فيهم وظهورهما وشيوعهما ، إحداهما الفساق والزنادقة فالفساق يعملون الأعمال البهيمية أو السبعية بخلاف الملة لغلبة نفوسهم وقلة تدينهم فأولئك إنما يخرجون عن حكم الملة شاهدين على أنفسهم بالفسق ، والزنادقة يجلبون على الفهم الأثر لا يستطيعون التحقيق التام الذي قصده صاحب الملة ولا يقلدونه ولا يسلمونه فيما أخبر فهم في ريبهم يترددون على خوف من ملئهم والناس ينكرون عليهم ويرونهم خارجين من الدين خالعين ربة الملة عن أعناقهم وإذا كان الأمر على ما ذكرنا من الانكار وقبح الحال فخروجهم لا يضر ، والثانية الجاهلون الغافلون الذين لم يرفعوا رؤوسهم إلى الدين رأساً ولم يلتفتوا لفتة أصلا وكان هؤلاء أكثر شيء في قريش وما والاها لبعدهم من الأنبياء وهو قوله تبارك وتعالى (لتنذر قوما ما أتاهم من نذير) غير أنهم لم يبعدوا من المحجة (١) كل البعد بحيث لا تثبت عليهم الحجة ولا يتوجه عليهم الإلزام ولا يتحقق فيهم الإقحام (٢) فمن تلك الأصول (٣) القول بأنه لا شريك لله تعالى في خالق السموات والأرض وما فيهما من الجواهر ولا شريك له في تدبير الأمور العظام وأنه لا راد لحكمه ولا مانع لقضائه إذا أبرم وجزم وهو قوله تعالى (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) وقوله تعالى (بل إياه تدعون) وقوله تعالى : (ضل من تدعون إلا إياه) لكن كان من زندقته قولهم : إن هنالك أشخا من الملائكة والأرواح تدبر أهل الأرض فيما دون الأمور العظام من إصلاح حال العابد فيما يرجع إلى خويصة نفسه وأولاده وأمواله وشبهوهم بحال الملوك بالنسبة إلى ملك الملوك وبحال الشفعاء والندماء بالنسبة إلى السلطان المتصرف بالجبروت ومنشأ ذلك ما نطقت به الشرائع من تفويض الأمور إلى الملائكة واستجابة دعاء المقربين من الناس فظنوا ذلك تصرفاً منهم كتصرف الملوك قياساً للغائب على الشاهد وهو الفساد ، ومنها تنزيهه عما لا يليق بجناحه وتحريم الاتحاد في أسمائه لكن كان من زندقته زعمهم إن الله اتخذ الملائكة بنات وأن الملائكة إنما جعلوا واسطة ليكتسب الحق منهم علماً ليس عنده قياساً على الملوك بالنسبة إلى الجواسيس * ﴿ومنها﴾ أن الله تعالى قدر جميع الحوادث قبل أن يخلقها . وهو قول الحسن البصري : لم يزل أهل الجاهلية يذكرون القدر في خطبهم وأشعارهم ولم يزد الشرع إلا تأكيداً ﴿ومنها﴾ أن هنالك موطناً يتحقق فيه القضاء بالحوادث شيئاً فشيئاً ، وأن هنالك لأدعية الملائكة المقربين وأفاضل الآدميين تأثيراً بوجه من الوجوه لكن صار ذلك في أذهانهم متمثلاً بشفاعته ندماء الملوك إليهم ﴿ومنها﴾ أنه كلف العباد بما شاء فأحل وحرم وأنه مجاز على الأعمال إن خيراً فخييراً وإن شراً فشرراً وأن الله تعالى ملائكة هم مقربو الحضرة وأكابر المملكة وأنهم مدبرون في العالم بأذن الله وبأمره وأنهم (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) وأنهم لا يأكلون ولا يشربون ولا يتغوطون

ولا ينكحون وأنهم قديظرون لأفاضل الآدميين فيبشرونهم وينذرونهم وأن الله قد يبعث إلى عباده بفضله ولطفه رجلاً منهم فيلقى وحيه إليه وينزل الملك عليه وأنه يفرض طاعته عليهم فلا يجدون منها بداً ولا يستطيعون دونها محيصاً، وقد كثر ذكر الملائكة الأعلى وحملة العرش في أشعار الجاهلية . وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ صدق أمية بن أبي الصلت في بيتين من شعره فقال :

رجل وثور تحت رجل يمينه والنسر للآخرى وليث مرصد (١)

فقال النبي ﷺ صدق فقال :

والشمس تطلع كل آخر ليلة حمراء يصبح لونها يتورد (٢)

تأني فما تطلع لنا في رسلها إلا معذبة وإلا تجلد

فقال النبي ﷺ : صدق، وتحقيق هذا أن أهل الجاهلية كانوا يزعمون أن حملة العرش أربعة أملاك، أحدهم في صورة الإنسان وهو شفيع بني آدم عند الله، والثاني في صورة الثور وهو شفيع البهائم، والثالث في صورة النسر وهو شفيع الطيور، والرابع في صورة الأسد وهو شفيع السباع، فقد ورد الشرع بقريب من ذلك (٣) إلا أنه سماهم جميعهم وعولا وذلك بحسب ما يظهر في عالم المثال من صورهم، فهذا كله كان معلوما عندهم مع ما دخل فيه من قياس الغائب على الشاهد وخلط المؤلف بالأمر العلمية . وإن كنت في ريب مما ذكرنا فانظر فيما قص الله تعالى في القرآن العظيم واحتج عليهم بما عندهم من بقية العلم وكشف ما أدخلوه فيه من الشبه والشكوك لاسيما قوله تعالى لما أنكروا نزول القرآن (قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى) ولما قالوا (مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق) أنزل قوله تعالى : (قل ما كنت بدعا من الرسل) وما يشابه ذلك فتعلم من هنالك أن المشركين وإن كانوا قد تباعدوا عن المحجة المستقيم لكن كانوا بحيث تقوم عليهم الحجة ببقية ما عندهم من العلم، وانظر إلى خطب حكماءهم كقيس بن ساعدة . وزيد بن عمرو بن نفيل وإلى أخبار من كان قبل عمرو بن لحي تجد ذلك مفصلاً بل لو أمعنت في تصفح أخبارهم غاية الامعان وجدت أفاضلهم وحكماءهم (٤) كانوا يقولون بالمعاد وبالحفظة وغير ذلك ويثبتون التوحيد على وجهه حتى قال زيد بن عمرو بن نفيل في شعره :

عبادك يخطئون وأنت رب بكفيك المنايا والحتوم (٥)

وقال أيضاً : أربا واحداً أم ألف رب أدين إذا تقسمت الأمور

(١) معنى الشعر أن هذه أربعة أشياء مقهورون تحت قدرة القادروهم بزعمهم حملة العرش وشفعاء الناس والحيوانات

عند الله تعالى، والنسر اسم طائر، والليث اسم للأسد اه

(٢) والمعنى أن الشمس تطلع على ختم كل ليلة بشكل أحمر ولون وردى ولا تطلع بالرفق والطوع بل معذبة بالسياس

ومجلدة أى مضروبة فهي مقهورة تحت قدرة خالقها اه (٣) كما قال ﷺ : (ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية) اه

(٤) منهم زهير بن أبي سلمى كان يمر بالنضاه وقد أوردت بعد ما يبست فيقول لولا أن يسبني العرب لآمنت بأن

الذي أحيا الأرض بعد يبسها سيحيي العظام وهي رميم . ومنهم عامر بن الظرب وكان من خطبائهم وقد حرم الخمر على

في نفسه، ومن كان يؤمن بالله وباليوم الآخر عبد الله بن تغلب بن وبرة بن قضاعة، وعلان بن شهاب التميمي، وبالجملة كانت العرب

في الجاهلية تحرم أشياء نزل القرآن بتحريمها اه (٥) الحتوم الأفضية، وأدين أنقاد اه

تركت اللات والعزى جميعاً كذلك يفعل الرجل البصير

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمية بن أبي الصلت: «آمن شعره ولم يؤمن قلبه» وذلك مما توارثوه من مناجاة إسماعيل ودخل فيهم من أهل الكتاب وكان من المعلوم عندهم إن كمال الإنسان أن يسلم وجهه لربه ويعبده أقصى مجهوده، وإن من أبواب العبادة الطهارة وما زال الغسل من الجنباة سنة معمولة عندهم وكذلك الختان وسائر خصال الفطرة، وفي التوراة إن الله تعالى جعل الختان ميسمة على إبراهيم وذريته وهذا الوضوء يفعله المجوس واليهود وغيرهم وكانت تفعله حكماء العرب وكانت فيهم الصلاة وكان أبو ذر رضى الله عنه يصلى قبل أن يقدم على النبي ﷺ بثلاث سنين، وكان قس بن ساعدة الأيادي يصلى، والمحفوظ من الصلاة في أمم اليهود والمجوس وبقية العرب أفعال تعظيمة لاسيما السجود وأقوال من الدعاء والذكر وكانت فيهم الزكاة وكان المعمول عندهم منها قرى الضيف وابن السبيل وحمل الكل والصدقة على المساكين وصلة الأرحام والاعانة في نوائب الحق وكانوا يمدحون بها ويعرفون أنها كمال الإنسان وسعادته، قالت خديجة فوالله: لا يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم وتقرى الضيف وتحمل الكل (١) وتعين على نوائب الحق، وقال ابن الدغنة (٢) لأبي بكر الصديق رضى الله عنه مثل ذلك، وكان فيهم الصوم من الفجر إلى غروب الشمس وكانت قريش تصوم عاشوراء في الجاهلية وكان الجوار في المسجد، وكان عمر نذر اعتكاف ليلة في الجاهلية فاستفتى في ذلك رسول الله ﷺ، وكان عاص ابن وائل أوصى أن يعتق عنه كذا وكذا من العبيد، وبالجملة كان أهل الجاهلية يتحشون بأنواع التحنثات، وأما حج بيت الله وتعظيم شعائره والأشهر الحرم فأمره أظهر من أن يخفى وكان لهم أنواع من الرقى والتعوذات وكانوا أدخلوا فيها الإشرار ولم تزل سنتهم الذبح في الحلق والنحر في اللبة ما كانوا يخنقون (٣) ولا يبعجون وكانوا على بقية دين إبراهيم عليه السلام في ترك النجوم وترك الخوض في دقائق الطبيعيات غير ما الجأ إليه البداهة وكان العمدة عندهم في تقدم المعرفة الرؤيا وبشارات الأنبياء من قبلهم ثم دخل فيهم الكهانة والاستقسام بالازلام والطيرة وكانوا يعرفون أن هذه لم تكن في أصل الملة وهو قوله ﷺ حين رأى صورة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في أيديهما الازلام: «لقد علموا أنهما لم يستقسما قط» وكان بنو إسماعيل على مناجاة أيهم إلى أن وجد فيهم عمرو بن لحي - وذلك قبل مبعث النبي ﷺ قريبا من ثلثمائة سنة - وكانت لهم سنن متأكدة يتلاومون على تركها في ما كلهم ومشربهم ولباسهم وولائمهم وأعيادهم ودفن موتاهم ونكاحهم وطلاقهم وعدتهم وإحدادهم (٤) ويوسعهم ومعاملاتهم وما زالوا يحرمون المحارم كالبنات والامهات والاخوات وغيرها وكانت لهم مزاجر في مظالمهم كالقصاص والديات والقسماء وعقوبات على الزنا والسرقة ودخلت فيهم من الأكاكسة والقياصرة علوم الارتفاق الثالث والرابع لكن دخلهم الفسوق والتظالم بالسبي والنهب وشيوع الزنا والنكاحات الفاسدة والربا وكانوا تركوا الصلاة والذكر وأعرضوا عنهما فبعث النبي ﷺ فيهم - وهذا حالهم - فنظر في جميع

(١) الكل بفتح الكاف وتشديد اللام العيال ومن لا يستقل أمره، والمعنى تعين بالانفاق على العيال والضعفاء، وقوله نوائب الحق. أى حوادث تكون في الحق دون الباطل اهـ (٢) واسمه سبيعة بن ربيع، والدغنة اسم أمه وهو الذي أجاز أبا بكر رضى الله عنه، والجوار الاعتكاف، ويتحشون يتعبدون اهـ (٣) الخنق بالكسر خفه كردن، والبعج شكافتن شكم يكاردا اهـ (٤) إحداد المرأة امتناعها من الزينة اهـ

ما عند القوم فما كان بقية الملة الصحيحة أبقاه وسجل على الأخذ به وضبط لهم العبادات بشرع الأسباب والأوقات والشروط والأركان والآداب والمفاسدات والرخصة والعزيمة والأداء والقضاء وضبط لهم المعاصي ببيان الأركان والشروط وشرع فيها حدوداً ومزاجاً وكفارات ويسر لهم الدين ببيان الترغيب والترهيب وسد ذرائع الإثم والحث على مكملات الخير إلى غير ذلك مما سبق ذكره وبالع في إشاعة الملة الخفيفة وتغليبها على الملل كلها وما كان من تحريفاتهم نفاذ وبالع في نفيه وما كان من الارتفاقات الصحيحة سجل عليه وأمر به وما كان من رسومهم الفاسدة منعهم عنه وقبض على أيديهم وقام بالخلافة الكبرى وجاهد بمن معه من دونهم حتى تم أمر الله وهم كارهون، وجاء في بعض الأحاديث أن رسول الله ﷺ قال «بعثت بالملة السمحة الخفيفة البيضاء» يريد بالسمحة ما ليس فيه مشاق الطاعات كما ابتدعه الرهبان بل فيها لكل عذر رخصة يتأتى العمل بها للقوى والضعيف والمكسب والفارغ وبالخفيفة ما ذكرنا من أنها ملة إبراهيم صلوات الله عليه فيها إقامة شعائر الله وكبت شعائر الشرك وإبطال التحريف والرسوم الفاسدة وبالبيضاء أن عللها وحكمها والمقاصد التي بنيت عليها واضحة لا يريب فيها من تأمل وكان سليم العقل غير مكابر والله أعلم *

﴿المبحث السابع مبحث استنباط الشرائع من حديث النبي ﷺ﴾

﴿باب بيان أقسام علوم النبي صلى الله عليه وسلم﴾

إعلم أن ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم ودون في كتب الحديث على قسمين، أحدهما ما سبيله سبيل تبليغ الرسالة وفيه قوله تعالى (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) منه علوم المعاد وعجائب الملكوت وهذا كله مستند إلى الوحي (١) ومنه شرائع وضبط للعبادات والارتفاقات بوجوه الضبط المذكورة فيما سبق وهذه بعضها مستند إلى الوحي وبعضها مستند إلى الاجتهاد واجتهاده ﷺ بمنزلة الوحي لأن الله تعالى عصمه من أن يتقرر رأيه على الخطأ وليس يجب أن يكون اجتهاده استنباطاً من المنصوص كما يظن بل أكثره أن يكون عليه الله تعالى مقاصد الشرع وقانون التشريع والتيسير والأحكام فبين المقاصد المتلقاة بالوحي بذلك القانون، ومنه (٢) حكم مرسلات ومصالح مطلقة لم يوقتها ولم يبين حدودها كبيان الأخلاق الصالحة وأضدادها ومستنداتها غالباً الاجتهاد بمعنى أن الله تعالى علمه قوانين الارتفاقات فاستنبط منها حكمة وجعل فيها كلية، ومنه فضائل الأعمال ومناقب العمال، وأرى أن بعضها مستند إلى الوحي وبعضها إلى الاجتهاد وقد سبق بيان تلك القوانين وهذا القسم هو الذي نقصد شرحه وبيان معانيه.

﴿وثانيهما﴾ ما ليس من باب تبليغ الرسالة وفيه قوله صلى الله عليه وسلم: «إنما أنا بشر إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإني أنا بشر» وقوله ﷺ في قصة تأيير النخل: «فإني إنما ظننت ظناً ولا تؤاخذوني بالظن ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئاً فخذوا به فإني لم أكذب على الله» فنه الطب ومنه باب قوله ﷺ «عليكم بالأدهم الأقرح» (٣) ومستنده التجربة، ومنه ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم على سبيل العادة دون العبادة وبحسب الاتفاق دون القصد، ومنه ما ذكره كما كان يذكر قومه كحديث أم زرع وحديث خرافة وهو قول زيد بن ثابت حيث دخل عليه نفر فقالوا له حدثنا أحاديث رسول الله ﷺ: «قال كنت جاره فكان

(١) أي ليس للاجتهاد فيه دخل اهـ (٢) أي مما سبيله سبيل تبليغ الرسالة اهـ (٣) الأدهم من الخيل الذي يشتد سوداه، والأقرح الذي في جبهته يياض يسير دون الغرة اهـ

إذا نزل عليه الوحي بعث إلى فكتبته له فكان إذا ذكرنا الدنيا ذكرها معنا وإذا ذكرنا الآخرة ذكرها معنا وإذا ذكرنا الطعام ذكره معنا فكل هذا أحدثكم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (١)، ومنه ما قصد به مصلحة جزئية يومئذ وليس من الأمور اللازمة لجميع الأمة وذلك مثل ما يأمر به الخليفة من تعبئة الجيوش وتعيين الشعار (٢) وهو قول عمر رضي الله عنه: مالنا وللرمل كنا نترأى (٣) به قوما قد أهلكتهم الله ثم خشي أن يكون له سبب آخر، وقد حمل كثير من الأحكام عليه كقوله صلى الله عليه وسلم: «من قتل قتيلاً فله سلبه» ومنه حكم وقضاء خاص وإنما كان يتبع فيه البيّنات والإيمان وهو قوله صلى الله عليه وسلم لعلي رضي الله عنه: «الشاهد يرى مالا يراه الغائب» *

﴿ باب الفرق بين المصالح والشرائع ﴾

﴿ إعلم ﴾ أن الشارع أفادنا نوعين من العلم متميزين بأحكامهما متباينين في منازلهما، فأحد النوعين علم المصالح والمفاسد أعنى ما ينبه من تهذيب النفس باكتساب الاخلاق النافعة في الدنيا أو في الآخرة وإزالة أضرارها ومن تدبير المنزل وآداب المعاش، وسياسة المدينة غير مقدر لذلك بمقادير معينة ولا ضابط مبهمه بحدود مضبوطة ولا يميز لمشكله بأمارات معلومة بل رغب في الحمائد وزهد في الرذائل تاركاً كلامه إلى ما يفهم منه أهل اللغة مديراً للطلب أو المنع على أنفس المصالح لاعلى مظان منصوبة لها وأمارات معرفة إياها كما مدح الكيس والشجاعة وأمر بالرفق والتودد والقصد في المعيشة ولم يبين أن الكيس مثلاً ما حده الذي يدور عليه الطلب وما مضته التي يؤخذ الناس بها وكل مصلحة حثنا الشرع عليها وكل مفسدة ردعنا (٤) عنها فان ذلك لا يخلو من الرجوع إلى أحد أصول ثلاثة ﴿ أحدها ﴾ تهذيب النفس بالخصال الأربع النافعة في المعاد أو سائر الخصال النافعة في الدنيا ﴿ وثانيها ﴾ إعلاء كلمة الحق وتمكين الشرائع والسعى في إشاعتها ﴿ وثالثها ﴾ انتظام أمر الناس وإصلاح ارتفاقاتهم وتهذيب رسومهم، ومعنى رجوعها إليها أن يكون للشئ دخل في تلك الأمور إثباتاً لها أو نفيّاً إياها بأن يكون شعبة من خصلة منها أو ضداً لشعبتها أو مظنة لوجودها أو عدمها أو متلازماً معها أو مع ضدها أو طريقاً إليها أو إلى الاعراض عنها، والرضا في الأصل إنما يتعلق بتلك المصالح، والسخط إنما يناط بتلك المفاسد قبل بعث الرسل وبعده سواء. ولولا تعلق الرضا والسخط بتينك القبيلتين لم يبعث الرسل وذلك لأن الشرائع والحدود إنما كانت بعد بعث الرسل فما كان في التكليف بها والمواخظة عليها ابتداء لطف ولكن المصالح والمفاسد كانت مؤثرة مقتضية لتهذيب النفس أو تلويثها أو انتظام أمورهم أو فسادها قبل بعث الرسل فافتضى لطف الله أن يخبروا بما يهملهم ويكلفوا بما لا بد لهم منه ولم يكن يتم ذلك إلا بمقادير وشرائع فافتضى اللطف تلك القبيلة (٥) بالعرض وهذا النوع معقول المعنى، فمنه ما تستقل العقول العامة بفهمه، ومنه مالا يفهمه إلا عقول الأذكياء الفاضل عليهم الأنوار من قلوب الأنبياء نبههم الشرع فتنهوا ولوح لهم فتفطنوا، ومن أتقن الأصول التي ذكرناها لم يتوقف في شيء منها. والنوع الثاني علم الشرائع والحدود والفرائض أعنى ما بين الشرع

(١) أي لا يستطيع أن أذكر كل هذه الأمور فكل هذا - بمعنى أفكل هذا - يعني الاستفهام انكارى اه (٢) هو علامة

تعين بين الافواج ليعرف بها الموافق من المخالف اه (٣) أي نظهر ونرى المشر كين بالرمل أنا أقوياء اه

(٤) أي زجرنا اه (٥) أي تقدير المقادير

من المقادير فنصب للمصالح مظان وأمارات مضبوطة معاومة وأدار الحكم عليها وكلف الناس بها وضبط أنواع البر بتعيين الأركان والشروط والآداب وجعل من كل نوع حداً يطلب منهم لا محالة وحداً يندبون إليه من غير إيجاب، واختار من كل بر عدداً يوجب عليهم وآخر يندبون إليه فصار التكليف متوجهاً إلى أنفس تلك المظان وصارت الأحكام دائرة على أنفس تلك الأمارات، ومرجع هذا النوع إلى قوانين السياسة المالية وليس كل مظنة لمصلحة توجب عليهم ولكن ما كان منها مضبوطاً أمراً محسوساً أو وصفاً ظاهراً يعلمه الخاصة والعامة وربما يكون للإيجاب والتحريم أسباب طارئة يكتب لأجلها في الملاء الأعلى فيتحقق هنالك صورة الإيجاب والتحريم كسؤال سائل ورغبة قوم فيه أو إعراضهم عنه وكل ذلك غير معقول المعنى بمعنى أنا وإن كنا نعلم قوانين التقدير والتشريع فلا نعلم وجود كتابته في الملاء الأعلى وتحقق صورة الوجوب في حظيرة القدس إلا بنص الشرع فانه من الأمور التي لا سبيل إلى إدراكها إلا بالأخبار الإلهي مثل ذلك - كمثل الجمد - نعلم أن سبب حدوثه برودة تضرب الماء ولا نعلم أن ماء القعب في ساعتنا هذه صار جمداً أولاً إلا بالمشاهدة أو إخبار من شاهد فعلى هذا القياس نعلم أنه لا بد من تقدير النصاب في الزكاة ونعلم أن مائتي درهم وخمسة أوساق قدر صالح للنصاب لأنه يحصل بهما غنى معتد به وهما أمران مضبوطان مستعملان عند القوم ولا نعلم أن الله تعالى كتب علينا هذا النصاب وأدار الرضا والسخط عليه إلا بنص الشرع كيف وك من سبب له لا سبيل إلى معرفته إلا الخبر وهو قوله صلى الله عليه وسلم: «أعظم المسلمين في المسلمين جرماً» الحديث (١) وقوله ﷺ: «خشيت أن يكتب عليكم» وقد انفق من يعتد به من العلماء على أن القياس لا يجري في باب المقادير وعلى أن حقيقة القياس تعدية حكم الأصل إلى الفرع لعله مشتركة لا جعل مظنة مصلحة علة أو جعل شيء مناسباً كناً أو شرطاً، وعلى أنه لا يصلح القياس لوجود المصلحة ولكن لوجود علة مضبوطة أدير عليها الحكم فلا يقاس مقيم به حرج على المسافر في رخص الصلاة والصوم فإن دفع الحرج مصلحة الترخيص لعله القصر والافطار وإنما العلة هي السفر فهذه المسائل لم يختلف فيها العلماء إجمالاً ولكن يحملها أكثرهم عند التفصيل وذلك لأنه ربما تشبه المصلحة بالعلة والتشريع وبعض الفقهاء عند ما خاضوا في القياس تحيروا فلقجوا ببعض المقادير وأنكروا استبدالها بما يقرب منها وتسامحوا في بعضها فنصبوا أشياء مقامها، مثال ذلك تقديرهم نصاب القطن بخمسة أحمال ونصبهم كوب السفينة مظنة لدوران الرأس وإدارة رخصة القعود في الصلاة عليه وتقدير الماء بالعشر في العشر وكلما أفهم الشرع المصلحة في موضع فوجدنا تلك المصلحة في موضع آخر عرفنا أن الرضا يتعلق بها بعينها لا بخصوص ذلك الموضع بخلاف المقادير فإن الرضا يتعلق هناك بالمقادير أنفسها، تفصيل ذلك أن من ترك صلاة وقت كان آثماً وإن شغل ذلك الوقت بالذكر وسائر الطاعات، ومن ترك زكاة مفروضة وصرف أكثر من ذلك المال في وجوه الخير كان آثماً وكذلك إن لبس الحرير والذهب في الخلوة حيث لا يتصور كسر قلوب الفقراء وحمل الناس على الاكثار من الدنيا ولم يقصد به الترفه كان آثماً وكذلك إن شرب الخمر بنية التداوى ولم يكن هناك فساد ولا ترك صلاة كان آثماً لأن الرضا والسخط متعلقان بأنفس هذه الأشياء وإن كان الغرض الأصلي كبجهم عن المفاسد وحملهم على المصالح لكن الحق علم أن سياسة الأمة لا تتمكن في هذا الوقت إلا بإيجاب أنفس هذه الأشياء وتحريمها

فتوجه الرضا والسخط إلى أنفسها وكتب ذلك في الملاء الأعلى بخلاف ما إذا لبس الصوف الرفيع الذي هو أعلى وأعلى من الحرير واستعمل أواني الياقوت فانه لا يَأْتُم بنفس هذا الفعل ولكن إن تحقق كسر قلوب الفقراء وحمل الناس على فعل ذلك أو قصد الترفه بعد من الرحمة لاجل تلك المفاسد والإفلا، وحيث وجدت الصحابة والتابعين فعلوا ما يشبه التقدير فأنما مرادهم بيان المصلحة والترغيب فيها والمفسدة والترهيب عنها وإنما أخرجوا تلك الصورة مخرج المثل (١) لا يقصدون اليها بالخصوص وإنما يقصدون إلى المعاني وإن اشتبه الامر بادي الرأي، وحيث جوز الشرع استبدال مقدار بقيمته كبنت المخاض بقيمتها على قول فعلى التسليم هو أيضاً نوع من التقدير وذلك لأن التقدير لا يمكن الاستقصاء فيه بحيث يفضى إلى التضيق ولكن ربما يقدر بأمر ينطبق على أمور كثيرة كبنت المخاض نفسها فأنها ربما كانت بنت مخاض أرفه من بنت مخاض وربما كان التقدير بالقيمة تقديرًا بحد معلوم في الجملة كتقدير نصاب القطع بما يكون قيمته ربع ديناراً أو ثلاثة دراهم ﴿واعلم﴾ أن الإيجاب والتحريم نوعان من التقدير وذلك لانه كثيراً ما تعن (٢) مصلحة أو مفسدة لها صور كثيرة فتعين صورة للإيجاب أو التحريم لأنها من الامور المضبوطة أولاً لأنها مما عرفوا حالها في الملل السابقة أو رغبوا فيها أكثر رغبة ولذلك اعتذر النبي صلى الله عليه وسلم وقال: «خشيت أن يكتب عليكم» وقال «لولا أن أشق على أمتي لامرتهم بالسواك» وإذا كان الامر على ذلك لم يجوز حمل غير المنصوص حكمه على المنصوص حكمه أما النذب والكرهية فففيهما تفصيل فأى مندوب أمر الشارع بعينه ونوه بأمره وسنه للناس فحاله حال الواجب وأى مندوب اقتصر الشارع على بيان مصلحته أو اختار العمل هو به من غير أن يسنه وينوه بأمره فهو باق على الحالة التي كانت قبل التشريع وإنما نصاب الاجر فيه من قبل المصلحة لا وجدت معه لا باعتبار نفسه وكذلك حال المكروه على هذا التفصيل وإذا تحققت هذه المقدمة اتضح عندك أن أكثر المقاييس التي يفتخر بها القوم ويتطاولون لاجلها على معشر أهل الحديث يعود وبالاعليهم من حيث لا يعلمون *

﴿باب كيفية تلقي (٣) الامة الشرع من النبي صلى الله عليه وسلم﴾

واعلم أن تلقي الامة منه الشرع على وجهين، أحدهما تلقي الظاهر ولا بد أن يكون بنقل إما متواتراً أو غير متواتر، والمتواتر منه المتواتر لفظاً كالقرآن العظيم وكنبذ يسير من الاحاديث منها قوله صلى الله عليه وسلم: «إنكم سترون ربكم (٤)» ومنه المتواتر معنى ككثير من أحكام الطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج والبيوع والنكاح والغزوات مما لم يختلف فيه فرقة من فرق الاسلام، وغير المتواتر أعلى درجاته المستفيض وهو ما رواه ثلاثة من الصحابة فصاعداً ثم لم يزل يزيد الرواة إلى الطبقة الخامسة وهذا قسم كثير الوجود وعليه بناء رؤوس الفقه ثم الخبر المقضى له بالصحة أو الحسن على السنة حفاظ المحدثين وكبرائهم ثم أخبار فيها كلام قبلها بعض ولم يقبلها آخرون فما اعتضد منها بالشواهد أو قول أكثر أهل العلم أو العقل الصريح

(١) كتقدير أربع برد حد السفر اهـ (٢) أى تظهر اهـ (٣) أى أخذ اهـ (٤) تمامه «فأترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته فان استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا - ثم قرأ (وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها) ومبدأ الحديث قال جرير بن عبد الله: «لما جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال: «إنكم» الخ اهـ

وجب اتباعه، وثانيهما التلقى دلالة وهي أن يرى الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول أو يفعل فاستنبطوا من ذلك حكماً من الوجوب وغيره فأخبروا بذلك الحكم فقالوا: الشيء الفلاني واجب وذلك الآخر جائز ثم تلقى التابعون من الصحابة كذلك فدون الطبقة الثالثة فتاواهم وقضاياهم وأحكموا الأمر، وأكابر هذا الوجه (١) عمر وعلى وابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهم لكن كان من سيرة عمر رضي الله عنه إنه كان يشاور الصحابة وينظرهم حتى تنكشف الغمة (٢) ويأتيه الثلج فصار غالب قضاياه وفتاواه متبعة في مشارق الارض ومغاربها وهو قول إبراهيم لما مات عمر رضي الله عنه: ذهب تسعة أعشار العلم، وقول ابن مسعود رضي الله عنه: كان عمر إذا سلك طريقاً وجدناه سهلاً، وكان على رضي الله عنه لا يشاور غالباً وكان أغلب قضاياه بالكوفة ولم يحملها عنه إلا ناس (٣) وكان ابن مسعود رضي الله عنه بالكوفة فلم يحمل عنه غالباً إلا أهل تلك الناحية، وكان ابن عباس رضي الله عنهما اجتهد بعد عصر الأولين فناقضهم في كثير من الأحكام واتبعه في ذلك أصحابه من أهل مكة ولم يأخذ بما تفرد به جمهور أهل الإسلام، وأما غير هؤلاء الأربعة فكانوا يراوون دلالة لكن ما كانوا يميزون الركن والشرط من الآداب والسنن ولم يكن لهم قول عند تعارض الأخبار وتقابل الدلائل إلا قليلاً كابن عمر وعائشة وزيد بن ثابت رضي الله عنهم، وأكابر هذا الوجه من التابعين بالمدينة الفقهاء السبعة لاسيما ابن المسيب بالمدينة، وبمكة عطاء بن أبي رباح، وبالكوفة إبراهيم وشريح والشعبي، وبالبصرة الحسن. وفي كل من الطريقتين خلل إنما ينجبر بالأخرى ولا غنى لاحدهما عن صاحبتها. أما الأولى فمن خللها ما يدخل في الرواية بالمعنى من التبديل ولا يؤمن من تغيير المعنى، ومنه ما كان الأمر في واقعة خاصة فظنه الراوي حكماً كلياً، ومنه ما أخرج فيه الكلام مخرج التأكيد ليعضوا عليه بالنواجد فظن الراوي وجوباً أو حرمة - وليس الأمر على ذلك - فمن كان فقيها وحضر الواقعة استنبط من القرائن حقيقة الحال كقول زيد رضي الله عنه في النهي عن المزارعة وعن بيع الثمار قبل أن يبدو صلاحها: إن ذلك كان كالمشورة، وأما الثانية فيدخل فيها قياسات الصحابة والتابعين واستنباطهم من الكتاب والسنة وليس الاجتهاد مصيباً في جميع الأحوال وربما كان لم يبلغ أحدهم الحديث أو بلغه بوجه لا ينتهض بمثله الحاجة فلم يعمل به ثم ظهر جليلة الحال على لسان صحابي آخر بعد ذلك كقول عمر وابن مسعود رضي الله عنهما في التيمم عن الجنابة وكثيراً ما كان اتفاق رؤوس الصحابة رضي الله عنهم على شيء من قبل دلالة العقل على ارتفاق وهو قوله صلى الله عليه وسلم: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي» وليس من أصول الشرع فمن كان متبحراً في الأخبار والفاظ الحديث يتيسر له التفصي عن مزال الأقدام، ولما كان الأمر كذلك وجب على الخائض في الفقه أن يكون متضلعا من كلا المشرّيين ومتبحراً في كلا المذهبين، وكان أحسن شعائر الملة ما أجمع عليه جمهور الرواة وحمة العلم وتطابق فيه الطريقتان جميعاً والله أعلم *

﴿ باب طبقة كتب الحديث ﴾

إعلم أنه لا سبيل لنا إلى معرفة الشرائع والأحكام إلا خبر النبي صلى الله عليه وسلم بخلاف المصالح فإنها قد تدرك بالتجربة والنظر الصادق والحدس ونحو ذلك ولا سبيل لنا إلى معرفة أخباره صلى الله عليه وسلم

إلا تلقى الروايات المنتهية إليه بالاتصال والعنونة سواء كانت من لفظه صلى الله عليه وسلم أو كانت أحاديث موقوفة قد صحت الرواية بها عن جماعة من الصحابة والتابعين بحيث يبعد اقدمهم على الجزم بمثله لولا النص أو الإشارة من الشارع، فمثل ذلك رواية عنه صلى الله عليه وسلم دلالة وتلقى تلك الروايات لاسيما في يومنا هذا إلا تتبع الكتب المدونة في علم الحديث فإنه لا يوجد اليوم رواية يعتمد عليها غير مدونة، وكتب الحديث على طبقات مختلفة ومنازل متباينة فوجب الاعتناء بمعرفة طبقات كتب الحديث.

فنقول هي باعتبار الصحة والشهرة على أربع طبقات وذلك لأن أعلى أقسام الحديث كما عرفت فيما سبق ما ثبت بالتواتر وأجمعت الأمة على قبوله والعمل به ثم ما استفاض من طرق متعددة لا يبقى معها شبهة يعتد بها واتفق على العمل به جمهور فقهاء الأمصار أو لم يختلف فيه علماء الحرم خاصة فإن الحرميين محل الخلفاء الراشدين في القرون الأولى ومحط رحال العلماء طبقة بعد طبقة يبعد أن يسلموا منهم الخطأ الظاهر أو كان قولاً مشهوراً معمولاً به في قطر عظيم مروياً عن جماعة عظيمة من الصحابة والتابعين، ثم ما صح أو حسن سنده وشهد به علماء الحديث ولم يكن قولاً متروكاً لم يذهب إليه أحد من الأمة أماماً كان ضعيفاً موضوعاً أو منقطعاً أو مقلوباً في سنده أو متناً أو من رواية المجاهيل أو مخالفاً لما أجمع عليه السلف طبقة بعد طبقة فلا سبيل إلى القول به بالصحة أن يشترط مؤلف الكتاب على نفسه إيراد ما صح أو حسن غير مقلوب ولا شاذ ولا ضعيف إلا مع بيان حاله فإن إيراد الضعيف مع بيان حاله لا يقدح في الكتاب، والشهرة أن تكون الأحاديث المذكورة فيها دائرة على السنة المحدثين قبل تدوينها وبعد تدوينها فيكون أئمة الحديث قبل المؤلف رويها بطرق شتى وأوردوها في مسانيدهم ومجاميعهم وبعد المؤلف اشتغلوا برواية الكتاب وحفظه وكشف مشكله وشرح غريبه وبيان إعرابه وتخريج طرق أحاديثه واستنباط فقهاء والفحص عن أحوال رواتها طبقة بعد طبقة إلى يومنا هذا حتى لا يبقى شيء مما يتعلق به غير مبحوث عنه إلا ما شاء الله ويكون نقاد الحديث قبل المصنف وبعده وافقوه في القول بها وحكموا بصحتها وارتضوا رأي المصنف فيها وتلقوا كتابه بالمدح والثناء ويكون أئمة الفقه لا يزالون يستنبطون عنها ويعتمدون عليها ويعتنون بها ويكون العامة لا يخلون عن اعتقادها وتعظيمها، وبالجملة فإذا اجتمعت هاتان الخصلتان كملا في كتاب كان من الطبقة الأولى ثم وثم، وإن فقدتا رأساً لم يكن له اعتبار وما كان أعلى حد في الطبقة الأولى فإنه يصل إلى حد التواتر وما دون ذلك يصل إلى الاستفاضة ثم إلى الصحة القطعية أعني القطع المأخوذ في علم الحديث المفيد للعمل، والطبقة الثانية إلى الاستفاضة أو الصحة القطعية أو الظنية وهكذا ينزل الأمر، فالطبقة الأولى منحصرة بالاستقراء في ثلاثة كتب، الموطأ، وصحيح البخاري، وصحيح مسلم. قال الشافعي: أصح الكتب بعد كتاب الله موطأ مالك، واتفق أهل الحديث على أن جميع ما فيه صحيح على رأي مالك ومن وافقه، وأما على رأي غيره فليس فيه مرسل ولا منقطع إلا قد اتصل السند به من طرق أخرى فلا جرم أنها صحيحة من هذا الوجه وقد صنف في زمان مالك موطآت كثيرة في تخريج أحاديثه ووصل منقطعه، مثل كتاب ابن أبي ذئب وابن عيينة والثوري ومعمرو وغيرهم ممن شارك مالك في الشيوخ وقد رواه عن مالك بن غير واسطة أكثر من ألف رجل وقد ضرب الناس فيه أكباده الأبل إلى مالك من أقاصي البلاد كما كان النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ذكره في حديثه، فمنهم المبرزون من الفقهاء كما الشافعي. ومحمد بن الحسن.

وابن وهب وابن القاسم، ومنهم نحارير المحدثين كيجي بن سعيد القطان وعبد الرحمن بن مهدي وعبد الرزاق، ومنهم الملوك والأمراء كالرشيد وابنيه وقد اشتهر في عصره حتى بلغ على جميع ديار الاسلام، ثم لم يأت زمان إلا وهو أكثر له شهرة وأقوى به عناية وعليه بنى فقهاء الأمصار مذاهبتهم حتى أهل العراق في بعض أمرهم ولم يزل العلماء يخرجون أحاديثه ويذكرون متابعاته وشواهدده ويشرحون غريبه ويضبطون مشكله ويبحثون عن فقهاء ويفتشون عن رجاله إلى غاية ليس بعدها غاية. وإن شئت الحق الصراح ففقد كتاب الموطأ بكتاب الآثار لمحمد والامالي لأبي يوسف تجد بينه وبينهما بعد المشرقين، فهل سمعت أحداً من المحدثين والفقهاء تعرض لهما واعتنى بهما ؟ أما الصحيحان فقد اتفق المحدثون على أن جميع ما فيهما من المتصل المرفوع صحيح بالقطع وأنهما متواتران إلى مصنفيهما وأنه كل من يهون أمرهما فهو مبتدع متبع غير سبيل المؤمنين. وإن شئت الحق الصراح ففقد كتاب ابن أبي شيبة وكتاب الطحاوي ومسند الخوارزمي وغيرهما تجد بينها وبينهما بعد المشرقين، وقد استدرك الحالم عليهما أحاديث هي على شرطهما ولم يذكرها، وقد تتبع ما استدركه فوجدته قد أصاب من وجه ولم يصب من وجه وذلك لأنه وجد أحاديث مروية عن رجال الشيخين بشرطهما في الصحة والاتصال فاتجه استدراكه عليهما من هذا الوجه ولكن الشيخين لا يذكران إلا حديثاً قد تناظر فيه مشايخهما وأجمعوا على القول به والتصحيح له كما أشار مسلم حيث قال: لم أذكر ههنا إلا ما أجمعوا عليه وجل ما تفرد به المستدرك كالموطأ (١) عليه المخفي مكانه في زمن مشايخهما وإن اشتهر أمره من بعد أو ما اختلف المحدثون في رجاله فالشيخان كأساتذتهما كانا يعتنيان بالبحث عن نصوص الأحاديث في الوصل والانعطاع وغير ذلك حتى يتضح الحال، والحالم يعتمد في الأكثر على قواعد مخرجة من صنائعهم كقوله: زيادة الثقات مقبولة، وإذا اختلف الناس في الوصل والارسال والوقف والرفع وغير ذلك فالذي حفظ الزيادة حجة على من لم يحفظ، والحق أنه كثيراً ما يدخل الخلل في الحفاظ من قبل الموقوف ووصل المنقطع لاسيما عند رغبتهم في المتصل المرفوع وتنويعهم به، فالشيخان لا يقولان بكثير مما يقوله الحالم والله أعلم * وهذه الكتب الثلاثة التي اعتنى القاضي عياض في المشارق بضبط مشكلها ورد تصحيحها (٢) :

﴿الطبقة الثانية﴾ كتب لم تبلغ مبلغ الموطأ والصحيحين ولا كنهاتتلوها كان مصنفوها معروفين بالوثوق والعدالة والحفظ والتبحر في فنون الحديث ولم يرضوا في كتبهم هذه بالتساهل فيما اشترطوا على أنفسهم فتلقاها من بعدهم بالقبول واعتنى بها المحدثون والفقهاء طبقة بعد طبقة واشتهرت فيما بين الناس وتعلق بها القوم شرحاً لغريبها وفحصاً عن رجالها واستنباطاً لفقهاء. وعلى تلك الأحاديث بناء عامة العلوم كسنن أبي داود وجامع الترمذي ومجتبي النسائي، وهذه الكتب مع الطبقة الأولى اعتنى بأحاديثها رزين في تجريد الصحاح وابن الأثير في جامع الأصول وكاد مسند أحمد يكون من جملة هذه الطبقة، فإن الامام أحمد جعله أصلاً يعرف به الصحيح والسقيم قال: ما ليس فيه فلا تقبلوه ﴿والطبقة الثالثة﴾ مسانيد وجوامع ومصنفات صنفت قبل البخاري ومسلم وفي زمانهما وبعدهما. جمعت بين الصحيح والحسن والضعيف والمعروف والغريب والشاذ والمنكر والخطأ والصواب والثابت والمقلوب، ولم تشتهر في العلماء ذلك الاشتهار وإن زال عنها اسم النكارة المطلقة ولم يتداول ما تفردت به الفقهاء

(١) الوعاء ككساء رباط القربة وغيرها وكل ما شد رأسه فهو وعاء وأولى عليها شد رأسها، والمراد من الموطأ عليه ومتسرا الحال اهـ (٢) ويسمى هذا الكتاب المشارق وطبع في المغرب

كثير تداول ولم تفحص عن صحتها وسقمها المحدثون كثير فخص، ومنه ما لم يخدمه لغوى لشرح غريب ولا فقيه بتطبيقه بمذاهب السلف ولا يحدث بيان مشكله ولا مؤرخ بذكر أسماء رجاله ولا أريد المتأخرين المتعمقين وإنما كلامي في الأئمة المتقدمين من أهل الحديث فهي باقية على استتارها واختفائها وخمولها كمسند أبي علي ومصنف عبد الرزاق ومصنف أبي بكر بن أبي شيبة ومسند عبد بن حميد والطيالسي وكتب البيهقي والطحاوي والطبراني وكان قصدهم جمع ما وجدوه لا تلخيصه وتهذيبه وتقريبه من العمل *

﴿ والطبقة الرابعة ﴾ كتب قصد مصنفوها بعد قرون متطاولة جمع ما لم يوجد في الطبقتين الأولىين، كانت في المجاميع والمسانيد المختفية فنوّها بأمرها وكانت على السنة من لم يكتب حديثه المحدثون لكثير من الوعاظ المتشدقين (١) وأهل الأهواء والضعفاء أو كانت من آثار الصحابة والتابعين أو من أخبار بني إسرائيل أو من كلام الحكماء والوعاظ خلطها الرواة بحديث النبي صلى الله عليه وسلم سهواً أو عمداً أو كانت من محتملات القرآن والحديث الصحيح فرواها بالمعنى قوم صالحون لا يعرفون غوامض الرواية فجعلوا المعاني أحاديث مرفوعة أو كانت معاني مفهومة من إشارات الكتاب والسنة جعلوها أحاديث مستبدة (٢) برأسها عمداً أو كانت جملاً شتى في أحاديث مختلفة جعلوها حديثاً واحداً بنسق واحد، ومظنة هذه الأحاديث كتاب الضعفاء لابن حبان وكامل ابن عدي، وكتب الخطيب وأبي نعيم والجوزقاني وابن عساكر وابن النجار والديلمي، وكاد مسند الخوارزمي يكون من هذه الطبقة، وأصلح هذه الطبقة ما كان ضعيفاً محتملاً وأسوأها ما كان موضوعاً ومقلوباً شديد النكارة. وهذه الطبقة مادة كتاب الموضوعات لابن الجوزي *

﴿ ههنا طبقة خامسة ﴾ منها ما اشتهر على السنة الفقهاء والصوفية والمؤرخين ونحوهم وليس له أصل في هذه الطبقات الأربع، ومنها مادسه الماكن في دينه العالم بلسانه فأتى باسناد قوى لا يمكن الجرح فيه، وكلام بليغ لا يبعد صدوره عنه صلى الله عليه وسلم فأثار في الاسلام مصيبة عظيمة، لكن الجهابذة من أهل الحديث يوردون مثل ذلك على المتابعات والشواهد فتهتك الاستار ويظهر العوار. أما الطبقة الأولى والثانية فعملهما اعتماد المحدثين وحوم حماهما مرتعهم ومسرحهم. وأما الثالثة فلا يباشرها للعمل عليها والقول بها إلا النحارير الجهابذة الذين يحفظون أسماء الرجال وعلل الأحاديث، نعمر بما يؤخذ منها المتابعات والشواهد، و(قد جعل الله لكل شيء قدراً) وأما الرابعة فلا اشتغال بجمعها أو الاستنباط منها نوع تعمق من المتأخرين. وإن شئت الحق فطوائف المبتدعين من الرافضة والمعتزلة وغيرهم يتمكنون بأدنى عناية أن يلخصوا منها شواهد مذاهبهم فلا ينتصار بها غير صحيح في معارك العلماء بالحديث والله أعلم *

﴿ باب كيفية فهم المراد من الكلام ﴾

إعلم أن تعبير المتكلم عما في ضميره وفهم السامع إياه يكون على درجات مترتبة في الوضوح والخفاء أعلاها ما صرح فيه بثبوت الحكم للموضوع له عينا وسيق الكلام لأجل تلك الافادة ولم يحتمل معنى آخر ويتلوه ما عدم فيه أحد القيود الثلاثة إما أثبت الحكم لعنوان عام يتناول جمعا من المسميات شمولاً أو بدلا مثل الناس والمسلمون والقوم والرجال، وأسماء الإشارة إذا عمت صلتها والموصوف بوصف عام والمنفى بلا الجنس (٣) فإن العام يلحقه

التخصيص كثيراً وإمام يسق الكلام لتلك الافادة وإن لزمتم مما هنالك مثل جاءني زيد الفاضل بالنسبة إلى الفضل
ويأيد الفقير بالنسبة إلى ثبوت الفقر له وإما احتمال معنى آخر أيضاً كاللفظ المشترك والذي له حقيقة مستعملة
ومجاز متعارف والذي يكون معروفاً بالمثال والقسمة غير معروف بالحد الجامع المانع كالسفر معلوم أن من أمثله
الخروج من المدينة قاصداً لمكة ومعلوم أن من الحركة تفرج، ومنها تردد في الحاجة بحيث يأوي إلى القرية في يومه، ومنها
سفر ولا يعرف الحد والدائر بين شخصين كاسم الإشارة والضمير عند تعارض القرائن أو صدق الصلة عليهما ثم
يتلوه ما أفهمه الكلام من غير توسط استعمال اللفظ فيه ومعظمه ثلاثة، الفحوى وهو أن يفهم الكلام حال
المسكوت عنه بواسطة المعنى الحامل على الحكم مثل (لا تقل لها أف) يفهم منه حرمة الضرب بطريق الأولى ومثل «من
أكل في نهار رمضان وجب عليه القضاء» يفهم منه أن المراد نقض الصوم وإنما خص الأكل لأنه صورة تتبادر إلى
الذهن، والاقتضاء وهو أن يفهمها بواسطة لزومه للمستعمل فيه عادة أو عقلاً أو شرعاً - أعتقت وبعث - يقتضيان
سبق ملك - مشى - يقتضى سلامة الرجل - صلى - يقتضى أنه على الطهارة، والایماء وهو أن أداء المقصود يكون بعبارات
بازاء الاعتبار المناسبة فيقصد البلغاء مطابقة العبارة للاعتبار المناسب الزائد على أصل المقصود فيفهم الكلام
الاعتبار المناسب له كالتقييد بالوصف أو الشرط يدلان على عدم الحكم عند عدمهما حيث لم يقصد مشاكلة
السؤال ولا بيان الصورة المتبادرة إلى الأذهان ولا بيان فائدة الحكم وكفهوم الاستثناء والغاية والعدد، وشرط
اعتبار الايماء أن يجري التناقض به في عرف أهل اللسان مثل - على عشرة إلا شيء - إنما على واحد - يحكم عليه الجمهور
بالتناقض، وأما ما لا يدركه إلا المتعمقون في علم المعاني فلا عبرة به ثم يتلوه ما استدلل عليه بمضمون الكلام ومعظمه
ثلاثة، الدرج في العموم مثل الذئب ذئب وكل ذئب حرام، وبيانه بالاقترااني وهو قوله وَاللَّهُ عَلِيمٌ : «وما أنزل على في
الخمر شيء إلا هذه الآية الفاذة الجامعة فمن يعمل ثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره» ومنه استدلال
ابن عباس بقوله تعالى (فبهذا هم اقتده) وقوله تعالى (وظل داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب) حيث
قال نبيكم أمر بأن يقتدى به، والاستدلال بالملازمة أو المنافاة مثل لو كان الوتر واجباً لم يؤد على الراحلة لكنه
يؤدي كذلك، وبيانه بالشرطي ومنه قوله تعالى (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) والقياس وهو تمثيل صورة
نصورة في علة جامعة بينهما مثل الحص ربوى كالحنطة ومنه قوله وَاللَّهُ عَلِيمٌ : «أرأيت لو كان على أيك دين فقضيته
عنه أكان يحزى عنه؟ قال نعم قال فاحجج عنه» والله أعلم *

﴿ باب كيفية فهم المعاني الشرعية من الكتاب والسنة ﴾

واعلم أن الصيغة الدالة على الرضا والسخط هي الحب والبغض والرحمة واللعنة والقرب والبعد ونسبة
الفعل إلى المرضيين أو المسخوطين كالمؤمنين والمنافقين والملائكة والشياطين وأهل الجنة والنار والطلب
والمنع وبيان الجزاء المترتب على الفعل والتشبيه بمحمود في العرف أو مذموم، واهتمام النبي صلى الله عليه وسلم
بفعله أو اجتنابه عنه مع حضور دواعيه، وأما التمييز بين درجات الرضا والسخط من الوجوب والندب والحرمة
والكراهية فأصرحه ما بين حال مخالفه مثل «من لم يؤد زكاة ماله مثل له» الحديث (١) وقوله صلى الله عليه وسلم
«ومن لا فلا حرج» ثم اللفظ مثل يجب ولا يحل وجعل الشيء ركن الإسلام أو الكفر والتشديد البالغ على فعله

(١) تمامه « ماله يوم القيامة شجاعاً أقرع له زيبتان يطوقه يوم القيامة » الخ اهـ

أو تركه ، ومثل - ليس من المروءة ، ولا ينبغي - ثم حكم الصحابة والتابعين في ذلك كقول عمر رضي الله عنه : إن سجدة التلاوة ليست بواجبة ؛ وقول علي رضي الله عنه : إن الوتر ليس بواجب ، ثم حال المقصد من كونه تكميلاً لطاعة أو سداً لذريعة إثم أو من باب الوقار وحسن الأدب ﴿ وأما معرفة العلة والركن والشرط ﴾ فأصرحها ما يكون بالنص مثل « كل مسكر حرام » « لا صلاة لمن لم يقرأ بأم الكتاب » « لا تقبل صلاة أحدكم حتى يتوضأ » ثم بالإشارة والإيماء مثل قول الرجل : « وقعت أهلي في رمضان قال : أعتق رقبة » وتسمية الصلاة قياماً وركوعاً وسجوداً يفهم أنها أركانها . قوله صلى الله عليه وسلم : « دعهما فاني أدخلتهما طاهرتين » يفهم اشتراط الطهارة عند لبس الخفين ثم أن يكثر الحكم بوجود الشيء عند وجوده أو عدمه عند عدمه حتى يتقرر في الذهن عليه الشيء أو ركنيته أو شرطيته بمنزلة ما يدب في ذهن الفارسي من معرفة موضوعات اللغة العربية عند ممارسة العرب واستعمالهم إياها في المواضع المقرونة بالقرائن من حيث لا يدري ، وإنما ميزانه نفس تلك المعرفة فاذا رأينا الشارع كلما صلى ركع وسجد ودفع عنه الرجز (١) وتكرر ذلك جزمنا بالمقصود ، وإن شئت الحق فهذا هو المعتمد في معرفة الاوصاف النفسية مطلقاً فاذا رأينا الناس يجمعون الخشب ويصنعون منه شيئاً يجلس عليه ويسمونهُ السرير نزعنا من ذلك أوصافه النفسية ثم تخريج المناط اعتماداً على وجدان مناسبة أو على السبر والحذف ، وأما معرفة المقاصد التي بنى عليها الأحكام فعلم دقيق لا يخوض فيه إلا من لطف ذهنه واستقام فهمه وكان فقهاء الصحابة تلقوا أصول الطاعات والآثام من المشهورات التي أجمع عليها الأمم الموجودة يومئذ كمشركي العرب وكاليهود والنصارى فلم تكن لهم حاجة إلى معرفة لمياتها ولا البحث عما يتعلق بذلك ، أما قوانين التشريع والتيسير وأحكام الدين فتلقوها من مشاهدة مواقع الأمر والنهي كما أن جلساء الطبيب يعرفون مقاصد الأدوية التي يأمر بها بطول المخالطة والممارسة وكانوا في الدرجة العليا من معرفتها ، ومنه قول عمر رضي الله عنه لمن أراد أن يصل النافلة بالفريضة : بهذا هلك من قبلكم فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أصاب الله بك يا ابن الخطاب » وقول ابن عباس رضي الله عنهما في بيان سبب الأمر بغسل يوم الجمعة ، وقول عمر رضي الله عنه : وافقت ربي في ثلاث ، وقول زيد رضي الله عنه في البيوع المنهية عنها : إنه كان يصيب الثمار مراض قشام دمان الخ (٢) وقول عائشة رضي عنها : « لو أدرك النبي صلى الله عليه وسلم ما أحدثه النساء لمنعهن من المساجد كما منعت نساء بني إسرائيل » وأصرح طرقها ما بين في نص الكتاب والسنة مثل (ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب) وقوله تعالى : (علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم) وقوله تعالى : (الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً) وقوله تعالى : (إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير) وقوله تعالى : (أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى) وقوله صلى الله عليه وسلم : « لا يدري أين باتت يده » وقوله صلى الله عليه وسلم : « إن الشيطان يبدي على خيشومه » ثم ما أشير إليه أو أومىء مثل قوله صلى الله عليه وسلم : « اتقوا اللاعنين » وقوله صلى الله عليه وسلم : « وكاء السه العينان » ثم ما ذكره الصحابي الفقيه ، ثم تخريج المناط بوجه يرجع إلى مقصد ظهر اعتباره أو اعتبار نظيره في نظير المسألة ، وليس في الأمر جزاف فيجب أن يبحث عن المقادير لم عينت دون نظائرها ، وعن مخصصات العموم لم استثنيت لفقد المقصد أو

(١) الرجز - بالكسر والضم - القذر وعبادة الاوثان والعذاب والشرك اهـ (٢) المراض بالضم داء يقع في الثمرة فتملك ، والقشام كغراب أن ينتفض النخل قبل استواء بصره ، والدمان بالضم فساد الثمر وعفنه قبل إدراكه اهـ
(٢-١٨ - ج ١ حجة الله البالغة)

لقيام مانع يرجح عند التعارض والله أعلم .

(باب القضاء في الاحاديث المختلفة)

الاصل أن يعمل بكل حديث إلا أن يمتنع العمل بالجميع للتناقض وأنه ليس في الحقيقة اختلاف ولكن في نظرنا فقط فاذا ظهر حديثان مختلفان فإن كانا من باب حكاية الفعل فحكي صحابي أنه صلى الله عليه وسلم فعل شيئاً ، وحكى آخر أنه فعل شيئاً آخر فلا تعارض ويكونان مباحين إن كانا من باب العادة دون العبادة أو أحدهما مستحباً والآخر جائزاً إن لاح على أحدهما آثار القربة دون الآخر أو يكونان جميعاً مستحبين أو واجبين يكفي أحدهما كفاية الآخر إن كانا جميعاً من باب القربة ، وقد نص حفاظ الصحابة على مثله في كثير من السنن كالوتر باحدى عشر ركعة وتسع وسبع وكالجهر في التهجد والمخافة ، وعلى هذا الاصل ينبغي أن يقضى في رفع اليدين إلى الاذنين أو المنكبين ، وفي تشهد عمر وابن مسعود وابن عباس رضي الله تعالى عنهم ، وفي الوتر هل هو ركعة منفردة أو ثلاث ركعات ، وفي أدعية الاستفتاح وأدعية الصباح والمساء وسائر الاسباب والاوقات ويكونان مخلصين عن مضيق إن تقدم ما يوجب ذلك كخصال الكفارة وكأجزية المحارب في قول ، أو يكون هنالك علة خفية توجب أو تحسن أحد الفعلين في وقت والآخر في وقت أو توجب شيئاً وقتاً وترخص في تركه وقتاً فيجب أن يفحص عنها ، أو يكون أحدهما عزيمة والآخر رخصة إن لاح أثر الاصاله في الاول واعتبار الحرج في الثاني ، وإن ظهر دليل النسخ قيل به وإن كان أحدهما حكاية فعل والآخر رفع قول فإن لم يكن القول قطعي الدلالة على تحريم أو وجوب أو قطعي الرفع احتملا وجوها ، وإن كان قطعياً حملاً على تخصيص الفعل به صلى الله عليه وسلم أو النسخ فيفحص عن قرائنها ، وإن كانا قولين فإن كان أحدهما ظاهراً في معنى مؤلاً في غيره وكان التأويل قريباً حمل على أن أحدهما بيان للآخر وإن كان بعيداً لم يحمل عليه إلا عند قرينة قوية جداً أو نقل التأويل عن صحابي فقيه كقول عبد الله بن سلام في الساعة المرجوة أنها قبيل الغروب فأورد أبو هريرة أنها ليست وقت صلاة ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا يسأل الله فيها مسلم قائم يصلي » فقال عبد الله بن سلام : المنتظر للصلاة كأنه في الصلاة فهذا تأويل بعيد لا يقبل مثله لولا ذهاب الصحابي الفقيه إليه ، وضابطه البعيد أنه إن عرض على العقول السليمة بدون القرينة أو تجشم الجدل لم يحتمل ، وإذا كان مخالفاً لا يمس ظاهراً أو مفهوم واضح أو مورد نص لم يحز أصلاً ، فمن القريب قصر عام جرت العادة باستعمال بعض أفرادها فقط في نظير ذلك الحكم على ذلك البعض ، وعام يستعمل في موضع جرت العادة بالتسامح فيه كالمدح والذم ، وعام سبق لشرع وضع في حكم بعد إفادة أصل الحكم فيجعل في قوة القضية المهمة كقوله : « ماسقته السماء ففيه العشر » وقوله : « ليس فيما دون خمسة أوسق صدقة » ومنه تنزيل كل واحد على صورة إن شهد المناط والمناسب وحملهما على الكراهية وبيان الجواز في الجملة إن أمكن ، وحمل التشديد على الزجر إن تقدم لجأجأ ما قوله (١) (حرمت عليكم الميتة) أي أكلها (وحرمت عليكم أمهاتكم) أي نكاحهن ، وقوله (٢) « العین حق » أي تأثيرها ثابت « والرسول حق » أي مبعوث حقاً وقوله : « رفع عن أمتي الخطأ والنسيان » أي إثم ما رقعاً فيه وقوله : « لا صلاة إلا بطهور »

(١) مبتدأ وقوله الآتي فظاهر خبر وما بينهما معطوفات على المبتدأ اهـ (٢) أي النبي ﷺ اهـ

« لانكاح إلى بولي » « إنما الأعمال بالنيات » أى لا يترتب على هذه الأشياء آثارها التى جعلها الشارع لها ، (إذا قتم إلى الصلاة فاعسلوا) أى إن لم تكونوا على الوضوء فظاهر ليس بمؤول ، لأن العرب يستعملون كل لفظة منها فى محل ، ويريدون ما يناسب ذلك المحل ، وتلك لغتهم التى لا يرون فيها صرفاً عن الظاهر ، وإن كانا (١) من باب الفتوى فى مسألة والقضاء فى واقعة ، فإن ظهرت علة فارقة قضى على حسبها ، مثاله : سأل شاب عن القبلة للصائم فنهاه ، وشيخ فرخص له ، وإن دل السياق فى أحدهما دون الآخر على وجود الحاجة أو إلحاح السائل أو كونه إغماضاً عن إكمال أورداً للمتعمد المتشدد على نفسه قضى بالعزيمة والرخصة ، وإن كانا مخلصين لمبتلى ، أو عقوبتين لجان ، أو كفارتين من حنث جاز الحمل على صحة الوجهين واحتمل النسخ ، وعلى هذا الأصل يقضى فى المستحاضة ، أفتاها تارة بالغسل لكل صلاتين ، وتارة بالتحيض أيام عادت أو أيام ظهور الدم الشديد على قول : إنه كان خيرها بين أمرين ، وأن العادة ولون الدم كلاهما يصلحان مظنة للحيض فى الصيام ، والاطعام عن مات وعليه صوم على قول ، والشاك فى الصلاة يلغى شكه بأحد أمرين ، بتحرى الصواب أو أخذ المتيقن على قول ، والقضاء فى إثبات النسب بالقائف أو القرعة على قول ، وإن ظهر دليل النسخ حمل عليه ، ويعرف النسخ بنصر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كقوله : « كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها » ، وبمعرفة تأخر أحدهما عن الآخر مع عدم إمكان الجمع ، وإذا شرع الشارع شرعاً ثم شرع مكانه آخر وسكت عن الأول ، عرف فقهاء الصحابة أن ذلك نسخ للأول ، أو اختلفت الأحاديث وقضى الصحابي بكون أحدهما ناسخاً للآخر ، فذلك ظاهر فى النسخ غير قطعى ، وقول الفقهاء - لما يجدونه خلاف عمل مشايخهم : منسوخ - غير مقنع ، والنسخ فيما يبدونها تغير حكم بغيره . وفى الحقيقة انتهاء الحكم لانتهاء علته أو انتهاء كونها مظنة للمقصد الأصلي أو لحدوث مانع من العلية أو ظهور ترجيح حكم آخر على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بالوحى الجلى أو باجتهاده وهذا إذا كان الأول اجتهادياً ، قال الله تعالى فى حديث المعراج : (ما يبدل القول لدى) وإذا لم يكن للجمع والتأويل مساغ ، ولم يعرف النسخ تحقق التعارض ، فإن ظهر ترجيح أحدهما إما بمعنى فى السند من كثرة الرواة وفقه الراوى ، وقوة الاتصال ، وتصريح صيغة الرفع ، وكون الراوى صاحب المعاملة بأن يكون هو المستفتى أو المخاطب أو المباشر ، أو بمعنى فى المتن من التأكيد والتصريح ، أو بمعنى فى الحكم وعلته من كونه مناسباً بالأحكام الشرعية ، وكونها علة شديدة المناسبة عرف تأثيرها ، أو من خارج من كونه متمسكاً أكثر أهل العلم أخذ بالراجح وإلا تساقط ، وهى صورة مفروضة لا تكاد توجد . وقول الصحابي أمر ونهى وقضى ورخص ، ثم قوله : أمرنا ونهينا ، ثم قوله : من السنة كذا ، وعصى أبا القاسم من فعل كذا ، ثم قوله : هذا حكم النبي ظاهر فى الرفع ، ويحتمل طروق اجتهاد فى تصوير العلة المدار عليها أو تعيين الحكم من الوجوب والاستحباب أو عمومته وخصوصه ، وقوله : كان يفعل كذا ظاهر فى تعدد الفعل ، ولا ينافيه قول الآخر كان يفعل غيره ، وقوله : صحبتته فلم أره ينهى ، وكنا نفعل فى عهده ظاهر فى التقرير وليس نصاً ، وقد تختلف صيغ حديث لا تختلف الطرق ، وذلك من جهة نقل الحديث بالمعنى ، فإن جاء حديث ولم يختلف الثقات فى لفظه كان ذلك لفظه صلى الله تعالى عليه وسلم ظاهراً ، وأمكن الاستدلال بالتقديم والتأخير والواو والفاء ونحو ذلك من المعانى الزائدة على أصل المراد ، وإن اختلفوا اختلافاً

محتماً وهم متقاربون في الفقه والحفظ والكثرة سقط الظهور فلا يمكن الاستدلال بذلك إلا على المعنى الذي جاءوا به جميعاً، وجمهور الرواة كانوا يعتنون برؤوس المعاني لا بحواشيها، وإن اختلفت مراتبهم أخذ يقول الثقة والأكثر والأعرف بالقصة، وإن أشعر قول ثقة بزيادة الضبط مثل قوله: قالت - وثب - وما قالت - قام - وقالت - أفاض على جلده الماء - وما قالت - اغتسل - أخذ به، وإن اختلفوا اختلفوا فاحشاً وهم متقاربون ولا مرجح سقطت الخصوصيات المختلف فيها، والمرسل إن اقترن بقريئة مثل إن يعتضد بموقوف صحابي أو مسنده الضعيف أو مرسل غيره. والشيوخ متغايرة أو قول أكثر أهل العلم أو قياس صحيح أو إيماء من نص أو عرف أنه لا يرسل إلا عن عدل صحح الاحتجاج به وكان نازلاً من المسند وإلا لا. وكذلك الحديث الذي يرويه قاصر الضبط غير متهم أو مجهول الحال المختار أنه يقبل إن اقترن بقريئة مثل موافقة القياس أو عمل أكثر أهل العلم وإلا لا. وإذا تفرد الثقة بزيادة لا يمتنع سكوت الباقي عنها فهي مقبولة كاسناد المرسل وزيادة رجل في الاسناد وذكر مورد الحديث وسبب الرواية وإطناط الكلام وإيراد جملة مستقلة لا تغير معنى الكلام وإن امتنع كالزيادة المغيرة للمعنى أو نادرة لا يترك ذكرها عادة لم يقبل وإذا حمل الصحابي حديثاً على محمل، فإن كان للاجتهاد فيه مساغ كان ظاهراً في الجملة إلى أن تقوم الحجة بخلافه وإلا كان قوياً كما إذا كان فيما يعرفه العاقل العارف باللغة من القرآن الحالية والقالية. أما اختلاف آثار الصحابة والتابعين، فإن تيسر الجمع بينها ببعض الوجوه المذكورة سابقاً فذلك، وإلا كانت المسألة على قولين أو أقوال في نظر أيها أصوب، ومن العلم الممكنون معرفة مأخذ مذاهب الصحابة، فاجتهد تنل منه حظاً والله أعلم (١) •

(تسعة) (٢)

باب أسباب اختلاف الصحابة والتابعين في الفروع

إعلم أن رسول الله ﷺ لم يكن الفقه في زمانه الشريف مدوناً، ولم يكن البحث في الأحكام يومئذ مثل البحث من هؤلاء الفقهاء حيث يبينون بأقصى جهدهم الأركان والشروط، وآداب كل شيء، ممتازاً عن الآخر بدليله، ويفرضون الصور يتكلمون على تلك الصور المفروضة، ويحددون ما يقبل الحد ويحصر ما يقبل الحصر إلى غير ذلك من صنائعهم، أما رسول الله ﷺ فكان يتوضأ فيرى الصحابة وضوءه فيأخذون به من غير أن يبين أن هذا ركن وذلك أدب، وكان يصلي فيرون صلاته فيصلون كما رأوه يصلي، وحج فرمق الناس حجه ففعلوا كما فعل. فهذا كان غالب حاله ﷺ ولم يبين أن فروض الوضوء ستة أو أربعة ولم يفرض أنه يحتمل

(١) إعلم أن المصنف رحمه الله رتب القسم الأول في هذا الكتاب في سبعة مباحث في سبعين باباً كما تبه عليه في صدر الكتاب لكن إلى هنا صار عدد الأبواب واحداً وثمانين في جميع النسخ الموجودة عندي وقت الطبع فالأبواب الزائدة إما ملحقة من بعد كالأبواب الآتية أو وقع السهو منه رحمه الله في الصدر أو كان بعض هذه الأبواب فصولاً فبدلها قلم النساخ أبواباً والله أعلم اه من هامش الاصل (٢) هذه التسعة المشتملة على الأبواب الأربعة من هنا إلى القسم الثاني لم توجد إلا في نسخة واحدة وأبقيتها في المتن مطابقاً للنسخة المذكورة ولكون مضمونها مناسباً للكتاب وكلام المصنف في آخرها أيضاً يدل أنها ينبغي أن تلحق في أصل الكتاب ومن ههنا يعلم أن المصنف رحمه الله لم يتيسر له النظر الثاني في هذا الكتاب كما هو مشهور عند الناس اه من هامش الاصل

أن يتوضأ إنسان بغير موالاة حتى يحكم عليه بالصحة أو الفساد إلا ما شاء الله وقلما كانوا يسألونه عن هذه الأشياء . عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ما رأيت قوما كانوا خيراً من أصحاب رسول الله ﷺ ما سألوهم عن ثلاث عشرة مسألة حتى قبض كلهن في القرآن منهن (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير) (ويسألونك عن المحيض) قال : ما كانوا يسألون إلا عما ينفعهم . قال ابن عمر : لا تسأل عما لم يكن فإني سمعت عمر بن الخطاب يلعن من سأل عما لم يكن . قال القاسم : إنكم تسألون عن أشياء ما كنا نسأل عنها وتنقرون (١) عن أشياء ما كنا ننقر عنها . تسألون عن أشياء ما أدرى ما هي ولو علمناها ما حل لنا أن نكتمها . عن عمر ابن إسحاق قال : لمن أدركت من أصحاب رسول الله ﷺ أكثر ممن سبقني منهم فما رأيت قوما أيسر سيرة ولا أقل تشديداً منهم . وعن عبادة بن بسر الكندي ، وسئل عن امرأة ماتت مع قوم ليس لها ولي ، فقال : أدركت أقواماً ما كانوا يشددون تشديداً ولا يسألون مسائلكم ، أخرج هذه الآثار الدارمي . وكان صلى الله عليه وسلم يستفتيه الناس في الوقائع فيفتيهم وترفع إليه القضايا فيقضي فيها ، ويرى الناس يفعلون معروفاً فمدحه أو منكراً فينكر عليه ، وكل ما أفتى به مستفتياً أو قضى به في قضية أو أنكره على فاعله ، كان في الاجتماعات ، وكذلك كان الشيخان أبو بكر وعمر إذا لم يكن لهما علم في المسألة يسألون الناس عن حديث رسول الله ﷺ . وقال أبو بكر رضي الله عنه : ما سمعت رسول الله ﷺ قال فيها شيئاً يعني - الجدة - وسأل الناس ، فلما صلى الظهر قال : أيكم سمع رسول الله ﷺ قال في الجدة شيئاً ؟ فقال المغيرة بن شعبة : أنا ، قال : ماذا قال ؟ قال : أعطاه رسول الله ﷺ سدساً ، قال : أي علم ذاك أحد غيرك ؟ فقال محمد بن سلمة : صدق ، فأعطاه أبو بكر السدس . وقصة سؤال عمر الناس في الغرة ثم رجوعه إلى خبر مغيرة ، وسؤاله إياهم في الوباء ثم رجوعه إلى خبر عبدالرحمن بن عوف وكذا رجوعه في قصة المجوس إلى خبره ، وسرور عبدالله بن مسعود بخبر معقل بن يسار لما وافق رأيه ، وقصة رجوع أبي موسى عن باب عمر وسؤاله عن الحديث ، وشهادة أبي سعيد له ، وأمثال ذلك كثيرة معلومة مروية في الصحيحين والسنن ، وبالجملة فهذه كانت عاداته الكريمة ﷺ ، فرأى كل صحابي ما يسره الله له من عبادته وفتاواه وأقضيته فحفظها وعقلها وعرف لكل شيء وجهها من قبل حفوف القرائن به فحمل بعضها على الإباحة وبعضها على النسخ لآمارات وقرائن كانت كافية عنده ، ولم يكن العمدة عندهم إلا وجدان الاطمئنان والتلج من غير التفات إلى طرق الاستدلال كما ترى الأعراب يفهمون مقصود الكلام فيما بينهم وتلج صدورهم بالتصريح والتلويح والايحاء من حيث لا يشعرون ، فانقضى عصره الكريم وهم على ذلك ثم أنهم تفرقوا في البلاد وصار كل واحد مقتدى ناحية من النواحي فكثرت الوقائع ودارت المسائل فاستفتوا فيها فأجاب كل واحد حسبما حفظه أو استنبط وإن لم يجد فيما حفظه أو استنبط ما يصح للجواب اجتهد برأيه وعرف العلة التي أدار رسول الله ﷺ عليها الحكم في منصوصاته فطرد الحكم حيثما وجدها لا يالو جهداً في موافقة غرضه عليه الصلاة والسلام فعند ذلك وقع الاختلاف بينهم على ضروب (منها) أن صحابياً سمع حكماً في قضية أو فتوى ولم يسمعه الآخر فاجتهد برأيه في ذلك . وهذا على وجوه (أحدها) أن يقع اجتهداه موافق الحديث . مثاله ما رواه النسائي وغيره أن ابن مسعود رضي الله عنه سئل عن امرأة مات عنها زوجها ولم يفرض لها (٢) فقال : لم أر رسول الله

يَقْضَى فِي ذَلِكَ فَاخْتَلَفُوا عَلَيْهِ شَهْرًا وَأَلْحُوا فَاجْتَهَدَ بِرَأْيِهِ وَقَضَى بِأَنْ لَهَا مَهْرُ نِسَائِهَا لَا وَكْسَ وَلَا شَطَطَ (١) وَعَلَيْهَا الْعِدَّةُ وَلَهَا فِي الْمِيرَاثِ فَقَامَ مَعْقِلُ بْنُ يَسَارٍ فَشَهِدَ بِأَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَضَى بِمِثْلِ ذَلِكَ فِي امْرَأَةٍ مِنْهُمْ فَفَرَحَ بِذَلِكَ ابْنُ مَسْعُودٍ فَرِحَ لَمْ يَفْرَحْ مِثْلَهَا قَطُّ بَعْدَ الْإِسْلَامِ **﴿ثَانِيًا﴾** أَنَّ يَقْعَ بَيْنَهُمَا الْمُنَاطَرَةَ وَيُظْهِرُ الْحَدِيثَ بِالْوَجْهِ الَّذِي يَقْعُ بِهِ غَالِبُ الظَّنِّ فَيَرْجِعُ عَنْ اجْتِهَادِهِ إِلَى الْمُسْمُوعِ . مِثَالُهُ مَارَوَاهُ الْأَئِمَّةُ مِنْ أَنَّ أَبَاهُ رِيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَ مِنْ مَذْهَبِهِ أَنَّهُ مِنْ أَصْبَحَ جَنِبًا فَلَا صَوْمَ لَهُ حَتَّى أَخْبَرْتَهُ بَعْضُ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِخِلَافِ مَذْهَبِهِ فَرَجَعَ * **﴿ثَالِثًا﴾** أَنْ يَبْلُغَهُ الْحَدِيثُ وَلَكِنْ لَا عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَقْعُ بِهِ غَالِبُ الظَّنِّ فَلَمْ يَتْرِكْ اجْتِهَادَهُ بَلْ طَعَنَ فِي الْحَدِيثِ، مِثَالُهُ مَارَوَاهُ أَصْحَابُ الْأَصُولِ مِنْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ قَيْسٍ شَهِدَتْ عِنْدَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ بِأَنَّهَا كَانَتْ مُطْلَقَةً الثَّلَاثَ فَلَمْ يَجْعَلْ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَفَقَةً وَلَا سَكْنَى، فَرَدَّ شَهَادَتَهَا وَقَالَ: لَا أَتْرُكُ كِتَابَ اللَّهِ بِقَوْلِ امْرَأَةٍ لَا نَدْرِي أَصَدَقَتْ أَمْ كَذَبَتْ لَهَا النِّفَقَةُ وَالسَّكْنَى وَقَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لِفَاطِمَةَ: أَلَا تَتَّقِي اللَّهَ - يَعْنِي فِي قَوْلِهَا - لَا سَكْنَى وَلَا نَفَقَةَ. وَمِثَالُ آخَرٍ رَوَى الشَّيْخَانُ أَنَّهُ كَانَ مِنْ مَذْهَبِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَنْ التَّيْمَمَ لَا يَجْزِيءُ لِلْجَنْبِ الَّذِي لَا يَجِدُ مَاءً فَرَوَى عِنْدَهُ عُمَارُ أَنَّهُ كَانَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَفَرٍ فَأَصَابَتْهُ جَنَابَةٌ وَلَمْ يَجِدْ مَاءً فَتَمَعَكَ فِي التُّرَابِ (٢) فَذَكَرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيكَ أَنْ تَفْعَلَ هَكَذَا وَضَرْبَ بِيَدَيْهِ الْأَرْضَ فَمَسَحَ بِهِمَا وَجْهَهُ وَيَدَيْهِ» فَلَمْ يَقْبَلْ عُمَرُ وَلَمْ يَنْهَضْ عِنْدَهُ حُجَّةُ الْقَادِحِ خَفِيَ رَأْيُهُ فِيهِ حَتَّى اسْتَفَاضَ الْحَدِيثُ فِي الطَّبَقَةِ الثَّانِيَةِ مِنْ طَرُقٍ كَثِيرَةٍ وَاضْمَحَلَّ وَهُمْ الْقَادِحُ فَأَخَذُوا بِهِ * وَرَابِعُهَا أَنْ لَا يَصِلَ إِلَيْهِ الْحَدِيثُ أَصْلًا، مِثَالُهُ مَا أَخْرَجَ مُسْلِمٌ أَنَّ ابْنَ عُمَرَ كَانَ يَأْمُرُ النِّسَاءَ إِذَا اغْتَسَلْنَ أَنْ يَنْقُضْنَ رِءُوسَهُنَّ فَسَمِعَتْ عَائِشَةُ بِذَلِكَ فَقَالَتْ يَا عَجْبًا لَابْنِ عُمَرَ هَذَا يَأْمُرُ النِّسَاءَ أَنْ يَنْقُضْنَ رِءُوسَهُنَّ أَفَلَا يَأْمُرُهُنَّ أَنْ يَحْلِقْنَ رِءُوسَهُنَّ لَقَدْ كُنْتُ أَغْتَسِلُ أَنَا وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ إِنْاءٍ وَاحِدٍ وَمَا أَزِيدُ عَلَى أَنْ أَفْرَغَ عَلَى رَأْسِي ثَلَاثَ إِفْرَاغَاتٍ (٣) **﴿مِثَالُ آخَرَ﴾** مَا ذَكَرَهُ الزَّهْرِيُّ مِنْ أَنَّ هِنْدًا لَمْ تَبْلُغْهَا رَخِصَةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمُسْتَحَاضَةِ فَكَانَتْ تَبْكِي لِأَنَّهَا كَانَتْ لَا تَصَلِّي، وَمِنْ تِلْكَ الضُّرُوبِ أَنْ يَرَوَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَعَلَّ فَعَلًا فَحَمَلَهُ بَعْضُهُمْ عَلَى الْقُرْبَةِ، وَبَعْضُهُمْ عَلَى الْإِبَاحَةِ، مِثَالُهُ مَارَوَاهُ أَصْحَابُ الْأَصُولِ فِي قِصَّةِ التَّحْصِيبِ - أَيْ النُّزُولِ بِالْأَبْطَحِ عِنْدَ النَّفَرِ - نَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِهِ، فَذَهَبَ أَبُو هُرَيْرَةَ وَابْنُ عُمَرَ إِلَى أَنَّهُ عَلَى وَجْهِ الْقُرْبَةِ فَجَعَلُوهُ مِنْ سَنَنِ الْحِجِّ، وَذَهَبَتْ عَائِشَةُ وَابْنُ عَبَّاسٍ إِلَى أَنَّهُ كَانَ عَلَى وَجْهِ الْإِتْفَاقِ وَلَيْسَ مِنَ السَّنَنِ * **﴿وَمِثَالُ آخَرَ﴾** ذَهَبَ الْجُمْهُورُ إِلَى أَنَّ الرَّمْلَ فِي الطَّوَافِ سُنَّةٌ وَذَهَبَ ابْنُ عَبَّاسٍ إِلَى أَنَّهُ إِنَّمَا فَعَلَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى سَبِيلِ الْإِتْفَاقِ لِعَارِضٍ عَرَضَ وَهُوَ قَوْلُ الْمُشْرِكِينَ حَطَمَهُمْ حَمَى يَثْرِبَ وَلَيْسَ بِسُنَّةٍ، وَمِنْهَا اخْتِلَافُ الْوَهْمِ، مِثَالُهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَجَّ فَرَأَاهُ النَّاسُ فَذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى أَنَّهُ كَانَ مُتَمَتِّعًا، وَبَعْضُهُمْ إِلَى أَنَّهُ كَانَ قَارِنًا، وَبَعْضُهُمْ إِلَى أَنَّهُ كَانَ مُفْرَدًا **﴿مِثَالُ آخَرَ﴾** أَخْرَجَ أَبُو دَاوُدَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جَبْرِ أَنَّهُ قَالَ: قُلْتُ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ يَا أَبَا عَبَّاسٍ عَجِبْتُ لِاخْتِلَافِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ أُوجِبَ (٤) فَقَالَ: إِنِّي لَا أَعْلَمُ النَّاسَ بِذَلِكَ، إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حُجَّةً وَاحِدَةً،

(١) أَيْ لَا نَقْصَانَ وَلَا زِيَادَةَ (٢) أَيْ تَمَرُّغٌ لِمَا ظَنَّ أَنَّ التَّيْمَمَ بَدَلٌ مِنْ غَسْلِ جَمِيعِ الْبَدَنِ (٣) جَمْعُ إِفْرَاغَةٍ وَهِيَ الْمَرَّةُ مِنَ الْإِفْرَاغِ مِنْ أَفْرَغْتَ الْإِنَاءَ وَفَرَّغْتَهُ إِذَا قَلَبْتَ مَا فِيهِ (٤) أَيْ أَهْلُ وَاتَى بِمَا وَجِبَ مِنْ أَفْعَالِ الْأَحْرَامِ

فمن هناك اختلفوا . خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حاجاً ، فلما صلى في مسجد ذي الحليفة ركعة أوجب في مجلسه وأهل بالحج حين فرغ من ركعتيه ، فسمع ذلك منه أقوام فحفظته عنه ، ثم ركب فلما استقلت به ناقته أهل وأدرك ذلك منه أقوام ، وذلك أن الناس إنما كانوا يأتون أرسالا (١) فسمعوه حين استقلت به ناقته يهل ، فقالوا : إنما أهل رسول الله صلى الله عليه وسلم حين استقلت به ناقته ، ثم مضى رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فلما علا على شرف البيداء ، أهل وأدرك ذلك منه أقوام فقالوا : إنما أهل حين علا على شرف البيداء وأيم الله لقد أوجب في مصلاه وأهل حين استقلت به ناقته ، وأهل حين علا على شرف البيداء .

﴿ومنها﴾ (٢) اختلاف السهو والنسيان ، مثاله ما روى أن ابن عمر كان يقول اعتمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرة في رجب ، فسمعت بذلك عائشة فقضت عليه بالسهو ﴿ومنها﴾ اختلاف الضبط . مثاله ما روى ابن عمر - عنه صلى الله عليه وسلم - من أن الميت يعذب ببكاء أهله عليه ، فقضت عائشة عليه بأنه لم يأخذ الحديث على وجهه . مر رسول الله صلى الله عليه وسلم على يهودية يبكي عليها أهلها فقال : «إنهم يبكون عليها وإنها تعذب في قبرها» فظن العذاب معلولا للبكاء ، فظن الحكم عاماً على كل ميت ﴿ومنها﴾ اختلاف فهم في علة الحكم . مثاله القيام للجنائز ، فقال قائل : لتعظيم الملائكة فيعم المؤمن والكافر ؛ وقال قائل : لهول الموت ، فيعمهما . وقال الحسن بن علي رضي الله عنهما : مر على رسول الله صلى الله عليه وسلم بجنائز يهودي فقام لها كراهية أن تعلو فوق رأسه فيخص الكافر ﴿ومنها﴾ اختلاف فهم في الجمع بين المختلفين . مثاله رخص رسول الله صلى الله عليه وسلم في المتعة عام خيبر ، ثم رخص فيها عام أوطاس ثم نهى عنها ، فقال ابن عباس : كانت الرخصة للضرورة ، والنهي لا نقضاء الضرورة والحكم باق على ذلك ، وقال الجمهور : كانت الرخصة إباحة والنهي نسخاً لها .

مثال آخر ، نهى رسول الله ﷺ عن استقبال القبلة في الاستنجاء ، فذهب قوم إلى عموم هذا الحكم وكونه غير منسوخ ؛ وراه جابر يبول قبل أن يتوفى بعام مستقبل القبلة فذهب إلى أنه نسخ للنهي المتقدم ، وراه ابن عمر قضى حاجته مستدبر القبلة مستقبل الشام فرد به قولهم ، وجمع قوم بين الروايتين ، فذهب الشعبي وغيره إلى أن النهي مختص بالصحرَاء ، فإذا كان في المراحض (٣) فلا بأس بالاستقبال والاستدبار ، وذهب قوم إلى أن القول عام محكم ، والفعل يحتمل كونه خاصاً بالنبي صلى الله عليه وسلم فلا ينتهض ناسخاً ولا مخصصاً . وبالجمله فاختلفت مذاهب أصحاب النبي ﷺ ، وأخذ عنهم التابعون كذلك كل واحد ما تيسر له فحفظ ما سمع من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ومذاهب الصحابة وعقلها وجمع المختلف على ما تيسر له ، ورجح بعض الأقوال على بعض ، واضمحل في نظرهم بعض الأقوال وإن كان مأثوراً عن كبار الصحابة كالمذهب المأثور عن عمر وابن مسعود في تيمم الجنب اضمحل عندهم لما استفاد من الأحاديث عن عمار وعمران بن الحصين وغيرهما ، فعند ذلك صار لكل عالم من علماء التابعين مذهب على حياله ، فانتصب في كل بلد إمام مثل سعيد بن المسيب ، وسالم بن عبد الله بن عمر في المدينة وبعدهما الزهري والقاضي يحيى بن سعيد وربيعة بن عبد الرحمن فيها ، وعطاء بن أبي رباح بمكة ، وإبراهيم النخعي والشعبي بالكوفة ، والحسن البصري بالبصرة ، وطاوس بن كيسان باليمن ، ومكحول بالشام ، فأظلم الله أكباداً إلى علومهم فرغبوا فيها وأخذوا عنهم الحديث . وفتاوى الصحابة وأقاربهم ، ومذاهب هؤلاء العلماء

(١) جمع رسل - بفتح الاول والثاني - بمعنى القطيع أي كانوا يجيئون قطعياً قطعياً اهـ (٢) أي ضروب الاختلاف اهـ

(٣) جمع مرحاض بالكسر وهو موضع قضاء الحاجة كالخيف اهـ

وبحقيقتهم من عند أنفسهم ، واستفتى منهم المستفتون ودارت المسائل بينهم ورفعت إليهم الأقضية . وكان سعيد بن المسيب وإبراهيم وأمثالهما جمعوا أبواب الفقه أجمعها وكان لهم في كل باب أصول تلقوها من السلف ، وكان سعيد وأصحابه يذهبون إلى أن أهل الحرمين أثبت الناس في الفقه ، وأصل مذهبهم فتاوى عبد الله بن عمر وعائشة وابن عباس وقضايا قضاة المدينة فجمعوا من ذلك مايسره الله لهم ثم نظروا فيها نظر اعتبار وتفتيش فما كان منها مجمعا عليه بين علماء المدينة فانهم يأخذون عليه بنواجذهم وما كان فيه اختلاف عندهم فانهم يأخذون بأقواها وأرجحها إما بكثرة من ذهب إليه منهم أو لموافقته بقياس قوى أو تخريج صريح من الكتاب والسنة أو نحو ذلك ، وإذا لم يجدوا فيما حفظوا منهم جواب المسألة خرجوا من كلامهم وتبعوا الأئمة والاختضاء فحصل لهم مسائل كثيرة في كل باب باب ، وكان إبراهيم وأصحابه يرون أن عبد الله بن مسعود وأصحابه أثبت الناس في الفقه كما قال علقمة لمسروق : هل أحد منهم أثبت من عبد الله ؟ وقول أبي حنيفة رضي الله عنه للأوزاعي : إبراهيم أفقه من سالم ، ولولا فضل الصحبة لقلت إن علقمة أفقه من عبد الله بن عمر وعبد الله - هو عبد الله - وأصل مذهبه فتاوى عبد الله بن مسعود وقضايا علي رضي الله عنهما وفتاواه وقضايا شريح وغيره من قضاة الكوفة فجمع من ذلك مايسره الله . ثم صنع في آثارهم كما صنع أهل المدينة في آثار أهل المدينة ، وخرج كما خرجوا ، فلخص له مسائل الفقه في كل باب باب . وكان سعيد بن المسيب لسان فقهاء المدينة ، وكان أحفظهم لقضايا عمر والحديث أبي هريرة ، وإبراهيم لسان فقهاء الكوفة ، فاذا تكلموا بشيء ولم ينسبوا إلى أحد فانه في الآكثر منسوب إلى أحد من السلف صريحا أو إيماء ونحو ذلك فاجتمع عليها فقهاء بلدهما وأخذوا عنهما وعقلوه وخرجوا عليه والله أعلم *

﴿ باب أسباب اختلاف مذاهب الفقهاء ﴾

إعلم أن الله تعالى أنشأ بعد عصر التابعين نشأ (١) من حملة العلم إنجازاً لما وعده رسول الله ﷺ حيث قال : «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله» فأخذوا عن ائمة من ائمة من بعدهم صفة الوضوء والغسل والصلاة والحج والنكاح والبيوع وسائر ما يكثر وقوعه ، ورووا حديث النبي ﷺ وسمعوا قضايا قضاة البلدان وفتاوى مفتيها وسألوا عن المسائل واجتهدوا في ذلك كله ثم صاروا كباراً قوم ووسد إليهم الأمر فنسجوا على منوال شيوخهم ولم يألوا في تتبع الأئمة والآيات والافتقار وأفتوا ورووا وعلموا . وكان صنيع العلماء في هذه الطبقة متشابهاً ، وحاصل صنيعهم أن يتمسك بالمسند من حديث رسول الله ﷺ والمرسل جميعاً ويستدل بأقوال الصحابة والتابعين علماء منهم أنها إما أحاديث منقولة عن رسول الله ﷺ أو أحاديث منقولها فجعلوها موقوفة كما قال إبراهيم ، وقدرى حديث نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المحاقلة والمزابنة (٢) فقليل له : أما تحفظ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثاً غير هذا ؟ قال : بلى ولكن أقول قال عبد الله قال علقمة : أحب إلى ، وكما قال الشعبي - وقد سئل عن حديث - وقيل أنه يرفع إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال : لا بأعلى من دون النبي صلى الله عليه وسلم أحب إلينا فان كان فيه زيادة

(١) أي جماعة اه (٢) المحاقلة هي أكثر ما تراه الأرض بالحنطة ، وقيل : هي المزارعة على نصيب معلوم كالثلث وغيره ، وقيل : بيع الطعام في سنبله بالبر ، وقيل : بيع الزرع قبل إدراكه - والمشهور هذا - والنهي للجهالة ، والمزابنة هي بيع الرطب في رموس النخل بالتمر نهى عنها لما فيها من الغبن والجهالة اه

ونقصان كان على من دون النبي ﷺ أو يكون استنباطاً منهم من المنصوص أو اجتهاداً منهم بأرائهم وهم أحسن صنيعاً في كل ذلك من يحيى بعدهم وأكثر إصابة وأقدم زماناً وأوعى علماً فتعين العمل بها إلا إذا اختلفوا وكان حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم يخالف قولهم مخالفة ظاهرة وأنه (١) إذا اختلفت أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم في مسألة رجعوا إلى أقوال الصحابة فإن قالوا بنسخ بعضها أو بصرفه عن ظاهره أو لم يصرحوا بذلك ولكن اتفقوا على تركه وعدم القول بموجبه فانه كإبداء تلمة فيه أو الحكم بنسخه أو تأويله اتبعوهم في كل ذلك، وهو قول مالك في حديث ولغ الكلب (٢) جاء هذا الحديث ولكن لا أدري ما حقيقته يعني حكاية ابن الحاجب في مختصر الأصول لم أر الفقهاء يعملون به، وأنه إذا اختلفت مذاهب الصحابة والتابعين في مسألة فالمنتار عند كل عالم مذهب أهل بلده وشيوخه لانه أعرف بصحيح أقوالهم من السقيم وأوعى للأصول المناسبة لها وقلبه أميل إلى فضلهم وتبحرهم، فمذهب (٣) عمر وعثمان وابن عمر وعائشة وابن عباس وزيد بن ثابت، وأصحابهم مثل سعيد بن المسيب فانه كان أحفظهم لقضايا عمر، وحديث أنى هريرة، ومثل عروة وسالم وعطاء بن يسار وقاسم وعبيد الله بن عبد الله والزهرى ويحيى بن سعيد وزيد بن أسلم وربيعه أحق بالآخذ من غيره عند أهل المدينة لما بينه النبي صلى الله عليه وسلم في فضائل المدينة ولانها مأوى الفقهاء ومجمع العلماء في كل عصر، ولذلك ترى مالكا يلزم محجتهم، ومذهب عبد الله بن مسعود وأصحابه، وقضايا علي وشريح والشعبي وفتاوى إبراهيم أحق بالآخذ عند أهل الكوفة من غيره وهو قول علقمة حين مال مسروق إلى قول زيد بن ثابت في التشريك قال هل أحد منكم أثبت من عبد الله؟ فقال لا ولكن رأيت زيد بن ثابت وأهل المدينة يشركون فان اتفق أهل البلد على شيء أخذوا بنواجزه، وهو الذي يقول في مثله مالك: السنة التي لا اختلاف فيها عندنا كذا وكذا وإن اختلفوا أخذوا بأقوالها وأرجحها إما بكثرة القائلين به أو لموافقة لقياس قوى أو تخريج من الكتاب والسنة وهو الذي يقول في مثله مالك: هذا أحسن ما سمعت فاذا لم يجدوا فيما حفظوا منهم جواب المسألة خرجوا من كلامهم وتبعوا الأئمة والاختضاء وألهموا في هذه الطبقة التدوين، فدوّن مالك ومحمد بن عبد الرحمن بن أبي ذئب بالمدينة، وابن جريج وابن عيينة بمكة، والثوري بالكوفة، وربيع بن الصبيح بالبصرة. وكلهم مشوا على هذا المنهج الذي ذكرته، ولما حج المنصور قال لمالك: قد عزمت أن أمر بكتبك هذه التي صنعتها فتسخ ثم أبعث في كل مصر من أمصار المسلمين منها نسخة وأمرهم بأن يعملوا بما فيها ولا يتعدوه إلى غيره، فقال: يا أمير المؤمنين لا تفعل هذا فان الناس قد سبقت اليهم أقاويل وسمعوا أحاديث ورووا روايات وأخذ كل قوم بما سبق اليهم وأتوا به من اختلاف الناس فدع الناس وما اختار أهل كل بلد منهم لانفسهم، ويحكى نسبة هذه القصة إلى هرون الرشيد وأنه شاور مالكا في أن يعلق الموطأ في الكعبة ويحمل الناس على ما فيه فقال: لا تفعل فان أصحاب رسول الله ﷺ اختلفوا في الفروع وتفرقوا في البلدان وكل سنة مضت قال: وفقك الله يا أبا عبد الله حكاية السيوطي، وكان مالك من أثبتهم في حديث المدنين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأوثقهم إسناداً وأعلمهم بقضايا عمر وأقاويل عبد الله بن عمر وعائشة وأصحابهم من الفقهاء السبعة، وبه وبأمثاله قام علم الرواية والفتوى، فلما وسد إليه

(١) عطف على أن يتمسك اه (٢) إشارة إلى قوله عليه الصلاة والسلام: «طهور لئنا أحكم إذا ولغ فيه الكلب أن يغسله سبعاً» وعند مالك الكلب طاهر وهذا الحكم تعبدى اه (٣) مبتدأ وقوله: الآتى أحق خبر اه

الامر حدث رأيت وأفاد وأجاد وعليه انطبق قول النبي صلى الله عليه وسلم : « يوشك أن يضرب الناس أكباد
الابل يطلبون العلم فلا يجدون أحداً أعلم من عالم المدينة » على ما قاله ابن عيينة وعبد الرزاق - وناهيك بهما -
لجميع أصحابه رواياته ومختاراته ولخصوها وحرروها وشرحوها وخرجوها عليها وتكلموا في أصولها ودلائلها
وتفرقوا إلى المغرب ونواحي الأرض فنفع الله بهم كثيراً من خلقه ، وإن شئت أن تعرف حقيقة ما قلناه من
أصل مذهبه فانظر في كتاب الموطأ تجده كما ذكرنا ، وكان أبو حنيفة رضى الله عنه الزمهم بمذهب إبراهيم
وأقرانه لا يجاوزه إلا ما شاء الله وكان عظيم الشأن في التخرج على مذهبه دقيق النظر في وجوه التخرجات
مقبلاً على الفروع أتم إقبال ، وإن شئت أن تعلم حقيقة ما قلنا فلنخص أقوال إبراهيم وأقرانه من كتاب
الآثار لمحمد رحمه الله وجامع عبد الرزاق ومصنف أبي بكر بن أبي شيبة ثم قايسه بمذهب تجده لا يفارق تلك
المحجة إلا في مواضع يسيرة وهو في تلك اليسيرة أيضاً لا يخرج عما ذهب إليه فقهاء الكوفة وكان أشهر
أصحابه ذكراً أبو يوسف رحمه الله فولى قضاء القضاة أيام هرون الرشيد فكان سبباً لظهور مذهبه والقضاء
به في أقطار العراق وخراسان وما وراء النهر ، وكان أحسنهم تصنيفاً وأزهم درسا محمد بن الحسن وكان من
خبره أنه تفقه على أبي حنيفة وأبي يوسف ثم خرج إلى المدينة فقرأ الموطأ على مالك ثم رجع إلى نفسه فطبق
مذهب أصحابه على الموطأ مسألة مسألة فإن وافق فيها وإلا فإن رأى طائفة من الصحابة والتابعين ذاهبين
إلى مذهب أصحابه فكذلك وإن وجد قياساً ضيقاً أو تخريجاً لنا يخالفه حديث صحيح فيها عمل به الفقهاء
أو يخالفه عمل أكثر العلماء تركه إلى مذهب من مذاهب السلف مما يراه أرجح ما هناك ، وهذان لا يزالان
على محجة إبراهيم وأقرانه ما أمكن لهما كما كان أبو حنيفة رضى الله عنه يفعل ذلك ، وإنما كان اختلافهم
في أحد شيئين : إما أن يكون لشيخهما تخريج على مذهب إبراهيم بإجماعه فيه ، أو يكون هناك لإبراهيم
ونظرائه أقوال مختلفة يخالفان شيخهما في ترجيح بعضها على بعض ، فصنف محمد رحمه الله وجمع رأى هؤلاء
الثلاثة ونفع كثيراً من الناس فتوجه أصحاب أبي حنيفة رضى الله عنه إلى تلك التصانيف تخلصاً وتقريباً
أو شرحاً أو تخريجاً أو تأسيساً أو استدلالاً ، ثم تفرقوا إلى خراسان وما وراء النهر فيسمى ذلك مذهب
أبي حنيفة ، ونشأ الشافعي في أوائل ظهور المذهبين وترتيب أصولهما وفروعهما فنظر في صنيع الأوائل
فوجد فيه أموراً كبحت عنانه عن الجريان في طريقهم ، وقد ذكرها في أوائل كتاب الأم .

(منها) أنه وجدهم يأخذون بالمرسل والمنقطع فيدخل فيها الخلل ، فإنه إذا جمع طرق الحديث يظهر أنه كم
مرسل لا أصل له ، ولم من مرسل يخالف مسنداً فقرر أن لا يأخذ بالمرسل إلا عند وجود شروط ، وهي
مذكورة في كتب الأصول (ومنها) أنه لم تكن قواعد الجمع بين المختلفات مضبوطة عندهم ، فكان ينطبق
بذلك خلل في مجتهدياتهم فوضع لها أصولاً ودوتها في كتاب ، وهذا أوّل تدوين كان في أصول الفقه . مثاله
ما بلغنا أنه دخل على محمد بن الحسن وهو يطعم على أهل المدينة في قضائهم بالشاهد الواحد مع اليمين ويقول : هذا
زيادة على كتاب الله ، فقال الشافعي : أثبت عندك أنه لا تجوز الزيادة على كتاب الله بخبر الواحد ؟ قال : نعم
قال : فلم قلت إن الوصية للوارث لا تجوز لقوله صلى الله عليه وسلم : « لا وصية لوارث » ، وقد قال الله تعالى :
(كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت (الآية ١٤) (١)) وأورد عليه أشياء من هذا القليل ، فانقطع كلام محمد بن الحسن

(١) (إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين) لخاصل الاعتراض أن هذه الآية تدل على أن الوصية للوارث تجوز

﴿ومنها﴾ أن بعض الأحاديث الصحيحة لم يبلغ علماء التابعين من وسد إليهم الفتوى فاجتهدوا بآرائهم أو اتبعوا العمومات أو اقتدوا بمن مضى من الصحابة فأفتوا حسب ذلك . ثم ظهرت بعد ذلك في الطبقة الثالثة فلم يعملوا بها ظناً منهم أنها تخالف عمل أهل مدينتهم وسنتهم التي لا اختلاف لهم فيها ، وذلك قاذح في الحديث وعلة مسقطه له أو لم تظهر في الثالثة ، وإنما ظهرت بعد ذلك عندما أمعن أهل الحديث في جمع طرق الحديث ورحلوا إلى أقطار الأرض وبحثوا عن حملة العلم فكثرت من الأحاديث ما لا يرويه من الصحابة إلا رجل أو رجلان ، ولا يرويه عنه أو عنهما إلا رجل أو رجلان وهلم جرا ، نخفي على أهل الفقه ، وظهر في عصر الحفاظ الجامعين لطرق الحديث كثير من الأحاديث ، رواه أهل البصرة مثلاً وسائر الأقطار في غفلة منه ، فبين الشافعي أن العلماء من الصحابة والتابعين لم يزل شأنهم أنهم يطلبون الحديث في المسألة ، فإذا لم يجدوا تمسكوا بنوع آخر من الاستدلال ، ثم إذا ظهر عليهم الحديث بعد رجوعوا من اجتهادهم إلى الحديث فإذا كان الأمر على ذلك لا يكون عدم تمسكهم بالحديث قدحا فيه ، اللهم إلا إذا بينوا العلة القادحة . مثله حديث القلتين فإنه حديث صحيح روى بطرق كثيرة معظمها ترجع إلى أبي الوليد بن كثير . عن محمد بن جعفر بن الزبير عن عبد الله - أو محمد بن عباد بن جعفر - عن عبيد الله ابن عبد الله كلاهما عن ابن عمر ، ثم تشعبت الطرق بعد ذلك ؛ وهذان وإن كانا من الثقات لكنهما ليس من وسد إليهم الفتوى ووعول الناس عليهم فلم يظهر الحديث في عصر سعيد بن المسيب ولا في عصر الزهري ، ولم يمش عليه المالكية ولا الحنفية فلم يعملوا به وعمل به الشافعي ، وكحديث - خيار المجلس - فإنه حديث صحيح روى بطرق كثيرة وعمل به ابن عمر وأبو هريرة من الصحابة ، ولم يظهر على الفقهاء السبعة ومعاصريهم ، فلم يكونوا يقولون به ، فرأى مالك وأبو حنيفة هذه علة قادحة في الحديث ، وعمل به الشافعي *

﴿ومنها﴾ أن أقوال الصحابة جمعت في عصر الشافعي فتكثرت واختلفت وتشعبت ، ورأى كثيراً منها يخالف الحديث الصحيح حيث لم يبلغهم ، ورأى السلف لم يزالوا يرجعون في مثل ذلك إلى الحديث فترك التمسك بأقوالهم ما لم يتفقوا ، وقال : هم رجال ونحن رجال ﴿ومنها﴾ أنه رأى قوماً من الفقهاء يخلطون الرأي الذي لم يسوغه الشرع بالقياس الذي أثبتته فلا يميزون واحداً منها من الآخر ويسمونهم تارة بالاستحسان - وأعني بالرأي أن ينصب مظنة حرج أو مصلحة علة لحكم ، وإنما القياس أن تخرج العلة من الحكم المنصوص ويدار عليها الحكم - فأبطل هذا النوع أتم إبطال وقال من استحسن : فإنه أراد أن يكون شارحاً ، حكاه ابن الحاجب في مختصر الأصول - مثله رشد اليتيم أمر خفي فأقاموا مظنة الرشد وهو بلوغ خمس وعشرين سنة مقامه ، وقالوا : إذا بلغ اليتيم هذا العمر سلم إليه ماله ، قالوا : هذا استحسان ، والقياس أن لا يسلم إليه . وبالجملة لما رأى (١) في صنيع الأوائل مثل هذه الأمور ، أخذ الفقه من الرأس فأسس الأصول وفرع الفروع وصنف الكتب فأجاد وأفاد واجتمع عليه الفقهاء وتصرفوا اختصاراً وشرحاً واستدلالاتاً وتخریجاً ، ثم تفرقوا في البلدان ، فكان هذا مذهباً للشافعي والله أعلم *

﴿باب الفرق بين أهل الحديث وأصحاب الرأي﴾

إعلم أنه كان من العلماء في عصر سعيد بن المسيب وإبراهيم والزهري ، وفي عصر مالك وسفيان ، وبعد ذلك قوم

يكرهون الخوض بالرأى ويهابون الفتيا والاستنباط إلا لضرورة لا يجدون منها بداً ، وكان أكبرهم رواية حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سئل عبد الله بن مسعود عن شيء فقال : إني لا كره أن أحل لك شيئاً حرمه الله عليك . أو أحرم ما أحله الله لك . وقال معاذ بن جبل : يا أيها الناس ، لا تعجلوا بالبلاء قبل نزوله ، فانه لم ينفك المسلمون أن يكون فيهم من إذا سئل سرد ، وروى نحو ذلك عن عمر وعلى وابن عباس وابن مسعود في كراهة التكلم فيما لم ينزل . وقال ابن عمر لجابر بن زيد : إنك من فقهاء البصرة فلا تفت إلا بقرآن ناطق أو سنة ماضية ، فانك إن فعلت غير ذلك هلك وأهلك . وقال أبو النصر - لما قدم أبو سلمة البصرة - أتيته أنا والحسن فقال للحسن : أنت الحسن ؟ ما كان أحد بالبصرة أحب إلى لقاء منك ، وذلك أنه بلغني أنك تفت برأيك ، فلا تفت برأيك إلا أن يكون سنة عن رسول الله ﷺ أو كتاب منزل . وقال ابن المنكدر : إن العالم يدخل فيما بين الله وبين عباده ، فليطلب لنفسه المخرج . وسئل الشعبي ، كيف كنتم تصنعون إذا سئلتكم ؟ قال : على الخبر وقعت كان إذا سئل الرجل قال لصاحبه : أفتهم فلا يزال حتى يرجع إلى الأول ، وقال الشعبي : ما حدثوك هؤلاء عن رسول الله ﷺ فخذ به ، وما قالوه برأيهم فألقه في الحش (١) أخرج هذه الآثار عن آخرها الدارمي فوقع شيوع تدوين الحديث والآثر في بلدان الاسلام ، وكتابة الصحف والنسخ حتى قل من يكون أهل الرواية إلا كان له تدوين أو صحيفة أو نسخة من حاجتهم لموقع عظيم ، فطاف من أدرك من عظمائهم ذلك الزمان بلاد الحجاز والشام والعراق ومصر واليمن وخراسان ، وجمعوا الكتب وتتبعوا النسخ وأمعنوا في التفحص عن غريب الحديث ونوادير الآثار ، فاجتمع باهتمام أولئك من الحديث والآثار ما لم يجتمع لأحد قبلهم ، وتيسر لهم ما لم يتيسر لأحد قبلهم ، وخاص إليهم من طرق الأحاديث شيء كثير حتى كان يكثر من الأحاديث عندهم مائة طريق فما فوقها ، فكشف بعض الطرق ما استتر في بعضها الآخر ، وعرفوا محل كل حديث من الغرابة والاستفاضة ، وأمكن لهم النظر في المتابعات والشواهد وظهر عليهم أحاديث صحيحة كثيرة لم تظهر على أهل الفتوى من قبل . قال الشافعي لأحمد : أتمم أعلم بالأخبار الصحيحة منا فاذا كان خبر صحيح فأعلموني حتى أذهب إليه كوفياً كان أو بصرياً أو شامياً ، حكاه ابن الهمام ، وذلك لأنه كم من حديث صحيح لا يرويه إلا أهل بلد خاصة كأفراد الشاميين والعراقيين أو أهل بيت خاصة كنسخة بريد عن أبي بردة عن أبي موسى ، ونسخة عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أو كان الصحابي مقلاً خاملاً لم يحمل عنه إلا شذوذة قليلون ، فمثل هذه الأحاديث يغفل عنها عامة أهل الفتوى ، واجتمعت عندهم آثار فقهاء كل بلد من الصحابة والتابعين ، وكان الرجل فيما قبلهم لا يتمكن إلا من جمع حديث بلده وأصحابه ، وكان من قبلهم يعتمدون في معرفة أسماء الرجال ومراتب عدالتهم على ما يخلص إليهم من مشاهدة الحال وتتبع القرائن ، وأمعن هذه الطبقة في هذا الفن وجعلوه شيئاً مستقلاً بالتدوين والبحث وناظروا في الحكم بالصحة وغيرها ، فأنكشف عليهم بهذا التدوين والمناظرة ما كان خافياً من حال الاتصال والانقطاع . وكان سفيان ووكيع وأمثالهما يجتهدون غاية الاجتهاد ، فلا يتمكنون من الحديث المرفوع المتصل إلا من دون ألف حديث كما ذكره أبو داود السجستاني في رسالته إلى أهل مكة وكان أهل هذه الطبقة يروون أربعين ألف حديث فما يقرب منها بل صح عن البخاري أنه اختصر صحيحه من ستة

آلاف حديث، وعن أبي داود أنه اختصر سننه من خمسة آلاف حديث. وجعل أحمد مسنده ميزانا يعرف به حديث رسول الله ﷺ فما وجد فيه ولو بطريق واحد منه فله أصل وإلا فلا أصل له فكان رؤوس هؤلاء عبد الرحمن بن مهادي. ويحيى بن سعيد القطان ويزيد بن هرون وعبد الرزاق وأبو بكر بن أبي شيبة ومسدد وهناد وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه والفضل بن دكين وعلى المديني وأقرانهم وهذه الطبقة هي الطراز الأول من طبقات المحدثين فرجع المحققون منهم بعد إحكام فن الرواية ومعرفة مراتب الأحاديث إلى الفقه فلم يكن عندهم من الرأي أن يجمع على تقليد رجل ممن مضى مع ما يرون من الأحاديث والآثار المناقضة في كل مذهب من تلك المذاهب فأخذوا يتبعون أحاديث النبي ﷺ وآثار الصحابة والتابعين والمجتهدين على قواعد أحكموها في نفوسهم - وأنا أبينها لك في كلمات يسيرة - كان عندهم أنه إذا وجد في المسألة قرآن ناطق فلا يجوز التحول منه إلى غيره وإذا كان القرآن محتملا لوجوه فالسنة قاضية عليه فإذا لم يجدوا في كتاب الله أخذوا سنة رسول الله ﷺ سواء كان مستفيضاً دائراً بين الفقهاء أو يكون مختصاً بأهل بلد أو أهل بيت أو بطريق خاصة وسواء عمل به الصحابة والفقهاء أو لم يعملوا به ، ومتى كان في المسألة حديث فلا يتبع فيها خلاف أثر من الآثار ولا اجتهاد أحد من المجتهدين وإذا فرغوا جهدهم في تتبع الأحاديث ولم يجدوا في المسألة حديثاً أخذوا بأقوال جماعة من الصحابة والتابعين ولا يتقيدون بقوم دون قوم ولا بلد دون بلد كما كان يفعل من قبلهم فان اتفق جمهور الخلفاء والفقهاء على شيء فهو المقنع، وإن اختلفوا أخذوا بحديث أعلمهم علماً وأورعهم ورعاً أو أكثرهم ضبطاً أو ما اشتهر عنهم فان وجدوا شيئاً يستوى فيه قولان فهي مسألة ذات قولين فان عجزوا عن ذلك أيضاً تأملوا في عمومات الكتاب والسنة وإيما آتاهما واقتضا آتاهما وحملوا نظير المسألة عليها في الجواب إذا كانتا متقاربتين بادي الرأي لا يعتمدون في ذلك على قواعد من الأصول ولكن على ما يخلص إلى الفهم ويشلج به الصدر كما أنه ليس ميزان التواتر عدد الرواة ولا حالهم ولكن اليقين الذي يعقبه في قلوب الناس - كما نبهنا على ذلك في بيان حال الصحابة - وكانت هذه الأصول مستخرجة عن صنيع الأوائل وتصريحاتهم، وعن ميمون بن مهران قال: كان أبو بكر إذا ورد عليه الخصم نظر في كتاب الله فان وجد فيه ما يقضى بينهم قضى به وإن لم يكن في الكتاب وعلم من رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك الأمر سنة قضى بها فان أعياه خرج فسأل المسلمين وقال: أتاني كذا وكذا فهل علمتم أن رسول الله ﷺ قضى في ذلك بقضاء؟ فربما اجتمع إليه نفر كلهم يذكرون رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه قضاء فيقول أبو بكر: الحمد لله الذي جعل فينا من يحفظ على نبينا فان أعياه أن يجد فيه سنة من رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه وسلم جمع رؤوس الناس وخيارهم فاستشارهم فاذا اجتمع رأيهم على أمر قضى به . وعن شريح أن عمر بن الخطاب كتب إليه إن جاءك شيء في كتاب الله فافض به ولا يلفتك عنه الرجال فان جاءك ما ليس في كتاب الله فانظر سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فاقض بها فان جاءك ما ليس في كتاب الله ولم يكن فيه سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فانظر ما اجتمع عليه الناس فخذ به فان جاءك ما ليس في كتاب الله ولم يكن فيه سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يتكلم فيه أحد قبلك فاختر أي الأمرين شئت إن شئت أن تجتهد برأيك ثم تقدم فتقدم وإن شئت أن تتأخر فتأخر ولا أرى التأخر إلا خيراً لك ، وعن عبد الله بن مسعود قال : أتى علينا زمان لسنا نقضى ولسنا هنالك وإن الله قد قدر من الأمر أن قد بلغنا ما ترون فمن عرض له قضاء بعد

اليوم فليقض فيه بما في كتاب الله عز وجل فان جاءه ما ليس في كتاب الله فليقض بما قضى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فان جاءه ما ليس في كتاب الله ولم يقض به رسول الله صلى الله عليه وسلم فليقض بما قضى به الصالحون ولا يقل إنى أخاف وإنى أرى «فان الحرام بين والحلال بين وبين ذلك أمور مشبهة فدع ما يربك إلى ما لا يربك» وكان ابن عباس إذا سئل عن الأمر فان كان في القرآن أخبر به وإن لم يكن في القرآن وكان عن رسول الله ﷺ أخبر به ، وإن لم يكن فعن أبي بكر وعمر فان لم يكن قال فيه برأيه . عن ابن عباس أما تخافون أن تعذبوا أو يخسف بكم أن تقولوا قال رسول الله ﷺ وقال فلان عن قتادة : قال : حدث ابن سيرين رجلا بحديث عن النبي ﷺ فقال الرجل : قال فلان : كذا وكذا ، فقال ابن سيرين أحدثك عن النبي صلى الله عليه وسلم وتقول قال فلان كذا وكذا . عن الأوزاعي قال : كتب عمر بن عبد العزيز أنه لا رأى لأحد في كتاب الله وإنما رأى الأئمة فيما لم ينزل فيه كتاب ولم تمض فيه سنة من رسول الله ﷺ ولا رأى لأحد في سنة سنه رسول الله ﷺ . عن الأعمش قال : كان إبراهيم يقول : يقوم (١) عن يساره ، فحدثته عن سميع الزيات عن ابن عباس أن النبي ﷺ أقامه عن يمينه فأخذ به عن الشعبي ، جاءه رجل يسأله عن شيء فقال : كان ابن مسعود يقول فيه كذا وكذا قال : أخبرني أنت برأيك فقال ألا تعجبون من هذا أخبرته عن ابن مسعود ويسألي عن رأيي وديني عندي أثر من ذلك والله لأن أتغنى بأغنية أحب إلي من أن أخبرك برأيي ، أخرج هذه الآثار كلها الدارمي .

وأخرج الترمذي عن أبي السائب قال : كنا عند وكيع فقال للرجل من ينظر في الرأي أشعر (٢) رسول الله ﷺ ويقول أبو حنيفة هو مثله ؟ قال الرجل فانه قد روى عن إبراهيم النخعي أنه قال : الأشعار مثله قال : رأيت وكيعا غضب غضبا شديدا وقال : أقول لك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقول قال إبراهيم ما أحقك بأن تحبس ثم لا تخرج حتى تنزع عن قولك هذا ، وعن عبد الله بن عباس وعطاء ومجاهد ومالك بن أنس رضي الله عنهم أنهم كانوا يقولون ما من أحد إلا وهو مأخوذ من كلامه ومردود عليه إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبالجملة فلما مهدوا الفقه على هذه القواعد فلم تكن مسألة من المسائل التي تكلم فيها من قبلهم والتي وقعت في زمانهم إلا وجدوا فيها حديثا مرفوعا متصلا أو مرسلًا أو موقوفا صحيحا أو حسنا أو صالحا لا اعتبار ، أو وجدوا أثرا من آثار الشيخين أو سائر الخلفاء وقضاة الأمصار وفقهاء البلدان ، أو استنبطوا من عموم أو إيماء أو اقتضاء فيسر الله لهم العمل بالسنة على هذا الوجه وكان أعظمهم شأنا وأوسعهم رواية وأعرفهم للحديث مرتبة وأعمقهم فقهًا أحمد بن محمد بن حنبل ثم إسحق بن راهويه ، وكان ترتيب الفقه على هذا الوجه يتوقف على جمع شيء كثير من الأحاديث والآثار حتى سئل أحمد يكفي الرجل مائة ألف حديث حتى يفتي ؟ قال : لا حتى قيل خمسمائة ألف حديث قال : أرجو ، كذا في غاية المنتهى ، ومراده الافتاء على هذا الأصل ثم أنشأ الله تعالى قرنا آخر فرأوا أصحابهم قد كفوا مؤنة جمع الأحاديث وتمهيد الفقه على أصلهم فتفرغوا لفنون أخرى كتمييز الحديث الصحيح المجمع عليه بين كبراء أهل الحديث كزيد بن هرون ويحيى بن سعيد القطان وأحمد وإسحق وأضرابهم ، وجمع أحاديث الفقه التي

(١) أي المقتدى عن يسار الإمام ، والأغنية واحدة الأغاني اه (٢) الأشعار أن يضرب في صفحة ستام الهدى من الجانب الأيمن بحديدة حتى يتلطح بالدم ظاهرا ، والمثلة جددع الأنف والأذن أو الذكر أو شيء من الأطراف وإنما كره الأشعار عند أبي حنيفة إذا كان على وجه يخاف . هلاك الهدى وإلا فهو سنة اه

بنى عليها فقهاء الأمصار وعلما البلدان مذاهبيهم ، وكالحكم على كل حديث بما يستحقه ، وكالشاذة والفائدة من الأحاديث التي لم يرووها أو طرقها التي لم يخرجوا من جهتها الأوائل بما فيه اتصال أو علو سند أو رواية فقيه عن فقيه أو حافظ عن حافظ ، ونحو ذلك من المطالب العلمية ، وهؤلاء هم البخاري ومسلم وأبو داود وعبد بن حميد والدارمي وابن ماجه وأبو يعلى والترمذي والنسائي والدارقطني والحاكم والبيهقي والخطيب والديلمي وابن عبد البر وأمثالهم ، وكان أوسعهم علماً عندى وأنفعهم تصنيفاً وأشهرهم ذكر أ رجال أربعة متقاربون في العصر *

﴿ أولهم ﴾ أبو عبدالله البخاري وكان غرضه تجريد الأحاديث الصحاح المستفيضة المتصلة من غيرها ، واستنباط الفقه والسيرة والتفسير منها ، فصنف جامع الصحيح ووفى بما شرط ، وبلغنا أن رجلاً من الصالحين رأى رسول الله ﷺ في منامه وهو يقول : مالك اشتغلت بفقه محمد بن إدريس وتركت كتابي ، قال : يا رسول الله وما كتابك ؟ قال صحيح البخاري ، ولعمري إنه نال من الشهرة والقبول درجة لا يرام فوقها *
﴿ وثانيهم ﴾ مسلم النيسابوري ، توخى (١) تجريد الصحاح المجمع عليها بين المحدثين المتصلة المرفوعة بما يستنبط منه السنة ، وأراد تقريبها إلى الأذهان وتسهيل الاستنباط منها ، فرتب ترتيباً جيداً وجمع طرق كل حديث في موضع واحد ليتضح اختلاف المتون ، وتشعب الأسانيد أصرح ما يكون ، وجمع بين المختلفات فلم يدع لمن له معرفة لسان العرب عذراً في الاعراض عن السنة إلى غيرها ﴿ وثالثهم ﴾ أبو داود السجستاني ، وكان همته جمع الأحاديث التي استدلل بها الفقهاء ودارت فيهم ، وبنى عليها الأحكام علماء الأمصار ، فصنف سننه وجمع فيها الصحيح والحسن واللين والصالح للعمل ، قال أبو داود : ما ذكرت في كتابي حديثاً أجمع الناس على تركه ، وما كان منها ضعيفاً صرح بضعفه ، وما كان فيه علة بينها بوجه يعرفه الخائض في هذا الشأن ، وترجم على كل حديث بما قد استنبط منه عالم وذهب إليه ذاهب ، ولذلك صرح الغزالي وغيره بأن كتابه كاف للمجتهد *

﴿ ورابعهم ﴾ هو أبو عيسى الترمذي ، وكأنه استحسن طريقة الشيخين حيث بينا وما أبهما ، وطريقة أبي داود حيث جمع كل مذهب إليه ذاهب ، فجمع كلتا الطريقتين وزاد عليهما بيان مذاهب الصحابة والتابعين وفقهاء الأمصار ، فجمع كتاباً جامعاً واختصر طرق الحديث اختصاراً لطيفاً ، فذكر واحداً أو ما إلى ما عداه ، وبين أمر كل حديث من أنه صحيح أو حسن أو ضعيف أو منكر ، وبين وجه الضعف ليكون الطالب على بصيرة من أمره ، فيعرف ما يصلح للاعتبار عمادونه ، وذكر أنه مستفيض أو غريب ، وذكر مذاهب الصحابة وفقهاء الأمصار ، وسمى من يحتاج إلى التسمية وكفى من يحتاج إلى الكنية ، ولم يدع خفاء لمن هو من رجال العلم ، ولذلك يقال : إنه كاف للمجتهد مغن للمقلد ، وكان بازاء هؤلاء في عصر مالك وسفيان ، وبعدهم قوم لا يكرهون المسائل ولا يهابون الفتيا ويقولون : على الفقه بناء الدين فلا بد من إشاعته ، ويهابون رواية حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم والرفع إليه حتى قال الشعبي : على من دون النبي صلى الله عليه وسلم أحب إلينا ، فإن كان فيه زيادة أو نقصان كان على من دون النبي صلى الله عليه وسلم . وقال إبراهيم : أقول : قال عبدالله ، وقال علقمة : أحب إلينا ، وكان ابن مسعود إذا حدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تربد وجهه (٢) وقال : هكذا أو نحوه هكذا ونحوه . وقال عمر حين بعث رهطاً من الأنصار إلى الكوفة : إنكم تأتون الكوفة فتأتون قوما لهم أزيز (٣) بالقرآن

فيأتونكم فيقولون : قدم أصحاب محمد قدم أصحاب محمد ، فيأتونكم فيسأله نكم عن الحديث ، فأقلوا الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال ابن عون : كان الشعبي إذا جاءه شيء اتقى ، وكان إبراهيم يقول ويقول : أخرج هذه الآثار الدارمي ، فوقع تدوين الحديث والفقه والمسائل من حاجتهم بموقع من وجه آخر ، وذلك أنه لم يكن عندهم من الأحاديث والآثار ما يقدرون به على استنباط الفقه على الأصول التي اختارها أهل الحديث ، ولم تنشرح صدورهم للنظر في أقوال علماء البلدان وجمعها والبحث عنها واتهموا أنفسهم في ذلك ، وكانوا اعتقدوا في أئمتهم أنهم في الدرجة العليا من التحقيق وكان قلوبهم أميل شيء إلى أصحابهم كما قال علقمة : هل أحد منهم أثبت من عبد الله ؟ وقال أبو حنيفة : إبراهيم أفقه من سالم ، ولو لا فضل الصحبة لقلت : علقمة أفقه من ابن عمر . وكان عندهم من الفطانة والحدس وسرعة انتقال الذهن من شيء إلى شيء ما يقدرون به على تخريج جواب المسائل على أقوال أصحابهم « وكل ميسر لما خلق له » (وكل حزب بما لديهم فرحون) فهدوا الفقه على قاعدة التخريج ، وذلك أن يحفظ كل أحد كتاب من هو لسان أصحابه وأعرفهم بأقوال القوم وأصحهم نظراً في الترجيح فيتأمل في كل مسألة وجه الحكم ، فكلما سئل عن شيء أو احتاج إلى شيء رأى فيما يحفظه من تصريحات أصحابه ، فإن وجد الجواب فيها وإلا نظر إلى عموم كلامهم فأجراه على هذه الصورة ، أو إشارة ضمنية لكلام فاستنبط منها ، وربما كان لبعض الكلام إيماء أو اقتضاء يفهم المقصود ، وربما كان للمسألة المصرح بها نظير يحمل عليها ، وربما نظروا في علة الحكم المصرح به بالتخريج أو باليسر والحذف فأداروا حكمه على حكمه على غير المصرح به ، وربما كان له كلامان لو اجتمع على هيئة القياس الاقتراني أو الشرطي أنتجا جواب المسألة . وربما كان في كلامهم ما هو معلوم بالمثال والقسمة غير معلوم بالحد الجامع المانع فيرجعون إلى أهل اللسان ويتكلفون في تحصيل ذاتياته ، وترتيب حد جامع مانع له ، وضبط مبهمه وتمييز مشكله وربما كان كلامهم محتملاً بوجهين فينظرون في ترجيح أحد المحتملين . وربما يكون تقريب الدلائل خفياً فيبينون ذلك وربما استدلل بعض المخرجين من فعل أئمتهم وسكوتهم ونحو ذلك ، فهذا هو التخريج ، ويقال له القول المخرج لفلان كذا ، ويقال على مذهب فلان أو على أصل فلان أو على قول فلان جواب المسألة كذا وكذا ويقال لهؤلاء المجتهدون في المذهب ، وعنى هذا الاجتهاد على هذا الأصل من قال من حفظ المبسوط كان مجتهداً ، أي وإن لم يكن له علم برواية أصلاً ، ولا بحديث واحد فوقع التخريج في كل مذهب وكثر ، فأى مذهب كان أصحابه مشهورين وسد إليهم القضاء والافتاء ، واشتهر تصانيفهم في الناس ودرسوا درساً ظاهراً انتشر في أقطار الأرض ولم يزل ينتشر كل حين . وأى مذهب كان أصحابه خاملين ، ولم يولوا القضاء والافتاء ولم يرغب فيهم الناس اندرس بعد حين .

(باب حكاية حال الناس قبل المائة الرابعة وبعدها)

إعلم أن الناس كانوا قبل المائة الرابعة غير مجمعين على التقليد الخالص لمذهب واحد بعينه ، قال أبو طالب المكي في قوت القلوب : إن الكتب والمجموعات محدثة والقول بمقالات الناس والفتيا بمذهب الواحد من الناس واتخاذ قوله والحكاية له من كل شيء والتفقه على مذهبه لم يكن . الناس قديماً على ذلك في القرنين الأول والثاني انتهى (أقول) وبعد القرنين حدث فيهم شيء من التخريج غير أن أهل المائة الرابعة لم يكونوا مجتمعين على التقليد الخالص على مذهب واحد والتفقه له والحكاية لقوله كما يظهر من تتبع ، بل كان فيهم العلماء والعامة وكان من خبر العامة أنهم كانوا في المسائل الاجماعية التي لا اختلاف فيها بين المسلمين أو جمهور المجتهدين

لا يقلدون إلا صاحب الشرع ، وكانوا يتعلمون صفة الوضوء والغسل والصلاة والزكاة ونحو ذلك من آباءهم أو معلمي بلدانهم فيمشون حسب ذلك ، وإذا وقعت لهم واقعة استفتوا فيها أى مفت وجدوا من غير تعيين مذهب ، وكان من خبر الخاصة أنه كان أهل الحديث منهم يشتغلون بالحديث فيخلص إليهم من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم وآثار الصحابة ما لا يحتاجون معه إلى شيء آخر في المسألة من حديث مستفيض أو صحيح قد عمل به بعض الفقهاء ، ولا عذر لتارك العمل به ، وأقوال متظاهرة لجمهور الصحابة والتابعين مما لا يحسن مخالفتها فان لم يجد (١) في المسألة ما يطمئن به قلبه لتعارض النقل وعدم وضوح الترجيح ونحو ذلك ، رجع إلى كلام بعض من مضى من الفقهاء ، فان وجد قولين اختار أوثقهما سواء كان من أهل المدينة أو من أهل الكوفة ، وكان أهل التخريج منهم يخرجون فيما لا يجدونه مصرحاً ويجهلون في المذهب ، وكان هؤلاء ينسبون إلى مذهب أصحابهم فيقال : فلان شافعي . وفلان حنفي ، وكان صاحب الحديث أيضاً قد ينسب إلى أحد المذاهب لكثرة موافقته له ، كالنسائي والبيهقي ينسبان إلى الشافعي ، فكان لا يتولى القضاء ولا الافتاء إلا مجتهد ، ولا يسمى الفقيه إلا مجتهداً . ثم بعد هذه القرون كان ناس آخرون ذهبوا يميناً وشمالاً ، وحدث فيهم أمور ((منها)) الجدل والخلاف في علم الفقه ، وتفصيله - على ما ذكره الغزالي - أنه لما انقرض عهد الخلفاء الراشدين المهديين أفضت الخلافة إلى قوم تولوها بغير استحقاق ولا استقلال بعلم الفتاوى والأحكام ، فاضطروا إلى الاستعانة بالفقهاء وإلى استصحابهم في جميع أحوالهم ، وقد كان بقي من العلماء من هو مستمر على الطراز الأول وملازم صفو الدين فكانوا إذا طلبوا هربوا وأعرضوا فرأى أهل تلك الأعصار عز العلماء وإقبال الأئمة عليهم مع إعراضهم فاشربوا بطلب العلم توصلاً إلى نيل العز ودرك الجاه ، فأصبح الفقهاء بعد أن كانوا مطلوبين طالبين ، وبعد أن كانوا أعزة بالأعراض عن السلاطين أذلة بالاقبال عليهم ، إلا من وفقه الله . وقد كان من قبلهم قد صنف ناس في علم الكلام وأكثروا القول والقييل والايراد والجواب وتمهيد طريق الجدل ، فوقع ذلك منهم بموقع من قبل أن كان من الصدور والملوك من مالت نفسه إلى المناظرة في الفقه وبيان الأولى من مذهب الشافعي وأبي حنيفة رحمه الله فترك الناس الكلام وفنون العلم وأقبلوا على المسائل الخلافية بين الشافعي وأبي حنيفة رحمه الله على الخصوص وتساهلوا في الخلاف مع مالك وسفيان وأحمد بن حنبل وغيرهم وزعموا أن غرضهم استنباط دقائق الشرع وتقرير علل المذهب وتمهيد أصول الفتاوى وأكثروا فيها التصانيف والاستنباطات ورتبوا فيها أنواع المجادلات والتصنيفات وهم مستمرين عليه إلى الآن . لسنا ندري ما الذي قدر الله تعالى فيما بعدهما من الأعصار انتهى حاصله ((ومنها)) أنهم اطمأنوا بالتقليد ودب التقليد في صدورهم ديب النمل وهم لا يشعرون ، وكان سبب ذلك تراحم الفقهاء ومجادلهم فيما بينهم فانهم لما وقعت فيهم المزاحمة في الفتوى كان كل من أفتى بشيء نوقض في فتواه ورد عليه فلم ينقطع الكلام إلا بمسير إلى تصريح رجل من المتقدمين في المسألة ، وأيضاً جور القضاة فان القضاة لما جار أكثرهم ولم يكونوا أمناء لم يقبل منهم إلا ما لا يريب العامة فيه ويكون شيئاً قد قيل من قبل ، وأيضاً جهل رؤوس الناس واستفتاء الناس من لا علم له بالحديث ولا بطريق التخريج كما ترى ذلك ظاهراً في أكثر المتأخرين ، وقد نبه عليه ابن الهمام وغيره ، وفي ذلك الوقت يسمى غير المجتهد فقيهاً ، ومنها أن أقبل أكثرهم على التعمقات في كل فن فمنهم من زعم أنه يؤسس

علم أسماء الرجال ومعرفة مراتب الجرح والتعديل ثم خرج من ذلك إلى التاريخ قديمه وحديثه، ومنهم من تفحص عن نواذر الاخبار وغرائبها وإن دخلت في حد الموضوع، ومنهم من كثر القيل والقال في أصول الفقه واستنبط كل لأصحابه قواعد جدلية فأورد فاستقصى وأجاب وتقصى وعرف وقسم فخرر طول الكلام تارة وتارة أخرى اختصر، ومنهم من ذهب إلى هذا بفرض الصور المستبعدة التي من حقها أن لا يتعرض لها عاقل وبفحص العمومات والايماآت من كلام المخرجين فمن دونهم مما لا يرتضى استماعه عالم ولا جاهل، وفتنة هذا الجدل والخلاف والتعمق قريبة من الفتنة الأولى حين تشاجروا في الملك وانتصر كل رجل لأصحابه فكما أعقبت تلك ملكاً عضوضاً ووقائع صماء عمياء فكذلك أعقبت هذه جهلاً واختلاطاً وشكوكاً ووهماً مالها من أرجاء؛ فنشأت بعدهم قرون على التقليد الصرف لا يميزون الحق من الباطل ولا الجدل عن الاستنباط فالفقيه يومئذ هو الثرثار (١) المتشدد الذي حفظ أقوال الفقهاء قوياً وضعيفها من غير تمييز وسردها (٢) بشقشقة شديقه (٣) والمحدث من عدل الأحاديث صحيحها وسقيمها وهذا (٤) كهذا الاسمار بقوة لحييه، ولا أقول ذلك كليا مطرداً فإن لله طائفة من عباده لا يضرهم من خذلهم وهم حجة الله في أرضه وإن قلوا، ولم يأت قرن بعد ذلك إلا وهو أكثر فتنة وأوفر تقليداً وأشد انتزاعاً للامانة من صدور الرجال حتى اطمأنوا بترك الخوض في أمر الدين وبأن - يقولوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون - وإلى الله المشتكى وهو المستعان وبه الثقة وعليه التكلان .

﴿ فصل ﴾ ومما يناسب هذا المقام التنبيه على مسائل ضلت في بواديها الأفهام ، وزات الأقدام وطغت الأقالام ، منها أن هذه المذاهب الأربعة المدونة المحررة قد اجتمعت الأمة - أو من يعتد به منها - على جواز تقليدها إلى يومنا هذا وفي ذلك من المصالح ما لا يخفى لاسيما في هذه الأيام التي قصرت فيها الهمة جداً وأشربت النفوس الهوى وأعجب كل ذي رأى برأيه فما (٥) ذهب إليه ابن حزم حيث قال: التقليد حرام ولا يحل لأحد أن يأخذ قول أحد غير رسول الله صلى الله عليه وسلم بلا برهان لقوله تعالى : (اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء) وقوله تعالى : (وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا) وقال مادحا لمن لم يقلد : (فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب) وقال تعالى : (فان تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) فلم يباح الله تعالى الرد عند التنازع إلى أحد دون القرآن والسنة، وحرّم بذلك الرد عند التنازع إلى قول قائل لأنه غير القرآن والسنة ، وقد صح إجماع الصحابة كلهم أو لهم عن آخرهم وإجماع التابعين أو لهم عن آخرهم وإجماع تابعي التابعين أو لهم عن آخرهم على الامتناع، والمنع من أن يقصد منهم أحد إلى قول إنسان منهم أو من قبلهم فيأخذه كله فليعلم من أخذ بجميع أقوال أبي حنيفة أو جميع أقوال مالك أو جميع أقوال الشافعي أو جميع أقوال أحمد رضي الله عنهم ولم يترك قول من اتبع منهم أو من غيرهم إلى قول غيره ، ولم يعتمد على ما جاء في القرآن

(١) الثرثار من الثرثرة وهي كثرة الكلام وترديده أي الذي يكثر الكلام تكلفاً وخروجاً عن الحق، والمتشدد المتوسع في الكلام بلا احتياط اهـ (٢) أي حكاهها اهـ (٣) الشقشقة - بالكسر - الجلدة الحمراء التي يخرجها الجمل من جوفه، ويقال للمنطيق ذو شقشقة، والشديق جانب الفم اهـ (٤) أي تكلم بغير معقول اهـ (٥) (ما) مبتدأ خبره قوله فيما يأتي: إنما يتم فيمن له ضرب من الاجتهاد اهـ

والسنة غير صارف ذلك إلى قول إنسان بعينه أنه قد خالف إجماع الأمة كلها أولها عن آخرها بيقين لا إشكال فيه وأنه لا يجد لنفسه سلفاً ولا إنساناً في جميع الأعصار المحمود الثلاثة فقد اتبع غير سبيل المؤمنين نعوذ بالله من هذه المنزلة ، وأيضاً فإن هؤلاء الفقهاء كلهم قد نهوا عن تقليد غيرهم فقد خالفهم من قلدتهم ، وأيضاً فما الذي جعل رجلاً من هؤلاء أو من غيرهم أولى أن يقلد من عمر بن الخطاب أو علي بن أبي طالب أو ابن مسعود أو ابن عمر أو ابن عباس أو عائشة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنهم ، فلو ساغ (١) التقليد لكان كل واحد من هؤلاء أحق بأن يتبع من غيره انتهى * إنما يتم فيمن له ضرب من الاجتهاد ولو في مسألة واحدة وفيمن ظهر عليه ظهوراً بيناً أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بكذا ونهى عن كذا وأنه ليس بمنسوخ إماماً بأن يتبع الأحاديث وأقوال المخالف والموافق في المسألة فلا يجد لها نسخاً أو بأن يرى جماً غفيراً من المتبحرين في العلم يذهبون إليه ويرى المخالف له لا يحتج إلا بقياس أو استنباط أو نحو ذلك فحينئذ لا سبب لمخالفة حديث النبي صلى الله عليه وسلم إلا نفاق خفي أو حقد جلي وهذا هو الذي أشار إليه الشيخ عز الدين بن عبد السلام حيث قال : ومن العجب العجيب أن الفقهاء المقلدين يقف أحدهم على ضعف ما أخذ إمامه بحيث لا يجد لضعفه مدفعاً وهو مع ذلك يقلده فيه ويترك من شهد الكتاب والسنة والأقيسة الصحيحة لمذهبهم جموداً على تقليد إمامه بل يتخيل لدفع ظاهر الكتاب والسنة ويتأولها بالتأويلات البعيدة الباطلة نضالاً (٢) عن مقلده ، وقال : لم يزل الناس يسألون من اتفق من العلماء من غير تقييد لمذهب ولا إنكار على أحدهم السائلين إلى أن ظهرت هذه المذاهب ومتعصبوها من المقلدين فإن أحدهم يتبع إمامه مع بعد مذهبه عن الأدلة مقلداً له فيما قال كأنه نبي أرسل ، وهذا نأى عن الحق وبعد عن الصواب لا يرضى به أحدهم أولى الألباب ، وقال الإمام أبو شامة : ينبغي لمن اشتغل بالفقه أن لا يقتصر على مذهب إمام ويعتقد في كل مسألة صحة ما كان أقرب إلى دلالة الكتاب والسنة المحكمة ، وذلك سهل عليه إذا كان أتقن معظم العلوم المتقدمة ، وليجتنب التعصب والنظر في طرائق الخلاف المتأخرة ، فإنها مضیعة للزمان ولصفوه مكدره ، فقد صح عن الشافعي أنه نهى عن تقليده وتقليد غيره ، قال صاحبه المزني في أوّل مختصره : اختصرت هذا من علم الشافعي ومن معنى قوله : لأقربه على من أراد مع إعلاميه نهيه عن تقليده وتقليد غيره لينظر فيه لدينه ويحتاط لنفسه ، أي مع إعلامي من أراد علم الشافعي نهى الشافعي عن تقليده وتقليد غيره انتهى . وفيمن يكون عامياً ويقلد رجلاً من الفقهاء بعينه يرى أنه يمتنع من مثله الخطأ ، وأن ما قاله هو الصواب البتة ، وأضمر في قلبه أن لا يترك تقليده وإن ظهر الدليل على خلافه ، وذلك ما رواه الترمذي عن عدي بن حاتم أنه قال : سمعته - يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم - يقرأ (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله) قال : «إنهم لم يكونوا يعبدونهم ، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه» وفيمن لا يجوز أن يستفتي الحنفي مثلاً فقيهاً شافعيًا وبالعكس ، ولا يجوز أن يقتدى الحنفي بإمام شافعي مثلاً ، فإن هذا قد خالف إجماع القرون الأولى وناقض الصحابة والتابعين ، وليس محله (٣) فيمن لا يدين إلا بقول النبي صلى الله عليه وسلم ولا يعتقد حلالاً إلا ما أحله الله ورسوله ؛ ولا حراماً إلا ما حرمه الله ورسوله لكن لما لم يكن له علم بما قاله النبي ﷺ ولا بطريق الجمع بين المختلفات من كلامه ولا بطريق الاستنباط من كلامه اتبع عالماً

راشداً على أنه مصيب فيما يقول ويفتي ظاهراً متبع سنة رسول الله ﷺ فان خالف ما يظنه أقلع من ساعته من غير جدال ولا إصرار ، فهذا كيف ينكره أحد مع أن الاستفتاء والافتاء لم يزل بين المسلمين من عهد النبي صلى الله عليه جلالته ولا فرق بين أن يستفتي هذا دائماً أو يستفتي هذا حيناً وذلك حيناً بعد أن يكون مجمعاً على ما ذكرناه ، وسلم ؛ ولم تؤمن بفتواه أياً كان أنه أوحى الله إليه الفقه وفرض علينا طاعته وأنه معصوم ، فان اقتدينا بواحد كيف لا ولم نؤمن بفتواه أياً كان أنه أوحى الله إليه الفقه وفرض علينا طاعته وأنه معصوم ، فان اقتدينا بواحد منهم فذلك لعلمنا بأنه عالم بكتاب الله وسنة رسوله ، فلا يخلو قوله إما أن يكون من صريح الكتاب والسنة أو مستنبطاً عنهما بنحو من الاستنباط أو عرف بالقرائن أن الحكم في صورة ما منوطة بعلة كذا واطمان قلبه بتلك المعرفة ففاس غير المنصوص على المنصوص ، فكأنه يقول : ظننت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : كلما وجدت هذه العلة فالحكم ثمة هكذا - والمقيس مندرج في هذا العموم ، فهذا أيضاً معزى (١) إلى النبي صلى الله عليه وسلم ولكن في طريقه ظنون ، ولولا ذلك لما قلد مؤمن بمجتهد ، فان بلغنا حديث من الرسول المعصوم الذي فرض الله علينا طاعته بسند صالح يدل على خلاف مذهبه وتركنا حديثه واتبعنا ذلك التخمين فمن أظلم منا وما عذرنا يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴿ ومنها ﴾ أن التخريج على كلام الفقهاء وتبعية لفظ الحديث لكل منهما أصل أصيل في الدين ، ولم يزل المحققون من العلماء في كل عصر يأخذون بهما ، فمنهم من يقل من ذا ويكثر من ذا ، ومنهم من يكثّر من ذا ويقل من ذا ، فلا ينبغي أن يهمل أمر واحد منهما بالمرّة كما يفعله عامة الفريقين ، وإنما الحق البحت أن يطابق أحدهما بالآخر وأن يجبر خلل كل بالآخر ، وذلك قول الحسن البصري : سنتكم والله الذي لا إله إلا هو ، بينهما بين الغالي والجافي فمن كان من أهل الحديث ينبغي أن يعرض ما اختاره ، وذهب إليه على رأى المجتهدين من التابعين ، ومن كان من أهل التخريج ينبغي له أن يجعل من السنن ما يحترز به من مخالفة الصريح الصحيح ومن القول برأيه فيما فيه حديث أو أثر بقدر الطاقة ولا ينبغي لمحدث أن يتعمق بالقواعد التي أحكمها أصحابه وليست مما نص عليه الشارع فيرد به حديثاً أو قياساً صحيحاً كرد ما فيه أدنى شائبة الارسال والانقطاع كما فعله ابن حزم ، رد حديث تحريم المعازف لشائبة الانقطاع في رواية البخارى ، على أنه في نفسه متصل صحيح ، فان مثله إنما يصار إليه عند التعارض ، وكقولهم : فلان أحفظ لحديث فلان من غيره ، فيرجحون حديثه على حديث غيره لذلك ، وإن كان في الآخر ألف وجه من الرجحان ، وكان اهتمام جمهور الرواة عند الرواية بالمعنى برءوس المعاني دون الاعتبارات التي يعرفها المتعمقون من أهل العربية ، فاستدلواهم بنحو الفاء والواو وتقديم كلمة وتأخيرها ونحو ذلك من التعمق وكثيراً ما يعبر الراوى الآخر عن تلك القصة فيأتى مكان ذلك الحرف بحرف آخر ، والحق أن كل ما يأتى به الراوى فظاهره أنه كلام النبي صلى الله عليه وسلم فان ظهر حديث آخر أو دليل آخر وجب المصير إليه ، ولا ينبغي لمخرج أن يخرج قولاً لا يفيد نفس كلام أصحابه ولا يفهمه منه أهل العرف والعلماء باللغة ويكون بناء على تخرجه مناط أو حمل نظير المسألة عليها مما يختلف فيه أهل الوجوه وتتعارض الآراء ، ولو أن أصحابه سئلوا عن تلك المسألة ربما يحملوا النظر على النظر لما منع ، وربما ذكروا علة غير ما خرجوه هو وإنما جاز التخريج لأنه في الحقيقة من تقليد المجتهدين ولا يتم إلا فيما يفهم من كلامه ، ولا ينبغي أن يرد حديثاً أو أثراً تطابق عليه القوم لقاعدة استخرج

هو أو أصحابه كرد حديث المصراة وكاسقاط سهم ذوى القربى، فإن رعاية الحديث أوجب من رعاية تلك القاعدة المخرجة وإلى هذا المعنى أشار الشافعى حيث قال : مهاقلت من قول أو أصلت من أصل فباع عن رسول الله ﷺ خلاف ما قلت فالقول ما قاله صلى الله عليه وسلم، ومنها أن تتبع الكتاب والآثار (١) لمعرفة الأحكام الشرعية على مراتب أعلاها أن يحصل له من معرفة الأحكام بالفعل أو بالقوة القريبة من الفعل ما يتمكن به من جواب المستفتين فى الوقائع غالباً بحيث يكون جوابه أكثر مما يتوقف فيه وتخص (٢) باسم الاجتهاد وهذا الاستعداد يحصل تارة بالامعان فى جمع الروايات وتبع الشاذة والفاذة منها كما أشار إليه أحمد بن حنبل مع ما لا ينفك منه العاقل العارف باللغة من معرفة مواقع الكلام، وصاحب العلم بالآثار السلف من طريق الجمع بين المختلفات وترتيب الاستدلالات ونحو ذلك وتارة بأحكام طرق التخريج على مذهب شيخ من مشايخ الفقه مع معرفة جملة صالحة من السنن والآثار بحيث يعلم أن قوله لا يخالف الاجماع، وهذه طريقة أصحاب التخريج وأوسطها من كلتا الطريقتين أن يحصل له من معرفة القرآن والسنن ما يتمكن به من معرفة رؤوس مسائل الفقه المجمع عليها بأدلتها التفصيلية ويحصل له غاية العلم ببعض المسائل الاجتهادية من أدلتها وترجيح بعض الأقوال على بعض ونقد التخريجات ومعرفة الجيد والزييف، وإن لم يتكامل له الأدوات كما يتكامل للمجتهد المطلق فيجوز لمثله أن يلفق من المذهبين إذا عرف دليلهما وعلم أن قوله ليس مما لا ينفذ فيه اجتهاد المجتهد ولا يقبل فيه قضاء القاضى ولا يجرى فيه فتوى المفتين وأن يترك بعض التخريجات التى سبق الناس إليها إذا عرف عدم صحتها ولهذا لم يزل العلماء ممن لا يدعى الاجتهاد المطلق يصنفون ويرتبون ويخرجون ويرجعون، وإذا كان الاجتهاد يتجزأ عند الجمهور والتخريج يتجزأ وإنما المقصود تحصيل الظن وعليه مدار التكليف فما الذى يستبعد من ذلك، وأما دون ذلك من الناس فمذهبه فيما يرد عليه كثيراً ما أخذه عن أصحابه وآبائه وأهل بلده من المذاهب المتبعة، وفى الوقائع النادرة فتاوى مفتيه، وفى القضايا ما يحكم القاضى، وعلى هذا وجدنا محققى العلماء من كل مذهب قديماً وحديثاً، وهو الذى وصى به أئمة المذاهب أصحابهم - وفى اليواقيت والجواهر - أنه روى عن أبى حنيفة رضى الله عنه أنه كان يقول : لا ينبغي لمن لم يعرف دليلي أن يفتى بكلامى، وكان رضى الله عنه إذا أفتى يقول هذا رأى النعمان بن ثابت يعنى نفسه وهو أحسن ما قدرنا عليه فمن جاء بأحسن منه فهو أولى بالصواب، وكان الامام مالك رضى الله عنه يقول : ما من أحد إلا وهو مأخوذ من كلامه ومردود عليه إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم * وروى الحاكم والبيهقى عن الشافعى رضى الله عنه أنه كان يقول إذا صح الحديث فهو مذهبي وفى رواية إذا رأيت كلامي يخالف الحديث فاعملوا بالحديث واضربوا بكلامي الحائط، وقال يوم المزمزى : يا إبراهيم لا تقلدنى فى كل ما أقول وانظر فى ذلك لنفسك فانه دين، وكان رضى الله عنه يقول : لا حجة فى قول أحد دون رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن كثروا ولا فى قياس ولا فى شىء وما أثم إلا طاعة الله ورسوله بالتسليم، وكان الامام أحمد رضى الله عنه يقول : ليس لأحد مع الله ورسوله كلام، وقال أيضاً لرجل : لا تقلدنى ولا تقلد مالك ولا الاوزاعى ولا النخعى ولا غيرهم وخذ الأحكام من حيث أخذوا من الكتاب والسنة لا ينبغي لأحد أن يفتى إلا أن يعرف أقارب العلماء فى الفتاوى الشرعية ويعرف مذاهبهم فان سئل عن مسألة يعلم أن العلماء الذين يتخذ مذاهبهم قد اتفقوا عليه فلا بأس بأن

يقول هذا جائز وهذا لا يجوز ويكون قوله على سبيل الحكاية وإن كانت مسألة قد اختلفوا فيها فلا بأس بأن يقول هذا جائز في قول فلان وفي قول فلان لا يجوز وليس له أن يختار فيجيب بقول بعضهم ما لم يعرف حججته، وعن أبي يوسف وزفر وغيرهما رحمهم الله أنهم قالوا: لا يحل لأحد أن يفتي بقولنا ما لم يعلم من أين قلنا قيل لعصام بن يوسف رحمه الله: إنك تكثر الخلاف لأبي حنيفة رحمه الله قال: لأن أبا حنيفة رحمه الله أوتي من الفهم ما لم تؤت فأدرك بفهمه ما لم ندرك ولا يسعنا أن نفتي بقوله ما لم نفهم . عن محمد بن الحسن أنه سئل متى يحل للرجل أن يفتي؟ قال محمد: إذا كان صوابه أكثر من خطئه. عن أبي بكر الاسكاف البلخي أنه سئل عن عالم في بلده ليس هناك أعلم منه هل يسعه أن لا يفتي؟ قال: إن كان من أهل الاجتهاد فلا يسعه قيل: كيف يكون من أهل الاجتهاد؟ قال: أن يعرف وجوه المسائل وينظر أقرانه إذا خالفوه قيل: أدنى الشروط للاجتهاد حفظ المبسوط انتهى (١) * وفي البحر الرائق عن أبي الليث قال: سئل أبو نصر عن مسألة وردت عليه ما تقول رحمك الله وقعت عندك كتب أربعة، كتاب إبراهيم بن رستم، وأدب القاضي عن الخصاص، وكتاب المجرد، وكتاب النوادر من جهة هشام هل يجوز لنا أن نفتي منها أولا وهذه الكتب محدودة عندك؟ فقال ما صح عن أصحابنا فذلك علم محبوب مرغوب فيه مرضى به، وأما الفتيا فاني لا أرى لأحد أن يفتي بشيء لا يفهمه ولا يحمل أثقال الناس فان كانت مسائل قد اشتهرت وظهرت وانجلت غن أصحابنا رجوت أن يسمع لي الاعتماد عليها، وفيه أيضا لو احتجم أو اغتاب فظن أنه يفطره ثم أكل إن لم يستفت فقيها ولا بلغه الخبر فعليه الكفارة لانه مجرد جهل وأنه ليس بعذر في دار الاسلام وإن استفتي فقيها فأفتاه لا كفارة عليه لان العامى يجب عليه تقليد العالم إذا كان يعتمد على فتواه فكان معذورا فيما صنع وإن كان المفتي مخطئا فيما أفتى وإن لم يستفت ولكن بلغه الخبر وهو قوله صلى الله عليه وسلم: «أفطر الحاجم والمحجوم» وقوله عليه السلام: «الغيبة تفطر الصائم» ولم يعرف النسخ ولا تأويله لا كفارة عليه عندهما لان ظاهر الحديث واجب العمل به خلافا لاني يوسف لانه ليس للعامى العمل بالحديث لعدم علمه بالنسخ والمنسوخ ولو لمس امرأة أو قبلها بشهوة أو اكتحل فظن أن ذلك يفطر ثم أفطر فعليه الكفارة إلا إذا استفتي فقيها فأفتاه بالفطر أو بلغه خبر فيه، ولو نوى الصوم قبل الزوال ثم أفطر لم تلزمه الكفارة عند أبي حنيفة رضي الله عنه خلافا لهما كذا في المحيط * وقد علم من هذا أن مذهب العامى فتوى مفتيه، وفيه أيضا في باب قضاء الفوائت إن كان عاميا ليس له مذهب معين فمذهبه فتوى مفتيه كما صرحوا به فان أفتاه حنفي أعاد العصر والمغرب وإن أفتاه شافعي فلا يعيدها ولا عبرة برأيه وإن لم يستفت أحدا أو صادف الصحة على مذهب مجتهد أجزأه ولا إعادة عليه، قال ابن الصلاح من وجد من الشافعية حديثا يخالف مذهبه نظر إن كملت له آلة الاجتهاد مطلقا أو في ذلك الباب أو المسألة كان له الاستقلال بالعمل به وإن لم يكمل وشق مخالفة الحديث بعد أن يبحث فلم يجد للمخالفة جوابا شافيا عنه فله العمل به إن كان عمل به إمام مستقل غير الشافعي ويكون هذا عذرا له في ترك مذهب إمامه ههنا وحسنه النووى وقرره *

ومنها * أن أكثر صور الاختلاف بين الفقهاء لاسيما في المسائل التي ظهر فيها أقوال الصحابة في الجانبين كتكبيرات التشريق، وتكبيرات العيدين، ونكاح المحرم، وتشهد ابن عباس وابن مسعود، والاختفاء بالبسملة

وبآمين والاشفاق والايثار في الاقامة ونحو ذلك إنما هو في ترجيح أحد القولين . وكان السلف لا يختلفون في أصل المشروعية ، وإنما كان خلافهم في أولى الأمرين ، ونظيره اختلاف القراء في وجوه القراءة وقد عللوا كثيراً من هذا الباب بأن الصحابة مختلفون وأنهم جميعاً على الهدى ، ولذلك لم يزل العلماء يجوزون فتاوى المفتين في المسائل الاجتهادية ويسلمون قضاء القضاة ويعملون في بعض الأحيان بخلاف مذهبهم ، ولا ترى أئمة المذاهب في هذه المواضع إلا وهم يرضعون القول ويبينون الخلاف ، يقول أحدهم : هذا أحوط ، وهذا هو المختار ، وهذا أحب إلى ، ويقول : ما بلغنا إلا ذلك ، وهذا كثير في المبسوط . وآثار محمد رحمه الله . وكلام الشافعي رحمه الله . ثم خلف من بعدهم خلف اختصروا كلام القوم ففقوا الخلاف وثبتوا على مختار أئمتهم ، والذي يروى من السلف من تأكيد الأخذ بمذهب أصحابهم وأن لا يخرج منها بحال ، فإن ذلك إما لأمر جبلي ، فإن كل إنسان يحب ما هو مختار أصحابه وقومه حتى في الزى والمطاعم أو لصولة ناشئة من ملاحظة الدليل أو لنحو ذلك من الأسباب ، فظن البعض تعصبا دينيا حاشاهم من ذلك . وقد كان في الصحابة والتابعين ومن بعدهم من يقرأ البسملة ، ومنهم من لا يقرأها ، ومنهم من يجهر بها ، ومنهم من لا يجهر بها وكان منهم من يقنت في الفجر * ومنهم * من لا يقنت في الفجر * ومنهم * من يتوضأ من الحجامة والرعاف والقيء * ومنهم * من لا يتوضأ من ذلك * ومنهم * من يتوضأ من مس الذكر ومس النساء بشهوة * * ومنهم * من لا يتوضأ من ذلك * ومنهم * من يتوضأ مما مسته النار * ومنهم * من لا يتوضأ من ذلك * * ومنهم * من يتوضأ من أكل لحم الابل * ومنهم * من لا يتوضأ من ذلك *

ومع هذا فكان بعضهم يصلي خلف بعض مثل ما كان أبو حنيفة أو أصحابه والشافعي وغيرهم رضي الله عنهم يصلون خلف أئمة المدينة من المالكية وغيرهم وإن كانوا لا يقرءون البسملة لأسراً ولا جهراً ، وصلى الرشيد إماماً وقد احتجم ، فصلى الإمام أبو يوسف خلفه ولم يعد ، وكان أفتاه الإمام مالك بأنه لا وضوء عليه ، وكان الإمام أحمد بن حنبل يرى الوضوء من الرعاف والحجامة فقليل له : فإن كان الإمام قد خرج منه الدم ولم يتوضأ هل تصلي خلفه ؟ فقال : كيف لأصلي خلف الإمام مالك وسعيد بن المسيب . وروى أن أبا يوسف ومحمداً كانا يكبران في العيدين تكبير ابن عباس لأن هرون الرشيد كان يحب تكبير جده . وصلى الشافعي رحمه الله الصبح قريباً من مقبرة أبي حنيفة رحمه الله فلم يقنت تأديباً معه ، وقال أيضاً : ربما انحدرنا إلى مذهب أهل العراق . وقال مالك رحمه الله للنصور وهرون الرشيد ما ذكرنا عنه سابقاً . وفي البزازية عن الإمام الثاني - وهو أبو يوسف رحمه الله - أنه صلى يوم الجمعة مغتسلاً من الحمام وصلى بالناس وتفرقوا ، ثم أخبر بوجود فارة ميتة في بئر الحمام فقال : إذا أخذ بقول إخواننا من أهل المدينة إذا بلغ الماء قلتين لم يحمل خبثاً ، انتهى . وسئل الإمام الحنفي رحمه الله عن رجل شافعي المذهب ترك صلاة سنة أو سنتين ، ثم انتقل إلى مذهب أبي حنيفة رحمه الله ، كيف يجب عليه القضاء ، أيقضيها على مذهب الشافعي أو على مذهب أبي حنيفة ؟ فقال : على أي المذهبين قضى بعد أن يعتقد جوازها جاز ، انتهى . وفي جامع الفتاوى أنه إن قال حنفي : إن تزوجت فلانة فهي طالق ثلاثاً ، ثم استفتى شافعيًا فأجاب أنها لا تطلق ويمينه باطل فلا بأس باقتدائه بالشافعي في هذه المسألة ، لأن كثيراً من الصحابة في جانبه . قال محمد رحمه الله في أماليه : لو أن فقيهاً قال لامرأته : أنت طالق البتة ، وهو ممن يراها ثلاثاً ،

مقضى عليه قاض بأنها رجعية ، وسعه المقام معها ، وكذا كل فصل مما يختلف فيه الفقهاء من تحريم أو تحليل أو إعتاق أو أخذ مال أو غيره ، ينبغى للفقهاء المقضى عليه الأخذ بقضاء القاضى ، ويدع رأيه ويلزم نفسه ما ألزم القاضى ويأخذ ما أعطاه ، قال محمد رحمه الله : وكذلك رجل لا علم له ، ابتلى ببليّة فسأل عنها الفقهاء ، فأفتوه فيها بحلال أو بحرام ، وقضى عليه قاضى المسلمين بخلاف ذلك ، وهى مما يختلف فيه الفقهاء ، فينبغى له أن يأخذ بقضاء القاضى ويدع ما أفتاه الفقهاء ، انتهى (ومنها) أنى وجدت بعضهم يزعم أن جميع ما يوجد فى هذه الشروح الطويلة وكتب الفتاوى الضخمة وهو قول أبى حنيفة وصاحبيه ، ولا يفرق بين القول المخرج وبين ما هو قول فى الحقيقة ، ولا يحصل معنى قولهم على تخريج الكرخى كذا ، وعلى تخريج الطحاوى كذا ، ولا يميز بين قولهم : قال أبو حنيفة : كذا ، وبين قولهم : جواب المسألة على مذهب أبى حنيفة أو على أصل أبى حنيفة كذا ، ولا يصغى إلى ما قاله المحققون من الحنفيين كابن الهمام وابن النجيم فى مسألة العشر فى العشر ، ومثله مسألة اشتراط البعد من الماء ميلا فى التيمم ، وأمثالها أن ذلك من تخريجات الأصحاب وليس مذهباً فى الحقيقة ، وبعضهم يزعم أن بناء المذهب على هذه المحاورات الجدلية المذكورة فى مبسوط السرخسى والهداية والتبيين ونحو ذلك ، ولا يعلم أن أول من أظهر ذلك فيهم المعتزلة ، وليس عليه بناء مذهبهم ، ثم استطاب ذلك المتأخرون توسعاً وتشجيعاً لأذهان الطالبين ولولغير ذلك والله أعلم . وهذه الشبهات والشكوك يحل كثير منها مما مهدناه فى هذا الباب . (ومنها) أنى وجدت بعضهم يزعم أن بناء الخلاف بين أبى حنيفة والشافعى رحمهما الله على هذه الأصول المذكورة فى كتاب البزدوى ونحوه ، وإنما الحق أن أكثرها أصول مخرجة على قولهم . وعندى أن المسألة القائلة بأن الخاص مبین ولا يلحقه البيان ، وأن الزيادة نسخ وأن العام قطعى كالخاص ، وأن لا ترجيح بكثرة الرواة وأنه لا يجب العمل بحديث غير الفقيه إذا انسد باب الرأى ، وأن لا عبرة بمفهوم الشرط والوصف أصلاً وأن موجب الأمر هو الوجوب البتة . وأمثال ذلك أصول مخرجة على كلام الأئمة ، وأنه لا تصح بها رواية عن أبى حنيفة وصاحبيه ، وأنه ليست المحافظة عليها والتكلف فى جواب ما يرد عليها من صنائع المتقدمين فى استنباطاتهم كما يفعله البزدوى وغيره أحق من المحافظة على خلافها والجواب عما يرد عليه . مثاله أنهم أصلوا أن الخاص مبین فلا يلحقه البيان ، وخرجوه من صنيع الأوائل فى قوله تعالى : (واسجدوا واركعوا) وقوله صلى الله عليه وسلم «لا تجزى صلاة الرجل حتى يقيم ظهره فى الركوع والسجود» حيث لم يقولوا بفرضية الاطمئنان ولم يجعلوا الحديث بياناً للآية فورد عليهم صنيعهم فى قوله تعالى : (وامسحوا برءوسكم) ومسحه صلى الله عليه وسلم على ناصيته حيث جعلوه بياناً ، وقوله تعالى : (الزانية والزانى فاجلدوا) وقوله تعالى : (السارق والسارقة فاقطعوا يداهما) وقوله تعالى : (حتى تنكح زوجاً غيره) وما لحقه من البيان بعد ذلك فتكلفوا للجواب كما هو مذكور كتبهم وأنهم أصلوا أن العام قطعى كالخاص ، وخرجوه من صنيع الأوائل فى قوله تعالى : (فاقرءوا ما تيد من القرآن) وقوله صلى الله عليه وسلم : «لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب» حيث لم يجعلوه مخصصاً ، وفى قوله صلى الله عليه وسلم «فيماسقت العيون العشر» الحديث ، وقوله صلى الله عليه وسلم : «ليس فيما دون خمسة أواق صدقة» حيث لم يخصه به ونحو ذلك من المواد ، ثم ورد عليهم قوله تعالى : (فما استيسر من الهدى) وإنما هو الشىء فما فوقه ببيان النبى صلى الله عليه وسلم فتكلفوا فى الجواب ، وكذلك أصلوا أن لا عبرة بمفهوم الشرط والوصف

وخرجوه من صنيعهم في قوله تعالى : (فمن لم يستطع منكم طولا) الآية ، ثم ورد عليهم كثير من صنائعهم كقوله : **عَلَيْهِ السَّلَامُ** « في الابل السائمة زكاة » فتكفوا في الجواب وأصلوا أنه لا يجب العمل بحديث غير الفقيه إذا انسده به باب الرأي وخرجوه من صنيعهم في ترك حديث المصرة (١) ثم ورد عليهم حديث القهقهة وحديث عدم فساد الصوم بالأكل ناسيا ، فتكفوا في الجواب ، وأمثال ما ذكرنا كثيرة لا تحفى على المتتبع ، ومن لم يتبع لا تكفيه الاطالة فضلا عن الاشارة ، ويكفيك دليلا على هذا قول المحققين في مسألة لا يجب العمل بحديث من اشتهر بالضبط والعدالة دون الفقه إذا انسده باب الرأي كحديث المصرة أن هذا مذهب عيسى بن إبان ، واختاره كثير من المتأخرين ، وذهب الكرخي وتبعه كثير من العلماء إلى عدم اشتراط فقه الراوى لتقدم الخبر على القياس ، قالوا : لم ينقل هذا القول عن أصحابنا بل المنقول عنهم أن خبر الواحد مقدم على القياس ، ألا ترى أنهم عملوا بخبر أبي هريرة في الصائم إذا أكل أو شرب ناسيا ، وإن كان مخالفا للقياس حتى قال أبو حنيفة رحمه الله : لولا الرواية لقلت بالقياس . ويرشدك أيضا اختلافهم في كثير من التخريجات أخذاً من صنائعهم ورد بعضهم على بعض **(ومنها)** أنى وجدت بعضهم يزعم أن هنالك فرقتين لثالث لهما ، أهل الظاهر ، وأهل الرأي ، وأن كل من قاس واستنبط فهو من أهل الرأي - كلا والله - بل ليس المراد بالرأى نفس الفهم والعقل ، فان ذلك لا ينفك من أحد من العلماء ولا الرأى الذى لا يعتمد على سنة أصلا ، فانه لا ينتحله مسلم البتة ، ولا القدرة على الاستنباط والقياس ، فان أحمد وإسحق بل الشافعى أيضا ليسوا من أهل الرأى بالاتفاق وهم يستنبطون ويقيسون ، بل المراد من أهل الرأى قوم توجهوا بعد المسائل المجمع عليها بين المسلمين أو بين جمهورهم إلى التخريج على أصل رجل من المتقدمين ، فكان أكثر أمرهم حمل النظر على النظر والرد إلى أصل من الأصول دون تتبع الأحاديث والآثار ، والظاهرى من لا يقول بالقياس ولا بآثار الصحابة والتابعين كداود وابن حزم ، وبينهما المحققون من أهل السنة كأحمد وإسحاق ، ولقد أطنبنا الكلام في هذا المقام غاية الاطناب حتى خرجنا من الفن الذى وضعنا فيه هذا الكتاب ، وليس ذلك لى بخلق وديدن ، وإنما كان ذلك بوجهين **(أحدهما)** أن الله تعالى جعل فى قاي وقتاً من الأوقات ميزانا أعرف به سبب كل اختلاف وقع فى الملة المحمدية على صاحبها الصلاة والسلام ، وما هو الحق عند الله وعند رسوله ومكنى من أن أثبت ذلك بالدلائل العقلية والنقلية بحيث لا يبقى فيه شبهة ولا إشكال ، فعزمت على تأليف كتاب أسميه **(غاية الانصاف فى بيان أسباب الاختلاف)** وأبين فيه هذه المطالب بيانا شافيا ، وأكثر فيه من ذكر الشواهد والأمثال والتفريعات مع المحافظة على الاقتصاد بين الافراط والتفريط فى كل مقام والاحاطة بجوانب الكلام وأصول المقصود والمرام ، ثم لم أتفرغ له إلى هذا الحين ، فلما انجر الكلام إلى مأخذ الاختلاف ، حملنى ما أجد على أن أبين بعض ما تيسر من ذلك **(والثانى)** شغب أهل الزمان واختلافهم وعمهم فى بعض ما ذكرنا حتى كادوا يسطون بالذين يتلون عليهم آيات الله ، (وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون) *

(١) هو من التصرية وهو حبس اللبن فى ضروع الابل والغنم لتباع كذلك يفتربها المشتري ، والمصرة هى التى يفعل بها ذلك ، وحديث المصرة « من اشترى شاة مصراة فهو بالخيار ثلاثة أيام فانزدها رد معها صاعا من طعام لاسمراء » انتهى والبحث فى ثبوت الخيار ورد الطعام عند الشافعى ، وعدمهما عند أبى حنيفة مذكور فى كتب الأصول اهـ

وليسكن هذا آخر ما أردنا إيراده في القسم الأول من كتاب ﴿حجة الله البالغة﴾ في علم أسرار الحديث والحمد لله أولاً وآخراً ، وظاهراً وباطناً * ويتلوه إن شاء الله تعالى ﴿ القسم الثاني ﴾ في بيان معاني ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم تفصيلاً *

﴿ القسم الثاني ﴾

﴿ في بيان أسرار ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم تفصيلاً ﴾

والمقصود ههنا ذكر جملة صالحة من الأحاديث المعروفة عند أهلها ، السائرة بين حملة العلم ، المروية في صحيح البخاري ومسلم وكتابي أبي داود والترمذي ، وقلما أوردت عن غيرها إلا استطراداً ، ولذلك أتعرض لنسبة كل حديث لمخرجه ، وربما ذكرت حاصل المعنى أو طائفة من الحديث ، فان هذه الكتب تيسر مراجعتها وتتبعها على الطالب *

﴿ من أبواب الايمان ﴾

إعلم أن النبي ﷺ لما كان مبعوثاً إلى الخلق بعثاً عاماً ليغلب دينه على الأديان كلها بعز عزيز أو ذل ذليل حصل في دينه أنواع من الناس فوجب التمييز بين الذين يدينون بدين الاسلام وبين غيرهم ، ثم بين الذين اهتدوا بالهداية التي بعث بها وبين غيرهم ممن لم تدخل بشاشة الايمان قلوبهم فجعل الايمان على ضربين ، أحدهما الايمان الذي يدور عليه أحكام الدنيا من عصمة الدماء والاموال ، وضبطه بأمور ظاهرة في الانقياد وهو قوله ﷺ «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فافعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الاسلام (١) وحسابهم على الله (٢)» وقوله ﷺ «من صلى صلاة واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم الذي له ذمة الله وذمة رسوله فلا تخفروا (٣) الله في ذمته» وقوله ﷺ «قلت من أصل الايمان (٤) الكف عن قال لا إله إلا الله لانكفره بذنوب ولا تخرجه من الاسلام بعمل» الحديث وثانيهما الايمان الذي يدور عليه أحكام الآخرة من النجاة والفوز بالدرجات وهو متناول لكل اعتقاد وعمل مرضى ومملكة فاضلة وهو يزيد وينقص ، وسنة الشارع أن يسمى كل شيء منها إيماناً ليكون تنبيهاً ببلوغه على جزئيته وهو قوله ﷺ «لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له» وقوله ﷺ «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده» الحديث وله شعب كثيرة ، ومثله كمثل الشجرة يقال للدوحة والاغصان والاوراق والثمار والازهار جميعاً أنها شجرة فاذا قطع أغصانها وخبط (٥) أوراقها وخرف ثمارها قيل شجرة ناقصة فاذا قلعت الدوحة بطل الأصل وهو قوله تعالى : (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) الآية ولما لم يكن جميع تلك الاشياء حد واحد جعلها النبي ﷺ على مرتبتين ، منها الاركان التي هي عمدة أجزائها وهو قوله صلى الله عليه وسلم : «الاسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والحج وصوم رمضان» ومنها سائر الشعب وهو قوله صلى الله عليه وسلم : «الايمان بضع وسبعون شعبة وأفضلها قول لا إله إلا

(١) يعني الاحكام التي تجرى بين المسلمين كالفصاح والرجم وغيرهما اه (٢) أي فيما يسرون من الكفر والمعاصي بعد ذلك اه (٣) الاخفار نقض العهد والخيانة فيه ، والمعنى لا تخونوا الله في عهده فلا تتعرضوا للمسلم في ماله أو دمه أو عرضه (٤) خواصه التي لا تنفك عنه اه (٥) خبط الشجرة شدها ونفض أوراقها ، وقوله خرف ثمارها أي قطف وجنى

وأدناها إمطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان» ويسمى مقابل الإيمان الأول بالكفر، وأمام مقابل الإيمان الثاني فإن كان تفويتاً للتصديق وإنما يكون الانقياد بغلبة السيف فهو النفاق الأصلي، والمنافق بهذا المعنى لا فرق بينه وبين الكافر في الآخرة بل المنافقون - في الدرك الأسفل من النار - وإن كان مصداقاً مفوتاً لوظيفة الجوارح سمي فاسقاً، أو مفوتاً لوظيفة الجنان فهو المنافق بنفاق آخر وقد سماه بعض السلف نفاق العمل وذلك أن يغلب عليه حجاب الطبع أو الرسم أو سوء المعرفة فيكون ممعناً في محبة الدنيا والعشائر والأولاد فيدب في قلبه استبعاد المجازاة والاجترار على المعاصي من حيث لا يدري وإن كان معترفاً بالنظر البرهاني بما ينبغي الاعتراف به أو رأى الشدائد في الإسلام فكرهه أو أحب الكفار بأغيانهم فصد ذلك من إعلاء كلمة الله، والإيمان معنيان آخران أحدهما تصديق الجنان بما لا بد من تصديقه وهو قوله صلى الله عليه وسلم في جواب جبريل: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته» الحديث (١)، والثاني السكينة والهيئة الوجدانية التي تحصل للمقربين وهو قوله صلى الله عليه وسلم: «الطهور شرط الإيمان» وقوله صلى الله عليه وسلم: «إذا زنى العبد خرج منه الإيمان فكان فوق رأسه كالظلة فإذا خرج من ذلك العمل رجع إليه الإيمان» وقول معاذ رضي الله عنه: «تعال تؤمن ساعة» فللإيمان أربعة معان مستعملة في الشرع إن حملت كل حديث من الأحاديث المتعارضة في الباب على محمله اندفعت عنك الشكوك والشبهات، والإسلام أوضح من الإيمان في المعنى الأول ولذلك قال الله تعالى: (قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا) وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «أو مسلماً» والاحسان أوضح منه في المعنى الرابع، ولما كان نفاق العمل وما يقابله من الإخلاص أمراً خفياً وجب بيان علامات كل واحد منهما وهو قوله صلى الله عليه وسلم: «أربع من كنّ فيه كان منافقاً خالصاً ومن كانت فيه خصلة منهنّ كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها إذا اتّمن خان وإذا حدث كذب وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر» وقوله صلى الله عليه وسلم: «ثلاث من كنّ فيه وجد بهن حلاوة الإيمان (٣) أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار» وقوله صلى الله عليه وسلم: «إذا رأيتم العبد يلازم المسجد فاشهدوا له بالإيمان» وكذا قوله عليه السلام: «حب على آية الإيمان وبغض على آية النفاق» والفقه فيه أنه رضي الله عنه كان شديداً في أمر الله فلا يتحمل شدته إلا من ركزت طبيعته وغلب عقله على هواه، وقوله صلى الله عليه وسلم: «حب الانصار آية الإيمان» والفقه فيه أن العرب المعدية واليمينية ما زالوا يتنازعون بينهم حتى جمعهم الإيمان فمن كان جامع الهمة على إعلاء الكلمة زال عنه الحقد ومن لم يكن جامعاً بقي فيه النزاع وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم في حديث «بنی الاسلام على خمس» وحديث ضمام بن ثعلبة، وحديث أعرابي قال - دلني على عمل إذا عملته دخلته الجنة - أن هذه الأشياء الخمسة أركان الإسلام وأن من فعلها ولم يفعل غيرها من الطاعات قد خلص رقبته من العذاب واستوجب الجنة - كما بين أن أدنى الصلاة ماذا، وأدنى الوضوء ماذا - وإنما خص الخمسة

(١) تمامه «كتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره» إلى آخره اهـ (٢) أخرجه الخمسة إلا الترمذي عن سعد بن أبي وقاص قال: «أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم رهطاً وأنا جالس فترك رجلاً منهم هو أعجبهم إلى فقلت مالك عن فلان والله إنى لأراه مؤمناً فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أو مسلماً» الحديث، و«أو» بمعنى بل، والمراد بل ينبغي لك أن تقول لأراه مسلماً في الظاهر: وقوله فجر أى شتم ورمى بالأشياء القبيحة اهـ (٣) أي استلذاذ الطاعات وتحمل المشاق في رضا الله ورسوله اهـ

بالركنية لأنها أشهر عبادات البشر وليست ملة من الملل إلا قد أخذت بها والتزمتها كاليهود والنصارى والمجوس وبقية العرب على اختلافهم في أوضاع أدائها ولأن فيها ما يكفي عن غيرها وليس في غيرها ما يكفي عنها وذلك لأن أصل أصول البر التوحيد وتصديق النبي والتسليم للشرائع الإلهية، ولما كانت البعثة عامة وكان الناس يدخلون في دين الله أفواجا لم يكن بدّ من علامة ظاهرة بها يميز بين الموافق والمخالف وعليها يدار حكم الإسلام وبها يؤخذ الناس، ولولا ذلك لم يفرق بينهما بعد طول الممارسة إلا تفرقاً ظاهرياً معتمداً على قرائن ولا يختلف الناس في الحكم بالإسلام وفي ذلك اختلال كثير من الأحكام كما لا يخفى، وليس شيء كالإقرار طوعاً ورغبة كاشفاً عن حقيقة مافي القلب من الاعتقاد والتصديق، ولما ذكرنا من قبل من أن مدار السعادة النوعية وملاك النجاة الآخروية هي الأخلاق الأربعة، فجعلت الصلاة المقرونة بالطهارة سبحة ومظنة لخلق الأخبات والنظافة وجعلت الزكاة المقرونة بشروطها المصروفة إلى مصارفها مظنة للسماحة والعدالة - ولما ذكرنا أنه لا بد من طاعة قاهرة على النفس ليدفع بها الحجب الطبيعية ولا شيء في ذلك كالصوم، ولما ذكرنا أيضاً من أن أصل أصول الشرائع هو تعظيم شعائر الله وهي أربعة، منها الكعبة - وتعظيمها الحج - وقد ذكرنا فيما سبق من فوائد هذه الطاعات ما يعلم به أنها تكفي عن غيرها وإن غيرها لا يكفي عنها، والآثام باعتبار الملة على قسمين صغائر وكبائر، والكبائر ما لا يصدر إلا بغاشية عظيمة من البهيمية أو السبعية أو الشيطنة وفيه انسداد سبيل الحق وهتك حرمة شعائر الله أو مخالفة الارتفاقات الضرورية، والضرر العظيم بالناس ويكون مع ذلك منابذاً للشرع لأن الشرع نهى عنه أشد نهى وغلظ التهديد على فاعله وجعله كأنه خروج من الملة، والصغائر ما كان دون ذلك من دواعي الشر ومفوضيات إليه وقد ظهر نهى الشرع عنه حتماً ولكن لم يغلظ فيه ذلك التغليظ، والحق أن الكبائر ليست محصورة في عدد وأنها تعرف بإبعاد النار في الكتاب والسنة الصحيحة وشرع الحد عليه وتسميته كبيرة وجعله خروجاً عن الدين وكون الشيء أكثر مفسدة مما نص النبي صلى الله عليه وسلم على كونه كبيرة أو مثلها في المفسدة وقوله صلى الله عليه وسلم «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن» الحديث معناه أن هذه الأفعال لا تصدر إلا بغاشية عظيمة من البهيمية أو السبعية فتصير حينئذ الملكية كأن لم تكن والایمان كأنه زائل - دل بذلك على كونها كبائر قال النبي صلى الله عليه وسلم : «والذي نفس محمد بيده لا يسمع به أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار» (أقول) يعنى من بلغته الدعوة، ثم أصر على الكفر حتى مات دخل النار، لأنه ناقض تدبير الله تعالى لعباده ومكن من نفسه لعنة الله والملائكة المقربين، وأخطأ الطريق الكاسب للنجاة. وقال صلى الله عليه وسلم : «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين» وقال : «حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به» (أقول) كالایمان أن يغلب العقل على الطبع بحيث يكون مقتضى العقل أمثل بين عينيه من مقتضى الطبع بآدى الأمر - وكذلك الحال في حب الرسول - ولعمري هذا مشهود في الكاملين، قيل (١) يا رسول الله : قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك - وفي رواية - غيرك، قال : «قل آمنت بالله ثم استقم» (أقول) معناه أن يحضر الإنسان بين عينيه حالة الانقياد والإسلام ثم يعمل ما يناسبه ويترك ما يخالفه، وهذا قول كل يصير به الإنسان على بصيرة من الشرائع، وإن لم يكن

تفصيلا فلا يخلو من علم إجمالي يجعل الانسان سابقا . وقال صلى الله عليه وسلم : (١) « ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صدقا من قلبه إلا حرمه الله على النار » وقوله صلى الله عليه وسلم : (٢) « وإن زنى وإن سرق » وقوله صلى الله عليه وسلم : (٣) « على ما كان من عمل » (أقول) معناه حرمه الله على النار الشديدة المؤبدة التي أعدها للكافرين وإن عمل الكبائر ، والنكته في سوق الكلام هذا السياق ، أن مراتب الآثم بينها تفاوت بين ، وإن كان يجمعها كلها اسم الآثم ، فالكبائر إذا قيدت بالكفر لم يكن لها قدر محسوس ولا تأثير يعتد به ولا سببية لدخول النار تسمى سببية ، وكذلك الصغائر بالنسبة إلى الكبائر ، فينبغي أن يفرق بينهما على آكد وجه بمنزلة الصحة والسقم ، فان الأعراض (٤) البادية كالزكام والنصب إذا قيدت إلى سوء المزاج المتمكن كالجذام والسل والاستسقاء يحكم عليها بأنها صحة وأن صاحبها ليس بمريض وأن ليس به قلبة (٥) - ورب داهية تنسى داهية - كمن أصابه شوكة ثم وتر أهله وماله ، قال : لم يكن بي مصيبة قبل أصلا . وقوله ﷺ : « إن إبليس يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه يفتنون الناس » الحديث (٦) * إعلم أن الله تعالى خلق الشياطين وجبلهم على الاغواء بمنزلة الدود التي تفعل أفعالا بمقتضى مزاجها - كالجعل يدهده الخرافة - وإن لهم رئيسا يضع عرشه على الماء ويدعوهم لتكميل ما هم قبله قد استوجب أتم الشقاوة وأوفر الضلال ، وهذه سنة الله في كل نوع وفي كل صنف وليس في هذا مجاز ؛ وقد تحققت من ذلك ما يكون بمنزلة الرؤية بالعين . قوله ﷺ : « الحمد لله الذي رد أمره إلى الوسوسة » (٧) وقوله ﷺ : « إن الشيطان قد أيس من أن يعبد المسلمون في جزيرة العرب ولكن في التحريش (٨) بينهم » وقوله ﷺ : « ذلك (٩) صريح الايمان » * إعلم أن تأثير وسوسة الشياطين يكون مختلفا بسبب استعداد الموسوس إليه ، فأعظم تأثيره الكفر والخروج من الملة ، فاذا عصم الله من ذلك بقوة اليقين انقلب تأثيره في صورة أخرى ، وهي المقاتلات وفساد تدبير المنزل والتحريش بين أهل البيت وأهل المدينة ، ثم إذا عصم الله من ذلك أيضا صار خاطرا يحى ويذهب ولا يبعث النفس إلى عمل لضعف أثره - وهذا لا يضر - بل إذا اقترن باعتقاد قبح ذلك كان دليلا على صراحة الايمان ، نعم أصحاب النفوس القدسية لا يجدون شيئا من ذلك ، وهو قوله ﷺ : « إلا أن الله أعانني عليه (١٠) فأسلم فلا يأمرني إلا بخير » وإنما مثل هذه التأثيرات مثل شعاع الشمس يؤثر في الحديد والأجسام الصقيلة مالا يؤثر في غيرها ، ثم وثم قوله ﷺ : « إن للشيطان لمة وللنفس لمة » الحديث (١١)

(١) أي في حديث أنس رضي الله عنه اهـ (٢) كما وقع في حديث أبي ذر اهـ

(٣) كما في حديث عبادة بن الصامت اهـ (٤) أي الامراض اهـ (٥) يقال ما به قلبة - بالتحريك - على وزن طلبة أي ليس به علة ، ووتر نقص وسلب ، والسرايا الجنود اهـ (٦) تمامه « فأداهم منه منزلة أعظمهم فتنة يحى أحدهم فيقول فعلت كذا وكذا فيقول ما صنعت شيئا قال ثم يحى أحدهم فيقول ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته قال فيدنيه منه ويقول نعم أنت » ويدهده يد حرج اهـ (٧) قاله في جواب رجل جاءه فقال : إني أحدث نفسي بالشئ لأن كون حمته أحب إلى من أن أتكلم به اهـ (٨) أي في إغراء بعضهم على بعض ، والتحريض بالشرب بين الناس ، وقوله : « جزيرة العرب » إنما خصت لأن الدين يومئذ لم يتجاوز عنها اهـ (٩) قاله لما سأله الاصحاح إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به قال : « أو قد وجدتموه ؟ قالوا : نعم قال : ذاك ، الخ اهـ (١٠) أي على قريني من الجن اهـ (١١) اللمة بالفتح النزول والقرب والمراد بها ما يقع في القلب بواسطة

الحاصل أن صورة تأثير الملائكة في نشأة الخواطر الأنس والرغبة في الخير وتأثير الشياطين فيها الوحشة وقلق خاطر والرغبة في الشر . قوله صلى الله عليه وسلم : « من وجد من ذلك (١) شيئا فليقل آمنت بالله ورسوله » وقوله صلى الله عليه وسلم : « فليستعذ بالله وليتفل عن يساره » سره أن الالتجاء إلى الله وتذكره وتقبيح حال الشياطين وإهانة أمرهم يصرف وجه النفس عنهم ويصد عن قبول أثرهم ، وهو قوله تعالى : (إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون) وقوله صلى الله عليه وسلم : « احتج آدم وموسى عند ربهما » (٢) .

(أقول) معنى قوله : « عند ربهما » أن روح موسى عليه السلام انجذبت إلى حظيرة القدس فوافته هناك آدم . وبطن هذه الواقعة وسرها أن الله فتح على موسى علماً على لسان آدم عليهما السلام شبه ما يرى النائم في منامه ملكاً أو رجلاً من الصالحين يسأله ويراجعه الكلام حتى يفيء عنه بعلم لم يكن عنده . وههنا علم دقيق كان قد خفي على موسى عليه السلام حتى كشفه الله عليه في هذه الواقعة . وهو أنه اجتمع في قصة آدم عليه السلام وجهان (أحدهما) مما يلي خويصة نفس آدم عليه السلام ، وهو أنه كان مالم يأكل الشجرة لا يظلم ولا يضحى ولا يجوع ولا يعرى - وكان بمنزلة الملائكة - فلما أكل غلبت البهيمية وكننت الملكية ، فلا جرم أن أكل الشجرة إثم يجب الاستغفار عنه (وثانيهما) مما يلي التدبير الكلي الذي قصده الله تعالى في خلق العالم وأوحاه إلى الملائكة قبل أن يخلق آدم وهو أن الله تعالى أراد بخلقه أن يكون نوع الإنسان خليفة في الأرض يذنب ويستغفر فيغفر له ، ويتحقق فيهم التكليف وبعث الرسل والثواب والعذاب ومراتب الكمال والضلال ، وهذه نشأة عظيمة على حدتها ، وكان أكل الشجرة حسب مراد الحق ووفق حكمته ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم : « لو لم تذنبوا لذهب الله بكم وجاء بقوم آخرين يذنبون ويستغفرون فيغفر لهم » وكان آدم أول ما غلبت عليه بهيميته استتر عليه العلم الثاني وأحاط به الوجه الأول وعوتب عتاباً شديداً في نفسه ثم سرى عنه ولمع عليه بارق من العلم الثاني ثم لما انتقل إلى حظيرة القدس علم الحال أصرح ما يكون وكان موسى عليه السلام يظن ما كان يظن آدم عليه السلام حتى فتح الله عليه العلم الثاني ، وقد ذكرنا أن الوقائع الخارجية يكون لها تعبير كتعبير المنام وأن الأمر والنهي لا يكونان جزافاً بل لهما استعداد يوجبهما . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل مولود يولد على الفطرة ثم أبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة جمعاء » (٣) هل تحسون فيها من جدعاء ؟ (أقول) أعلم أن الله تعالى أجرى سنته بأن يخلق كل نوع من الحيوانات والنباتات وغيرهما على شكل خاص به ، فخص الإنسان مثلاً بكونه بادي البشرية مستوى القامة عريض الاظفار ناطقاً ضاحكاً وبتلك الخواص يعرف أنه إنسان اللهم إلا أن تخرق العادة في فرد نادر كما ترى أن بعض المولودات يكون له خرطوم أو حافر

الشيطان أو الملك ، وتتمام الحديث . فأما لمة الشيطان فايعاد بالشر وتكذيب بالحق وأما لمة الملك فايعاد بالخير وتصديق بالحق » الحديث (١) أي الوسوسة في الله وأول الحديث « لا يزال الناس يتساءلون حتى

يقال هذا خلق الله الخلق فمن خلق الله ، اه (٢) حاصل الاحتجاج أن موسى عليه السلام اعترض

على آدم أنك أنت أهبطت الخلق إلى الأرض فأجاب آدم عليه السلام تلومني على عمل كتبه الله على قبل أن أخلق فغلب آدم في الحجة اه (٣) أي سليمة الاطراف ، والجدعاء مقطوعة الاطراف والمراد أن الولد يكون في الجبله متميئاً لقبول الحق طبعاً ولو خلته شياطين الانس والجن لم يختار غير الحق اه

فكذلك أجرى سنته أن يخلق في كل نوع قسطاً من العلم والادراك محدوداً بحد مخصوصا به لا يوجد في غيره مطرداً في أفرادهِ ، فخص النحل بادراك الاشجار المناسبة لها ثم اتخذ الاكنان وجمع العسل فيها فلن ترى فرداً من أفراد النحل إلا وهو يدرك ذلك ، وخص الحمام بأنه كيف يهدر وكيف يعشش وكيف يزق فراخه ، وكذلك خص الله تعالى الانسان بادراك زائد وعقل مستوفي ودس فيه معرفة بآرائه والعبادة له وأنواع ما يرتفقون به في معاشهم وهو الفطرة فلو أنهم لم يمنعهم مانع لا يكبروا عليها لكانه قد تعترض العوارض كاضلال الابوين فينقلب العلم جهلاً كمثّل الرهبان يتمسكون بأنواع الحيل فيقطعون شهوة النساء والجوع مع أنهما مدسوسان في فطرة الانسان ، قوله صلى الله عليه وسلم : « خلقهم لها وهم في أصلاّب آبائهم - وقوله صلى الله عليه وسلم - هم من آبائهم » وقوله صلى الله عليه وسلم : « الله أعلم بما كانوا عاملين » وقوله ﷺ في منامه الطويل : « نسمة ذرية بنى آدم تكون عند إبراهيم عليه السلام » . إعلم أن الاكثر أن يولد الولد على الفطرة كما مر لكن قد يخلق بحيث يستوجب اللعن بلا عمل كالذي قتله الخضر طبع كافراً ، وأما من آبائهم فمحمول على أحكام الدنيا وليس أن التوقف في النواميس إنما يكون لعدم العلم بل قد يكون لعدم انضباط الأحكام بمظنة ظاهرة أو لعدم الحاجة إلى بيانه أو غموض فيه بحيث لا يفهمه المخاطبون . قوله صلى الله عليه وسلم : « بيده الميزان يخفض ويرفع » . ﴿ أقول ﴾ هذا إشارة إلى التدبير ، فان مبناه على اختيار الأوفق بالمصلحة ، فما من حادثة يجتمع فيها أسباب متنازعة إلا ويقضى الله في ذلك ما هو العدل ، وهو قوله تعالى : (كل يوم هو في شأن) قوله صلى الله عليه وسلم : « إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن » وقوله صلى الله عليه وسلم : « مثل القلب كريشة بأرض فلاة تقلبها الرياح ظهراً لبطن » ﴿ أقول ﴾ أفعال العباد اختيارية ، لكن لا اختيار لهم في ذلك الاختيار ، وإنما مثله كمثّل رجل أراد أن يرمى حجراً ، فلو أنه كان قادراً حكماً خالق في الحجر اختيار الحركة أيضاً ، ولا يرد عليه أن الأفعال إذا كانت مخلوقة لله تعالى وكذلك الاختيار فقيم الجزاء ، لأن معنى الجزاء يرجع إلى ترتيب بعض أفعال الله تعالى على البعض ، بمعنى أن الله تعالى خلق هذه الحالة في العبد ، فاقضى ذلك في حكمته أن يخلق فيه حالة أخرى من النعمة أو الألم كما أنه يخلق في الماء حرارة ، فيقتضى ذلك أن يكسوه صورة الهواء ، وإما يشترط وجود الاختيار وكسب العبد في الجزاء بالعرض لا بالذات ، وذلك لأن النفس الناطقة لا تقبل لون الأعمال التي لا تستند إليها بل إلى غيرها من جهة الكسب ولا الأعمال التي لا تستند إلى اختيارها وقصدها ، وليس في حكمة الله أن يجازي العبد بما لم تقبل نفسه الناطقة لونه ، فاذا كان الأمر على ذلك كفي هذا الاختيار غير المستقل في الشرطية إذا كان مصححاً لقبول لون العمل ، وهذا الكسب غير المستقل إذا كان مصححاً لتخصيص هذا العبد بخلق الحالة المتأخرة فيه دون غيره ، وهذا تحقيق شريف مفهوم من كلام الصحابة والتابعين فاحفظه .

قوله صلى الله عليه وسلم : « إن الله خلق خلقه في ظلمة فألقى عليهم من نوره فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضل » فلذلك ﴿ أقول ﴾ جف القلم على علم الله ، معناه أنه قدرهم قبل أن يخلقوا ، فكانوا هنالك عراة عن الكمال في حد أنفسهم ، فاستوجبوا أن يبعث إليهم وينزل عليهم ، فاهتدى بعض منهم وضل آخرون وقدّر جميع ذلك مرة واحدة ، لكن كان لما من أنفسهم تقدم على ما لهم يبعث الرسل ، كقوله صلى الله عليه وسلم رواية عن الله تعالى : « كلّمكم جائع إلامن أطعمته ، وكلّمكم ضال إلامن هديته » أو نقول : هذا إشارة

إلى واقعة مثل واقعه إخراج ذرية آدم عليه السلام : قوله صلى الله عليه وسلم : « إذا قضى الله لعبد أن يموت بأرض جعل له إليها حاجة » (أقول) فيه إشارة إلى أن بعض الحوادث توجد لثلاثين خرم (١) نظام الأسباب فإن لم يكن استهل من إلهام أو بعث تقريب لا بد أن يظهر ذلك . قال ﷺ : « كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء » (أقول) خلق الله تعالى العرش والماء أول ما خلق ، ثم خلق جميع ما أراد أن يوجد في قوة من قوى العرش يشبه الخيال من قوانا ، وهو المعبر عنه بالذكر على ما بينه الامام الغزالي - ولا تظن ذلك مخالفاً للسنّة - فانه لم يصح عند أهل المعرفة بالحديث من بيان صورة القلم واللوح على ما يلهج (٢) به العامة شيء يعتد به ، والذي يروونه هو من الاسرائيليات وليس من الاحاديث المحمدية ، وذهب المتأخرين من أهل الحديث إلى مثله نوع من التعمق (٣) وليس للمتقدمين في ذلك كلام . وبالجملّة فتحققت هنالك صورة هذه السلسلة بتمامها وعبر عنه بالكتابة أخذاً من إطلاق الكتابة في السياسة المدنية على التعيين والايجاب ، ومنه قوله تعالى : (كتب عليكم الصيام) وقوله تعالى : (كتب عليكم إذا حضر) الآية ، وقوله ﷺ : « إن الله كتب على عبده حظه من الزنا » الحديث ، وقول الصحابي : كتبت في غزوة كذا ولم يكن هناك ديوان (٤) كما ذكره كعب بن مالك ، ونظير ذلك في أشعار العرب كثير جداً ، وذكر خمسين ألف سنة - يحتمل أن يكون تعييناً ويحتمل أن يكون بياناً لطول المدة . قوله ﷺ : « إن الله خلق آدم - خمسين ألف سنة - يحتمل أن يكون تعييناً ويحتمل أن يكون أياً للبشر . التف في وجوده حقائق بنيه ثم مسح ظهره يمينه ، الحديث (٥) (أقول) لما خلق الله آدم ليكون أباً للبشر . التف في وجوده حقائق بنيه فأعطاه الله تعالى وقتاً من أوقاته ، علم ما تضمنه وجوده بحسب القصد الالهي ، فأراه إياهم رأى عين بصورة مثالية ، ومثل سعادتهم وشقاوتهم بالنور والظلمة ، ومثل ما جبلهم عليه من استعداد التكليف بالسؤال والجواب والالتزام على أنفسهم ، فهم يؤاخذون بأصل استعدادهم ، وتنسب المؤاخذه إلى شبحه في الظاهر *

قوله ﷺ : « إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه » الحديث (٦) (أقول) هذا الانتقال تدريجي غير دفعي ، وكل حد يبين السابق واللاحق ، ويسمى ما لم يتغير من صورة الدم تغيراً فاحشاً - نطفة - وما فيه انجساد ضعيف - علقه - وما فيه انجساد أشد من ذلك - مضغة - وإن كان فيه عظم رخو ، وكما أن النواة إذا أُلقيت في الأرض في وقت معلوم وأحاط بها تدبير معلوم علم المطلع على خاصية نوع النخل وخاصية تلك الأرض وذلك الماء وذلك الوقت أنه يحسن نباتها ويتحقق من شأنه على بعض الأمر ، فكذلك يحلّي الله على بعض الملائكة حال المولود بحسب الجيلة التي جبل عليها ، قوله صلى الله عليه وسلم : « ما منكم من أحد إلا وقد كتب له مقعده من النار ومقعده من الجنة » (أقول) كل صنف من أصناف النفس له كمال ونقصان ، عذاب وثواب ، ويحتمل أن يكون المعنى إمام الجنة وإمام النار ، وقوله تعالى : (وإذا أخذ ربك من بنى آدم) الآية ، لا يخالف حديث « ثم مسح

(١) أي ينقطع اه (٢) أي يلفظ اه (٣) أي التكلف اه (٤) أي دفتر اه

(٥) تمامه فاستخرج منه ذرية فقال : خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال : هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون ، الحديث اه

(٦) تمامه « أربعين يوماً ثم يكون علقه مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله إليه ملكاً بأربع كلمات يكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أم سعيد ، ثم ينفخ فيه الروح » الحديث فقوله : يجمع ، أي ما يخلق منه أحد لم يقر ويحرز في بطنها

ظهره يمينه واستخرج منه ذريته» لأن آدم أخذت عنه ذريته ومن ذريته ذريتهم إلى يوم القيامة على الترتيب الذي يوجدون عليه ، فذكر في القرآن بعض القصة وبين الحديث تمتها ، قوله تعالى : (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى) أي من كان متصفا بهذه الصفات في علمنا وقدرنا (فسيصره) لتلك الأعمال في الخارج ، وبهذا التوجيه ينطبق عليه الحديث . قوله تعالى : (ونفس وما سواها فألهمها فجورها ونقواها) •

(أقول) المراد بالالهام هنا خلق صورة الفجور في النفس كما سبق في حديث ابن مسعود ، فالالهام في الأصل خلق الصورة العلية التي يصير بها عالما ، ثم نقل إلى صورة إجمالية هي مبدأ آثار ، وإن لم يصر بها عالما تجوزاً ، والله أعلم •

(من أبواب الاعتصام بالكتاب والسنة)

قد حذرنا النبي صلى الله عليه وسلم مداخل التحريف بأقسامها وغلظ النهي عنها وأخذ اليهود من أمته فيها ، فمن أعظم أسباب التهاون ترك الأخذ بالسنة ، وفيه قوله ﷺ : « ما من نبي بعثه الله في أمته قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنة (١) ويفتدون بأمره ثم أنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون ، فمن جاهدكم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدكم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدكم بقلبه فهو مؤمن ، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل ، (٢) وقوله صلى الله عليه وسلم : « لا ألفين (٣) أحدم متكثرا على أريكته يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول : لا أدري ما وجدناه في كتاب الله اتبعناه ، ورغب في الأخذ بالسنة جداً لأسباب عند اختلاف الناس ، وفي التشدد (٤) قوله صلى الله عليه وسلم : « لا تشددوا على أنفسكم فيشدد الله عليكم » ورده على عبدالله بن عمرو والرهط الذين تقالوا بعبادة النبي ﷺ وأرادوا شاق الطاعات . وفي التعمق قوله ﷺ : « ما بال أقوام يشذهون عن الشيء أصنعه فوالله إني لأعيبهم بالله وأشدهم خشية له » وقوله ﷺ : « ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل » وقوله ﷺ : « أتم أعلم بأمور دنياكم » وفي الخلط قوله صلى الله عليه وسلم لمن أراد (٥) الخوض في علم اليهود : « أمتو كون أتم كما تهوكت اليهود والنصارى ؟ لقد جئتكم بها بضاعة حسنة ولو كان موسى حيا لما وسعه إلا اتباعي » ، وجعله صلى الله عليه وسلم (٦) من أبغض الناس من هو مبتغى في الإسلام سنة الجاهلية ، وفي الاستحسان قوله صلى الله عليه وسلم : « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » وحارب الملائكة له صلى الله عليه وسلم مثل رجل (٧) بنى داراً وجعل فيها مادية وبعث داعياً (٨) أقول هذا إشارة إلى تكليف الناس به وجعله

(١) أي يهديه وسيرته اه وقوله : « تخلف » أي تخلف ، وقوله : « خلوف » يضم الخاء جمع خلف يسكون اللام وهو العقب السوء ، ويقال للصالح خلف بفتح اللام هو جمعه أخلاف اه (٢) أي لانه استحل محارم الله اه (٣) أي لا أجدن ، وقوله : « أريكته » أي سريره المزين بالحلل والاثواب ، والمعنى لا ينبغي لأحد أن يقول لا أعلم غير القرآن ولا يجوز لأحد أن يعرض عن السنة لأن المعرض عنها معرض عن القرآن اه (٤) أي الذي من أسباب التهاون ، وقوله : « لا تشددوا على أنفسكم » أي بالأعمال الشاقة ، وقوله : « فيشدد الله عليكم » أي يفرض المشاق عليكم اه (٥) كان هو عمر الفاروق رضي الله عنه وقال لبي ﷺ : « إنا نسمع أحاديث من يهود تعجبا فترى أن نكتب بعضها فقال : أمتو كون أتم » الخ ، وقوله : « متولون » أي متحيزون اه (٦) أي في حديث ابن عباس ، وقوله : « مبتغى » أي طالب ، سنة الجاهلية طريقتهم اه (٧) أي كريم ، والمادية بضم الميم طماع عام يمدح الناس اليه كالوليمة اه (٨) تمامه « فمن أجاب الداعي دخل الدار وأهل من المادية ومن لم يجب

كلاماً من المحسوس إكالا للتعليم، قوله ﷺ: «مثل مثل رجل استوقد ناراً، الحديث (١) وقوله ﷺ: «إنما مثلي ومثل مابعثني الله به مثل رجل أتى قوماً فقال يا قوم إني رأيت الجيش بعيني» الحديث (٢) دليل ظاهر على أن هنالك أعمالاً تستوجب في أنفسها عذاباً قبل البعثة، وقوله صلى الله عليه وسلم: «مثل مابعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً» الحديث (٣) فيه بيان قبول أهل العلم هدايته صلى الله عليه وسلم بأحد وجهين، الرواية صريحة، والرواية دلالة بأن استنبطوا وأخبروا بالمستنبطات أو عملوا بالشرع فاهتدى الناس بهديهم، وعدم قبول أهل الجهل رأساً قوله صلى الله عليه وسلم في الموعدة البليغة: «فعليناكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين» ﷺ أقول: انتظام الدين يتوقف على اتباع سنن النبي، وانتظام السياسة الكبرى يتوقف على الانقياد للخلفاء فيما يأمرونهم بالاجتهاد في باب الارتفاقات وإقامة الجهاد وأمثال ذلك مالم يكن إبداعاً لشيعة أو مخالفاً لنص «خط رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم خطأ ثم قال: هذا سبيل الله ثم خط خطوطاً عن يمينه وعن شماله وقال: هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه وقرأ (إن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله)» ﷺ أقول: الفرقة الناجية هم الآخذون في العقيدة والعمل جميعاً بما ظهر من الكتاب والسنة وجرى عليه جمهور الصحابة والتابعين وإن اختلفوا فيما بينهم فيما لم يشتهر فيه نص ولا ظهر من الصحابة اتفاق عليه استدلالاً منهم ببعض ما هنالك أو تفسيراً لمجمله، وغير الناجية كل فرقة انتحلت عقيدة خلاف عقيدة السلف أو عملاً دون أعمالهم، قوله صلى الله عليه وسلم: «لا تجتمع هذه الأمة على الضلالة» وقوله صلى الله عليه وسلم: «يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها» وتفسيره في حديث آخر «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين» ﷺ أعلم أن الناس لما اختلفوا في الدين وأفسدوا في الأرض قرع ذلك باب جود الحق فبعث محمداً صلى الله عليه وسلم وأراد بذلك إقامة الملة العوجاء ثم لما توفي النبي صلى الله عليه وسلم صارت تلك العناية بعينها متوجهة إلى حفظ علمه ورشده فيما بينهم فأورثت فيهم إلهامات وتقريبات ففي حظيرة القدس داعية لإقامة الهداية فيهم مالم تقم الساعة فوجب لذلك أن يكون فيهم لائحة أمة قائمة بأمر الله وأن لا يجتمعوا على الضلالة بأسرهم وأن يحفظ القرآن فيهم، وأوجب اختلاف استعدادهم أن يلحق بما عندهم مع ذلك شيء من التغير فانتظرت العناية لناس مستعدين قضى لهم بالتنويه فأورثت في قلوبهم الرغبة في العلم ونفي تحريف الغالين وهو إشارة إلى التشدد والتعمق، وانتحال المبطلين وهو إشارة إلى الاستحسان وخطأ ملة بملة، وتأويل الجاهلين وهو إشارة إلى التهاون، وترك المأمور به بتأويل ضعيف قوله صلى الله عليه وسلم:

لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة وفي آخره الدار الجنة والداعي محمد فمن أطاع محمداً فقد أطاع الله ومن عصى محمداً فقد عصى الله اه (١) تمامه «فلما أضأت ما حولها جعل الفراش وهذه الدواب التي تقع في النار يقعن فيها وجعل يحجزهن ويغلبهن فيتنقطن فيهما فأنا أخذ يحجزكم عن النار وأنتم تنقطنون فيها» اه (٢) تمامه «وإني أنا النذير العريان فالنجاء النجاء فأطاعه طائفة من قومه فأدجلوا فأنطلقوا على مهلمهم فنجوا وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبحهم الجيش فأعلمهم واجتاحهم، الخ اه (٣) تمامه «فكانت منها طائفة طيبة قيات الماء فأنبتت الكلا والعشب الكثير وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأ» الخ اه

«من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين» وقوله صلى الله عليه وسلم: «إن العلماء ورثة الأنبياء» وقوله صلى الله عليه وسلم: «فضل العالم على العابد كفضل علي أدناكم» وأمثال ذلك **﴿إعلم﴾** أن العناية الإلهية إذا حلت بشخص وصيره الله مظنة لتدبير إلهي لا بد أن يصير مرحوماً وأن تؤمر الملائكة بمحبته وتعظيمه لحديث حبة جبرائيل ووضع القبول في الأرض، ولما انتقل النبي صلى الله عليه وسلم نزلت العناية الخاصة به بحسب حفظ ملته إلى حملة العلم ورواته ومشيعيه فأنتج فيهم فوائد لا تحصى، وقوله صلى الله عليه وسلم: «نضر الله عبداً سمع مقالتي فحفظها ووعاها وأداها كما سمعها» **﴿أقول﴾** سبب هذا الفضل أنه مظنة لحمل الهداية النبوية إلى الخلق قوله صلى الله عليه وسلم: «من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» وقوله **﴿عليه السلام﴾**: «يكون في آخر الزمان دجالون كذابون» **﴿أقول﴾** لما كان طريق بلوغ الدين إلى الأعصار المتأخرة إنما هي الرواية وإذا دخل الفساد من جهة الرواية لم يكن له علاج البتة كان الكذب على النبي صلى الله عليه وسلم كبيرة ووجب الاحتياط في الرواية لئلا يروى كذباً.

قوله صلى الله عليه وسلم: «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج» وقوله صلى الله عليه وسلم: «لا تصدقوهم ولا تكذبوهم» **﴿أقول﴾** الرواية عن أهل الكتاب تجوز فيما سبيله سبيل الاعتبار، وحيث يكون الأمن عن الاختلاط في شرائع الدين ولا تجوز فيما سوى ذلك، ومما ينبغي أن يعلم أن غالب الأسرائيليات المدسوسة في كتب التفسير، والأخبار منقولة عن أخبار أهل الكتاب لا ينبغي أن يبنى عليها حكم واعتقاد فتدبر: قوله صلى الله عليه وسلم: «من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة» يعني ربحها **﴿أقول﴾** يحرم طلب العلم الديني لأجل الدنيا ويحرم تعليم من يرى فيه الغرض الفاسد لوجوه **﴿منها﴾** أن مثله لا يخلو غالباً من تحريف الدين لأغراض الدنيا بتأويل ضعيف فوجب سد الذريعة **﴿ومنها﴾** ترك حرمة القرآن والسنن وعدم الاكتراث بها. قوله صلى الله عليه وسلم: «من سئل عن علم عليه ثم كتمه، ألجم يوم القيامة بلجام من نار» **﴿أقول﴾** يحرم كتم العلم عند الحاجة إليه لأنه أصل التهاون وسبب نسيان الشرائع وأجزية المعاد تبني على المناسبات فلما كان الأثم كف لسانه عن النطق جوزى بشبح الكف وهو اللجام من نار.

قوله صلى الله عليه وسلم: «العلم ثلاثة (١) آية محكمة، أو سنة قائمة، أو فريضة عادلة، وما كان سوى ذلك فهو فضل» **﴿أقول﴾** هذا ضبط وتحديد لما يجب عليهم بالكفاية، فيجب معرفة القرآن لفظاً ومعرفة محكمه بالبحث عن شرح غريبه وأسباب نزوله وتوجيه معضله وناسخه ومنسوخه، أما المتشابه في حكمه التوقف أو الإرجاع إلى المحكم والسنة القائمة ما ثبت في العبادات والارتفاقات من الشرائع والسنن مما يشتمل عليه علم الفقه، والقائمة ما لم ينسخ ولم يهجر ولم يشذ راويه، وجرى عليه جمهور الصحابة والتابعين أعلاها ما اتفق فقهاء المدينة والكوفة عليه، وآيته أن يتفق على ذلك المذاهب الأربعة، ثم ما كان فيه قولان لجمهور الصحابة أو ثلاثة، ذلك كل قد عمل به طائفة من أهل العلم، وآية ذلك أن تظهر في مثل الموطأ وجامع عبد الرزاق رواياتهم وما سوى ذلك فانما هو استنباط بعض الفقهاء دون بعض تفسيراً وتخريجاً واستدلالاً واستنباطاً، وليس

(١) أي علم الشريعة منحصر فيها. وقوله: محكمة أي غير منسوخة، وسنة قائمة أي نافعة تتوجه إليها الرغبات ثابتة صحيحة، وفريضة عادلة أي أحكام مستنبطة من الكتاب والسنة، فالعادلة بمعنى المساوية لما ثبت بالكتاب والسنة، وقوله: «فضل، أي لاخير فيه من قبيل» أعوذ بالله من علم لا ينفع»

من القائمة والفريضة العادلة الأنصاء للورثة، ويلحق به أبواب القضاء مما سبيله قطع المنازعة بين المسلمين بالعدل، فهذه الثلاثة يحرم خلوه البلد عن غالبها لتوقف الدين عليه، وما سوى ذلك من باب الفضل والزيادة، ونهى صلى الله عليه وسلم عن الأغلوطات، وهى المسائل التى يقع المسئول عنها فى الغلط ويمتنح بها أذهان الناس، وإنما نهى عنها لوجوه **(منها)** أن فيها إيذاء وإذلالاً للمسئول عنه وعجبا وبطراً لنفسه **(ومنها)** أنها تفتح باب التعمق، وإنما الصواب ما كان عند الصحابة والتابعين أن يوقف على ظاهر السنة، وما هو بمنزلة الظاهر من الإيحاء والاقتضاء والفحوى، ولا يمعن جداً وأن لا يقتحم فى الاجتهاد حتى يضطر إليه وتقع الحادثة فإن الله يفتح عند ذلك (١) العلم عناية منه بالناس، وأما تهينته من قبل فمظنة الغلط *

قوله صلى الله عليه وسلم: «من قال فى القرآن برأيه فليتبوأ مقعده فى النار» **(أقول)** يحرم الخوض فى التفسير لمن لا يعرف اللسان الذى نزل القرآن به والمأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه والتابعين من شرح غريب وسبب نزول وناسخ ومنسوخ. قوله **ﷺ**: «المراء فى القرآن كفر» **(أقول)** يحرم الجدل فى القرآن وهو أن يرد الحكم المنصوص بشبهة يجدها فى نفسه. قوله **ﷺ**: «إنما هلك من كان قبلكم بهذا ضربوا كتاب الله بعضه ببعض» **(أقول)** يحرم التدارؤ (٢) بالقرآن، وهو أن يستدل واحد بآية فيرده آخر بآية أخرى طلباً لإثبات مذهب نفسه وهدم وضع صاحبه أو ذهاباً إلى نصرته مذهب بعض الأئمة على مذهب بعض، ولا يكون جامع المهمة على ظهور الصواب والتدارؤ بالسنة، مثل ذلك قوله **ﷺ**: «لكل آية منها ظهر وبطن ولكل حد مطلع» **(أقول)** أكثر ما فى القرآن بيان صفات الله تعالى وآياته، والأحكام والقصص والاحتجاج على الكفار والموعظة بالجنة والنار - فالظهر - الاحاطة بنفس ماسيق الكلام له - والبطن - فى آيات الصفات التفكير فى آلاء الله والمراقبة، وفى آيات الأحكام الاستنباط بالإيحاء والاشارة والفحوى والاقتضاء كاستنباط على رضى الله عنه من قوله تعالى: (وحمله وفصاله ثلاثون شهراً) أن مدة الحمل قد تكون ستة أشهر لقوله: (حولين كاملين) وفى القصص معرفة منافع الثواب والمدح أو العذاب والذم، وفى العظة رقة القلب وظهور الخوف والرجاء وأمثال ذلك - ومطامع كل حد - الاستعداد الذى به يحصل كعرفة اللسان والآثار وكلف الذهن واستقامة الفهم. قوله تعالى: (منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات) *

(أقول) الظاهر أن المحكم مالم يحتمل إلا وجهاً واحداً مثل (حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم) والمتشابه ما احتمل وجوهاً، إنما المراد بعضها كقوله تعالى: (ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا) حملها الزائغون على إباحة الخمر مالم يكن بغى أو إفساد فى الأرض، والصحيح حملها على شاربها قبل التحريم. قوله **ﷺ**: «إنما الأعمال بالنيات» **(أقول)** النية القصد والعزيمة، والمراد ههنا العلة الغائية التى يتصورها الإنسان، فيبعثه على العمل مثل طلب ثواب من الله أو طلب رضا الله، والمعنى ليس للأعمال أثر فى تهذيب النفس وإصلاح عوجها إلا إذا كانت صادرة من تصور مقصد مما يرجع إلى التهذيب دون العادة وموافقة الناس أو الرياء والسمعة أو قضاء جملة كالقتال من الشجاع الذى لا يستطيع الصبر عن القتال، فلولاً مجاهدة الكفار لصرف هذا الخلق فى قتال المسلمين، وهو ما سئل النبي **ﷺ** «الرجل يقاتل رياءاً ويقاثل شجاعة

فأيهما في سبيل الله؟ فقال: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله» والفقه في ذلك أن عزيمة القلب روح والأعمال أشباح لها. قوله عليه السلام: «الحلال بين والحرام بين، وبينهما مشتبهاً فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه» (أقول) قد تتعارض الوجوه في المسألة فتكون السنة حينئذ الاستبراء والاحتياط، فمن التعارض أن تختلف الرواية تصريحاً كس الذكر، هل ينقض الوضوء، أثبتته البعض ونفاه الآخرون، ولكل واحد حديث يشهد له، وكانكاح للمحرم سوّغه (١) طائفة ونفاه آخرون، واختلفت الرواية. ومنه أن يكون اللفظ المستعمل في ذلك الباب غير منضبط المعنى يكون معلوماً بالقسمة والمثال ولا يكون معلوماً بالحد الجامع المانع فيخرج ثلاث مواد، مادة يطلق عليه اللفظ يقينا، ومادة لا يطلق عليها يقينا، ومادة لا يدري هل يصح الإطلاق عليها أم لا، ومنه أن يكون الحكم منوطاً يقينا بعلة هي مظنة لمقصد يقينا، ويكون نوع لا يوجد فيه المقصد ويوجد فيه العلة كالأمة المشتركة ممن لا يجمع مثله، هل يجب استبرأؤها؟ فهذه وأمثالها يتأكد الاحتياط فيها. قوله صلى الله عليه وسلم: «نزل القرآن على خمسة وجوه، حلال، وحرام، ومحكم، ومتشابه، وأمثال» (أقول) هذه الوجوه أقسام للكتاب ولو بتقسيمات شتى، فلا جرم ليس فيها تمنع حقيقي، فالحكم يكون تارة حلالاً وأخرى حراماً، ومن أصول الدين ترك الخوض بالعقل في المتشابهات من الآيات والأحاديث، ومن ذلك أمور كثيرة لا يدري أريد حقيقة الكلام أم أقرب مجاز إليها؟ وذلك فيما لم يجمع عليه الأمة ولم ترتفع فيه الشبهة والله أعلم.

(من أبواب الطهارة)

إعلم أن الطهارة على ثلاثة أقسام، طهارة من الحدث، وطهارة من النجاسة المتعلقة بالبدن أو الثوب أو المكان، وطهارة من الأوساخ النابتة من البدن كشعر العانة والأظفار والذرن، أما الطهارة من الأحداث فماخوذة من أصول البر والعمدة في معرفة الحدث، وروح الطهارة وجدان أصحاب النفوس التي ظهرت فيها أنوار ملكية فأحست بمنافرتها للحالة التي تسمى حدثاً وسرورها وانشراحها في الحالة التي تسمى طهارة، وفي تعيين هيئات الطهارة وموجباتها ما اشتهر في المال السابقة من اليهود والنصارى والمجوس وبقايا الملة الاسماعيلية، فكانوا يجعلون الحدث على قسمين، والطهارة على ضربين. كما ذكرنا من قبل. وكان الغسل من الجنابة سنة سائرة في العرب فوزع النبي صلى الله عليه وسلم قسمي الطهارة على نوعي الحدث، فجعل الطهارة الكبرى بازاء الحدث الاكبر لانه أقل وقوعاً وأكثر لوثاً وأحوج إلى تنبيه النفس بعمل شاق قلما يفعل مثله، والطهارة الصغرى بازاء الحدث الاصغر لانه أكثر وقوعاً وأقل لوثاً ويكفيه التنبيه في الجملة، والامور التي فيها معنى الحدث كثيرة جداً يعرفها أهل الاذواق السليمة لكن الذي يصلح أن يخاطب به الناس كافة ما هو منضبط بأمر محسوسة ظاهرة الاثر في النفس لتمكن المؤاخذه به جهره فلذلك تعين أن لا يدار الحكم على اشتغال النفس بما يختلج في المعدة ولكن يدار على خروج شيء من السبيلين فان الاول غير مضبوط المقدار وإذا تمكن لا يرفعه الوضوء من خارج، والثاني معلوم بالحس، وأيضا فلمعنى انقباض النفس فيه شبح محسوس وخليقة ظاهرة وهي التلطيخ بالنجاسة، وأيضا إنما يؤثر الوضوء عند نزول اشتغال النفس وذلك بالخروج، وقد نبه النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: «لا يصل أحدكم وهو يدافع الاخبيين»

أن نفس الاشتغال فيه معنى من معاني الحدث، والامور التي فيها معنى الطهارة كثيرة كالطيب والاذكار المذكورة لهذه الحلة كقوله: «اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين» وقوله: «اللهم نقني من الخطايا كما نقيت الثوب الأبيض من الدنس» والحلول بالمواضع المباركة ونحو ذلك، لكن الذي يصلح أن يخاطب به جماهير الناس ما يكون منضبطاً متيسراً لهم كل حين وكل مكان، والذي يحس أثره بآدى الرأي، والذي جرى عليه طوائف الأمم، وأصل الوضوء غسل الاطراف فضبط (١) الوجه واليدين - إلى المرفقين - لان دون ذلك لا يحس أثره والرجلين - إلى الكعبين - لان دون ذلك ليس بعضو تام وجعل وظيفة الرأس المسح لان غسله نوع من الحرج، وأصل الغسل تعميم البدن بالغسل، وأصل موجب الوضوء الخارج من السيلين وما سوى ذلك محمول عليه، وأصل موجب الغسل الجماع والحيض، وكان هذين الامرين كانا مسلمين في العرب قبل النبي صلى الله عليه وسلم، وأما القسمان الآخران من الطهارة فمأخوذان من الارتفاقات فانهما من مقتضى أصل طبيعة الانسان لا ينفك عنهما قوم ولا ملة، والشارع اعتمد في ذلك على ما عند العرب القح (٢) من الرفاهية المتوسطة كما اعتمد عليه في سائر ما ضبط من الارتفاقات، فلم يزد النبي ﷺ على تعيين الآداب وتمييز المشكل وتقدير المهم.

﴿فصل في الوضوء﴾ قال النبي صلى الله عليه وسلم: «الطهور شطر (٣) الايمان».

﴿أقول﴾ المراد بالايمان ههنا هيئة نفسانية مركبة من نور الطهارة والابخات، والاحسان أوضح منه في هذا المعنى، ولا شك أن الطهور شطره. قوله صلى الله عليه وسلم: «من توضأ فأحسن الوضوء خرجت خطاياها من جسده حتى تخرج من تحت أظفاره» ﴿أقول﴾ النظافة المؤثرة في جذر النفس تقدر النفس وتلحقها بالملائكة، وتنسى كثيراً من الحالات الدنسية (٤) فجعلت خاصيتها خاصة للوضوء الذي هو شبحها ومظنتها وعنوانها. قوله صلى الله عليه وسلم: «إن أمتي يدعون يوم القيامة غراً (٥) محجلين من آثار الوضوء، فمن استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل» وقوله صلى الله عليه وسلم: «تبلغ الحلية (٦) من المؤمن حيث يبلغ الوضوء» ﴿أقول﴾ لما كان شبح الطهارة ما يتعاق بالاعضاء الخمسة تمثل تنعم النفس بها حلية لتلك الاعضاء وغرة وتحجيلاً كما يتمثل الجبن وبراً (٧) والشجاعة أسداً. قوله ﷺ: «لا يحافظ (٨) على الوضوء إلا مؤمن (٩)» ﴿أقول﴾ لما كانت المحافظة عليه شاقة لا تأتي إلا بمن كان على بصيرة من أمر الطهارة موقناً بنفعها للجسم جعلت علامة الايمان.

﴿صفة الوضوء﴾

صفة الوضوء على ما ذكره عثمان وعلي وعبد الله بن زيد وغيرهم رضى الله عنهم عن النبي صلى الله عليه وسلم بل تواتر عنه ﷺ وتطابق عليه الأمة أن يغسل يديه قبل إدخالها الاناء ويتمضمض ويستنثر (١٠) ويستشق

(١) أى الشارع اهـ (٢) أى الخالص اهـ (٣) أى نصف اهـ (٤) أى الوسخية اهـ (٥) الغر جمع الاغرة، وهو الابيض الوجه، والمحجل من التحجيل التى قوائمها بيض، والمؤمنى أنهم إذا دعوا على رؤوس الاشهاد أو إلى الجنة كانوا على هذه الصفة، والمراد باطالة الغرة إبطال الماء أكثر من محل الفرض اهـ (٦) أى الرياض، وقبل: زينة الجنة اهـ (٧) أى نام جانورى اهـ (٨) أى يداوم اهـ (٩) أى كامل الايمان اهـ (١٠) الاستنثار إخراج ماء الاقب والاستنشاق جذب الماء بالنفس إلى الاقصي اهـ

فيغسل وجهه فذراعيه إلى المرفقين ، فيمسح برأسه فيغسل رجليه إلى الكعبين ، ولا عبرة بقوم تجارت بهم
 الأهواء فأنكروا غسل الرجاين متمسكين بظاهر الآية ، فانه لا فرق عندى بين من قال بهذا القول وبين من أنكر
 غزوة بدر أو أحد مما هو كالشمس في رابعة النهار ، نعم من قال بأن الاحتياط الجمع بين الغسل والمسح أو أن
 أدنى الفرض المسح ، وإن كان الغسل مما يلام أشد الملامة على تركه فذلك أمر يمكن أن يتوقف فيه العلماء حتى
 تنكشف فيه جلية الحال ، ولم أجد في رواية صحيحة تصريحاً بأن النبي صلى الله عليه وسلم توضأ بغير مضمضة
 واستنشاق وترتيب ، فهي متأكدة في الوضوء غاية الوكادة ، وهما طهارتان مستقلتان من خصال الفطرة ضمتا
 مع الوضوء ليكون ذلك توقيتاً لهما ، ولأنهما من باب تعهد المغابن (١) والوصل بينهما أصبح من الفصل ،
 وآداب الوضوء ترجع إلى معانٍ (منها) : تعهد المغابن التي لا يصل إليها الماء إلا بعناية (٢) كالمضمضة والاستنشاق
 وتخليل أصابع اليدين والرجلين واللاحية وتحريك الخاتم (ومنها) : إكمال التنظيف كثلث الغسل وكالاسباغ
 - وهو إطالة الغرة - والتحجيل والانقاء - وهو الدلك - ومسح الأذنين مع الرأس والوضوء على الوضوء *
 * (ومنها) : موافقة عاداتهم في الأمور المهمة كالبدء بالآيمان - فإن اليمين أقوى وأولى - فكان أحق بالبدء
 فيما كان بهما واختصاصه بالطيبات والمحاسن دون أضدادها فيما كان بأحدهما * (ومنها) : ضبط فعل القلب
 بالفاظ صريحة في المراد وضم الذكر اللسان مع القلب . قوله صلى الله عليه وسلم : « لا وضوء لمن لم يذكر الله »
 * (أقول) : هذا الحديث لم يجمع أهل المعرفة بالحديث على تصحيحه وعلى تقدير صحته ، فهو من المواضع التي
 اختلف فيها طريق التلقى من النبي صلى الله عليه وسلم فقد استمر المسلمون يحكون وضوء النبي ﷺ ويعلمون
 الناس ، ولا يذكرون التسمية حتى ظهر زمان أهل الحديث ، وهو نص على أن التسمية ركن أو شرط ، ويمكن
 أن يجمع بين الوجهين بأن المراد هو التذكر بالقلب ، فإن العبادات لا تقبل إلا بالنية ، وحيث أن يكون صبغة
 لا وضوءاً على ظاهرها ، نعم التسمية أدب كسائر الآداب لقوله ﷺ : « كل أمر ذي بال لم يبدأ باسم الله فهو
 أبتر » وقياساً على مواضع كثيرة ، ويحتمل أن يكون المعنى لا يكمل الوضوء لكن لا يرتضى مثل هذا التأويل ،
 فانه من التأويل البعيد الذي يعود بالمخالفة على اللفظ * قوله ﷺ : « فانه لا يدرى أين بات يده »
 * (أقول) : معناه أن بعد العهد بالتطهر والغفلة عنهما ملياً (٣) مظنة لوصول النجاسة والأوساخ إليهما ،
 مما يكون إدخال الماء معه تنجيساً له أو تكديراً وشناعة ، وهو علة النهي عن النفخ في الشراب .
 قوله صلى الله عليه وسلم : « فان الشيطان يبدي على خيشومه » * (أقول) : معناه أن اجتماع المخاط والمواد الغليظة
 في الخيشوم سبب لتبدل الذهن وفساد الفكر ، فيكون أمكن لتأثير الشيطان بالوسوسة وصدده عن تدبر الأذكار *
 قوله صلى الله عليه وسلم : « ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ الوضوء ثم يقول : أشهد (٤) الخ - وفي رواية -
 اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء »
 * (أقول) : روح الطهارة لا يتم إلا بتوجه النفس إلى عالم الغيب واستفراغ الجهد في طلبها ، فضبط لذلك ذكراً
 ورتب عليه ما هو فائدة الطهارة الداخلة في جذر النفس * قوله صلى الله عليه وسلم لمن لم يستوعب :

(١) المغابن مكاسر الجلد وأما كن يتجمع فيها الوسخ اه (٢) أى بمسقة اه (٣) أى زماناً طويلاً اه

(٤) أى أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله اه

«ويل للأعقاب من النار» (أقول) السر فيه أن الله تعالى لما أوجب غسل هذه الأجزاء، اقتضى ذلك (١) أن يحقق معناه : فإذا غسل بعض العضو ولم يستوعب كله لا يصح أن يقال : غسل العضو ، وأيضاً فيه سد باب التهاون وإنما تحملت النار في الأعقاب لأن تراكم الحدث والاصرار على عدم إزالته خصلة موجبة للنار ، والطهارة موجبة للنجاة منها وتكفير الخطايا ، فإذا لم يحقق معنى الطهارة في عضو وخالف حكم الله فيه كان ذلك سبب أن يظهر تألم النفس بالخصلة الموجبة لفساد النفس من قبل هذا العضو والله أعلم •

(موجبات الوضوء)

قوله ﷺ : «لا تقبل صلاة من أحدث حتى يتوضأ» وقوله ﷺ : «لا تقبل صلاة بغير طهور» وقوله ﷺ : «مفتاح الصلاة الطهور» (أقول) كل ذلك تصريح باشتراط الطهارة ، والطهارة طاعة مستقلة وقت بالصلاة لتوقف فائدة كل واحدة منهما على الأخرى ، وفيه تعظيم أمر الصلاة التي هي من شعائر الله ، وموجبات الوضوء في شريعتنا على ثلاث درجات (إحداها) ما اجتمع عليه جمهور الصحابة وتطابق فيه الرواية ، والعمل الشائع وهو البول والغائط والريح والمذي والنوم الثقيل وما في معناها • قوله ﷺ : «وكأنه (٢) العيان» وقوله ﷺ : «فانه إذا اضطجع استرخت مفاصله» (أقول) معناه أن النوم الثقيل مظنة لاسترخاء الأعضاء وخروج الحدث ، وأرى أن مع ذلك له سبب آخر ، هو أن النوم يولد النفس ويفعل فعل الأحداث • قوله ﷺ في المذي : «يغسل ذكره ويتوضأ» (أقول) لاشك أن المذي الحاصل من الملاعبة قضاء شهوة دون شهوة الجماع ، فكان من حقه أن يستوجب طهارة دون الطهارة الكبرى • قوله صلى الله عليه وسلم في الشاك : «لا يخرج من المسجد حتى يسمع صوتاً أو يجد ريحاً» (أقول) معناه حتى يستيقن لما أدير الحكم على الخارج من السيلين كان ذلك مقتضياً أن يميز بين ما هو في الحقيقة وبين ما هو مشتبه به وليس هو ، والمقصود نفي التعمق (٣) والثابت ما اختلف فيه السلف من فقهاء الصحابة والتابعين وتعارض فيه الرواية عن النبي صلى الله عليه وسلم كس الذكر لقوله صلى الله عليه وسلم «من مس ذكره فليتوضأ» قال به ابن عمر وسالم وعروة وغيرهم ، ورد على ابن مسعود وفقهاء الكوفة ولهم قوله صلى الله عليه وسلم (٤) : «هل هو إلا بضعة (٥) منه» ولم يجيء الثلج (٦) بكون أحدهما منسوخاً ، ولمس المرأة قال به عمر وابن عمر وابن مسعود وإبراهيم لقوله تعالى : (أو لامستم النساء) ولا يشهد له حديث بل يشهد حديث عائشة (٧) بخلافه لكن فيه نظر لأن في إسناده انقطاعاً ، وعندى أن مثل هذه العلة (٨) إنما تعتبر في مثل ترجيح أحد الحديثين على الآخر ولا تعتبر في ترك حديث من غير تعارض والله أعلم •

وكان عمر وابن مسعود لا يريان التيمم عن الجنابة فتعين حمل الآية عندهما على اللبس لكن صح التيمم عنها عن عمران وعمار وعمر بن العاص وانعقد عليه الاجماع ، وكان ابن عمر يذهب إلى الاحتياط ، وكان إبراهيم يقلد ابن مسعود

(١) أي الإيجاب اه (٢) الوطاء ما يشد به رأس الكيس وغيره ، والله الاست ، وأصله ست تحذف التاء ، والعيان كناية عن اليقظة ، والمعنى أن اليقظة سبب لعدم خروج شيء من الدبر فإذا نام استرخت رموس العظام والعروق فلا يخلو عن خروج شيء عادة اه (٣) أي التشدد اه (٤) لما سئل ﷺ عن مس الرجل ذكره بعد ما توضأ قال : «وهل هو» الخ اه (٥) أي قطعة لحم اه (٦) أي يقين اه (٧) قالت : كان النبي ﷺ يقبل بعض أزواجه ثم يصلي ولا يتوضأ اه (٨) أي الانقطاع اه

حتى وضح على أبي حنيفة حال الدليل الذي تمسك به ابن مسعود فترك قوله مع شدة اتباعه مذهب إبراهيم، وبالجملة فجاء الفقهاء من بعدهم في هذين (١) على ثلاث طبقات. آخذ به على ظاهره، وتارك له رأساً، وفارق بين الشهوة وغيرها، وقال إبراهيم بالوضوء من الدم السائل والقيء الكثير، والحسن بالوضوء من القهقهة في الصلاة ولم يقل بذلك آخرون، وفي كل ذلك حديث لم يجمع أهل المعرفة بالحديث على تصحيحه، والأصح في هذه أن احتياط فقد استبرأ لدينه وعرضه - ومن لا فلا سبيل عليه في صراح الشريعة، ولا شبهة أن لمس المرأة مهيج للشهوة مظنة لقضاء شهوة دون شهوة الجماع وأن مس الذكر فعل شنيع ولذلك جاء النهي عن مس الذكر يمينه في الاستنجاء فإذا كان قبضاً عليه كان من أفعال الشياطين لا محالة، والدم السائل والقيء الكثير ملوثان للبدن مبلدان للنفس، والقهقهة في الصلاة خطيئة تحتاج إلى كفارة فلا عجب أن يأمر الشارع بالوضوء من هذه ولا عجب أن لا يأمر ولا عجب أن يرغب فيه من غير عزيمة، والثالثة (٢) ما وجد فيه شبهة من لفظ الحديث وقد أجمع الفقهاء من الصحابة والتابعين على تركه كالوضوء مما مسته النار فإنه ظهر عمل النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء وابن عباس وأبي طلحة وغيرهم بخلافه وبين جابر أنه منسوخ، وكان السبب في الوضوء منه أنه ارتفاق كامل لا يفعل مثله الملائكة فيكون سبباً لا نقطاع مشابهم، وأضاف أن ما يطبخ بالنار يذكر نار جهنم ولذلك نهى عن السكى إلا ضرورة فلذلك لا ينبغي للإنسان أن يشغل قلبه به (٣) أما لحم الابل - فالأمر فيه أشد - لم يقل به أحد من فقهاء الصحابة والتابعين ولا سبيل إلى الحكم بنسخه فلذلك لم يقل به من يغلب عليه التخريج، وقال به أحمد واسحق، وعندى أنه ينبغي أن يحتاط فيه الإنسان والله أعلم - والسر في إيجاب الوضوء من لحوم الابل على قول من قال به أنها كانت محرمة في التوراة، واتفق جمهور أنبياء بني إسرائيل على تحريمها فلما أباحها الله لنا شرع الوضوء منها المعنيين، أحدهما أن يكون الوضوء شكراً لما أنعم الله علينا من إباحتها بعد تحريمها على من قبلنا، وثانيهما أن يكون الوضوء علاجاً لما عسى أن يختلج في بعض الصدور من إباحتها بعد ما حرّمها الأنبياء من بني إسرائيل فإن النقل من التحريم إلى كونه مباحاً يجب منه الوضوء أقرب لأطمئنان نفوسهم، وعندى أنه كان في أول الإسلام ثم نسخ *

﴿ المسح على الخفين ﴾

لما كان مبنى الوضوء على غسل الاعضاء الظاهرة التي تسرع إليها الاوساخ وكانت الرجلان تدخلان عند لبس الخفين في الاعضاء الباطنة وكان لبسهما عادة متعارفة عندهم ولا يخلو الأمر بخلعهما عند كل صلاة من حرج سقط غسلهما عند لبسهما في الجملة، ولما كان من باب التيسير الاحتياط بما لا تسترسل معه النفس بترك المطلوب استعمله الشارع ههنا من رجوع ثلاثة، أحدها التوقيت بيوم وليلة للمقيم، وثلاثة أيام ولياليها للمسافر لأن اليوم بليلة مقدار صالح للتعهد يستعمله الناس في كثير مما يريدون تعهده وكذلك ثلاثة أيام ولياليها فوزع المقداران على المقيم والمسافر لمكانهما من الحرج، والثاني اشتراط أن يكون لبسهما على طهارة ليشتمل بين عيني المكلف أنهما كالباقى على الطهارة قياساً على قلة وصول الاوساخ إلى الاعضاء المستورة، وأمثال هذه القياسات مؤثرة فيما يرجع إلى تنبيه النفس، والثالث أن يمسح على ظاهرهما عوض الغسل إبقاء لمذكرو نموذج، وقال على رضى الله عنه: لو كان الدين بالرأى لكان أسفل الخف أولى بالمسح من أعلاه *

(١) أى المس واللمس اهـ (٢) أى من موجبات الوضوء اهـ (٣) أى القسم الثالث من موجبات الوضوء اهـ

﴿ أقول ﴾ لما كان المسح إبقاء لنموذج الغسل لا يراد منه إلا ذلك و كان الأسفل مظنة لتلويت الحفين عند المشي في الأرض كان المسح على ظاهرهما دون باطنهما معقولا موافقا بالرأي وكان رضى الله عنه من أعلم الناس بعلم معاني الشرائع كما يظهر من كلامه وخطبه لكر أرا دأن يسد مدخل الرأي كثلا يفسد العامة على أنفسهم دينهم»

﴿ صفة الغسل ﴾

على ما روته عائشة وميمونة وتطابق عليه الامة أن يغسل يديه قبل إدخالها الاناء ثم يغسل ما وجد من نجاسة على يديه وفرجه ثم يتوضأ كما يتوضأ للصلاة ويتعهد رأسه بالتخليل ثم يصب الماء على جسده، واختلفوا في حرف واحد يؤخر غسل القدمين أولا، وقبل بالفرق بين ما إذا كان في مستنقع (١) من الأرض وما إذا لم يكن كذلك، أما غسل اليدين فلما مر في الوضوء، وأما غسل الفرج فثلا تتكثر النجاسة بإسالة الماء عليها فيعسر غسلها ويحتاج إلى ماء كثير، وأيضا لا يصفو الغسل لطهارة الحدث، وأما الوضوء فلأن من حق الطهارة الكبرى أن تشتمل على الطهارة الصغرى وزيادة ليتضاعف تنبه النفس لحلة الطهارة، وأيضا فالوضوء في الغسل من باب تعهد المغابن فانه إذا أفاض على رأسه الماء لا يستوعب الأطراف إلا بتعهد واعتناء، وأما تأخير غسل القدمين فثلا يتكرر غسلها بلا فائدة اللهم إلا المحافظة على صورة الوضوء، ثم كمل الغسل بالنسب إلى التثليث والدلك وتعهد المغابن وتأكيده الستر قوله صلى الله عليه وسلم: «إن الله حيي ستر» تفسيره قوله: «يجب الحياء والستر» والستر من أعين الناس واجب وكونه بحيث لو هجم إنسان بالوجه المعتاد لم ير عورته مستحب، قوله صلى الله عليه وسلم: «خذى فرصة (٢) من مسك فتطهرى بها» يعنى تتبعى بها أثر الدم.

﴿ أقول ﴾ إنما أمر الحائض بالفرصة الممسكة لمعان، منها زيادة الطهارة إذ الطيب يفعل فعل الطهارة وإنما لم يسن في سائر الأوقات احترازا عن الحرج، ومنها إزالة الرائحة الكريهة التى لا يخلو عنها الحيض، ومنها أن انقضاء الحيض والشروع في الطهر وقت ابتغاء الولد والطيب يهيج تلك القوة، واختار الصاع إلى خمسة أمداد للغسل، والمد للوضوء لأن ذلك مقدار صالح في الأجسام المتوسطة قال النبي صلى الله عليه وسلم: «تحت كل شعرة جنابة فاغسلوا الشعر وأنقوا البشرة» وقوله صلى الله عليه وسلم: «من ترك موضع شعرة من الجنابة لم يغسلها فعل بها كذا وكذا» ﴿ أقول ﴾ سر ذلك مثل ما ذكرناه في استيعاب الوضوء من أنه تحقيق لمعنى الغسل وأن البقاء على الجنابة والاصرار على ذلك موجبة للنار وأنه يظهر تألم النفس من قبل العضو الذى جاء منه الخلل.

﴿ موجبات الغسل ﴾

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا جلس بين شعبها (٣) الأربع ثم جهدها فقد وجب الغسل وإن لم ينزل» ﴿ أقول ﴾ اختلفت الرواية هل يحمل الا كسال أى الجماع من غير إنزال على الجماع الكامل فى معنى قضاء الشهوة أعنى ما يكون معه الانزال، والذي صح رواية وعليه جمهور الفقهاء هو أن من جهدها فقد وجب عليهما الغسل وإن لم ينزل، واختلفوا في كيفية الجمع بين هذا الحديث وحديث «إنما الماء (٤) من الماء» (٥)

(١) أى مقر الماء اه (٢) فرصة - بكسر القاء - قطعة من صوف أو قطن أو خرقة تسمح بها المرأة من الحيض اه

(٣) أيديها ورجليها، وقوله: «ثم جهدها» أى جاعدها بأن أدخل تمام الحشفة اه (٤) أى الغسل اه (٥) أى الماء اه

فقال ابن عباس: إنما الماء من الماء للاحتلام وفيه ما فيه (١) وقال أبي: إنما كان الماء من الماء رخصة في أول الإسلام، ثم نهى، وقد روى عن عثمان وعلى وطلحة والزبير وأبي بن كعب وأبي أيوب رضي الله عنهم فيمن جامع امرأته ولم يمن قالوا: يتوضأ كما يتوضأ للصلاة ويغسل ذكره، ورفع ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ولا يبعد عندي أن يحمل ذلك على المباشرة الفاحشة فإنه قد يطلق الجماع عليها، وسئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الرجل يجد البلل ولا يذكر الاحتلام قال «يغتسل» وعن الرجل الذي يرى أنه قد احتلم ولا يجد بللاً قال «لا يغسل عليه» *
 ﴿أقول﴾ إنما أدار الحكم على البلل دون الرؤيا لأن الرؤيا تكون تارة حديث نفس ولا تأثير له وتارة تكون قضاء شهوة ولا تكون بغير بلل فلا يصلح لادارة الحكم إلا البلل، وأيضاً فإن البلل شيء ظاهر يصلح للانضباط وأما الرؤيا فإنها كثيراً ما تنسى، ولا شك أن طول مدة الطهر والحيض وقصرها يختلفان باختلاف المزاج والغذاء ونحوهما ولا يكاد أن يضبطان بشيء مطرد فلا جرم أن الأصح هو الرجوع إلى عادتهما فإذا رأى أن حيضه فهو حيض، وإذا رأى أنه استحاضة فهو استحاضة، واختلاف الصحابة والتابعين في ذلك منشؤه الاستقراء والتقريب، واستفتت حمزة (٢) في الاستحاضة فأمرها بالكرسف (٣) والتلجم وخيرها بين أمرين (٤) الخ ﴿أقول﴾ الأصل في ذلك أنه ﷺ لما رأى أن الاستحاضة ليست من الأمور الصحية وترك الصلاة فيها يؤدي إلى إهمالها مدة مديدة أراد أن يحملها على الأمر المعروف عندهم فبدا وجهان *
 ﴿أحدهما﴾ أنها عرق أي داء خفي المأخذ - وليست حيضة بمنزلة الرعاف - فردها إلى ما كان في الصحة من حيضها وطهرها في كل شهر، ولا بد حينئذ من تميز الحيضة عن غيرها، إما باللون فالأقوى كالأسود للحيض أو بأيامها المعروفة عندها ﴿والثاني﴾ أنها حيضة فاسدة، فلوكونها حيضة ينبغي أن تؤمر بالغسل عند كل صلاة وإن تعذر فعند كل صلاتين، ولوكونها فاسدة لم تمنع الصلاة - والحكمة في الكرسف والتلجم - أن يلحق الدم بما استقر في مكانه لا يعدوه وإلا يصيب بدنها وثيابها، وأفقي جمهور الفقهاء بالأول إلا عند تعذره *
 ﴿ما يباح للجنب والمحدث وما لا يباح لهما﴾

لما كان تعظيم شعائر الله واجباً - ومن الشعائر الصلاة والكعبة والقرآن - وكان أعظم التعظيم أن لا يقرب منه الإنسان إلا بطهارة كاملة وتنبيه النفس بفعل مستأنف وجب أن لا يقربها إلا متطهر، ولم يشترط الوضوء لقراءة القرآن لأن التزام الوضوء عند كل قراءة يخل في حفظ القرآن وتلقيه، ولا بد من فتح هذا الباب والترغيب فيه والتخفيف على من أراد حفظه، ووجب أن يؤكد الأمر في الحدث الأكبر فلا يجوز نفس القراءة أيضاً - ولا أن يدخل المسجد جنباً أو حائضاً - لأن المسجد مهياً للصلاة والذكر، وهو من شعائر الإسلام ونموذج الكعبة، ولم تشترط الطهارة في مجالسة النبي ﷺ لأن كل شيء له تعظيم يناسبه وكان بشراً يعرفه من الأحداث والجنابة ما يعرفو البشر، فكان اشتراط الطهارة في ذلك قلباً للوضوء *
 (١) أي بإياه سبب ورود الحديث كما أخرجه مسلم اه (٢) أي بنت جعش (٣) الكرسف القطن، والتلجم شدة الخرق العريضة مثل اللجام أي بائن تحشوها بالقطن وتضعها على الفرج وتشد طرفيها في وسطها اه (٤) الأول أن تحيض ستة أيام أو سبعة أيام من كل شهر وتصل في الأيام الباقية، والثاني أن تؤخر الطهر وتعجل العصر وتغتسل وتجمع بين الصلاتين وهكذا. هذا تغتسل للعشاءين وتغتسل للفجر اه

(١) أي بإياه سبب ورود الحديث كما أخرجه مسلم اه (٢) أي بنت جعش (٣) الكرسف القطن، والتلجم شدة الخرق العريضة مثل اللجام أي بائن تحشوها بالقطن وتضعها على الفرج وتشد طرفيها في وسطها اه (٤) الأول أن تحيض ستة أيام أو سبعة أيام من كل شهر وتصل في الأيام الباقية، والثاني أن تؤخر الطهر وتعجل العصر وتغتسل وتجمع بين الصلاتين وهكذا. هذا تغتسل للعشاءين وتغتسل للفجر اه

قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا تدخل الملائكة بيتاً فيه صورة ولا كلب ولا جنب » .
 (أقول) المراد أن هذه تنفر منها الملائكة وأنها أضداد ما فيه الملائكة من الطهارة والتنفر من عبدة الأصنام . وقال النبي ﷺ فيمن تصيبه الجنابة من الليل : « توضأ واغسل ذكرك ثم نم » .
 (أقول) لما كانت الجنابة منافية لهيئات الملائكة كان المرضى في حق المؤمن أن لا يسترسل في حوائجه من النوم والأكل مع الجنابة ، وإذا تعذرت الطهارة الكبرى لا ينبغي أن يدع الطهارة الصغرى لأن أمرهما واحد غير أن الشارع وزعها على الحديثين *

التييم

لما كان من سنة الله في شرائعه أن يسهل عليهم كل ما لا يستطيعونه ، وكان أحق أنواع التيسير أن يسقط ما فيه حرج إلى بدل لتطمئن نفوسهم ، ولا تختلف الخواطر عليهم باهمال ما التزموه غاية الالتزام مرة واحدة ولا يألفوا ترك الطهارات ، أسقط الوضوء والغسل في المرض والسفر إلى التيمم ، ولما كان ذلك كذلك نزل القضاء في الملا الأعلى باقامة التيمم مقام الوضوء والغسل ، وحصل له وجود تشبيهي أنه طهارة من الطهارات ، وهذا القضاء أحد الأمور العظام التي تميزت بها الملة المصطفوية من سائر الملل ، وهو قوله ﷺ : « جعلت تربتها لنا طهوراً إذا لم نجد الماء » (أقول) إنما خص الأرض لأنها لا تكاد تفقد ، فهي أحق ما يرفع به الحرج ، ولأنها طهور في بعض الأشياء كالخف والسيوف بدلا عن الغسل بالماء ، ولأن فيه تذلا بمنزلة تعفير الوجه في التراب ، وهو يناسب طلب العفو ، وإنما لم يفرق بين بدل الغسل والوضوء - ولم يشرع التمرغ - لأن من حق ما لا يعقل معناه بادية الرأي أن يجعل كالمؤثر بالخاصية دون المقدار ، فانه هو الذي اطمانت نفوسهم به في هذا الباب ، ولأن التمرغ فيه بعض الحرج فلا يصلح رافعا للحرج بالكلية ، وفي معنى المرض البرد الضار - لحديث عمرو بن العاص - والسفر ليس بقيد ، إنما هو صورة لعدم وجدان الماء يتبادر إلى الذهن وإنما لم يؤمر بمسح الرجل بالتراب - لأن الرجل محل الأوساخ - وإنما يؤمر بما ليس حاصلًا ليحصل به التنبيه . أما صفة التيمم فهو أحد ما اختلف فيه طريق التلقي عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فإن أكثر الفقهاء من التابعين وغيرهم قبل أن تمهد طريقة المحدثين على أن التيمم ضربتان ، ضربة للوجه ، وضربة لليدين إلى المرفقين . (وأما الأحاديث) فأصحها حديث عمار « إنما كان يكفيك أن تضرب بيدك الأرض ثم تنفخ فيهما ثم تمسح بهما وجهك وكفيك » وروى من حديث ابن عمر « التيمم ضربتان ، ضربة للوجه وضربة لليدين إلى المرفقين » وقد روى عمل النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة على الوجهين ، ووجه الجمع ظاهر يرشد إليه لفظ « إنما يكفيك » فالأول (١) أدنى التيمم والثاني هو السنة ، وعلى ذلك يمكن أن يحمل اختلافهم في التيمم ، ولا يبعد أن يكون تأويل فعله صلى الله عليه وسلم أنه علم عماراً أن المشروع في التيمم إصصال ما لصق باليدين بسبب الضربة - دون التمرغ - ولم يرد بيان قدر المسح من أعضاء التيمم ولا عدد الضربة ، ولا يبعد أن يكون قوله لعمار أيضاً محمولا على هذا المعنى ، وإنما معناه الحصر بالنسبة إلى التمرغ ، وفي مثل هذه المسألة لا ينبغي أن يأخذ الإنسان إلا بما يخرج به من العهدة يقينا ، وكان عمر . وابن مسعود رضي الله عنهما لا يريان التيمم عن

(١) أي الإقتصار على الضربة الواحدة اه ، والثاني أي الضربتان

الجنابة ، وحمل الآية على اللبس وأنه ينقض الوضوء ، لكن حديث عمران وعمار يشهد بخلاف ذلك ، ولم أجد في حديث صحيح تصريحاً بأنه يجب أن يتيمم لكل فريضة أو لا يجوز التيمم للآبق ونحوه ، وإنما ذلك من التخریجات . قوله صلى الله عليه وسلم في الرجل المشجوج : « إنما كان يكفيه أن يتيمم ويعصب على جرحه خرقه ثم يمسح عليها ويغسل سائر جسده » (أقول) فيه إن التيمم هو البدل عن العضو كتمام البدن لأنه كالشيء المؤثر بالخاصية ، وفيه الأمر بالمسح لما ذكرنا في المسح على الخفين . قوله ﷺ : « إن الصعيد الطيب وضوء المسلم وإن لم يجد الماء عشر سنين » (أقول) المقصود منه سد باب التعمق ، فإن مثله يتعمق فيه المتعمقون ويخالفون حكم الله في الترخيص .

﴿ آداب الحلاء ﴾

هي ترجع إلى معانٍ منها تعظيم القبلة وهو قوله صلى الله عليه وسلم : « إذا أتيتم الغائط فلا تستقبلوا القبلة ولا تستدبروها » وفيه حكمة أخرى ، وهي أنه لما كان توجه القلب إلى تعظيم الله أمراً خفياً لم يكن بدءاً من إقامة مظنة ظاهرة مقامه ، وكان الشرائع المتقدمة تجعل تلك المظنة الحلول بالصوامع المبنية لله تعالى التي صارت من شعائر الله ودينه ، وجعلت شريعتنا المظنة استقبال القبلة والتكبير ، فلما جعل الله تعالى استقبال القبلة قائماً مقام توجه القلب إلى تعظيم الله وجمع الخاطر في ذكر الله وكان سبب إقامته أن هذه الهيئة تذكر الله استنبط النبي صلى الله عليه وسلم من هذا الحكم أنه يجب أن يجعل هيئة الاستقبال مختصة بالتعظيم وذلك بأن لا يستعمل في الهيئة المباينة للصلاة كل المباينة - ورؤى استقباله واستدباره - فجمع بتزليل التحريم على الصحراء والاباحة على البنیان وجمع بحمل النهي على الكراهية وهو الأظهر (ومنها) تحقيق معنى التنظيف ، فورد النهي عن الاستنجاء بأقل من ثلاثة أحجار - أي ثلاث مسحات - لأنها لا تنقى غالباً واستحباب الجمع بين الحجر والماء (ومنها) الاحتراز عما يضر الناس كالنخلى (١) في ظل الناس وطريقهم ومتحدثهم والماء الدائم والاستنجاء بالعظم لأنه طعام الجن ، وكذا سائر ما ينتفع به . وأفهم قوله ﷺ « اتقوا اللاعنين » (٢) أن الحكمة الاحتراز عن لعنهم وتأذيتهم أو ما يضر بنفسه كالبول في الحجر ، فإنه قد يكون مأوى حية أو مثلها فيخرج ويؤذى (ومنها) اختيار محاسن العادات - فلا يتمسح بيمينه ولا يأخذ ذكره بيمينه ولا يستنجي برجميع ويوتر في الاستنجاء (ومنها) رعاية الستر فينبغي أن يبعد لئلا يسمع منه صوت أو يشم منه ريح أو يرى منه عورة ولا يرفع ثوبه حتى يدنو من الأرض ويستتر بمثل حائش (٣) نخل مما يوارى أسافل بدنه فمن لم يجد إلا أن يجمع كتيبا من رمل فليستدبره فإن الشيطان يلعب بمقاعد بني آدم (٤) وذلك لأن الشيطان جبل على أفكار فاسدة وأعمال شنيعة ، ومنها الاحتراز من أن يصيب بدنه أو ثوبه نجاسة وهو قوله ﷺ : « إذا أراد أحدكم أن يبول فليتردد لبوله » (٥) ومنها إزالة الوسواس وهو قوله ﷺ : « فلا يبولن أحدكم في مستحمة فإن عامة الوسواس

(١) أي التغوط (٢) أي النخلى في طريق الناس وفي ظلمهم اهـ (٣) حائش النخل جماعة منها أي الملتف المجتمع ،

وقوله : « فليستدبره » أي يجعله خلفه اهـ (٤) أي يحضر أمكنة الاستنجاء ويرصدها بالاذى والفساد اهـ

(٥) قاله لما أراد أن يبول فأتى أرضاً سهلة في أصل جدار فبال ثم قال : « إذا أراد أحدكم » الخ أي فليطلب لبوله موضعاً

مثل هذا الموضع وهو من الرود بمعنى الطالب ، والمستحمة المغتسل ، وقوله : « لا تبلى قائماً » قاله لعمر اهـ

منه» وقوله صلى الله عليه وسلم: «لا تبلى قائما» (أقول) إنما كره البول قائما لانه يصيبه الرشاش ولانه ينافى الوقار ومحاسن العادات وهو مظنة انكشاف العورة، وقوله صلى الله عليه وسلم: «إن الحشوش (١) محتضرة فاذا أتى أحدكم الخلاء فليقل أعوذ بالله من الخبث والخبائث وإذا خرج من الخلاء قال غفرانك» (أقول) يستحب أن يقول عند الدخول اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث لان الحشوش محتضرة يحضرها الشياطين لانهم يحبون النجاسة وعند الخروج غفرانك لانه وقت ترك ذكر الله ومخالطة الشياطين، وقوله صلى الله عليه وسلم: «أما أحدهما فكان لا يستبرئ من البول» الحديث (٢) أقول فيه إن الاستبراء واجب وهو أن يمكث وينثر حتى يظن أنه لم يبق في قصبة الذكر شيء من البول، وفيه إن مخالطة النجاسة والعمل الذي يؤدي إلى فساد ذات البين يوجب عذاب القبر أما شق الجريدة والغرز في كل قبر فسره الشفاعة المقيدة إذ لم تمكن المطلقة لكفرهما *

(* خصال الفطرة وما يتصل بها) *

قال النبي صلى الله عليه وسلم: «عشر من الفطرة قص الشارب وإعفاء اللحية والسواك والاستنشاق بالماء وقص الاظفار وغسل البراجم ونتف الابط وحلق العانة وانتقاص الماء - يعني الاستنجاء قال الراوى - ونسيت العاشرة إلا أن تكون المضمضة» (أقول) هذه الطهارات منقولة عن إبراهيم عليه السلام متداولة في طوائف الامم الخفيفة أشربت في قلوبهم ودخلت في صميم اعتقادهم عليها محياهم وعليها مماتهم عصراً بعد عصر ولذلك سميت بالفطرة وهذه شعائر الملة الخفيفة ولا بد لكل ملة من شعائر يعرفون بها ويؤاخذون عليها ليكون طاعتها وعصيانها أمراً محسوساً وإنما ينبغي أن يجعل من الشعائر ما كثر وجوده وتكرر وقوعه وكان ظاهراً، وفيه فوائد جمعة تقبله أذهان الناس أشد قبول، والجملة في ذلك أن بعض الشعور النابتة من جسد الانسان يفعل فعل الاحداث في قبض الخاطر، وكذا شعث الرأس واللحية ويرجع الانسان في ذلك إلى ما ذكره الأطباء في الشرى (٣) والحكمة وغيرهما من الأمراض الجلدية أنها تحزن القلب وتذهب النشاط، واللحية هي الفارقة بين الصغير والكبير وهي جمال الفحول وتمايم هيأتهم فلا بد من إعفائها وقصها سنة المجوس وفيه تغيير خلق الله ولحوق أهل السؤدد والكبرياء بالرعاع (٤) ومن طالت شواربه تعلق الطعام والشراب بها واجتمع فيها الأوساخ وهو من سنة المجوس وهو قوله صلى الله عليه وسلم: «خالفوا المشركين قصوا الشوارب واعفوا اللحى» وفي المضمضة والاستنشاق والسواك إزالة المخاط والبخر والغرلة (٥) عضو زائد يجتمع فيها الوسخ ويمنع الاستبراء من البول وينقص لذة الجماع، وفي التوراة - إن الختان ميسم الله على إبراهيم وذريته - معناه أن الملوك جرت عادتهم بأن يسموا ما يخصهم من الدواب لتمييز من غيرها والعبيد الذين لا يريدون إعتاقهم فكذلك جعل الختان ميسماً عليهم وسائر الشعائر يمكن أن يدخلها تغيير وتدليس، والختان لا يتطرق إليه تغيير

(١) جمع حش وهو الكنيف، وقوله: «محتضرة» أي يحضرها الجن والشياطين يترصدون بني آدم بالأذى والفساد اهـ

(٢) أول الحديث «مر النبي ﷺ بقبرين فقال: لئن لم يكن فيهما لعذابان وما يعذبان في كبير أما أحدهما الخ، وتمام الحديث «وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة ثم أخذ جريدة رطبة فشققها بنصفين ثم غرز في كل قبر واحدة قالوا: يا رسول الله لم صنعت هذا؟ فقال: لعله أن يخفف عنهما ما لم ييبسا» اهـ (٣) على وزن على شور صغار حمر حكاكة مكربة تحدث على الجلد دفعة غالباً اهـ (٤) بفتح الراء غوغاء الناس وسقاطهم وأخلاقهم جمع رعاة اهـ (٥) القلفة اهـ

إلا بجهد وانتقاص الماء (١) كناية عن الاستنجاء به ، قوله صلى الله عليه وسلم : « أربع من سنن المرسلين الحياء - ويروى الختان - والتعطر والسراك والنكاح » (أقول) أرى أن هذه كلها من الطهارة فالحياء ترك الوقاحة والبذاء والفواحش وهي تلوث النفس وتكدرها ، والتعطر يهيج سرور النفس وانشراحها ، وينبه على الطهارة تنبيهاً قوياً ، والنكاح يطهر الباطن من التوقان إلى النساء ودوران أحاديث تميل إلى قضاء هذه الشهوة ، قوله صلى الله عليه وسلم : « لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة » (أقول) معناه لولا خوف الحرج لجعلت السواك شرطاً للصلاة كالوضوء ، وقد ورد بهذا الأسلوب أحاديث كثيرة جداً وهي دلائل واضحة على أن الاجتهاد النبي صلى الله عليه وسلم مدخلا في الحدود الشرعية وأنها منوطة بالمقاصد وإن رفع الحرج من الأصول التي بنى عليها الشرائع - قول الراوي في صفة تسوكه صلى الله عليه وسلم يقول : أع أع - كأنه يتهوع (٢) (أقول) ينبغي للإنسان أن يبلغ بالسواك أقصى الفم فيخرج بلاغم الحلق والصدر ، والاستقصاء في السواك يذهب بالقلاع (٣) ويصفي الصوت ويطيب النكهة ، قوله صلى الله عليه وسلم : « حق على كل مسلم أن يغتسل في كل سبعة أيام يوماً يغسل فيه جسده ورأسه » (أقول) هذا يدل على أن الاغتسال في كل سبعة أيام سنة مستقلة شرعت لدفع الأوساخ والادرن وتنبيه النفس لصفة الطهارة ، وإنما وقت لصلاة الجمعة لأن كل واحد منهما يكمل بالآخر ، وفيه تعظيم لصلاة الجمعة - كان النبي صلى الله عليه وسلم يغتسل من أربع من الجنابة ويوم الجمعة ومن الحجامة ومن غسل الميت - (أقول) أما الحجامة فلا أن الدم كثيراً ما ينتشر على الجسد ويتعسر غسل كل نقطة على حدتها ولأن المص بالملازم جاذب للدم من كل جانب فلا يفيد نقص الدم من العضو ، والغسل يزيل السيالان ويمنع انجذابه ، وأما غسل الميت فلا أن الرشاش ينتشر في البدن - وجلست عند محتضر فرأيت أن الملائكة الموكلة بقبض الأرواح لها نكايه عجيبة في أرواح الحاضرين - ففهمت أنه لا بد من تغيير الحالة لتنبه النفس لمخالفتها أمر صلى الله عليه وسلم من أسلم بأن يغتسل بماء وسدر ؛ وقال لآخر : « ألق عنك شعر الكفر » * (أقول) سره أن يتمثل عنده الخروج من شيء أصرح ما يكون والله أعلم .

(أحكام المياه)

قوله ﷺ : « لا يبولن أحدكم في الماء الدائم الذي لا يجري ثم يغتسل فيه » (أقول) معناه النهي عن كل واحد من البول في الماء والغسل فيه مثل حديث « لا يخرج الرجلان يضربان الغائط كاشفين عن عورتيهما يتحدثان فإن الله يمقت على ذلك ويبين ذلك » رواية النهي عن البول في الماء فقط ورواية أخرى في النهي عن الاغتسال فقط والحكمة أن كل واحد منهما لا يخلو من أحد أمرين ، إما أن يغير الماء بالفعل أو يفضي إلى التغيير بأن يراه الناس يفعل فيمتابعوا وهو بمنزلة اللاعنين (٤) اللهم إلا أن يكون الماء مستبحراً أو جارياً والعفاف أفضل كل حال ، وأما الماء المستعمل فما كان أحد من طوائف الناس يستعمله في الطهارة وكان كالمهجور المطرود

(١) فسر هو كيع بالاستنجاء ، وغيره بانتقاص البول بالماء إذا غسل الماء كبر به ، والماء مفعول الانتقاص لو أريد

به البول وفاعله لو أريد به ما يغسل به وهو يحى لازماً ومتعدياً اهـ (٢) من الهواع وهو القى أى يتقيأ ، والمراد أنه

ﷺ يبالغ في السواك حتى يوصله أقصى الحلق اهـ (٣) داء الفم (٤) أى اللذين ورد ذكرهما في حديث « اتقوا اللاعنين »

يعنى الأمرين الجالين للعنة وهما التخلي في الظل والطريق اهـ

فأبقاه النبي ﷺ على ما كان عندهم ولا شك أنه طاهر. قوله صلى الله عليه وسلم: «إذا باغ الماء قلتين لم يحمل خبثاً» *
 ﴿أقول﴾ معناه لم يحمل خبثاً معنوياً وإنما يحكم به الشرع دون العرف والعادة فإذا تغير أحد أوصافه
 بالنجاسة وفحشت النجاسة كماً أو كيفاً فليس بما ذكر، وإنما جعل القلتين حداً فاصلاً بين الكثير والقليل لأمر
 ضروري لا بد منه وليس تحكما ولا جزافاً وكذا سائر المقادير الشرعية - وذلك أن للماء محلين معدن وأوان،
 أما المعدن فالآبار والعيون ويلحق بها الأودية، وأما الأواني فالقرب والقلال والجفان (٢) والمخاضب
 والأدوة وكان المعدن يتضررون بتنجسه ويقاسون الحرج في نزحه، وأما الأواني فتعلا في كل يوم ولا
 حرج في إراقته، والمعادن ليس لها غطاء ولا يمكن سترها من روث الدواب وولغ السباع، وأما الأواني فليس
 في تغطيتها وحفظها كثير حرج اللهم إلا من الطوافين والطوافات، والمعدن كثير غزير لا يؤثر فيه كثير من
 النجاسات بخلاف الأواني فوجب أن يكون حكم المعدن غير حكم الأواني وأن يرخص في المعدن ما لا
 يرخص في الأواني، ولا يصلح فارقا بين حد المعدن وحد الأواني إلا القلتان لأن ماء البئر والعين لا يكون
 أقل من القلتين البتة وكل مادون القلتين من الأودية لا يسمى حوضاً ولا جوبة وإنما يقال له حفيرة وإذا كان
 قدر قلتين في مستو من الأرض يكون غالباً سبعة أشبار في خمسة أشبار وذلك أدنى الحوض وكان أعلى الأواني
 القلة ولا يعرف أعلى منها عندهم آنية وليست القلال سواء، فقلة عندهم تكون قلة ونصفاً، وقلة وربعا، وقلة
 وثلاثاً ولا تعرف قلة تكون كقلتين فهذا حد لا تبلغه الأواني ولا ينزل منه المعدن فضرب حداً فاصلاً بين
 الكثير والقليل، ومن لم يقل بالقلتين اضطر إلى مثلهما في ضبط الماء الكثير - كما المالكية - والرخصة في آبار
 الفلوات من نحو أبعاد الأبل فمن هنا ينبغي أن يعرف الإنسان أمراً لحدود الشرعية فانها نازلة على وجه
 ضروري لا يجدون منه بداً ولا يجوز العقل غيرها، قوله ﷺ: «الماء طهور لا ينجسه شيء» وقوله ﷺ: «الماء
 لا ينجس» وقوله ﷺ: «المؤمن لا ينجس» ومثله ما في الأخبار من أن البدن لا ينجس والأرض لا تنجس *
 ﴿أقول﴾ معنى ذلك كله يرجع إلى نفي نجاسة خاصة تدل عليه القرائن الحالية والقالية فقوله: «الماء لا ينجس»
 معناه المعادن لا تنجس بملاقاة النجاسة إذا أخرجت ورميت ولم يتغير أحد أوصافه ولم تفحش والبدن يغسل
 فيطهر والأرض يصيبها المطر والشمس وتدل كلها الأرجل فتطهر، وهل يمكن أن يظن بغير بضاعة أنها كانت
 تستقر فيها النجاسات؟! كيف وقد جرت عادة بني آدم بالاجتناب عما هذا شأنه فكيف يستقي بها رسول الله
 صلى الله عليه وسلم؟ بل كانت تقع فيها النجاسات من غير أن يقصد إلقاؤها كما نشاهد من آبار زماننا ثم تخرج
 تلك النجاسات فلما جاء الإسلام سألوا عن الطهارة الشرعية الزائدة على ما عندهم فقال رسول الله ﷺ: «الماء
 طهور لا ينجسه شيء» يعني لا ينجس نجاسة غير ما عندهم وليس هذا تأويلاً ولا صرفاً عن الظاهر بل هو كلام العرب
 فقوله تعالى: (قل لا أجد فيما أوحى إلي محرماً على طاعم) الآية معناه مما اختلفتم فيه، وإذا سئل الطبيب عن شيء
 فقال لا يجوز استعماله عرف أن المراد نفي الجواز باعتبار صحة البدن وإذا سئل فقيه عن شيء فقال لا يجوز عرف
 أنه يريد نفي الجواز الشرعي، قوله تعالى: (حرمت عليكم أمهاتكم) وقوله تعالى: (حرمت عليكم الميتة) فالأول في النكاح

(١) جمع جفنة وهي القصعة الدبيرة، والمخاضب جمع مخضب، بالكسر وهو إجانة تغسل فيها الثياب والأدوة
 بالكسر إناء صغير من جلد يتخذ للماء

والثاني في الاكل قوله ﷺ: «لأنكاح إلا بولي» نفى للجواز الشرعي لا الوجود الخارجي وأمثال هذا كثيرة وليس من التأويل، وأما الوضوء من الماء المقيد الذي لا ينطلق عليه اسم الماء بلا قيد فأمر تدفعه الملة بادي الرأي، نعم إزالة الخبث به محتمل بل هو الراجح، وقد أطال القوم في فروع موت الحيوان في البئر، والعشر في العشر، والماء الجاري وليس في كل ذلك حديث عن النبي ﷺ، وأما الآثار المنقولة عن الصحابة والتابعين كأثر ابن الزبير في الزنجي، وعلى رضي الله عنه في الفأرة، والنخعي. والشعبي في نحو السنور فليست مما يشهد له المحدثون بالصحة ولا مما اتفق عليه جمهور أهل القرون الأولى وعلى تقدير صحتها يمكن أن يكون ذلك تطيباً للقلوب وتنظيفاً للماء لا من جهة الوجوب الشرعي كما ذكر في كتب المالكية ودون نفى هذا الاحتمال خرط القتاد (١) .

وبالجملة فليس في هذا الباب شيء يعتد به ويجب العمل عليه، وحديث القلتين أثبت من ذلك كله بغير شبهة ومن المحال أن يكون الله تعالى شرع في هذه المسائل لعباده شيئاً زيادة على ما لا ينفكون عنه من الارتفاقات وهي مما يكثر وقوعه وتعم به البلوى ثم لا ينص عليه النبي صلى الله عليه وسلم نصاً جلياً ولا يستفيض في الصحابة ومن بعدهم ولا حديث واحد فيه والله أعلم .

(تطهير النجاسات)

النجاسة كل شيء يستقذره أهل الطبائع السليمة ويتحفظون عنه ويغسلون الثياب إذا أصابها كالعذرة والبول والدم، وأما تطهير النجاسات فهو مأخوذ عنهم ومستنبط مما اشتهر فيهم والروث ركس (٢) لحديث ابن مسعود وبول ما يؤكل لحمه لا شبهة في كونه خبثاً تستقذره الطبائع السليمة، وإنما يرخص في شربه لضرورة الاستشفاء، وإنما يحكم بطهارته أو بخفة نجاسته لدفع الحرج وألحق الشارع بها الخمر وهو قوله تعالى: (رجس من عمل الشيطان) لانه حرمة وألحق تحريمها فاقتضت الحكمة أن يجعلها بمنزلة البول والعذرة ليمثل قبحها عندهم ويكون ذلك أكبح لنفوسهم عنها قال النبي ﷺ: «إذا شرب الكلب في إناء أحدم فليغسله سبع مرات» وفي رواية «أولاهن بالتراب» .

(أقول) ألحق النبي صلى الله عليه وسلم سؤر الكلب بالنجاسات وجعله من أشدها لان الكلب حيوان ملعون تنفر منه الملائكة وينقص اقتناؤه والمخالطة معه بلا عذر - من الاجر كل يوم قيراطا والسر في ذلك أنه يشبه الشيطان بجبلته لان ديدنه لعب وغضب واطراح في النجاسات وإيذاء للناس ويقبل الالهام من الشياطين فرأى (٣) منهم صدوداً وتهاونا ولم يكن سبيل إلى النهي عنه بالسكية لضرورة الزرع والماشية والحراسة والصيد فعالج ذلك باشتراط أتم الطهارات وأوكدها وما فيها بعض الحرج ليكون بمنزلة الكفارة في الردع والمنع، واستشعر بعض حملة الملة بأن ذلك (٤) ليس بتشريع بل نوع تأكيد، واختار بعضهم رعاية ظاهر الحديث والاحتياط أفضل، قوله صلى الله عليه وسلم: «هريقوا» (٥) على بوله سجلاً من ماء» .

(أقول) البول على الأرض يطهره مكثرة الماء عليه وهو مأخوذ مما تقرر عند الناس قاطبة أن المطر

(١) خرط الشجر انتزع الورق منه باليد ضرباً، والقتاد شجر صلب له شوك وهذا مثل ودونه خرط القتاد يضرب للامر المشكل الصعب والممتنع اهـ (٢) بالكسر شبيه المعنى بالرجيع من قولهم ركست الشيء إذا ردته ورجعته اهـ (٣) أي النبي ﷺ اهـ (٤) أي الغسل سبعاً اهـ (٥) أول الحديث «قام أعرابي فبال في المسجد فتناوله الناس فقال لهم النبي ﷺ: دعوه وهريقوا» الخ، والسجل الدلو اهـ

الكثير يظهر الأرض وأن المكاثرة تذهب بالرائحة المنتنة وتجعل البول متلاشياً كأن لم يكن، قوله صلى الله عليه وسلم: «إذا أصاب ثوب إحداكن الدم من الحيضة فلتقرصه ثم لتنضحه بماء (١) ثم لتصلي فيه» *
 ﴿أقول﴾ تحصل الطهارة بزوال عين النجاسة وأثرها وسائر الخصوصيات بيان لصورة صالحة لزوالها وتنبيه على ذلك لا شرط، وأما المنى فالأظهر أنه نجس لوجود ما ذكرنا في حد النجاسة وأن الفرق يطهر بإبسه إذا كان له حجم، قوله صلى الله عليه وسلم: «يغسل من بول الجارية ويرش (٢) من بول الغلام» *
 ﴿أقول﴾ هذا أمر كان قد تقرر في الجاهلية وأبقاه النبي صلى الله عليه وسلم والحامل على هذا الفرق أمور، منها أن بول الغلام ينتشر فيعسر إزالته فيناسبه التخفيف، وبول الجارية يجتمع فيسهل إزالته؛ ومنها أن بول الانثى أغلظ وأثقل من بول الذكر، ومنها أن الذكر ترغب فيه النفوس والانثى تعافها، وقد أخذ بالحديث أهل المدينة وإبراهيم النخعي، وأضجع فيه القول بحمد فلا تغتر بالمشهور بين الناس، قوله صلى الله عليه وسلم: «إذا أدبغ الإهاب فقد طهر» ﴿أقول﴾ استعمال جلود الحيوانات المربوغة أمر شائع مسلم عند طوائف الناس، والسرف فيه أن الدباغ يزيل النتن والرائحة الكريهة، قوله صلى الله عليه وسلم: «إذا وطئ أحدكم بنعله الأذى فإن التراب له طهور» ﴿أقول﴾ النعل والخف يطهر من النجاسة التي لها جرم بذلك لأنه جسم صلب لا يتخلل فيه النجاسة والظاهر أنه عام في الرطوبة واليباسة، قوله صلى الله عليه وسلم في الهرة: «إنها من الطوافين والطوافات» *
 ﴿أقول﴾ معناه على قول أن الهرة وإن كانت تلغ في النجاسات وتقتل الفأرة فهناك ضرورة في الحكم بتطهير سورها، ودفع الحرج أصل من أصول الشرع، وعلى قول آخر حث على الاحسان على كل ذات كبد رطبة وشبهها بالسائلين والسائلات والله أعلم *

(من أبواب الصلاة)

إعلم أن الصلاة أعظم العبادات شأننا وأوضحها برهاناً وأشهرها في الناس وأنفعها في النفس ولذلك اعتنى الشارع ببيان فضلها وتعيين أوقاتها وشروطها وأركانها وآدابها وخصها ونوافلها اعتناء عظيماً لم يفعل في سائر أنواع الطاعات، وجعلها من أعظم شعائر الدين وكانت مسلمة في اليهود والنصارى والمجوس وبقايا الملة الاسماعيلية فوجب أن لا يذهب في توقيتها وسائر ما يتعلق بها إلا إلى ما كان عندهم من الأمور التي اتفقوا عليها واتفق عليها جمهورهم وأما ما كان من تحريفهم - ككراهية اليهود الصلاة في الخفاف والنعال ونحو ذلك - فمن حقه أن يسجل على تركه وأن يجعل سنة المسلمين غير سنة هؤلاء، وكذلك كان المجوس حرقوا دينهم وعبدوا الشمس فوجب أن تميز ملة الاسلام من ملتهم غاية التمييز فنهى المسلمون عن الصلاة في أوقات صلواتهم أيضاً، ولا تساع أحكام الصلاة وكثرة أصولها التي تبني عليها لم نذكر الأصول في فاتحة كتاب الصلاة كما ذكرنا في سائر الكتب بل ذكرنا أصل كل فصل في ذلك الفصل، قوله صلى الله عليه وسلم: «مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين واضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين وفرقوا بينهم في المضاجع» ﴿أقول﴾ بلوغ الصبي على وجهين، بلوغ في صلاحية السقم والصحة النفسانية ويتحقق بالعقل فقط، وأما ظهور العقل سبع فابن السبع ينتقل فيها لا محالة من حالة

(١) القرص الدلك بأطراف الأصابع، والنضح صب الماء شيئاً فشيئاً، والمعنى فلتمسحه باليد حتى بتفتت ثم تغسله بالماء بالصب شيئاً فشيئاً حتى يذهب أثره اهـ (٢) أي يسال الماء حتى يغلب البول ولا يبالغ في الغسل، وتعافها نكرها اهـ

إلى حالة انتقالها ظاهراً، وأمانة تمامه العشر فابن العشر عند سلامة المزاج يكون عاقلاً يعرف نفعه من ضرره ويحذق في التجارة وما يشبهها. وبلوغ في صلاحية الجهاد والحدود والمواخاة عليه وأن يصير به من الرجال الذين يعانون (١) المسكيد ويعتبر حالهم في السياسات المدنية والمالية، ويجبرون قسراً على الصراط المستقيم، ويعتمد على تمام العقل وتمام الجثة وذلك بخمس عشرة سنة في الأكثر، ومن علامات هذا البلوغ الاحتلام وإنبات العانة والصلاة لها اعتباران فباعتبار كونها وسيلة فيما بينه وبين مولاه منقذة عن التردى في أسفل السافلين أمر بها عند البلوغ الأول. وباعتبار كونها من شعائر الإسلام يؤخذون بها ويجبرون عليها أشاؤا أم أبوا حكمها حكم سائر الأمور. ولما كان سن العشر برزخاً بين الحدين جامعاً بين الجهتين جعل له نصيباً منهما. وإنما أمر بتفريق المضاجع لأن الأيام أيام مراهقة فلا يبعد أن تفضي المضاجعة إلى شهوة الجامعة فلا بد من سد سبيل الفساد قبل وقوعه. ﴿فضل الصلاة﴾ قوله تعالى: (إن الحسنات يذهبن السيئات) وقوله صلى الله عليه وسلم لمن صلى في الجماعة بعد الذنب: «فإن الله قد غفر لك ذنبك» وقوله صلى الله عليه وسلم: «لو أن نهرأ بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمساً هل يبقى من درنه شيء؟ قالوا: لا، قال: فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بها الخطايا». وقوله ﷺ: «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنب الكبائر» ﴿أقول﴾ الصلاة جامعة للتنظيف والاختبات مقدسة للنفس إلى عالم الملكوت، ومن خاصية النفس أنها إذا اتصفت بصفة رفضت ضدها وتباعدت عنه، وصار ذلك منها كأن لم يكن شيئاً مذكوراً، فمن أدى الصلوات على وجهها وأحسن وضوءهن وصلاتهن لوقتتهن وأتم ركوعهن وخشوعهن وأذكارهن وهياتهن، وقصد بالأشباح أرواحها وبالصور معانيها، لا بد أنه يخوض في لجة عظيمة من الرحمة ويمحو الله عنه الخطايا * قوله ﷺ: «بين العبد وبين الكفر ترك الصلاة» ﴿أقول﴾ الصلاة من أعظم شعائر الإسلام وعلاماته التي إذا فقدت ينبغي أن يحكم بفقدته لقوة الملازمة بينها وبينه، وأيضاً الصلاة هي المحققة لمعنى إسلام الوجه لله، ومن لم يكن له حظ منها فانه لم يبو من الإسلام إلا بما لا يعبأ به *

﴿أوقات الصلاة﴾ لما كانت فائدة الصلاة وهي الخوض في لجة الشهود والانسلاخ في سلك الملائكة لا تحصل إلا بمداومة عليها وملازمة بها وإكثار منها حتى تطرح عنهم أثقالهم، ولا يمكن أن يؤمروا بما يفضي إلى ترك الارتفاقات الضرورية والانسلاخ عن أحكام الطبيعة بالكلية أوجبت الحكمة الإلهية أن يؤمروا بالمحافظة عليها والتعهد لها بعد كل برهة من الزمان ليكون انتظامهم للصلاة وتهيؤهم لها قبل أن يفعلوها وبقيّة لونها وصبابة نورها بعد أن يفعلوها في حكم الصلاة، وتكون أوقات الغفلة مضمومة بطمح بصر إلى ذكر الله وتعلق خاطر بطاعة الله، فيكون حال المسلم كحال حصان (٢) مربوط بأخيه (٣) يستن شرفاً أو شرفين، ثم يرجع إلى أخيه

(١) أي يقاسون اه

(٢) أي فرس اه (٣) الأخية بمد وتشديد حبيل أو عويد يعرض في حائط أو جبل ويدفن طرفاه فيصير وسطه كالعروة وتشد فيها الدابة، وقوله: يستن هو أن يرفع يديه ويطرحهما معاً ويهجن برجائه، والشرف بالضم وسكون الراء الشوط والعدو من موضع إلى موضع، وفي القاموس بفتح الأول والثاني، وهذا اقتباس من الحديث وهو قوله ﷺ: «مثل المؤمن كمثل الفرس بأخيه» الحديث اه

ويكون ظلمة الخطايا والغفلة لا تدخل في جذر القلوب ، وهذا هو الدوام المتيسر عندما تمتنع الدوام الحقيقي .
 مما آلا الأمر إلى تعيين أوقات الصلاة لم يكن وقت أحق بها من الساعات الأربع التي تنتشر فيها الروحانية وتنزل فيها الملائكة ويعرض فيها على الله أعمالهم ويستجاب دعاؤهم ، وهي كالأمر المسلم عند جمهور أهل التلقى من الملائكة الأعلى ، لكن وقت نصف الليل لا يمكن تكليف الجمهور به - كما لا يخفى - فكانت أوقات الصلاة في الأصل ثلاثة ، الفجر ، والعشي وغسق الليل ، وهو قوله تبارك وتعالى : (أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً) وإنما قال : (إلى غسق الليل) لأن صلاة العشي ممتدة إليه حكماً - لعدم وجود الفصل - ولذلك جاز عند الضرورة الجمع بين الظهر والعصر وبين المغرب والعشاء - فهذا أصل - ولا يجوز أن يكون الفصل بين كل صلاتين كثيراً جداً فيفوت معنى المحافظة وينسى ما كسبه أول مرة - ولا قليلاً جداً - فلا يتفرغون لا بتغاء معاشهم ، ولا يجوز أن يضرب في ذلك إلا حداً ظاهراً محسوساً يتبينه الخاصة والعامة ، وهو كثرة ما للجزء المستعمل عند العرب والعجم - في باب تقدير الأوقات ، وليست بالكثرة المفرطة - ولا يصلح لهذا إلا ربع النهار فانه ثلاث ساعات ، وتجزئة الليل والنهار إلى ثنتي عشرة ساعة أمر أجمع عليه أهل الأقاليم الصالحة ، وكان أهل الزراعة والتجارة والصناعة وغيرهم يعتادون غالباً أن يتفرغوا لأشغالهم من البكرة إلى الهاجرة فانه وقت ابتغاء الرزق ، وهو قوله تعالى : (وجعلنا النهار معاشاً) وقوله تعالى : (لتبتغوا من فضله) واتصاف كثير من الأشغال ينجر إلى مدة طويلة ، ويكون التهيؤ للصلاة والتفرغ لها من الناس أجمعهم في أثناء ذلك حرجاً عظيماً ، فلذلك أسقط الشارع الضحى ورجب فيها ترغيباً عظيماً من غير إيجاب ، فوجب أن تشتق صلاة العشي إلى صلاتين بينهما نحو من ربع النهار وهما الظهر والعصر وغسق الليل إلى صلاتين بينهما نحو من ذلك وهما المغرب والعشاء ، ووجب أن لا يرخص في الجمع بين كل من شقي الوقتين إلا عند ضرورة لا يجد منها بداً وإلا لبطلت المصلحة المعتبرة في تعيين الأوقات - وهذا أصل آخر - وكان جمهور أهل الأقاليم الصالحة والأمرجة المعتدلة الذين هم المقصودون بالذات في الشرائع لا يزالون متيقظين مترددين في حوائجهم من وقت الاسفار إلى غسق الليل ، وكان أحق ما يؤدي فيه الصلاة وقت خلو النفس عن ألوان الأشغال المعاشية المنسية ذكر الله ليصادف قلباً فارغاً فتمكن منه ويكون أشد تأثيراً فيه ، وهو قوله تعالى : (وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً) ووقت الشروع في النوم ليكون كفارة لما مضى وتصقيلاً للصدا ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم : « من صلى العشاء في جماعة كان كقيام نصف الليل الأول ، ومن صلى العشاء والفجر في جماعة كان كقيام ليلة » ووقت اشتغالهم كالضحى ليكون مهوئاً لآلهم في الدنيا وترياً قاً له ، غير أن هذا لا يجوز أن يخاطب به الناس جميعاً لأنهم حينئذ بين أمرين ، إما أن يتركوا هذا أو ذاك - وهذا أصل آخر - وأيضاً لا أحق في باب تعيين الأوقات من أن يذهب إلى المأثور من سنن الأنبياء المقربين من قبل ، فانه كالمنبه للنفس على أداء الطاعة تنبيهها عظيماً والمهييج لها على منافسة القوم والباعث على أن يكون للصالحين فيهم ذكر جميل وهو قول جبريل عليه السلام : « هذا وقت الأنبياء من قبلك » لا يقال : ورد في حديث معاذ في العشاء « ولم يصلها أحد قبلكم » لأن الحديث رواه جماعة ، فقال بعضهم : إن الناس صلوا ورددوا ، وقال بعضهم : ولا يصلها أحد إلا بالمدينة ونحو ذلك ، فالظاهر أنه من قبل الرواية بالمعنى - وهذا أصل آخر - وبالجملة ففي تعيين الأوقات سر عميق من وجوه كثيرة ، فتمثل جبريل عليه السلام وصلى بالنبى صلى الله عليه وسلم وعليه الأوقات ، ولما

ذكرنا ظهر وجه مشروعية الجمع بين الصلاتين في الجملة ، وسبب وجوب التهجيد والضحي على النبي صلى الله عليه وسلم والانباء على ماذكروا وكونها نافلة للناس وسبب تأكيد أداء الصلوات على أوقاتها والله أعلم * ولما كان في التكليف بأن يصلي جميع الناس في ساعة واحدة بعينها لا يتقدمون ولا يتأخرون غاية الحرج وسع في الأوقات توسعة ما، ولما كان لا يصلح للتشريع إلا المظنات الظاهرة عند العرب غير الخفية على الأذاني والأقاصي جعل لأوائل الأوقات وأواخرها حدوداً مضبوطة محسوسة ، ولتزام هذه الأسباب حصل للصلوات أربعة أوقات ، وقت الاختيار وهو الوقت الذي يجوز أن يصلي فيه من غير كراهية، والعمدة فيه حديثان حديث جبريل (١) فانه صلى بالنبي صلى الله عليه وسلم يومين، وحديث بريدة ففيه أنه صلى الله عليه وسلم أجاب السائل عنها بأن صلى يومين، والمفسر منهما قاض على المبهم، وما اختلف يتبع فيه حديث بريدة لأنه مدني متأخر والأول مكّي متقدم وإنما يتبع الآخر فالآخر وذلك أن آخر وقت المغرب هو ما قبل أن يغيب الشفق ولا يبعد أن يكون جبريل آخر المغرب في اليوم الثاني قليلاً جداً لقصر وقته فقال الراوي : صلى المغرب في يومين في وقت واحد إما لخطأ في اجتهاده أو بيانا لغاية القلة والله أعلم ، وكثير من الأحاديث يدل على أن آخر وقت العصر أن تتغير الشمس وهو الذي أطبق عليه الفقهاء فلعل المثليين بيان لآخر الوقت المختار، والذي يستحب فيه، أو نقول: لعل الشرع نظر أولاً إلى أن المقصود من اشتقاق العصر أن يكون الفصل بين كل صلاتين نحواً من ربع النهار فجعل الأمد الآخر بلوغ الظل إلى المثليين ، ثم ظهر من حوائجهم وأشغالهم ما يوجب الحكم بزيادة الأمد ، وأيضاً معرفة ذلك الحد تحتاج إلى ضرب من التأمل وحفظ للنفي الأصلي ورصد ، وإنما ينبغي أن يخاطب الناس في مثل ذلك بما هو محسوس ظاهر فنفت الله في روعه صلى الله عليه وسلم أن يجعل الأمد تغير قرص الشمس أو ضوءها والله أعلم ، ووقت الاستحباب الذي يستحب أن يصلي فيه وهو أوائل الأوقات إلا العشاء فالمستحب الأصلي تأخيرها لما ذكرنا من الوضع الطبيعي ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم: «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم أن يؤخروا العشاء» ولأنه أنفع في تصفية الباطن من الاشغال المنسية ذكر الله وأقطع لمادة السمر بعد العشاء لكن التأخير ربما يفضي إلى تقليل الجماعة وتنفير القوم . وفيه قلب الموضوع فلماذا كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا كثرت الناس عجل وإذا قلوا أخر - والأظهر الصيف - وهو قوله صلى الله عليه وسلم: «إذا اشتد الحر فأبردوا بالظهر فإن شدة الحر من فيح جهنم» (٢) (أقول) معناه معدن الجنة، والنار هو معدن ما يفاض في هذا العالم من الكيفيات المناسبة والمنافرة وهو تأويل ما ورد في الاخبار في الهندبا وغيره ، قوله صلى الله عليه وسلم: «أسفروا بالفجر فانه أعظم الأجر» (أقول) هذا خطاب لقوم خشوا تقليل الجماعة جداً أن ينتظروا إلى الاسفار أو لأهل المساجد الكبيرة التي تجمع الضعفاء والصبيان وغيرهم كقوله ﷺ: «أيكم صلى بالناس فليخفف فإن فيهم الضعيف» الحديث (٣) أو معناه طولوا الصلاة حتى يقع آخرها في وقت الاسفار لحديث أبي برزة كان ينفلت في صلاة الغداة حين يعرف الرجل جليسه ويقرا بالسنتين إلى المائة فلا

(١) وهو مارواه أبو داود والترمذي عن ابن عباس ، وقوله: وحديث بريدة وهو مارواه مسلم عن بريدة، وقوله : السائل عنها أي الأوقات اهـ (٢) أي من غليانها وحرارتها اهـ (٣) تمامه «إذا صلى أحدكم للناس فليخفف فإن فيهم السقيم والضعيف والكبير وإذا صلى أحدكم لنفسه فليطول ما شاء» اهـ

مناقة بينه وبين حديث الغاس (١) ووقت الضرورة وهو مالا يجوز التأخير إليه إلا بعذر. وهو قوله صلى الله عليه وسلم: «من أدرك ركعة من الصبح قبل أن تطلع الشمس فقد أدرك الصبح ومن أدرك ركعة من العصر قبل أن تغرب الشمس فقد أدرك العصر» وقوله صلى الله عليه وسلم: «تلك صلاة المنافق يرقب الشمس حتى إذا اصفرت» الحديث (٢) وهو حديث ابن عباس في الجمع بين الظهر والعصر وبين المغرب والعشاء والعذر مثل السفر والمرض والمطر وفي العشاء إلى طلوع الفجر والله أعلم. ووقت القضاء إذا ذكر، وهو قوله صلى الله عليه وسلم: «من نسي صلاة أو نام عنها فليصلها إذا ذكرها» *

﴿أقول﴾ والجملة في ذلك أن لا تسترسل النفس بتركها وأن يدرك ما فاتته من فائدة تلك الصلاة وألحق القوم التفويت بالفوت نظراً إلى أنه أحق بالكفارة، ووصى صلى الله عليه وسلم أباذر إذا كان عليه أمراء يميئون الصلاة (٣) «صل الصلاة لوقتها، فإن أدركتها معهم فصلها فإنها لك نافلة» ﴿أقول﴾ راعى في الصلاة اعتبارين اعتبار كونها وسيلة بينه وبين الله، وكونها من شعائر الله يلام على تركها. قوله صلى الله عليه وسلم: «لا تزال أمتي بخير ما لم يؤخروا المغرب إلى أن تشتبك النجوم» ﴿أقول﴾ هذا إشارة إلى أن التهاون في الحدود الشرعية سبب تحريف الملة، قال الله تعالى: (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى) والمراد بها العصر. قوله صلى الله عليه وسلم: «من صلى البردين (٤) دخل الجنة» قوله صلى الله عليه وسلم: «من ترك صلاة العصر حبط عمله» وقوله صلى الله عليه وسلم: «الذي تفوته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله» قوله صلى الله عليه وسلم: «ليس صلاة أثقل على المنافقين من الفجر والعشاء، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبواً» (٥)

﴿أقول﴾ إنما خص هذه الصلوات الثلاث بزيادة الاهتمام ترغيباً وترهيباً لأنها مظنة التهاون والتكاسل لأن الفجر والعشاء وقت النوم لا ينتهض لله من بين فراشه ووطائه عند لذيذ نومه ووسنه إلا مؤمن تقى، وأما وقت العصر فكان وقت قيام أسواقهم واشتغالهم بالبيوع وأهل الزراعة أتعب حالهم هذه * قوله ﷺ: «لا يغلبنكم الأعراب على اسم صلاتكم المغرب» (٦) وفي حديث آخر «على اسم صلاة العشاء» ﴿أقول﴾ يكره تسمية ما ورد في الكتاب والسنة مسمى شيء أسما آخر بحيث يكون ذريعة لهجر الاسم الأول لأن ذلك يلبس على الناس دينهم ويعجم عليهم كتابهم *

﴿الأذان﴾ لما علمت الصحابة أن الجماعة مطلوبة مؤكدة، ولا يتيسر الاجتماع في زمان واحد ومكان واحد بدون إعلام وتنبيه، تسلموا فيما يحصل به الإعلام - فذكروا النار - فردها رسول الله ﷺ لمشابهة المجوس - وذكروا القرن - فردته لمشابهة اليهود - وذكروا الناقوس فردته لمشابهة النصارى، فرجعوا من غير تعيين، فأرى عبدالله بن زيد الأذان والاقامة في منامه، فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال: «رؤيا حق» وهذه القصة دليل واضح على أن الأحكام إنما شرعت لأجل المصالح وأن للاجتهاد فيها مدخلا وأن التيسير أصل

(١) هو ما روى في الصحيحين عن محمد بن عمرو بن الحسن بن علي أنه صلى الله عليه وسلم كان يصلي الصبح بغاس اه
(٢) تمامه «وكانت بين قرني الشيطان قام فنقر أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلاً» اه (٣) أي يؤخرونها عن وقتها اه (٤) أي الغداة والعشي اه (٥) من حباً الرجل إذا مشى على يديه وبطنه، والصبي مشى على أسته، وأشرف على صدره اه (٦) وتماه «قال وتقول الأعراب هي العشاء» وتماه الثاني «فانها في كتاب الله العشاء» اه

أصيل ، وأن مخالفة أقوام تبادوا في ضلالتهم فيما يكون من شعائر الدين مطلوب ، وأن غير النبي ﷺ قد يطلع بالمنام أو النفث في الروع (١) على مراد الحق ، لكن لا يكلف الناس به ولا تنقطع الشبهة حتى يقرره النبي صلى الله عليه وسلم ، واقتضت الحكمة الإلهية أن لا يكون الأذان صرف إعلام وتنبيه ، بل يضم مع ذلك أن يكون من شعائر الدين بحيث يكون النداء به على رؤوس الخامل والتنبيه تنويهاً بالدين ، ويكون قبوله من القوم آية انقيادهم لدين الله ، فوجب أن يكون مركباً من ذكر الله ومن الشهاداتين والدعوة إلى الصلاة ليكون مصرحاً بما أريد به ، وللاذان طرق (أصحها) طريقة بلال رضي الله عنه ، فكان الأذان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مرتين مرتين والاقامة مرة مرة (٢) غير أنه كان يقول : قد قامت الصلاة قد قامت الصلاة ، ثم طريقة أبي مخذورة عليه النبي ﷺ الأذان تسع عشرة كلمة (٣) والاقامة سبع عشرة كلمة ، وعندى أنها كأحرف القرآن ، كلها شاف كاف . قوله ﷺ : «فان كان صلاة الصبح قلت : الصلاة خير من النوم الصلاة خير من النوم» *

(أقول) لما كان الوقت وقت نوم وغفلة ، وكانت الحاجة إلى التنبيه القوي شديدة استحب زيادة هذه اللفظة . قوله صلى الله عليه وسلم : « من أذن فهو يقيم » (أقول) سره أنه لما شرع في الأذان وجب على إخوانه أن لا يزاحموه فيما أراد من المنافع المباحة بمنزلة قوله عليه الصلاة والسلام : « لا يخطب الرجل على خطبة أخيه » وفضايا الأذان ترجع إلى أنه من شعائر الإسلام وبه تصير الدار دار الإسلام ، ولهذا كان النبي ﷺ إن سمع الأذان أمسك ، وإلا أغار ، وأنه شعبة من شعب النبوة لأنه حث على أعظم الأركان وأم القربات ، ولا يرضى الله ولا يغضب الشيطان مثل ما يكون في الخير المتعدى وإعلاء كلمة الحق ، وهو قوله ﷺ : « فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد » وقوله ﷺ : « إذا نودى للصلاة أدبر الشيطان له ضراط » *

قوله ﷺ : « المؤذنون أطول الناس أعناقاً » وقوله ﷺ : « المؤذن يغفر له مدى صوته ويشهد له الجن والانس » (أقول) أمر المجازاة مبنى على مناسبة المعاني بالصور وعلاقة الأرواح بالاشباح ، فوجب أن يظهر نباهة شأن المؤذن من جهة عنقه وصوته وتتسع رحمة الله عليه اتساع دعوته إلى الحق *

قوله ﷺ : « من أذن سبع سنين محسباً كتبت له براءة من النار ، وذلك لأنه مبین صحة تصديقه لا تتصور المواظبة عليه إلا بمن أسلم وجهه لله ولأنه أمكن من نفسه غاشية عظيمة من الرحمة الإلهية . قول الله في راعى غنم في رأس شظية (٤) » انظروا إلى عبدی هذا يؤذن ويقيم الصلاة يخاف مني ، قد غفرت له وأدخلته الجنة » قوله : « يخاف مني » دليل على أن الأعمال تعتبر بدواعيها المنبعثة هي منها ، وأن الأعمال أشباح وتلك الدواعي أرواح لها ، فكان خوفه من الله وإخلاصه له سبب مغفرته ، ولما كان الأذان من شعائر الدين جعل ليعرف به قبول القوم للهداية الإلهية أمر بالاجابة لتكون مصرحة بما أريد منهم فيجيب الذكر والشهادتين بهما ويوجب الدعوة بما فيه تو حيد في الحول والقوة دفعاً لما عسى أن يتوهم عند إقدامه على الطاعة من العجب من فعل ذلك خالصاً من قلبه دخل الجنة ، لأنه شبح الانقياد وإسلام الوجه لله وأمر بالدعاء للنبي ﷺ تكميلاً لمعنى قبول دينه واختيار حبه .

قوله ﷺ : « لا يرد الدعاء بين الأذان والاقامة » (أقول) ذلك لشمول الرحمة الإلهية ووجود الانقياد من

(١) النفث بالفم مثل النفخ والمراد هنا الالتقاء ، والروع بالضم القلب اهـ (٢) وهو مذهب الشافعي رحمه الله اهـ

(٣) وبهذا قال أبو حنيفة اهـ (٤) الشظية على وزن سجية هي قطعة مرتفعة في رأس الجبل اهـ

الداعي . قوله عليه السلام : « إن بلالا ينادى بليل فكلوا واشربوا حتى ينادى ابن أم مكتوم » •

(أقول) يستحب للامام إذا رأى الحاجة أن يتخذ مؤذنين يعرفون أصواتهما ، ويبين للناس أن فلانا ينادى بليل فكلوا واشربوا حتى ينادى فلان ليكون الاول (١) منهما للقاء والمفسر أن يرجعا ، ولنا ثم أن يقوم إلى صلاته ويتدارك ما فات من سجوره . قوله عليه السلام : « إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها تسعون وأتوها تمشون » (أقول) هذا إشارة إلى رد التعرق في التنك (٢) •

(المساجد) فضل بناء المسجد وملازمته وانتظار الصلاة فيه ترجع إلى أنه من شعائر الاسلام ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم : « إذا رأيتم مسجداً أو سمعتم مؤذناً فلا تقتلوا أحداً » وأنه محل الصلاة معتكف العابدين ومطرح الرحمة وبشبه الكعبة من وجه ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم : « من خرج من بيته متطهراً إلى صلاة مكتوبة فأجره كأجر الحاج المحرم ومن خرج إلى تسبيح الضحى لا ينصبه إلا إياه فأجره كأجر المعتمر » وقوله عليه السلام : « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا قيل : وما رياض الجنة ؟ قال : المساجد » وإن التوجه إليه في أوقات الصلاة من بين شغله وأهله لا يقصد إلا الصلاة معرف لاخلاصه في دينه وانقياده لربه من جذر قلبه ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم : « إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم خرج إلى المسجد لا يخرجه إلا الصلاة لم يخط خطوة إلا رفعت له بها درجة وحط عنه بها خطيئة ، فإذا صلى لم تنزل الملائكة تسمى عليه مادام في مصلاه ، اللهم صل عليه اللهم ارحمه ، ولا يزال أحدكم في صلاة ما انتظر الصلاة وأن بنائه إعانة لاعلاء كلمة الحق » •

قوله عليه السلام : « من غدا إلى المسجد أراح أعد الله له نزله من الجنة كلما غدا أو راح » (أقول) هذا إشارة إلى أن كل غدوة وروحة تمكن من انقياد البهيمة للملكية . قوله عليه السلام : « من بنى لله مسجداً بنى الله له بيتاً في الجنة » • (أقول) سره أن المجازاة تكون بصورة العمل وإنما انقضى (٣) ثواب الانتظار بالحدث لأنه لا يبقى منهياً للصلاة وإنما فضل مسجد النبي صلى الله عليه وسلم والمسجد الحرام بمضاعفة الأجر لمعان ، منها أن هنالك ملائكة موكلة بتلك المواضع يحفون بأهلها ويدعون لمن حلها . ومنها أن عمارة تلك المواضع من تعظيم شعائر الله وإعلاء كلمة الله ، ومنها أن الحلول بها مذكر لحال أئمة الملة ، قوله صلى الله عليه وسلم : « لا تشد الرحال (٤) إلا إلى ثلاثة مساجد المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجدي هذا » (أقول) • كان أهل الجاهلية يقصدون مواضع معظمة بزعمهم يزورونها ويتبركون بها ، وفيه من التحريف والفساد ما لا يخفى فسد النبي عليه السلام الفساد لثلاث يلتحق غير الشعائر بالشعائر ولثلاث يصير ذريعة لعبادة غير الله ، والحق عندي أن القبر ومحل عبادة ولي من أولياء الله والطور كل ذلك سواء في النهي والله أعلم (وآداب المسجد) ترجع إلى معان ، منها تعظيم المسجد ومواخذة نفسه أن يجمع الخاطر ولا يسترسل عند دخوله ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم : « إذا دخل أحدكم المسجد فليركع ركعتين قبل أن يجلس » ومنها تنظيفه مما يتقذر ويتنفر منه - وهو قول الراوى - أمر يعني النبي عليه السلام

(١) أي الأذان الأول (٢) أي العبادة اه • (٣) يعني أنه جاء في حديث « لا يزال أحدكم في صلاة إذا دخل المسجد ذات الصلاة تحبسه ما لم يؤذ فيه ما لم يحدث فيه » وقوله : وإنما أفضل الخ أي ما وقع في الصحيحين أنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام » اه • (٤) جمع رحل - وهو نور البعير - والمراد في فضيلة شدة إلا إلى ثلاثة مساجد لثلاث يكرن غيرها نمازلاً لإياها اه •

ببناء المسجد ، وأن ينظف ويطيب (١) ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « عرضت على أجور أمتي حتى القذاة يخرجها الرجل من المسجد » ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « البزاق في المسجد خطيئة وكفارتها دفنها » *
 ﴿ ومنها ﴾ الاحتراز عن تشويش العباد وهيشات الاسواق وهو قوله صلى الله عليه وسلم : « أمسك بنصالحها »
 قوله صلى الله عليه وسلم : « من سمع رجلاً ينشد (٢) ضالة في المسجد فليقل لاردها الله اليك فان المساجد لم تبين لهذا » ، قوله : « إذا رأيت من يبيع أو يبتاع في المسجد فقلوا لا أربح الله تجارتك » (٣) ونهى عن تناشد الاشعار في المسجد وأن يستقاد في المسجد وأن تقام فيه الحدود * (أقول) : أما نشد الضالة أي رفع الصوت بطلبها فلائنه صخب ولغط يشوش على المصلين والمعتكفين ، ويستحب أن ينكر عليه بالدعاء بخلاف ما يطلبه إرغاماً له ، وعلمه النبي صلى الله عليه وسلم بأن المساجد لم تبين لهذا أي إنما بنيت للذكر والصلاة ، وأما الشراء والبيع فليلاً يصير المسجد سوقاً يتعامل فيه الناس فتذهب حرمة ويحصل التشويش على المصلين والمعتكفين ، وأما تناشد الاشعار - فلما ذكرنا - ولأن فيه إغراضاً عن الذكر وحثاً على الاعراض عنه ، وأما القود والحدود فلائنها مظنة للالوات والجزع والبكاء والصخب والتشويش على أهل المسجد ، ويخص من الاشعار ما كان فيه الذكر ومدح النبي صلى الله عليه وسلم وغيظ الكفار لانه غرض شرعي ، وهو قوله ﷺ : « اللهم أيده بروح القدس »
 قوله ﷺ : « إني لأحل المسجد لحائض ولا جنب » (أقول) السبب في ذلك تعظيم المسجد فان أعظم التعظيم أن لا يقربه إنسان إلا بطهارة وكان في منع دخول المحدث حرج عظيم ، ولا حرج في الجنب والحائض ولائهما أبعد الناس عن الصلاة والمسجد إنما بنى لها ، قوله ﷺ : « من أكل هذه الشجرة المنتنة فلا يقرب من مسجدنا فان الملائكة تتأذى مما يتأذى منه الانس » (أقول) هي البصل أو الثوم وفي معناه كل منتهن ، ومعنى تتأذى تكره وتتنفر لائنها تحب محاسن الاخلاق والطيبات وتكره أضدادها ، قوله صلى الله عليه وسلم : « إذا دخل أحدكم المسجد فليقل اللهم افتح لي أبواب رحمتك فاذا خرج فليقل اللهم إني أسألك من فضلك » (أقول) الحكمة في تخصيص الداخل بالرحمة والخارج بالفضل أن الرحمة في كتاب الله أريد بها النعم النفسانية والاخرية كالولاية والنبوة قال تعالى : (ورحمة ربك خير مما يجمعون) والفضل على النعم الدنيوية قال تعالى : (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم) وقال تعالى : (فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله) ومن دخل المسجد إنما يطلب القرب من الله ، والخروج وقت ابتغاء الرزق ، قوله ﷺ : « إذا دخل أحدكم المسجد فليركع ركعتين قبل أن يجلس » *
 ﴿ أقول ﴾ إنما شرع ذلك لان ترك الصلاة إذا دخل بالمكان المعد لها ترة وحسرة ، وفيه ضبط الرغبة في الصلاة بأمر محسوس ، وفيه تعظيم المسجد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام » ونهى أن يصلى في سبعة مواطن في المزبلة والمقبرة والمجزرة وقارعة الطريق وفي الحمام وفي معاطن الابل وفوق ظهر بيت الله ونهى عن الصلاة في أرض بابل فانها ملعونة ﴿ أقول ﴾ الحكمة في النهي عن المزبلة والمجزرة أنهما موضعان نجاسة والمناسب للصلاة هو التطهر والتنظف ، وفي المقبرة الاحتراز عن أن تتخذ قبور الاحبار والرهبان مساجد بأن يسجد لها كالأوثان وهو الشرك الجلى أو يتقرب إلى الله بالصلاة في تلك المقابر وهو الشرك

(١) أي من القاذورات ، ويطيب أي بالعطر وغيره اهـ (٢) أي يطلب برفع الصوت (٣) أي لا جعل الله تجارتك ذات ربح ، وقوله : يستقاد أي يقتص

وهذا مفهوم قوله صلى الله عليه وسلم: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» ونظيره نهي صلى الله عليه وسلم عن الصلاة في وقت الطلوع والاستواء والغروب لأن الكفار يسجدون للشمس حينئذ، وفي الحمام أنه محل انكشاف العورات ومظنة الازدحام فيشغله ذلك عن المناجاة بحضور القلب، وفي معادن الأبل أن الأبل لعظم جشها وشدة بطشها وكثرة جراتها كادت تؤذي الإنسان فيشغله ذلك عن الحضور بخلاف الغنم، وفي قارعة الطريق اشتغال القلب بالمارين وتضييق الطريق عليهم ولأنها ممر السباع كما ورد صريحاً في النهي عن النزول فيها، وفوق بيت الله أن الترقى على سطح البيت من غير حاجة ضرورية مكروه هاتك لحرمة وللشك في الاستقبال حالئذ، وفي الأرض الملعونة بنحو خسف أو مطر الحجارة إهانتها والبعد عن مظان الغضب هيبه منه وهو قوله ﷺ: «ولا تدخلوه إلا باكين» *

(ثياب المصلي) أعلم أن لبس الثياب تمايز به الإنسان عن سائر البهائم وهو أحسن حالات الإنسان، وفيه شعبة من معنى الطهارة، وفيه تعظيم الصلاة وتحقيق أدب المناجاة بين يدي رب العالمين وهو واجب أصلي جعل شرطاً في الصلاة لتكميله معناها وجعله الشارع على حدين: حد لا بد منه وهو شرط صحة الصلاة، وحد هو مندوب إليه فالأول منه السرأتان وهو آكدهما وألحق بهما الفخذان وفي المرأة سائر بدنهما، لقوله ﷺ: «لا تقبل صلاة حائض إلا بخمار» يعني البالغة لأن الفخذ محل الشهوة، وكذا بدن المرأة فكان حكمها حكم السوأيتين، والثاني قوله صلى الله عليه وسلم: «لا يصلين أحدكم في الثوب الواحد ليس على عاتقه منه شيء» وقال: «إذا كان واسعاً خالف بين طرفيه» والسر فيه أن العرب والعجم وسائر أهل الأمزجة المعتدلة إنما تمام هيئتهم وكمال زيهم على اختلاف أوضاعهم في لباس القباء والقميص والحلة وغيرها أن يستر العاتقان والظهر، وسئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الصلاة في ثوب واحد فقال أو لعلكم ثوبان ثم سئل عمر رضي الله عنه فقال إذا وسع الله فوسعوا جمع رجل الخ ﴿أقول﴾ الظاهر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن الحد الأول وقول عمر رضي الله عنه بيان للحد الثاني، ويحتمل أن يكون السؤال في الثاني الذي هو مندوب فلم يأمر بشوئين لأن جريان التشريع ولو بالحد الثاني باشتراط الشوئين حرج ولعل من لا يجد ثوبين يجد في نفسه فلا تكمل صلاته لما يجد في نفسه من التقصير، وعرف عمر رضي الله عنه أن وقت التشريع انقضى ومضى وكان قد عرف استحباب إكمال الزي في الصلاة فحكم على حسب ذلك والله أعلم، قال ﷺ في الذي يصلي ورأسه معقوص من ورائه: «إنما مثل هذا مثل الذي يصلي وهو مكتوف» ﴿أقول﴾ نبه على أن سبب الكراهية الإخلال بالتجمل وتتمام الهيئة وزى الأدب، قوله صلى الله عليه وسلم في خميسة لها أعلام: «إنها ألطنى آنفا عن صلاتي» وفي قرام (١) عائشة أميطة عنا قرامك هذا فانه لا يزال تصاويره تعرض في صلاتي وفي فروج الحرير لا ينبغي هذا للمتقين» ﴿أقول﴾ ينبغي للمصلي أن يدفع عن نفسه كل ما يلهيه عن الصلاة لحسن هيئته أولعجب النفس به تكميلاً لما قصد له الصلاة وكان اليهود يكرهون الصلاة في نعالهم وخفافهم لما فيه من ترك التعظيم فإن الناس

(١) هو بكسر القاف الستر الرقيق وكانت ضربته مثل حجلة العروس، وقيل: كان مزينا، منفشاً، وقوله: وفي فروج هو بفتح الفاء وتشديد الراء القباء الذي شق من خلفه، وكان أهدي له ﷺ فلبسه وصلى فيه ثم نزع نزعاً شديداً كالكاره له وقال: «لا ينبغي» اهـ

يخلعون النعال بحضرة الكبراء ، وهو قوله تعالى : (فاخضع نعليك إنك بالواد المقدس طوى) وكان هنا وجه آخر وهو أن الخف والنعل تمام زى الرجل فترك النبي ﷺ القياس الاول وأبد الثاني مخالفة لليهود ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم : « خالفوا اليهود فانهم لا يصلون في نعالهم وخفافهم ، فالصحيح أن الصلاة متنعلا وحافيا سواء ، ونهى النبي صلى الله عليه وسلم عن السدل في الصلاة ، فقليل : هو أن يلتحف بثوبه ويدخل يديه فيه وسيجيء أن اشتمال الصماء (١) أقبح لبسة لانه مخالف لما هو أصل طبيعة الانسان وعادته من إبقاء اليدين مسترسلتين ولانه على شرف انكشاف العورة فانه كثيراً ما يحتاج إلى اخراج اليدين للبطش فتتكشف ، وقيل : إرسال الثوب من غير أن يضم جانبيه وهو إخلال بالتجمل وتمام الهيئة وإنما نعى بتمام الهيئة ما يحكم العرف والعادة أنه غير فاد ما ينبغي أن يكون له وأوضاع لباسهم مختلفة ولكن في كل لبسة تمام هيئة يعرف بالسير وقد بنى النبي ﷺ الأمر على عرف العرب يومئذ .

﴿ تم بعون الله وحسن توفيقه طبع الجزء الاول ، ويليه الجزء الثاني أوله ﴿ القبلة ﴾ ﴾

(١) هو أن يجال نفسه بثوب ولا يرفع شيئاً من جوانبه ولا يمكنه إخراج يديه إلا من أسفله ، وقوله : الصماء أى الصخرة الصماء التي ليس فيها خرق ولا صدع ، وعند الفقهاء اشتمال الصماء أن يغطي بثوب واحد ليس عليه غيره فيرفعه من أحد جانبيه فيضعه على منكبيه فتتكشف عورته اهـ

فَهْرِسْتِيفْت

(الجزء الأول من كتاب حجة الله البالغة)

صحيفة	صحيفة
٣٦ باب ذكر شيء من أسرار الوقائع الحشرية	٢ خطبة الكتاب
٣٨ (المبحث الثالث . مبحث الارتفاقات)	٤ مقدمة
٣٨ باب كيفية استنباط الارتفاقات	١١ القسم الأول في القواعد الكلية التي تستنبط
٣٩ باب الارتفاق الأول	منها المصالح المرعية في الأحكام الشرعية
٤٠ « فن آداب المعاش »	١١ (المبحث الأول في أسباب التكليف والمجازاة)
٤١ « تدبير المنزل »	١١ باب الإبداع والخلق والتدبير
٤٣ « فن المعاملات »	١٣ باب ذكر عالم المثال
٤٤ « سياسة المدينة »	١٥ باب ذكر الملا الأعلى
٤٥ « سيرة الملوك »	١٧ باب ذكر سنة الله التي أشير إليها في قوله
٤٦ « سياسة الأعوان »	تعالى : (ولن تجد لسنة الله تبديلا)
٤٧ « الارتفاق الرابع »	١٨ باب حقيقة الروح
٤٨ « اتفاق الناس على أصول الارتفاقات »	١٩ باب سر التكليف
٤٩ « الرسوم السائرة في الناس »	٢٠ باب انشقاق التكليف من التقدير
٥٠ (المبحث الرابع . مبحث السعادة)	٢٤ باب اقتضاء التكليف المجازاة
٥٠ باب حقيقة السعادة	٢٦ باب اختلاف الناس في جبلتهم المستوجبة
٥١ « اختلاف الناس في السعادة »	لاختلاف أخلاقهم وأعمالهم ومراتب عالمهم
٥٢ « توزع الناس في كيفية تحصيل هذه السعادة »	٢٧ باب في أسباب الخواطر الباعثة على الأعمال
٥٣ « الأصول التي يرجع إليها تحصيل الطريقة الثانية »	٢٨ « باب لصوق الأعمال بالنفس وإحصائها عليها »
٥٥ « طريق اكتساب هذه الحاصل وتكميل ناقصها وردقاتها »	٢٩ « ارتباط الأعمال بالهيئات النفسانية »
٥٦ « الحجب المانعة عن ظهور القطرة »	٣٠ « أسباب المجازاة »
٥٧ « طريق رفع هذه الحجب »	٣١ (المبحث الثاني . مبحث كيفية المجازاة
٥٨ (المبحث الخامس : مبحث البر والاثم)	في الحياة وبعد الممات)
٥٨ مقدمة في بيان حقيقة البر والاثم	٣١ باب الجزاء على الأعمال في الدنيا
	٣٣ « ذكر حقيقة الموت »
	٣٤ « اختلاف أحوال الناس في البرزخ »

صحيفه

صحيفه

- ١٠٢ باب اسرار القضاء والرخصة
- ١٠٤ باب إقامة الارتفاقات واصلاح الرسوم
- ١٠٧ باب الاحكام التي يجر بعضها لبعض
- ١٠٩ « ضبط المههم وتميز المشكل والتخريج من الكلية ونحو ذلك
- ١١١ باب التيسير
- ١١٣ باب اسرار الترغيب والترهيب
- ١١٥ باب طبقات الامة باعتبار الخروج الى الكمال المطلوب او ضده
- ١١٧ باب الحاجة الى دين ينسخ الاديان
- ١١٩ باب احكام الدين من التحريف
- ١٢٢ باب اسباب اختلاف دين نبينا صلى الله عليه وسلم ودين اليهودية والنصرانية
- ١٢٣ باب اسباب النسخ
- ١٢٤ باب بيان ما كان عليه حال أهل الجاهلية فأصلحه النبي صلى الله عليه وسلم
- ١٢٨ ﴿ المبحث السابع. مبحث استنباط الشرائع من حديث النبي صلى الله عليه وسلم ﴾
- ١٢٨ باب بيان اقسام علوم النبي صلى الله عليه وسلم
- ١٢٩ بيان الفرق بين المصالح والشرائع
- ١٣١ باب كيفية تلقي الامة الشرع من النبي صلى الله عليه وسلم
- ١٣٢ باب طبقات (١) كتب الحديث
- ١٣٥ باب كيفية فهم المراد من الكلام
- ١٣٦ باب كيفية فهم المعاني الشرعية من الكتاب والسنة
- ١٣٨ باب القضاء في الاحاديث المختلفة
- ١٤٠ ﴿ تنمة ﴾
- ١٤٠ باب اسباب اختلاف الصحابة والتابعين في الفروع
- ١٤٤ باب أسباب اختلاف مذاهب الفقهاء
- ١٤٧ باب الفرق بين أهل الحديث وأصحاب الرأي
- ١٥٢ باب حكاية حال الناس قبل المائة الرابعة وبعدها

(١) وقع في الأصل (طبقة) سهواً

- ٥١ باب التوحيد
- ٦٠ « في بيان حقيقة الشرك
- ٦١ « أقسام الشرك
- ٦٣ « الايمان بصفات الله تعالى
- ٦٥ « الايمان بالقدر
- ٦٧ « الايمان بأن العبادة حق لله تعالى على عباده لأنه منعم عليهم مجاز لهم بالارادة
- ٦٩ باب تعظيم شعائر الله تعالى
- ٧٠ « أسرار الوضوء والغسل
- ٧٢ « أسرار الصلاة
- ٧٣ « أسرار الزكاة
- ٧٤ « أسرار الصوم
- ٧٥ « أسرار الحج
- ٧٦ « أسرار أنواع من البر
- ٧٧ باب طبقات الاثم
- ٧٨ باب مفسد الآثام
- ٧٩ « في المعاصي التي هي فيما بينه وبين نفسه
- ٨٠ « الآثام التي هي فيما بينه وبين الناس
- ٨٢ ﴿ المبحث السادس . مبحث السياسات المالية ﴾
- ٨٢ باب الحاجة الى هداة السبل ومقیمی المال
- ٨٤ باب حقيقة النبوة وخواصها
- ٨٦ « بيان أن أصل الدين واحد والشرائع والمناهج مختلفة
- ٨٨ باب أسباب نزول الشرائع الخاصة بعصر دون عصر وقوم دون قوم
- ٩١ باب اسباب المؤاخذة على المناهج
- ٩٣ باب اسرار الحكم والعلة
- ٩٥ باب المصالح المقتضية لتعيين الفرائض والاركان والآداب ونحو ذلك
- ٩٧ باب اسرار الاوقات
- ١٠٠ باب اسرار الاعداد والمقادير

صحيحة	صحيحة
١٧٩ ما يباح للجنب والمحدث وما لا يباح لهما	١٥٤ فصل في عدة أمور مشككة من التقليد واختلاف المذاهب وغيرهما
١٨٠ التيمم	١٦٢ (القسم الثاني في بيان أسرار ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم تفصيلاً)
١٨١ آداب الخلاء	١٦٢ من أبواب الإيمان
١٨٢ خصال الفطرة وما يتصل بها	١٦٩ من أبواب الاعتصام بالكتاب والسنة
١٨٣ أحكام المياه	١٧٣ من أبواب الطهارة
١٨٥ تطهير النجاسات	١٧٤ فضل الوضوء (١)
١٨٦ من أبواب الصلاة	١٧٤ صفة الوضوء
١٨٧ فضل الصلاة	١٧٦ موجبات الوضوء
١٨٧ أوقات الصلاة	١٧٧ المسح على الخفين
١٩٠ الأذان	١٧٨ صفة الغسل
١٩٢ المساجد	١٧٨ موجبات الغسل
١٩٤ ثياب المصلي	(١) وقع في الأصل فصل في الوضوء، سهواً

وفي غير طاعات الله واحياء سنة نبيه ﷺ فان قوام العالم باحياه قوانين دينهم وسلوك نهج طيباته وإبراز مفروضاته وسننه ومستحباته ففى ذلك سمعادتهم دنيا وأخرى ووضع الشىء فى محله المشروع له، وماتأخرت الامم وانتشر الفساد فيها الا ببذتعالم الرسل والانبياء وطرح ماأتوا به من الحاسن والمشروعات والاخذ بما تسوله لهم انفسهم من السوء والفحشاء والانقياد لما تزيه لهم شياطينهم من المعتقدات الباطلة والاعمال الفاسدة فارجو الله تعالى أن يوفق الامم أجمع الى الاخذبدين الاسلام دين العز والقوة والرحمة والرافة والسلام والامان والسهل الممكن لكل إنسان .

ولما كان الانسان بطبعه ميالا الى حب المال شرهاطمعآلا يشبع وليس له حد ينتهى اليه الا ما كان من مادته والجزء الاكبر فيه قال الله تعالى فى الحديث : لو كان لابن آدم واد - أى من ذهب أو فضة - لأحب أن يكون له ثان ولو كان له واديان لأحب « الخ ولا يملأ جوفه الا التراب لانه منه خلق واليه يعود ، والله اعلم »

٤٣ «إِنَّكَ إِنْ ذَهَبْتَ تَدْعُو عَلَى آخِرٍ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ ظَلَمَكَ وَإِنْ

آخِرٌ يَدْعُو عَلَيْكَ إِنَّكَ ظَلَمْتَهُ فَإِنْ شِئْتَ اسْتَجِبْنَا لَكَ وَعَلَيْكَ وَإِنْ شِئْتَ آخِرُ تَكَّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَأَوْسِعْ كَأَعْفَوِي » رواه الحاكم عن انس .

ش فيه أن الله سبحانه وتعالى حلیم ورؤف بعباده يحب تأخير الجزاء الى الآخرة لا يجازى عبده عقب ارتكابه الجرم ليشمله عفو وجل وعز يوم القيامة ويأيب صاحب الحق بحسب مظلمته وتعدي الغير عليه ، وفيه ايضا ان الله تبارك يستجيب للظالم ويحبس شكايته عنده ذخرا له فى وقت يكون أخرج شىء اليه ، سبحانه يارب ما احلك بعبادك وارأفك بهم .

٤١ «إِنَّ لِعَبْدِي عَلَى عَهْدِ إِنْ أَقَامَ الصَّلَاةَ لَوْ قَتَلَهَا أَنْ لَا أَعَذِبَهُ

وَأَنْ أَدْخِلَهُ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ» رواه الحاكم عن عائشة *

ش العهد الموثق وتقديم تفسيره ص ٣٠ ، واقامة الصلاة لوقتها المحافظة عليها فى أوقاتها المشروعة ، وأل فى الصلاة للعهد وهى الصلاة الكاملة المستوية ثلاثا وكان الشروط والسنن والمستحبات ولاشك أن من أتى بها كذلك يكون عبدا مؤمنا حقا فيجتنب المنهيات ويفعل المأمورات ويشغل نفسه فى طاعات ربه لان الله تعالى يقول فى كتابه المنزل على لسان رسوله المكرم (ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) ومن كان هذا حاله فانه حقيق أن لا يعذب بعذاب الله وإن يدخل الجنة بغير حساب والله أعلم ، وهنا عز المصنف الحديث الى الحاكم وظاهره الى كتابه المستدرك وليس كذلك بل ذكره فى تاريخه ، كما بينه المدنى فى كتابه .

٤٢ «إِنَّا أَنْزَلْنَا الْمَالَ لِأَقَامِ الصَّلَاةَ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةَ وَلَوْ كَانَ لابن آدم

وَادٍ لَأَحَبَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ ثَانٌ وَلَوْ كَانَ لَهُ وَادِيَانِ لَأَحَبَّ أَنْ يَكُونَ لَهُمَا ثَالِثٌ وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ» رواه أحمد والطبرانى فى الكبير عن أبى واقد الليثي *

ش يعنى أن الله سبحانه وتعالى أنزل المال وأوجده وجعله بين يدي خلقه ليقيموا به شعائر الدين ويظهروا معالم الشرع من صلاة وزكاة وغيرهما الا أنهم يضيعون ما رزقهم الله من المال فى غير موضعه ويصرفونه فى الملاهى والملاذات

توزج من رسالة شرح حديث « إنما الأعمال بالنيات » للإمام تقي الدين بن تيمية الدهمشي

5

النبى ﷺ انه نهى عن بيع الولاء وهبته اخرجاه تفرد به عبد الله بن دينار عن ابن عمر، ومثل حديث أنس وان النبى ﷺ دخل مكة وعلى رأسه المغفر (١) فقيل: ان ابن خطا متعلق باستار الكعبة فقال اقتلوهم اخرجاه تفرد به الزهرى عن أنس، وقيل: تفرد به مالك عن الزهرى فالحديث الغريب ما تفرد به واحد وقد يكون غريب المثنى او غريب الاسناد مثل ان يكون مته صحيجا من طريق معروف وروى من طريق آخر غريبة وممن الغرائب ما هو صحيح وغالبها غير صحيح كما قال احمد: اتقوا هذه الغرائب فان عامتها عن الكذابين ولهذا يقول الترمذى فى بعض الأحاديث: انه غريب من هذا الوجه والترمذى اول من قسم الأحاديث الى صحيح وحسن وغريب وضعيف لم يعرف قبله عن احمد لكن كانوا يقسمون الأحاديث الى صحيح وضعيف كما يقسمون الرجال الى ضعيف وغير ضعيف [والضعيف] عندهم نوعان ضعيف لا يحتج به وهو الضعيف فى اصطلاح الترمذى والثانى ضعيف يحتج به وهو الحسن فى اصطلاح الترمذى كما ان ضعف الموضع عند الفقهاء نوعان، نوع يجعل تبرعات صاحبه من الثلث كما اذا صار صاحب فراش، ونوع يكون تبرعات صاحبه من رأس المال كالمرض اليسير الذى لا يقطع صاحبه ولهذا يوجب جد فى كلام احمد وغيره من الفقهاء انهم يحتجون بالحدیث الضعيف كحديث عمرو بن شعيب. وابراهيم الطبرى وغيرهما فان ذلك الذى سماه اولئك ضعيفا هو ارفع من كثير من الناس صحيجا والترمذى قد فسر مراده بالحسن انه ما تعددت طرقه ولم يكن فيها متهم ولم يكن شاذ

(١) هو ما يلبسه الدارع على رأسه من الزرد ونحوه وهو من الآلات



6

«عن يحيى بن سعيد الانصارى عن محمد بن ابراهيم التميمى عن علقمة بن وقاص الليلى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله من كانت هجرته الى دنيا يصيها او امرأة، يترجها فهجرته الى ما هاجر اليه» *

هذا حديث صحيح متفق على صحته تلقته الامة بالقبول والتصدق مع انه من غرائب الصحيح فانه وان كان قد روى عن النبى ﷺ من طرق متعددة كما جمعها ابن منده وغيره من الحفاظ فاهل الحديث متفقون على انه لا يصح فيها الا من طريق عمر رضى الله عنه هذه المذكرة ولم يرو عنه الا علقمة ابن وقاص الليلى ولا عن علقمة الا محمد بن ابراهيم ولا عن محمد الا يحيى ابن سعيد الانصارى قاضى المدينة، ورواه عن يحيى بن سعيد ائمة الاسلام يقال انه رواه عنه نحو من مائتى عالم مثل مالك والثورى وابن عيينة وحماد وحماد (١) وعبد الوهاب الثقفى. وانى خالد الاحمر وزائدة ويحيى بن سعيد القطان ويزيد بن هارون وغير هؤلاء مخلق من اهل مكة والمدينة والكوفة والشام وغيرها من شيوخ الشافعى واحمد واسحاق وطبقاتهم ويحيى بن معين وعلى بن المدينى وانى عبيد

ولهذا الحديث نظائر من غرائب الصحاح مثل حديث ابن عمر عن



**ALLAMA
IQBAL LIBRARY**

UNIVERSITY OF KASHMIR

**HELP TO KEEP THIS BOOK
FRESH AND CLEAN**